الجواهر الروحية

تأليف

حسين السيد علي القبانجي

النجفي

الجزء الاول

مطبعة النجف

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد

وآله الاطهار



الإهداء

الى آية الله السيد محمد جواد التبريزي

روحي فداك أيها الحجة ، أرفع لقدسيتك الميمونة غذاء روحك وما ارتشفته من بحر علمك الذي لا يدرك غوره ولا يدرى منتهاه فهو منك واليك :

اهدي لمجلسك الشريف وإنما اهدي له ما حزت من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وماله من عليه لانه من مائه

كلمة المؤلف

الجواهر الروحية

مجموعة من المباحث أتت على هذه الصورة ، لا أدعي اني ابتكرتها أو جئت بكل جديد فيها ، ولكني أحسب اني عانيت فيها اجتهاداً خاصاً ، اجتهاداً في فهم المنقول ، اجتهاداً في إدراك المعقول على ضوء ما آتاني الله تعالى من علم وهو ضئيل بلا جدال ، ولكنه على اية حال جهد العقل مؤيداً بايمان المسلم . إذاً فالكتاب اجتهاد وايمان . وحسبي هذا وغفر الله لي إن أخطأت أو زللت ؟

المؤلف

المقدمة

بقلم سماحة الحجة السيد محمد جواد التبريزي دام ظله

بسم الله الرحمن الرحيم

« أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع امن لا يهدّي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون (١) »

اداء الواجب حتم على كل فرد لا مردّ له ولا مفلت منه ، فكما أن الناس مختلفون فمنهم غني وفقير ، ومنهم المكفي المترف الذي لا يعمل ومنهم من يعمل عملا عقلياً فكرياً بحتاً ، ومنهم ذوي المهنة العامل بيديه .

فكذلك الواجب مختلف على اختلاف طبقات الناس وانواع هذه الطبقات . فالواجب عند المثري غيره عند ذوي المتربة ، وهو عند النبيه الصيت غيره عند الخامل المغمور ، وإن واجب الخطيب البارع غير واجب الحكيم وهما غير واجب الطبيب ، وواجب الطبيب الروحي غير واجب الطبيب البدني ، وواجب طبيب بدن الانسان غير واجب طبيب البيطرة وبدن الحيوان . كذلك واجب الزارع غير واجبات اولئك جميعاً .

لكن قيمة الواجب من حيث هو واحدة فمن أدى واجبه المفروض على مثله فقد بلغ الغاية المنشودة من كل فرد واستحق اطيب الثناء فلا يكون ممن يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

وانبل صورة لاداء الواجب هي صورة من يؤديه طواعية وحسبة غير

---

(١) سورة يونس الآية ٥٣ .

مسوق ولا مكره ، دعاه الى تأدية واجبه داع نفسي جعله يعمل فكره فيما يأخذ ويدع فانبعث راشداً يلتمس السبيل الى تأدية الواجب كاملا غير منقوص .

أما من كان يتكاره على الواجب محفوزاً برغبة مغرية او رهبة مردية فهو لم يؤد واجبه وإن أدى ؛ بل الرغبة أو الرهبة أو كلاهما معاً هما اللذان ساقاه الى ما فعل وليس ذلك اداء للواجب على اكمل وجوه الاداء ، واذا كان لكل شيء آفة فآفة المجتمع تقصير افراده أو جماعاته في الواجبات ، وان المجتمع دولاب دائر لا حصر لادواته ولا منتهى لاشيائه ولن يدور الدولاب دورته الموفقة حتى تعمل ادواته واشياؤه عملها فاذا تعطل منها شيء ثم ازداد التعطل يوماً بعد يوم ، لم يلبث أن ينتقل التعطيل الى كثير من ادوات الدولاب واشيائه فاذا دورته خائرة . ثم اذن بعد ذلك متعطل لا غناء فيه .

وإن ادوات المجتمع واشياءه هي واجبات افراده المختلفة باختلاف احوالهم واسباب معائشهم فاذا سرت في الافراد عدوى النكول عن اداء الواجب فقد سرت في المجتمع سارية الفساد وآذنت شمس حياته بمغيب لا عود معه .

وبأخصر عبارة ، مسالك الافراد فى الامة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الامة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية وانهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه .

ومن البديهي إنه كلما انتشرت الامراض اشتدت الحاجة الى علم الطب لمقاومتها وانقاذ الناس من فتكها ، وكذلك كلما انتشرت المفاسد ازدادت الحاجة الى علم الاخلاق ومضاعفة العناية بتهذيب النفوس وصقلها فهو طبها وواصف ادوائها ، ولئن كان الانسان في حاجة الى العلوم فهو الى الاخلاق احوج ، لان ما يصيبه من الظلم وما يفشو بين افراده من الاجرام منشأه نقص الاخلاق اكثر من أن يكون منشأه نقص العلم ، فان العلم يخدم الفضيلة والرذيلة على حد سواء .

أما علم الاخلاق ومعرفة تهذيب النفس فتطهير الفضيلة وخصيم الرذيلة ، والفضيلة لا تكون إلا بالقيام الفعلي بالواجب ولا يكون المرء فاضلا لمجرد انه يعلم ما يجب عمله ، بل الفضل في أن يعمل ما يجب عمله ويترك ما يجب تركه .

وممن قام باداء واجبه وبلاغ رسالته هو صاحب هذه الموسوعة الثمينة ـ التي لا غنى لاحد عنها ـ سيارة الخطيب البارع والمفوه اللسن والمرشد المصلح والمبلغ الفذ علامة الخطباء وخطيب العلماء قرة عيني السيد حسن آل القبانجي .

فانه أدام الله تعالى تأييده وتوفيقه لم يأل جهداً منذ نشأ وترعرع في اداء رسالته فى مدن العراق وخارجها عند صعوده الاعواد واستقراره في مراكز الخطابة والكلام ، فان هدفه اولاً وبالذات توجيه الجمعيات البشرية الى اقتناء الفضائل وتمحيص النفوس من الرذائل المردية لكي تسعد الامة بالاتحاد وتصون به كيانها من الفساد وتقي أكوانها من الهلاك والاستيصال .

وإن احببت أن يكون الخبر عندك خُبراً فعليك بهذه الموسوعة التي اسماها (والاسماء تنزل من السماء) « الجواهر الروحية » فانه لا أثر بعد عين وليس الخبر كالعيان أجل نظرك في صفحاتها المملوءة بالحكم ، وخض في حياضها المترعة لكي تروي ظمأك من عذب تعاليمه ولذيذ ارشاداته ، فكما لا غنى لك عن المواد الغذائية لجسمك وبدنك كذلك لا تستغني عنها في تغذية نفسك وروحك . ولمثله فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون .

محمد جواد الطباطبائي التبريزي

القرآن منهاج السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربي اشرح لي صدري ويسرلي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي »(١) .

حقيق علي أن ابدي العجز والقصور عن أداء شكر الخالق جل شأنه واظهار حمده بلساني اليراعة على صفحات هذا السفر طالباً منه تعالى أن يصلي ويسلم على أعظم حكيم هذا العالم واكبر مصلح هذا البشر اعني به خاتم الانبياء والمرسلين محمد (ص) واوصيائه البررة عليهم السلام عند شروعي بالمقصود ، ثم اقف على قمة شامخ المدنية الاسلامية الفاضلة رافعاً هذه التحارير والتقريرات التي هي النطق الطيار والخطاب السيار ، لأقابل بها ابناء القرآن المجيد وكافة أفراد المسلمين وجميع احزاب محمد (ص) ، ولاعرضها على جل الاصناف والطبقات من صغير وكبير وذكر وانثى وما الى ذلك من النوع البشري المدرك قائلا .

لا كتاب في هذا العصر - بل في كل العصور - يكون متكفلا باصلاح البشر واسعاده في النشأتين إلا القرآن فقط ، بل القرآن وحده هو الكفيل ونعم الكفيل ، فهو هو الجدير بالتقديس والتبجيل لا غير ، وهو هو الذي يجب اتباعه والعمل به فقط ، لانه اصل الاصول ومادة مواد كل قانون جاءت به عقلاء العالم ومفكروهم ، وكل دستور اسس لاصلاح كافة الانظمة التي رسمها المصلحون

(١) طه الآية ٢٥ ـ ٢٨

لاراحة افراد البشر ومجموعتهم في هذه الارض وجرت عليها في احكامهم وحكوماتهم ، ولا عجب فاي كتاب اخلاقي لم يكن القرآن قد ذكر خلاصته وجوهره ، ام اي قانون قضائي او حقوقي لم يتعرض هذا الكتاب السماوي للبه ولبابه ، ام اي قاعدة من القواعد الطبية او الصحية لم يحو كتابنا الحكيم اصولها ونواميسها في كلماته البليغة ام اي منهج سياسي لم يشر هذا الفرقان العظيم الى نخبته وخلاصته ، ام اي فلسفة علمية او عملية لم تجمع فيه كل غاياتها ولم تذكر منها ما لا تدركه عقول البشر بل تفوق كل غاية منها ونهاية .

أجل واي فيلسوف لم يكن عيالا عليه في آرائه وافكاره واي اخلاقي لم يكن مجتنياً تعاليمه من رياضه .

فلو نظرت الى علماء هذا العصر لوجدتهم خاضعين الى هذا السفر الجليل مستمدين منه ما لا تصل اليه افكارهم السامية ولم تدركه أدمغتهم الجبارة ، ألا ترى الى (ديفونبورت) وهو يقول في كتابه (اعتذاراً الى محمد والاسلام) : (يجب أن تعترف اوربا أن العلوم التي انعشتها في القرن العاشر من فلك وفلسفة وعلوم طبيعية ورياضية كلها مقتبسة من القرآن) ، وهذا (كارليل) الانكليزي الكاتب الشهير يكتب في كتابه (الأبطال) الباحث عن رجال العالم وعظمائه عندما يصل الى ذكر محمد (ص) : (اما القرآن فانه ما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيما ، وهو مصدر أحكام القضاء والدرس ، الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة) ، ثم يقول فيه صفحة ١٤٢ ايضاً : (والاخلاص المحض الصراح يظهر لي ان فضيلة القرآن التي حببته الى العربي المتوحش هي أول فضائل الكتاب وآخرها أياً كان وهي منشأ فضائل غيرها بل لا شيء غيرها) ، ثم يعود ثالثاً في كتابه فيقول :

(إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (ص) فهو جدير أن يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه) .

فيا ايها الانسان تدبر تجد أن الحياة الابدية والعيش السرمدي والسعادة الدنيوية والفيوضات الاخروية كلها لم تكن ولم تحصل الا باتباع القرآن وتدبر آياته والوصول الى حقائقه وحكمه « أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » (١) .

فاليكم يا فلاسفة هذا العالم وحكماء هذه الكرة الارضية انصح قائلا أن لا حكمة نظرية ولا فلسفة عملية إلا وهي فى هذا القرآن العظيم .

وانتم أيها المرضى والمصابون بانواع الاسقام المزمنة والعاهات المعضلة انكم لم تجدوا ولن تجدوا دواءكم بغير هذه الصيدلية الاسلامية الشافية ، « قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمىً » (٢)

وهنا يقول معاذ بن جبل سائلا رسول الله (ص) وقد كان في سفر بخدمته يا رسول الله حدثنا عما لنا فيه نفع ، فقال (ص) : إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن .

معاملة السلف للقرآن

بديهي ان القرآن روح الامة وحياتها ونحن المسلمون اذا ما اعرضنا عن القرآن فقد اصبحنا قالباً بلا روح وامواتاً بصورة احياء .

(١) محمد الآية ٢٤ .
(٢) فصلت الآية ٤٤ .

وقد كان هذا القرآن الحكيم لسلفنا من المسلمين دليلهم الهادي ودستورهم الشخصي ومرشدهم العام في كافة امورهم يتأدبون بآدابه ويرشدون بتعاليمه قد اتخذوا اتباعه فرضاً يحيون بري آياته صوادي قلوبهم ويوقظون باوعاده ومرغباته عواطفهم واحساسهم ، وبذلك تراهم قد بلغوا الشرف الباذخ ونالوا السعادة في الدارين حتى دوخوا العالم وملكوا الرقاب طوعا وكرهاً .

ولقد كان هذا الفرقان العظيم روح الامة الاجتماعية وحافظها الرئيسي تحت ظل قوله تعالى : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم أن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون » (١) كما كان حياة قلب الفرد ومنبع شعوره واحساسه ، ولا أدلّ على تمسكهم بهذه الآية من وقوفهم تلك الوقفة المحيرة للعقول بلا أي آلة حرب يدرعون بها قبالة تلك السيوف الهندية والرماح الخطية كالليوث الضوارى والسباع الجائعة الى أن فتحوا تلك الفتوحات الجبارة ودوخوا تلك الممالك العظيمة الواسعة ، وحتى نالوا في طي ربع قرن لا اكثر ما جعلهم يطأون باخمصهم هام الرقي والعزة بعد تلك الذلة والانحطاط ويملكون نواصي القياصرة والأكاسرة فتخضع لهم بالعبودية والصغار رضيت ام أبت .

قال المؤرخ (جرجي زيدان) في كتابه (التمدن الاسلامى) : (لا غرو إذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لان عليه يتوقف دينهم ودنياهم ، واساس الاسلام وقوامه القرآن ، ففي تأييده تأييد الاسلام ، ولما دانوا بالاسلام اصبحت همتهم تلاوته وتفهم احكامه لانه قاعدة الدين والدنيا) . هكذا كان السلف مع القرآن وبهذا كان يعامله ، ولكن هلم ولننظر الى انفسنا نحن اهل هذا الجيل مع القرآن ومعاملتنا إياه أترانا اتبعنا السلف في اعمالهم وعاملناه كما عاملوه به ؟ كلا ليس الخلف كالسلف ، بل الجدير بنا أن يقال لنا : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

---

(١) النساء الآية ١٠٤ .

واتبعوا الشهوات » (١) ولو (قلت): قد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته لما عدوت الصواب ولم أتجاوز الحقيقة . كيف لا ونحن بدلا من أن نتعمق في القرآن وآياته ونحلله تحليـــلا كيماوياً دقيقاً وندرسه درساً صحيحاً ونتأمل مزاياه وخصوصياته ونعرف كناياته واشاراته ونميل مع مرعياته العامية والعملية . (أقول) بدلا من كل ذلك فقد أصبح ويا للاسف عندنا منبوذاً في جملة كناسة المسجد أو الجامع ، أو محمولا على الاعضاء لمعوذة يتعوذ به دون العمل بما فيه ، أو أن يعلق على قمة طاق القصر تيمناً وتفاؤلا أو أن يوضع على صناديق المقابر وصخورها شهوراً وسنيناً فلا يقرأ به حتى يكتسي جلداً ثانياً من الغبار والتراب .

فلا غرو اذاً لو ابتلينا بما ابتلينا به من البلايا والمحن والذل والصغار وكنا اذل الامم واشقاها إذ لم نتبع احكامه ولم نع تعاليمــه ، ولا معنى اذاً لتذمرنا وتضجرنا من سلطة الغرب علينا وتعدي الغربيين والاروبيين علينا ، فان كل ما منينا به هو من ايدينا وشقاء انفسنا نحن لانا هجرنا القرآن وجعلناه وراءنا ظهريا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم (٢) »

لماذا يشتكي الغـير　　فتى يجني على نفسه
كلص قـد جفا الحار　　س مذ جاء الى رمسه

أجل ويجب أن نكون كذلك لان مواد الكائنات اجمع من اي نوع كانت اذا ما تحولت عن مركزها ومحورها الحقيقي انقلبت بلا شك الى حالة اخرى غير ملائمة ، أما الى افراط وإما الى تفريط . وبديهي أن السعادة لا تنال إلا بالمشقة ، والمعالي لا يرتقى اليها إلا بالسعي والعمل « وان ليس للانسان إلا ما سعى(٣) » .

وإن هذه اليتيمة السماوية الغالية لم نعرف قيمتها لنحتفظ بها ، ولم نتبع

---

(١) مريم الآية ٥٩ .　(٢) الرعد الآية ١١ .
(٣) النجم الآية ٣٩ .

تعاليمها الحكيمة لنفوز بما وعدنا الله تعالى به فى هذه الآية الشريفة البليغة اذ يقول : « وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا (١) » ويقول ايضاً : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض (٢) » ونروي قلوبنا من نميرها ونحوز على بركاتها العلوية والسفلية وخيراتها الروحية والمادية كما حصل لاعضاء المحفل المصري اثر الخطبة التي خطبها فيهم رئيسهم العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغاني صاحب كتاب (رد الطبيعيين) والعروة الوثقى، حيث اخذوا يعملون باوامر القرآن ونواهيه ، ويتخذونه رائداً فى اعمالهم واقوالهم طيلة شهور عديدة لا يتخلفون عن العمل بما فيه ، ولا يحيدون عن تعاليمه وارشاداته حتى رأوا بأم اعينهم مصداق الآية الشريفة ، وحتى اعتقدوا بصدق مغزاها وحقيقة أثرها الجليل في انفسهم بعد العمل بالقرآن واتباع ارشاداته الحقة .

وهل بعد رأي العين شك لناقد وهل بعد نور الشمس يطلب شاهد

---

(١) الجن الآية ١٦ . (٢) الاعراف الآية ٩٦ .

محفل مصر

وخطبة جمال الدين الافغاني

هو المحفل الوطني الذي شكله العلامة السيد جمال الدين الهمداني الشهير بالافغاني في مصر يوم كان هناك ، فكان له ذلك الأثر العظيم الذي رن صداه في آفاق الاسلام وسمع بتبجيله الخاص والعام .

هذا هو المحفل الذي لو تصفحت حياة رئيسه العلامة الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لعرفت ماله من المكانة السامية والذكر الجميل والتقديس على صفحات المجلات وطي الصحف ، ولبانت لك قليل من كثير من منافعه وآثاره الجليلة في العالم الاسلامي ، وبالجملة فهو محفل عجيب في وضعه عجيب في نظامه عجيب في اعضائه ، محفل لا يشبه سائر المحافل ، محفل لا يدخله سباب ولا فحاش ولا لص ولا متقلب ، محفل لا تطأه أقدام انسان مفطور على بذر رذائل الصفات وخسائس الخلال كحب الشهرة والتخلق بالاخلاق الغير الاسلامية والكذب وما الى ذلك ، محفل اشترط على اعضائه أن تكون مرآت ذهنهم وصفحة مخيلتهم صافية غير ملوثة بدرن الاخلاق الفاسدة والملكات الخبيثة لاسيما الانانية وحب الذات ، وان يكون حاضراً بماله ونفسه وروحه فداء للاسلام والمسلمين في كل مناسبة وحاجة وقد بلغ عددهم ٤٠ عضواً ، وعند ما كمل النصاب شرعوا في الكلام والبحث عما اجتمعوا لأجله ، وكان موضوع بحثهم معرفة فلسفة ترقي الاسلام ورفعته في بدء الدعوة ، والكشف عن سر انحطاطه في هذا العصر . وبديهي أن مثل هذا البحث

الدقيق لا يخوضه إلا من عركته التجارب ونظر الى الامور بعين البصيرة ونقدها نقد العارف الخبير . وهكذا كان اعضاء هذا المحفل الديني الوطني ، فانهم بعد طول البحث والتحقيق وبعد النقض والابرام والجرح والتعديل اجتمع رأيهم بعد أن اهتدوا الى السر الذي كانوا يفتشون عنه في بحثهم هذا على أن الدين الاسلامي الحنيف والكتاب العزيز الحكيم كانا ولم يزالا دعامة الرقي والعمران (١) ، ورائد الروح والجسم الى العزة والسمو والرفعة والسؤدد لهذا النوع البشري كافة ، وان اسلافنا في صدر الاسلام لم يبلغوا ذلك المقام الرفيع وتلك العزة السامية إلا بتمسكهم بمبادئ القرآن الجليلة علماً وعملا ، ولم نصل نحن الى هذه الذلة والانحطاط ألا برفضنا تعاليمه وارشاداته الحقة « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (٢) » .

إذاً فمن الجهل بفلسفة هذا الانحطاط الذي انتابنا نحن في هذا العصر أن نتذمر من اعتداء الغربيين وتسيطر الاوربيين علينا إذ السبب هو أننا نحن ووجود الاخلاط الفاسدة التي تبطنتنا منذ اعرضنا عن الكتاب العزيز ، وهو أمر طبيعي جار لدى كل امة في هذه البسيطة ، فما من امة تهيمن عليها الاجنبي إلا للنفاق الذي يحدث فيها ، وما من بناء يهدم إلا لتضعضع أسسه وانهيار دعائمه وما من شجرة تصبح طعمة للنار الا بعد تنخرها ووجود دودة تتولد منها فتفسدها وتجفف ثمرتها . وعلى هذا فماذا نستفيد من الجزع والهلع من الاجنبي وكل ما حدث فينا هومنا وعلينا ، بهذا وامثاله كانت مذاكرات تلك الهيئة واولئك الاعضاء حتى حصر لديهم الداء وعرف الدواء فكان العلاج هو العمل بنواميس الدين الاسلامي الحقيقي ، لان برء اجسام المسلمين المريضة ونشور ارواحهم

---

(١) جاء في المنجد العمران البنيان اسم لما يعمر به المكان وتحسن حاله من كثرة الاهالي ونجح الاعمال والتمدن .

(٢) الرعد الآية ١١ .

ليس إلا بالاقتداء بالسلف الصالح ، وان التمسك بالعروة الوثقى من تعاليم الاسلام والعمل بها هو الحبل المتين المنجي من هـــذا الذل والصغار والمخرج من هذا العار .

خطبة السيد الافغاني

وعندما كمل نصاب المحفل فى الجلسة الخامس عشرة قام السيد جمال الدين خطيباً وافتتح خطابه بقوله :

اللهم قلت وقولك الحق : « والذين جاهـــدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين (١) » ، اللهم اني ادعوك وهؤلاء النفوس الزكية تؤمن على دعائي بنيات صادقة خالصة لوجهك الـكريم أن ترشدنا الى سبيل الهداية والرشاد .

أيها السادة :

من البديهي المعلوم ان القرآن العزيز هو المدنية الانسانية الفاضلة والصراط المستقيم الى السعادة البشرية الـكاملة ، إن القرآن هو الدستور المقـــدس الذي تشرفت به كل الاديان الحقة في العالم ، إن القرآن هو البرهان الساطع على ان الدين الاسلامي الحنيف خاتمة كل الاديان السماوية الى يوم القيامة ، إن القرآن هو الضامن لسعادة الدارين وفوز النشأتين .

أو ليس من المؤسف أن يهجر مثل هذا الدستور المقـــدس الذي انارت قبسة من انواره المضيئة جميع انحاء هذا العالم عند ما عمل به ، ثم هبط الى هذا الدرك من الانحطاط والضعة عند ما هجر الـكتاب وغفل عن ارشاداته وتعاليمه الحـكيمة المصلحة .

«١» سورة العنكبوت الآية ٦٩

أو ليس من المؤسف أن نرى فوائده الجليلة ومنافعه العامة تنحصر فى طرحه مع كناسة المساجد ، او بتزيين طاق النصر معلا في المهرجانات والاعياد ، او باستعماله معوذة في البيوت والحوانيت ، أو بشده احرازاً على ايدي الرجال لقصد طلب قوة الاعضاء ، او في رؤس الاطفال ورقابهم للحفظ او يكون متجراً تتجر به الكتبيون والوراق واضرابهم .

أو ليس من المؤسف أن يعرض عن هذا القرآن الجليل وباصغر سورة منه وهي (العصر) التي لا تتجاوز الثلاث آيات كانت سبباً لنهضة أهل الصفة حيث نهضوا ببركة هذه السورة فجعلوا مكة بيت الاصنام ومنبع الشرك روضة من رياض الوحدانية وبيتاً من بيوت الله الرفيعة .

أو ليس من المؤسف أن يكون الكتاب السماوي كلام الله العزيز ومنبع السعادة الانسانية اقل عناية واهتماماً من ديوان سعدي وشعر حافظ ورباعيات مثنوي وقصائد ابن الفارض ، فكم تليت المنسوجات الشعرية فى الاندية والمحافل فارهفت لها الاسماع وانفتحت لها الافواه واستوحت منها العقول المواعظ السماوية والمعانى البديعة الارضية ، ولا كذلك القرآن الحكيم الذي أحكم كل شيء ، ثم هدى وأرشد لكل فضيلة ونهى عن كل رذيلة ، فسبحانك اللهم انت القائل وقولك الحق « نسوا الله فأنساهم انفسهم (١) » . بلى نسيناك يا رب فحرمتنا من انعكاس حقائق ذكرك المقدس على مرآت قلوبنا ، وسبحانك اللهم انت القائل وقولك الحق : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم (٢) » ، بلى لقد اعرضت نفوسنا عن طاعتك وتقديسك فابدلت سعادتنا بالشقاء وشرفنا بالذل والهوان .

أيها السادة عليكم بذكر الله الاعظم وبرهانه الأقوم ، فانه نوره المشرق

«١» سورة الحشر الآية ١٨ .

«٢» سورة الرعد الآية ١١ ،

الذي به يخرج من ظلمات الهواجس ، وبه يتخلص من عتمة الوساوس ، وهو مصباح النجاة من اهتدى به نجى ومن تخلف عنه هلك ، وهو صراط الله القويم من سلكه هدي ومن اهمله غوى . عليكم بالفوز بما انتشر من لئا لا مقالات صاحبه عليه الصلاة والسلام كقوله صلوات الله على قائله : (إذا أراد الله بقوم سوء قل منهم العمل وكثر فيهم الجدل) ، وقوله عليه السلام : (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مسلم ، اخلاص العمل لله ، والنصيحة لأ ئمة المسلمين ، واللزوم لجماعتهم) وقوله (ص) : (المسلمون اخوة تتكافا دماؤهم ، يسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم) ، واشباه هذه من الغرر الزاهرة التي تضمن كل واحدة منها سعادة الامم كلها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ولما انتهى الى هذا الموضع من الخطاب اغمي على ثلث المستمعين من اعضاء المحفل تأثراً بتلك الخطبة البليغة وارتج على الباقين فلم يتكلموا ، أما هو فجعل يبكى ويكرر قوله اي وحقك اللهم نسيناك فنسيتنا ، قالها مراراً حتى غشي عليه ، وبقي ذلك المحفل مدة ثلاث ساعات والسكوت مخيم عليه والهيبة الدينية مهيمنة على ارجائه والخشوع على اعضائه ، فعندها قام صهر خديو مصر (اتابك) بواجب الاسعافات اللازمة حسب ارشادات الدكاترة وبواسطة بعض المنعشات والمعطرات المنبهة حتى انتبهوا من تلك الجذبة الآلهية الى جنبة اصلاح الهيئة الاسلامية ، وعاد المحفل الى صورته الرسمية السابقة واسترجعوا قواهم للمذاكرة والبحث عن كيفية علاج الحالة التي اجتمعوا لاصلاحها ونقبوا عن دوائها ، واخيراً كان الرأي المجمع عليه والحكم المقرر للعلاج هو التزام كل فرد من المسلمين وفي مقدمتهم اعضاء المحفل باتباع اوامر القرآن ونواهيه من دون أي تخلف او انحراف عنها ، مقتدين باسلافهم في صدر الدعوة الاسلامية عاملين بها عن نية خالصة وسريرة صافية ، مبتعدين عن كل رذيلة نهى عنها القرآن العزيز كالحقد والبخل والحسد والطمع ، ملتزمين ببساطة العيش وترك المحرمات

والعمل بالواجبات وبكلها سعد به السلف الصالح وسار عليه من قول او عمل .

ولأجل ذلك فقد كان أول خطوة خطاها الأعضاء فى هذا السبيل وأول تضحية قدمتها للدين الاسلامي ولاصلاح المسلمين هي :

١ : ـ اذا باع كل فرد منهم ما كان لديه من التجملات الصورية والكماليات الظاهرية من الزينة والمأكل والملبس وما الى ذلك مما لا ضرورة فيه لحياة البساطة ان يأتي بثمنه الى صندوق المحفل ليجمع فيه لأجل تنفيذ غاياته السامية من الأخذ بساعد الضعيف وقضاء حوائج المحتاجين من المسلمين .

٢ : ـ أن يلتزم كل منهم بأكل أبسط المأكولات التي كان يأكلها قبلا ويسلم تفاوت ألوان الأطعمة وأنواع المأكولات اللذيذة الى صندوق المحفل لتلك الغاية أيضاً

٣ : ـ أن يجعلوا انفسهم مسؤلين أمام القرآن المجيد فكان عليهم أن يتلو كل فرد منهم في الـ (٢٤) ساعة على الأقل ربع جزء من القرآن بتفكر وتأمل وامعان فى معانيه ومراميه ، وأن يعمل بموجب المواد السبعة عشر الآتية :

(١) أداء الفرائض جماعة والنوافل مجتمعين ، (٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، (٣) الدعوة الى الدين الاسلامي الحنيف ، (٤) المجادلة مع دعاة النصرانية بالتي هى احسن ، (٥) العطف على الفقراء والاحسان اليهم ، (٦) اعانة المحتاجين وقضاء حوائجهم قدر الطاقة ، (٧) صلة الرحم ، (٨) عيادة المريض ، (٩) تفقد الغائبين ، (١٠) زيارة القادمين ، (١١) أداء حقوق الله من الأموال والأرباح ، (١٢) ارشاد الجاهل وتنبيه الغافل على الأمور الشرعية ، « ١٣ » تنزيه النفس وتقديسها من كل ملكة خبيثة لاسيما الأنانية وحب الذات والتكبر ، « ١٤ » العفو عن المذنبين خصوصاً مع القدرة ، « ١٥ » كظم الغيض « ١٦ » الاعراض عما لا يعني ، « ١٧ » أن يصحب كل عضو من الاعضاء دفتراً خاصاً على الدوام ليكتب فيه كلما يعمله من هذه المواد ويحرره بنفسه كما لو

احسن الى فقير أو هدى غريباً او زار قادماً او تفقد غائباً او أمر بمعروف او نهى عن منكر او عاد مريضاً او وصل رحماً او أرشد جاهلا او نبه غافلا او أجاب قسماً او نصح فاسقاً فتاب ، او أزال رذيلة او عفى عن خطيئة او كظم غيظاً او أسلم على يده كافر او أدى حقاً وماشابه ذلك ، يكتبها كلها في دفتره ليعرضها ليلا على اعضاء المحفل فترسم في دفتر المحفل الخاص ، حيث تدون اعمال كل الأعضاء وتشخص لوقتها .

على هذا النظام الديني عمل الاعضاء ، وعلى هــذه الوتيرة سار القوم في اعمالهم الدينية مع شدة المراقبة من انفسهم على انفسهم لمدة عشرة اشهر تماماً . ويكفيك دليلا على شدة تمسكهم بهذه المبادىء الجليلة ان دعي ذات يوم احد الاعضاء الى حفلة عظيمة عامة أقيمت في القاهرة بمناسبة افتتاح المحجة الحديدية من القاهرة الى بور سعيد ، فحضر هو مع المدعوين ، ولما رجع سأله احد الاعضاء عن فائدة هذا الحضور لنفس المدعو أو للاسلام ، فاعترف بانه لغو لا طائل تحته ، ولأجل ذلك فقد فرض هذا العضو المدعو على نفسه مبلغ خمسين جنيهاً انجليزياً لصندوق المحفل كفارة ما عمله مما لا يعنيه ولا يفيده . وجملة القول فقد كانت ذخيرة الصندوق في ظرفية شهر واحد ١٥٠٠٠ جنيه انجليزي رصدت للاصلاحات النوعية الاسلامية . كما وقد رسم من عمال الاعضاء في تلك المدة في دفتر المحفل طبقاً للنظام المفروض عليهم .

١٥٠٠ جنيهاً لعيادة المرضى ، ٢٧٠٠ لزيارة المسافر ، ٥٠٠٠ لتفقد الغائب ، ١٢٠٠٠ للحوائج المقضية ، ٨٠٠ لتوبة شارب الخمور ، ١٣٠٠٠ لتارك الصلاة إن عاد ، ٨٠٠ لازالة الفاحشة من اربابها ، ٨٠٠ للمستخدمين من المسلمين في الدوائر الانكليزية إن ترك وظيفته بالنظر الى حرمة خدمة الكافر .

ثم انتموا الى المحفل والتزموا بالعمل بنواميسه الدينية ، كما ان ٥٠٠ شخص من اعيان البلاد واكابرهم قد تركوا الزبرجات الظاهرية والتجملات الكمالية

في البيت والمطعم والمشرب واصبحوا بسيطي المعيشة لا يعبهون بلذائذ الدنيا وزخارفها المغرية .

ومن جملة اعمال هذا المحفل المدهشة في مدة هذا الشهر أن أعطوا رأسمال واف الى خمس وسبعين تاجراً خسروا تجارتهم واصبحوا لا يملكون شيئاً ، ودفعوا مؤنة سنة كاملة الى ٢٠٦ من الفقراء كانوا يسألون بالكف حتى اكتفوا، وذلك بعد تحقيق فقرهم ، وارشدوا خمساً وثلاثين نصرانياً وخمسة عشر يهودياً و٧٠ عابد وثن الى دين الاسلام الحق ، كما وقد رسم للاعضاء ايضاً ٤٤ مجلساً جرى فيه البحث والجدال مع مبشري النصرانية فاوردوا عليهم ١٢٠ اعتراضاً ورداً عقلياً واجتماعياً لم يجيبوا عليه وافلجوا وسلموا بعد العجز . هكذا كان عملهم ، وهكذا اثمر هـذا العمل الجبار حتى لم يشعر المستشار الانكليزي وبعبارة أوضح السفير البريطاني في مصر إلا وقد أخذ النفوذ البريطاني يتظاءل وسيطرتهم تقل الى نحو ٤٥ في المائة عما كانت عليه ، والتجارة قد تنازلت الى ٣٥ في المائة ، والدعوة المسيحية من قبل المبشرين قد بلغ أثرها واحداً من ستة عشر فى جميع نواحي افريقيا بعد عمل خمساً وثلاثين سنة من تبشيرهم الجدي المتواصل . وهذه الدوائر الرسمية قد علا ضجيجهم وكثرت شكاواهم من وقوف دفة اعمالهم لخروج ثمانين مستخدم من المسلمين كانوا اهل خبرة ودراية كاملة بالاعمال ، ثم لم يقبلوا الرجوع الى الخدمة لانهم مسلمون والدين الاسلامي يمنعهم من خدمة الكافر ، وهذه الشركات الانكليزية عجت الى حكومتها من وقوف تجارتها التي كانت تسير سيراً حثيثاً الى الامام قبل افتتاح هـذا المحفل الديني الوطني العجيب . كل ذلك كان بسبب هذه العدة المعدودة من اعضاء هـذا المحفل الشريف ، لانهم عملوا بوظائف دينهم وواظبوا على السير بموجب أوامر القرآن ونواهيه .

فيا لله ما أعظم هذا الدين الحنيف ، وما أحكم هذا الفرقان العظيم ، وما

اسعد تابعيه والعاملين بموجبه ، وما أقرب الفوز في الدارين من معتنقيه والسعادة في النشأتين من ذويه .

اعظم بسفر قد أتى كافلا — للخير في آياته السامية
إذ كل من يعمل فيها غدا — منعما في عيشة راضية
وكل من يهجرها عامداً — لاشك يمسي وهو في الهاوية
فاعمل بما فيه تكن فائزاً — في هذه الدنيا وفي الآتية

أما (لورد كرومر) فقد صرح في مذكرته بقوله : (إن هذه الاوضاع الغير الملائمة لم تكن مخالفة للسياسة ولا هي مضادة لاعمالها ، وليس لنا ان نتخذ احداً من هؤلاء النفر مقصراً امام العدل أو مسئولا عن اعماله الدينية ابداً، ولكني مع ذلك فاني احذر اولياء الامور من حكومتي أن هذا المحفل الوطني الديني اذا بقي الى مدة سنة واحدة اخرى مع هذه الحركة المتصلة في آسيا الغربية والمركزية وفي افريقيا الشمالية والشرقية ، وان السيد جمال الدين الهمداني مرفه الحال رغد العيش في مصر ، فان سياسة بريطانيا وتجارتها لم تنعدم من قارة افريقيا فحسب ، بل ان سيادة اروبا باجمعها تصبح مهددة بهيمنة هذا المحفل العجيب وسيحدث في تاريخها وجوداً تاريخياً غير منتظر حتى لم يبق منها اثر محسوس على صفحة هذا العالم. وقال في مذكرة له اخرى : (إن المحفل الوطني الديني المصري قد اصبح اكبر عائق دون تقدمنا في اعمالنا فالواجب الاسراع في تفريقه والاستعجال في تشتيت افراده والقضاء على هذا الدستور والعمل به .

وجاء في مذكرته الثالثة يقول : (إن هذا المحفل الوطني المصري لاحسن برهان واوضح دليل على سبب استيلاء العرب على المعمورة قبل ثلاثة عشر قرناً ، ذلك الاستيلاء المحير للعقول الذي دوخ مدة ربع قرن ثلث المعمورة مستولياً على الارواح والاجسام . وكتب احد دعاة النصرانية في القاهرة الى أحد أعضاء مجمع كنيسة (سان بول) اكبر كنائس العالم في لندن : (لم يدر في خلد اي انسان

ولم يتصور اي خيال ولم يدرك اي دماغ جبار أعظم وأعجب من أن تقهر ستمائة مليون من اولاد الانجيل مع علمهم واقتدارهم امام نفر معدود وهم اربعون انساناً ، لا بل أمام روح انسان واحد وسيد درويش واحد ايراني قد تقمصت في هؤلاء العدة المعدودة فقط) . واخيراً كتب رئيس البنك الانكليزي في مصر الى أحد اصحابه في لندن قائلا ايها الاخ العزيز :

(إن من غرائب الدهر أن نرى اروبا في مصر اليوم واروبا المستقبل في كل العالم ستكون مقهورة مندحرة امام نفر معدود لا سلاح لديهم سوى الدين ولا كفاح عندهم سوى بساطة العيش وحب النوع الانساني فقط) .

وعلى هذه الوتيرة وبهذا النسق من المذكرات كانت اولياء الامور الانجليزية تحذر حكومتها من خطر هذا المحفل الشريف العالي في لندن ، حتى اجبرت الحكومة على اتخاذ التدابير الصارمة خلاف كل ناموس من نواميس البشرية في العالم ، فاعدمت هـذا المحفل الوطني الديني بصورة وحشية بهيمية حيث اعلنت المحاكم العرفية في مصر فسفرت السيد جمال الدين الى اوربا ، وبعدت الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وتلميذ السيد لمدة ثلاث سنوات ، وفرقت جمع الأعضاء بانواع التفريق والتبعيد . وبالختام اغلق المحفل الوطني الديني بعد أن سار ذلك السير المنتظم المثمر طيلة تسعة اشهر وأيام .

فاستيقظت أروبا بعد هذا وكادت ان تكون كلها عيناً ورصداً ، تنظر الى الاسلام من جهاته الست ، فلا تدع في أي جهة من جهات العالم الاسلامي نسمة للسعادة تهب على ابنائه ، ولم تبق بريقاً من نور الأمل بالوجود يلمع في افقهم الرحب الوسيع البتة .

فيا ايها المسلمون ألم يتضح لكم الآن معنى قوله تعالى : (وألوّ استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) «١» . ألم تفهموا أن عمل اربعين رجلا بقوا نين

«١» سورة الجن الآية ١٦ .

الاسلام عن صدق واخلاص ـ في ظرفية تسعة اشهر ـ كيف زلزل اركان الدولة البريطانية .

واعلموا ان الدنيا السعيدة بالعمل بالقرآن ، والآخرة المضيئة في الاعتصام بحبله المتين ، يقول جل شأنه : (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) (١) فتعاليم القرآن الثمينة ليست روحية بحتة وأخروية محضة ، لو لم نقل ان تعاليمه المادية أكثر فليست باقل من تعاليمه الروحية .

فالقرآن يجمع بين الدنيا والآخرة ، حيث انها متلازمان ومتلاصقان ، بل الوصول الى الجنبة الروحية بدون المادة من المستحيلات ، ولذا أثر عن معادن الوحي والعصمة أئمة الهدى صلوات الله عليهم قالوا : (من لا معاش له لا معاد له) ، وعن ابي جعفر الباقر (ع) قال : « إني لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً في أمر دنياه ، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل . والأخبار في الحث على تحصيل الدنيا واصلاح أمر المعيشة بحد التواتر ، والقرآن نفسه ينص على ذلك بقوله : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) ، «٢» وكلما كان في الصدر الأول من الأدوات الحربية والآلات الدفاعية المناسبة لتلك العصور والملائمة للنظم العسكرية من سيف ورمح وسهم وخيل وغيرها فقد جعل القرآن تحصيلها واتقانها من الفرائض المهمة على المسلمين (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٣) وقد ورد في تفسيرها أن المراد من القوة هو السيف والسهم والترس ، ومن هنا كان المسلمون من أرقى الأمم فى هذه الصنائع ، او لا تنظرون الى ما امتاز به الدين الاسلامي عن سائر الاديان فى تشريع المعاملات حيث اوجب الارث وحلل البيع

(١) سورة النساء　الآية ١٣٣ .
«٢» سورة القصص　الآية ٧٦ .
(٣) سورة الانفال　الآية ٥٩ .

والهبة والقرض والمزارعة والمساقات والشركة وبين احكامها وشرائطها وحرم الربا والسرقة ، وشرع النفقات والصداق وندب الى الصدقات وقسمها الى واجب كالزكاة ومندوب كغيرها ، وسنّ العقوبات السياسية من القتل وقطع اليد والجلد والرجم والنفي من البلد وغيرها من التعزيرات التي هي مورد البحث للفقهاء والمجتهدين.

ولا ريب في ان كل هذه الأمور لأجل حفظ النظم الاصلاحية للبشر في دنياهم ، فلو لم يكن لهم مال لم يكن لتشريع المعاملات وجه ومحل ، وما كان يتصور وقوع البيع والربا والسرقة . ومن الواضح أن هذه القوانين التي شرعت من قبل العالم بالنظام الأصلح لأجل حفظ سعادة البشر في الجنبة المادية ، ولان يتوجهوا بعد نيلهم الدنيا السعيدة بعقول فارغة وأفكار غير مشوشة الى اداء وظائفهم الروحية التي هي الدواء لداء نفوسهم المريضة ، ويفدون على الله تعالى صافين من كل درن متحلين بكل فضيلة متخلين عن كل رذيلة ، (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) (١) .

فبملاحظة ما سردنا لك من الآيات الكريمة والآثار القطعية تعلم أن القرآن لم يمنع أحداً من الكسب الحلال وطلب المال الذي يوجب الثروة والرفاهية للبشر في دنياهم ، بل النصوص القرآنية تأمرهم بطلب الحلال وترغبهم في طيبات الدنيا وزينتها ،: (قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢) ولم يكتف بآية أو آيتين بل اورد سلسلة من الآيات الكريمة في الموضوع نفسه قائلا : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) ، (٣) (لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم) (٤) ، (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) (٥) ، (فكلوا مما غنمتم

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .
(٢) سورة الاعراف الآية ٣١ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .
(٤) سورة المائدة الآية ٨٦ .
(٥) سورة المائدة الاية ٨٧ .

حلالا طيباً) (١) ، (كلوا من طيبات مارزقناكم) (٢) (احل لكم الطيبات) (٣) (كلوا مما في الارض حلالا طيباً) (٤) ، وكان من دعاء النبي الأعظم (ص) (اللهم بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه ، فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدينا فرائضنا) ، وروي في الكافي عن الصادق « ع » انه قال : (لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكف به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه . فقد عاتب رسول الله «ص» عثمان بن مظعون على تركه الدنيا وتخليه عنها ، وذلك ان ابن مظعون لما نظر الى الدنيا وفنائها وسمع من النبي «ص» المواعظ البالغة حمله ذلك على ان لبس الثياب الخلقة ، وترك اهله ومضى الى بعض جبال المدينة ليتخلى للعبادة فجاءت امرأته يوماً الى بيت النبي «ص» فلما دخل «ص» البيت عرفها فقال هذه امرأة اخي عثمان فقالت له زوجته نعم يا رسول الله ، لكن يا رسول الله زوجها فارقها ومال الى بعض الجبال للعبادة ، ومن هذا امرأته لم تمس الطيب مدة ولم تلبس آخر ثيابها ، فلما سمع النبي «ص» كلامها خرج غضباناً يجر طرف ردائه على الأرض فرقى المنبر واجتمع الناس وامر باحضار عثمان فابلغ الخطبة وقال : أتريدون ديناً خيراً من ديني وسنة اهدى من سنتي والله لو كان اخي موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي ، انظروا الى ما افعل اني اصوم وافطر واصلي وانام وانكح النساء وآكل واشرب ، ثم التفت الى عثمان وقال له : إن الله سبحانه غني عن ثيابك هذه الخشنة . فقم وانزعها وادخل على اهلك وخالطهم واكتسب لهم، فترك عثمان ما كان فيه ، وهكذا عاتب علي عليه السلام عاصم بن زياد لتركه الدنيا لما دخل على اخيه العلاء بن زياد الحارثي عائداً له في مرضه، قال له علاء : « اشكو اليك يا أمير المؤمنين أخي عاصم بن زياد قال «ع» : « وما له ؟ » قال : لبس العباءة وتخلى من

(١) سورة الانفال الاية ٦٨ .
(٢) سورة البقرة الاية ٥٦ .
(٣) سورة المائدة الاية ٤ .
(٤) سورة البقرة الاية ١٦٧ .

الدنيا ، قال علي به فلما جاء قال «ع» له : يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث ، أما رحمت اهلك وولدك ، أترى الله احل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ، انت اهون على الله من ذلك ، قال يا أمير المؤمنين : هــذا انت فى خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ، قال «ع» مشيراً الى نكتة مهمة : ويحك إني لست كأنت إن الله فرض على أئمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره .

دفع اعتراض

مع وصف شرح الدنيا مذمومة وممدوحة

إن قيل ان الاخبار الواردة عن الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم فى ذم الدنيا والامر بتركها لكثيرة قد تبلغ حد التواتر وهذا نهج البلاغة فانه إن لم يكن نصفه فبالقطع واليقين قد جاء ثلثه فى ذم الدنيا مضافا الى سائر كتب الاخبار وفوق ذلك فان القرآن الحكيم نفسه قد بلغ الدرجة القصوى فى تحذير البشر من اتباع الدنيا والركون اليها ، ومع ذلك كله فكيف يمكن ان يقال ان القرآن المجيد هو الذي يسوق الناس الى الجهات الدنيوية ويأمرهم بها .

﴿ نقول ﴾ في الجواب عين ما قاله الامام علي ﴿ع﴾ لمن سأله بقوله : والله إنا نطلب الدنيا ونحب أن نؤتيها ، فقال الامام ﴿ع﴾ : تحب ان تصنع بها ماذا ؟ قال اجــود بها على نفسي وعيالي واصل بها رحمي واتصدق بها واحج واعتمر ، فقال له الامام ﴿ع﴾ : (هذا ليس بطلب الدنيا هذا طلب الآخرة) .

﴿ أقول ﴾ إن غرض الامام ﴿ع﴾ هو ان الدنيا لما كانت مقدمة للآخرة وليست هى بنفسها مورداً للمدح والذم ، بل ان ممدوحيتها ومذموميتها تابعان

لذي المقدمة أي الآخرة ، فان كان طالبها إنما يطلبها لاتباع شهواته الحيوانيـــة فقط ، ويرى أن الوصول الى غايته منوط بها حتى انه يصبح وهو غاض النظر عن كل الجهات الخيرية المشار اليها فى الاخبار الواردة عن الامام (ع) مما يتعلق بخير امته وقومه ، كمساعدة الفقراء واغاثة الملهوف وصلة الارحام وأداء الفرائض الماليـة وامثالها ، بل لم ينظر ولم يقصد فى الطلب إلا ما تعلق باغراضه الخسيسة الحيوانية وتكميل تلك الامور الزائلة الوقتية ، كان ذلك ولا شك نظراً لما يتصور فيهـــا من المفاسد مذموما وكان ذم مثل هذه الدنيا واضحاً بل اظهر وضوحاً من الشمس ، بل ان مثل ذلك لا يحتاج الى بيان الأئمة (ع) او برهان الهداة والمقدسين في الدين ، وليس كلامهم وبياناتهم فى مثل هذا الباب إلا من باب التنبه والتذكر ، ولقد أشار القرآن الكريم الى هذه الناحية بقوله : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله فى الآخره من خلاق)، ومنهم من يقول :(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (١) » وإن أمير المؤمنين (ع) لم يذم الدنيا التي هى مقدمة للخير ، وان خطبته الشريفة التى خطبها بعد رجعته من صفين والتي نذكرها ذيلا لشاهد صدق على ذلك ، وهى التي تكفينا في دفع امثال هذه التوهمات وغيرها .

قال (ع) وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أيها الذام للدنيا المغتر بغرورها ، المخدوع بأباطيلها أتغتر بالدنيا ثم تذمّها ، أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك ؟ متى استهوتك أم متى غرتك ؟ أبمصارع آبائك من البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك ، وكم مرضت بيديك تبغي لهم الشفاء

---

(١) سورة البقرة الاية ١٩ .

وتستوصف لهم الأطباء ، لم ينفع أحـــــدهم إشفاقك ولم تسعف بطلبتك ، ولم تدفع عنـه بقوتك ، قـد مثلت لك به الدنيا نفسك وبمصرعه مصرعك ، إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد احباء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتجر أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة وربحوا فيها الجنة . فمن ذا يذمها وقـــد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها واهلهـا ، فمثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقتهم بسرورها الى السرور ، راحت بعافيـــة وابتـكرت بفجيعة ترغيباً وترهيباً وتخويفاً وتحذيراً ، فذمها رجال غداة الندامة ، وحمدها آخرون يوم القيامة ذكرتهم الدنيا فتذكروا ، وحدثتهم فصدقوا ، ووعظتهم فاتعظوا .

(اقول) وقد قال الله تعالى فى الذين ذموها يوم الغفلة إذ قالوا : « رب ارجعونى لعلي اعمل صالحاً فيما تركت » (١) واجيبوا بجواب (كلا إنها كلمة هو قائلها) « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (٢) » وقال تعالى ايضاً في مادحيها : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا (٣) » . فاتضح مما تقدم أن القرآن

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩٨ ـ ٩٩ .
(٢) سورة الكهف الاية ١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٣) سورة الكهف الآية ١٠٦ ـ ١٠٧ .

المجيد قد جاء مطابقاً للعقول البشرية فكأنه قد ذم الدنيا التي ليس الغرض منها سوى الوصول الى الشهوات النفسانية وتقوية الجنبة الحيوانية . ثم حذر البشر منها إذ يقول : « اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور (١) » .

أما الدنيا التي يكون الغرض من تحصيلها هو اصلاح شئون الامة الاسلامية وحفظ بيضة الاسلام فان القرآن الحكيم قد ساق الناس الى طلبها . بل جعل تحصيلها من أهم الفرائض الاسلامية فقال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (٢) » الى غيرها من الآيات الحكيمة الكثيرة .

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠ .

(٢) سورة القصص الآية ٧٦ .

الدنيا

في نظر الانجيل الفعلي للمسيحيين

هلم معي لننظر متأملين في انجيل المسيحيين الفعلي ، ثم نقيسه بقرآننا المجيد لنرى أي التعليمين اصلح للبشر ، واي الكتابين أوفق للعقول وأقرب للتصديق ، لنحكم ببقاء الاصلح وأنه هو القابل للاتباع في دستور الحياة وغيرها جاء في انجيل متي في الاصحاح التاسع عشر عــدد (٢٣) ان عيسى (ع) قال لتلاميذه :(الحق أقول لكم انه يعسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ، عدد (٢٤) منه واقول لكم :(ايضاً) ان مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله .

وفي الاصحاح العاشر عدد (٩) منه ايضاً : (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا احذية ولا عصا .

الذي يظهر من هذه التعاليم وامثالها أن الانسان يجب أن يصرف نظره عن جميع اموال الدنيا وحتى عن ضروريات حياته ، كما انه في سفره يجب أن لا يحمل معه شيئاً من الطعام والملبوس والمال . تأمل هل ترى مثل هذه التعاليم يناسب أن يأتي بها مثل عيسى (ع) ؟ أو أن يأمر بها أحد حواريه الذين رباهم وعلمهم قوانينه الحكيمة واخلاقه الفاضلة ، على انه لو فرض أن أحد متنوري هذا العصر أراد أن يصلح امته لم يأمرهم برفض الدنيا التي هي مقدمة كل خير ، ولا باتباع التعاليم التي تمنعهم من نيل المقاصد الاخروية ، واذا فعل ذلك فان أول من يسفهه ويعتبره مختل الدماغ هم المسيحيون انفسهم .

واذا كان الامر كذلك فكيف يمكن نسبة مثل هذه التعاليم الى المسيح ' الذي بعث لاصلاح البشر وبيان ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، أو أن يقال ذلك في حق الحواريين الذين رباهم المسيح حتى فاقوا سائر الناس في النبل ووفور العقل والفطنة والذكاء . ثم نأتي فنقول ما هو تقصير المتمول المثري حتى يكون دخوله في الملكوت الآلهي محالا ؟ أو ان ولوج الجمل في سم الخياط الممتنع عقلا اسهل من دخول نفس من النفوس في جماعة الرب . أترى أن تناول شيء مما خلقه الله تعالى لنفع البشر حيث قال تعالى : « خلق لكم ما في الارض جميعاً (١) » هو مما يستحيل غفران الله تعالى عن تناوله ، حتى يكون الغني المسكين بواسطة غناه من مال الله تعالى مطروداً من باب الله تعالى بكل وجه من الوجوه وغير قابل للدخول في الملكوت ؟ والأعجب الأنكى من هذا هو أن طالب الكمال يجب أن ينفض يده من كل ما يملك وينفقه على الفقراء ، وإن لم يفعل لم يكن كاملا كما هو صريح انجيل متى في الاصحاح التاسع عشر عدد (٢١) حيث يقول عيسى (ع) : « اذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع املاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء » . تأمل أيها العاقل وانظر ان الرجل الحكيم المصلح اذا أمر المتمول ببذل كلما يملك على الفقراء بحيث يصبح هو وعائلته عالة على الناس وحتى يمد يد الحاجة الى كل أحد يستجديه ، أترى أن مثل هذا الحكيم يعد مصلحاً للانسانية ؟ أو ليس حد الافراط والتفريط مذمومين عقلا ووجداناً ؟ .

أو لم يحكم الوجدان والفطرة ان خير الامور اوسطها بهذا الحكم الفطري صرح وأمر قرآننا المجيد ، حيث قال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا (٢) » وقال تعالى في مدح المعتدلين في البذل : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٣) » .

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٨ . «٢» سورة الاسراء الاية ٢٨

(٣) سورة الفرقان الاية ٦٦ .

الكتاب السماوى

هو منهج الحياة وقانون الاصلاح

ليست الكتب السماوية كغيرها من الكتب التى مُلأت من الاباطيل والمزخرفات وحشيت مما يلائم الاذواق والميول الحيوانية والطباع البهيمية ، تلك الكتب التى لا تتوقف من الكذب لتجلب القراء والمطالعين وتهش اليها النفوس الواطئة ، ولا تستحي من ذكر المبهمات الكبرى والمجهولات الصغرى بقواف جميلة وسجع مطرب ، لتستنتج منها جلب الافكار الساذجة والادمغة الفارغة مثل (فرائد مرزا ابى الفضل الكلبايكاني) و (ايقان مرزا حسينعلي واشباههما .

أما الكتاب السماوي الذي هبط من السماء ونزل من شامخ مقام الربوبيــة لاصلاح امور الخلق معاشية ومعادية ، وليكون قانوناً اصلاحياً لمنهج حياة البشر لا يعقل أن يأتي باحكام غير الاحكام الاصلاحية للمادة والروح . إذاً فكل كتاب لم يحو التعاليم المصلحة للمعاش والمعاد ولم تكن تلك التعاليم مصقلة للعقول البشرية بالمعارف الصحيحة عدّ من الاباطيل ولم يكن كتابا سماوياً ولم يقدس البتة.

والآن لو نظرنا ولاحظنا تعاليم التوراة والانجيل الحاضرين المقدّسين لدى المسيحيين لرأينا اغلبها إن لم نقل جلها مخالفة لصريح الوجدان . إذ هي في الحقيقة من موجبات تقهقر البشر ومن مسببات الشقاء العام كشقاء العقول وشقاء المادة وشقاء الروح ، وبعبارة اجمع شقاء المبدأ والمعاد .

ولعلنا نستعرض فيما بعد بعض تلك التعاليم ثم نعقبها تدريجاً في الفصول والعناوين الآتية تحت عنوان التعاليم المنورة للفكر من القرآن المجيد ، حتى

يتضح لك من ذلك ما حوته تلك الكتب من الشقاء على حسب ما قيل : (يعرف الشي بضده) وستعلم بأن تسميتها بالكتب المقدسة هو من قبيل (تسمية الشيء باسم نقيضه) ، وان ساحة الكليم والمسيح مقدسة عن امثال هذه التعاليم السخيفة ، إذ لا يعقل أن هذين الكتابين هما من تعاليم تلك الذوات القدسية العالية ، أو انهما مربوطان بالتعاليم السماوية السامية ، او انهما هما الانجيل والتوراة المنزلان من الحق تعالى واللذان هبطا ليكونا منهجي الاصلاح للبشرية وقانوني الكمالات والتعاليم ولكنهما لما وقعا في الايدي الخائنة من اناس بعدوا عن الحقيقة ألبسوهما من الاغراض النفسية والاهواء الخسيسة ما نزعوا بذلك عنهما المطالب العالية حتى اخرجوهما بهذا اللون البشع وهذا الوضع السخيف المؤسف .

يقول القرآن المجيد موبخاً لهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا (١) ». ثم نشروا تلك المطالب الغير المناسبة والتعاليم المغرية للبشر لا عن اساس ، وسموها الكتب الآلهية والوحي السماوي كذباً وميناً . ومن له اقل تفكير ومعرفة ونظر بعين البصيرة والعقل لما رأى في هذا اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم كتابا مقدساً وديانة حقة تهدي النوع الانساني الى الرقي وتهذيب الاخلاق وتدلهم على خير الدنيا والآخرة وتضمن لابناء آدم النجاة والسعادة في الدارين سوى القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسوى الدين الاسلامي الحق . وإليك ما يقوله علي أمير المؤمنين (ع) في موضوع القرآن في بعض خطبه :

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبو توقده ، وبحراً لا يدرك قعره ، ومنهاجاً لا يَضل نهجه ، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه ، وفرقاناً لا يُخمد برهانه ، وتبياناً لا تُهدم أركانه ،

(١) سورة البقرة الآية ٧٨ .

وشفاءاً لا تخشى اسقامه ، وعزاً لا تهزم انصاره ، وحقاً لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ورياض العدل وغدرانه واثافي الاسلام وبنيانه ، واودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، واعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ، ودواءاً ليس بعده دواء ، ونوراً ليس معه ظلمة ، وحبلا وثيقاً عروته ، ومعقلا منيعاً ذروته ، وعزاً لمن تولاه وسلّماً لمن دخله ، وهدى لمن إئتم به ، وعذراً لمن انتحله وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجاً لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ، ومطية لمن اعمله وآيةً لمن توسّم ، وجنة لمن استلأم ، وعلماً لمن وعى ، وحديثاً لمن روى وحكماً لمن قضى .

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام عند ما ضربه ابن ملجم واشرف على المنية ، فقال : « الله الله فى القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم » وكأنه عليه السلام كان ناظراً الى هذا العصر خائفاً من الغرب أن يأخذوا تعاليم قرآننا وان نهملها نحن المسلمون فيكونوا وبالا علينا ويسلبونا راحة الدين والدنيا.

نعم هكذا فعلوا وسيفعلون ونحن نيام لا يرجى انتباهنا ، وسكارى لا يؤمل صحونا .

أجل وهذا القرآن الكريم يأمرنا بالصدق والاخلاص والاعتدال فى الاعمال

والتجارة فيقول : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا باللتى هي أحسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » (١) ولكن هل ترى شيئاً رائجاً في سوق المسلمين سوى الكذب والخيانة ؟ وسوى البخس في الكيل والميزان مما تأباه تعاليم القرآن وتخجل منه جبهة الانسانية ؟ اللهم لا ، ولكن عسى أن يستقيموا اذا ما اتبعوا القرآن الحكيم وتعاليمه القيمة .

حكاية تسمع

حدثني استاذي الأوحد فقيه الامامية المتخصص بالحكمة والفلسفة وقطب دائرتها السيد محمد جواد التبريزي دام ظله العالي ، قال نقل لي أحد الثقات انه كان في بلدنا أخوان ارمنيان وكان ابي كثير التردد عليها ، وكان كلما جلس عندهما اظهر لهما محاسن الاسلام وطلب اليهما أن يسلما حتى قبل أحدهما الاسلام ، ولكنه طلب من أبي كتمان اسلامه عن اخيه لانه خشي أن يختل امر تجارتهما . وبعد اسبوع من اسلامه صادف اخوه أبي فقال له : إني أراك اقنعت اخي بالاسلام فاسلم ، فقال له ابي : لم أحتمل أن أخاك يسلم مع تعصبه الشديد لمذهبه ، فقال لا ، اني لم أقل جزافا بأن أخي أسلم ، لان لدي قرائن وشواهد تدل على اسلاميته وذلك ان أخي لم أكن أعهد منه كذبا ، ولم تكن في قاموسه لفظة كذب وان له مدة اسبوع أراه يكذب وبهذا عرفته مسلماً فاعتبروا يا اولي الأبصار .

القرآن يأمرنا بالمواساة ومساعدة بعضنا بعضاً ويقول : (المؤمنون اخوة)

---

(١) سورة الانعام الآية ١٥١ .

ولـكننا لم نعمل بما أمر ، بل أصبح من أكثر صفاتنا شيوعاً الحقد والحسد وسحق بعضنا بعضاً وعدم مساعدة الفقير ، ولو كان يقف بنا الأمر الى هـذا الحد لـكان سهلا ولـكننا اصبحنا نسعى فى إتلاف اخينا المسلم .

اما الغرب فان مساعدة المحتاج والأخذ بيده واعانة الفقير عندهم من أوليات الوظائف الانسانية ، وان لم تصدّق فاسئل من جاورهم ورأى سيرهم في بلادهم واطلع على أحوالهم . فاذا عرفت ذلك عرفت مغزى كلام إمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام لاولاده : (الله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم) .

اسمعوا ولا تسمعوه خلافاً

فى سنة ١٣٤٨ من الهجرة جاءني أحد اخواني العامليين بالجزء الثاني من مجلة (المرشد العربي) ، التي كانت تصدر فى اللاذقية للاطلاع على بعض مطالبها الدينية التي كانت تنشرها يوم ذاك ، فصادفت في اثناء مطالعتي لقسم الاجتماعيات منها نصيحة لـكاتب فرنسي ينصح بها المسلمين ، فأحببت أن أذكرها بنصها العربي وبامضاء مترجمها مصطفى رزقاء الحلبي الذي كان قد ارسلها الى صاحب المجـلة للنشر ، ليعلم النشء المتجدد معنى التجدد على الحقيقة ، وليعرف القصد من التمدن حسبما يشرحه لهم هذا الغربى الاروبي غير المسلم وإليك ما كتبه تحت عنوان:

القسم الاجتماعي

المتجددون الطائشون والتفرنج الفاسد

الاسلام هو الجامع بين الدين الصحيح والحياة العملية

نصيحة المسيو (تونون) الى المتفرنجين في الشرق :

عاد في هذا العام الى حلب صديق لنا وهو من البعثة المدرسية التي ارسلتها الحكومة الى فرنسا ، وحين مقابلتنا إياه أخبرنا في جملة حديثه انه في مدة وجوده هناك قابل المسيو (تونون) صهر مستشار معارف حلب (المسيو پالان) وهو من هيئة محكمة الاستيناف العليا بمدينة (اكس پروفانس) . كان هذا الرجل من اولئك المحنكين الذين حلبوا الدهر اشطره ، وعرفوا الامور على حقائقها وميزوا اللباب من القشور والفضائل من الفجور ، فدارت بينهما احاديث من جملتها الحديث التالي الذي فصلّه لنا مشافهة ونحن الآن ننقله وننشره على مسامع القراء ، ليتيقظ المتفرنجون ويثوبوا الى رشدهم إن كانوا يعقلون .

قال المسيو (تونون) لصديقنا الموحى اليه في جملة احاديثهما ما معناه (إنكم معاشر الشرقيين مولعون بتقليدنا ولكن اولئك الذين يقلدوننا لا يقلدوننا فى الامور الحسنة المفيدة مادة ومعنى مما بني عليه رقي اوربا واستعدادها وتفوقها المشاهد ، بل يقلدوننا في رذائل الامور وفي المفاسد والخلاعة وفي السفاسف التي لا تجدي نفعاً حتى وفي الاشياء التي تعدّ داءاً مضراً يفتك في جسم اوربا مما ينتقده عقلاؤهم انفسهم ، ويبذلون الجهود الخاصة والعامة لمقاومته ومحاربته

في جملة ما يحاربونه من الادواء والعلل الاخلاقية والاجتماعية . فاذا كنتم تودون الرقي الحقيقي والتقدم الصادق الذي يوصلكم الى غايتكم المنشودة فانى اسدي اليكم هذه النصيحة الصادرة من قلب مخلص وهي : أن تتمسكوا اولا بمبادئكم الدينية وتقاليدكم القديمة أشد التمسك ، ثم تقلدونا في الحسن النافع من امورنا كالعلوم والصنائع وفنون التجارة والزراعة والاقتصاد وكلما يؤدي الى التقوية والاستعداد مادة ومعنى ، وبغير ذلك لا تأملوا نجاحاً بل يكون نتيجة امركم كغيركم من الشعوب المحكومة المضطهدة التي لا تزال تتسفل وتضعف . إن للعوام عندكم كثيراً من الاخلاق المتينة الثابتة وهي مفيدة فيجب أن تجتهدوا في تمكينها من النفوس وان تحموها من العوامل المضعفة والمؤثرات المفسدة .

إن القرآن لديكم هو المرشد الاعظم وفيه القدر الكافي من التعاليم المفيدة الاخلاقية والاجتماعية والعملية وغيرها ، والاسترشاد به لا يتم إلا مع اعتقاد انه كلام الله ، فيجب أن تجتهدوا في تثبيت هذا الاعتقاد من النفوس وأن تحاذروا كل الحذر من هدمه واضعافه . هـذه هي نصيحتي التي أرجو منك أن تبثها بين اخوانك وأقوامك حين عودتك انتهى .

(أقول) إن (المسيو تونون) لم يشرح تلك الرذائل بل اكتفى بالاشارة اليها لوضوحها عنده . وأنا أذكر لك بعضها روماً للايضاح .

فمن جملتها شرب الخمر واستعمال سائر المشروبات الكحولية فان جميع الاطباء النطس صرحوا معلنين بانها مضرة بالمزاج ضرراً فادحاً فتاكا ، وقد ذكروا في كتب حفظ الصحة ، ان المسكرات جميعها مضعفة للعضلات ومؤلمة لها ، مضافا الى انها أدات الكسل وتجعل الابدان مستعدة لقبول الامراض المعضلة والاسقام الفتاكة كالسل وامثاله ، كما انها تزيل العقل وتسلب النوم والشاهية وتقلق النفس ، وبالاخير تحدث الجنون الخمري الخطير . السكير يكون

عديم الارادة قليل الحافظة بذي اللسان فحاشاً مضطرب الخيال مجرماً آثماً وكثيراً ما ترى السكيرين يقتلون اولادهم وعيالهم لفرط سكرهم وزوال عقلهم .

ولهذه الاضرار الناجمة وغيرها فقد منعت امريكا استعمال المسكرات مدة من الزمن في بلادها .

ومن جملة الرذائل لعب القمار (الميسر) ، وهو الرذيلة التي جعلت الكثير من مرتكبيها فقراء لا عمل لهم ولا جاه ولا اعتبار ، قد قضوا القسم المهم من عمرهم في اللعب والكسل حتى اتلفوا كلما كانوا يملكونه واصبحوا فقراء ، وحتى الجأهم هذا الفقر الى ارتكاب الرذائل الاخرى كالسرقة والسلب والنهب لشدة حاجتهم .

ومن جملة الرذائل الزنى تلك الفاحشة التي أقل ما يحدث منها الوقوع تحت براثن مرض السفلس والقروح الفرجية الرحمية ، ثم على فرض التخلص من هذا المرض الفتاك فانه لا شك يسبب قطع النسل والحرمان من الحياة الزوجية وزهرة الحياة ، هذا مضافا الى انه يعدي زوجته العفيفة البريئة حتى يقطع نسلها . وعلى هذا الاساس قال رسول الله (ص) لعلي (ع) : « يا علي إن في الزنا ست خصال ثلاث منها في الدنيا وثلاث في الآخرة . أما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجل الفناء ويقطع الرزق ، وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرحمن والخلود في النار . هذا مضافا الى الاضرار المالية التي تسلبها الفواحش لا سيما الاجنبيات التي تأتي من المدن القاصية وتسلب المال ثم تذهب بالغنيمة الوافرة الى بلادها في حين ان الزاني يمكنه أن يتزوج بها حلالا ثم يرتاح معها بالنعيم الدائم طبقاً للقوانين الدينية التي هو متدين بها وينجو من تلك التبعات المهلكة . عجباً للمسلمين كيف يأخذون من الغربيين هذه المساوىء التي هم اخذوا يشعرون باضرارها ، وهذا قرآنهم ينادي فيهم منذ ثلاث عشرة قرناً بقوله : « إنما الخمر والميسر رجس

من عمل الشيطان فاجتنبوه) «١» وبقوله : ﴿ لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ «٢» .

فاعرفوا قدر هذه الجوهرة الثمينة واطلبوا من العلماء والمعلمين الروحيين أن يرغبوكم بالمرغبات العلمية والعملية ويذكروا لكم مزاياها وخصوصياتها لعلكم تفلحون .

((حقيقة التجدد ومعناه))

إن خلاصة أقوال عقلاء العالم ونتيجة آراء المفكرين منهم في معنى التجدد يرجع الى أمرين جوهريين أحدهما نظري والآخر عملي .

أما النظري فهو عبارة عن معرفة الضار من النافع ، وتمييز المصلح من المفسد . وأما العملي فهو عبارة عن استعمال القوى وتحريك الجوارح الى جلب الأمور النافعة وكفها عن الأمور الضارة . ولما كان القرآن الحكيم وهو الكتاب السماوي حاوياً لكلتا الجنبتين النظرية والعملية ، مبيناً للضار والنافع منهما على النحو الأكمل الأتم ، شارحاً للأحكام والقوانين المصلحة للمعاد والمعاش فى البشر على احسن وجه ، كان لزاماً على كل طالب للتجدد أو من يرى نفسه متجدداً ان يعمل بتعاليم القرآن ، وإلا لم يعد في عداد المتجددين الحقيقيين ، وكان اطلاق لفظ المتجدد عليه اطلاقاً لا معنى له . والى هذا يشير المرحوم السيد مهدي الأعرجي في أبيات له .

أرى الناس ميالين نحو التلون　　　فكل تراه ذا وجوه والسن

«١» سورة المائدة الآية ٨٩ .

«٢» سورة الاسراء الآية ٣١ .

يقولون إنا بالتمدن نرتقي وليس لهم إلا قشور التمدن
يريدون مثل الأجنبي ترقياً وذاك محال منهم غير ممكن
بعاداته دون الفعال تمسكوا وذاك طعام أكله غير مسمن
فكم نكرات بينهم بادعائها سمت كل معروف الخصال منون
وكم من غبي قد دعوه مجرباً وكم نسبوا من عاقل للتجنن
لقد رفضوا شرع التدين ضلة كأن ترقيهم برفض التدين

وعلى هذا فقد أصبح من أهم فرائض كل مسلم طالب للحقيقة أن يتعلم تعاليم القرآن ويجعلها من الزم ضرورياته ، وأن يخصص قسما من ساعات ليله ونهاره لتعلمها . كما يجب على العلماء الروحانيين أن يشرحوا لهم ذلك بعبارات سهلة مفهومة حتى يرّغبوا العوام على تعلم تلك الحقائق الدينية اللازمة ، لا سيما فى مثل هذا العصر الذي خفيت عليهم مزايا تلك التعاليم الراقية ، وستر عنهم كثير من معانيها المقصودة بواسطة الايجاز والاستعارات والاشارات اللفظية والتلميحات الخفية ، حتى أصبحت عندهم كالالغاز فى قوالب الألفاظ المختصرة تمشياً مع الفصاحة والبلاغة . لذلك فقد تقدمت أنا بهديتي الى اخواني في الدين ببيان تلك الحقائق الجليلة متوخياً فيها سهولة العبارة وبساطة قوالب الالفاظ ، لسرعة إفهامهم وإمكان تبليغهم أداءاً لفريضتي العلمية وخدمة للدين والحقيقة والأمة ، وعملا بقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حيث يقول : (ما من هدية احسن من إرسال المسلم الى اخيه المسلم بكلمة حكمة تهديه الى الحق) . اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه والباطل باطلا فنجتنبه .

(التوحيد أساس الرقى)

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله) «١» .

إن أساس كل رقي واصل قاطبة الكمالات هو صقل العقول من كدر الخرافات وتنزيهها من درن الاعتقادات الفاسدة الكاسدة ، وما من انسان كانت لديه ذرة من العقل أو قليل من الادراك يجعل للخرافات طريقاً الى نفسه او للوهميات مجالا فى قاموس لغاته . فان العقل الشريف المنزل فى مملكة البدن من عالم اللاهوت باقتضاء الحكمة الالهية والعناية الربانية رحمة للعباد . ثم ارتوى بماء الحقيقة والمعارف ليعرف كاملا بأن معبوده وصانعه منزهاً من الجنسية البشرية والجسم ، والجسمية مسلوبة عنه كل لوازم الامكان واعراضه وخواصه ، وانه لا بد وان يكون مطيعاً اذا أمر ذلك الصانع القادر الفعال العالم بالسر والخفيات والمدرك لجميع المكنونات والخطرات القلبية ليفوز بسلامة المعاد والمعاش ، ويفوز بالحياة المبهجة الحاصلة من أثر اتباع قوانين هذا الناموس الأكبر المتينة القويمة .

ولو لاحظت صفحات التأريخ وتأملت جيداً فى سلسلة حياة البشر لرأيت أن منشأ جميع تلك الاختلافات واسباب انفصام عرى كل هاتيك الاجتماعات القومية في جميع العصور والقرون لم تكن إلا من رسوخ عقائد الوثنية وتعدد الآلهة في عقول الناس ، مما جعلت الفتن تنتابهم من كل جانب حتى عاقتهم عن اصلاح معادهم ومعاشهم لرواج سوق الوحشية والبربرية والتباغض بينهم . ولم تكن تلك الظلمة الحالكة في جزيرة العرب قبل طلوع شمس الاسلام وبزوغ نوره ولم تنتشر

«١» سورة آل عمران الآية ٦٣ .

فيها تلك الرذائل التي سودت وجه التاريخ من سرقة ونهب وغارة وقساوة وقتل ووأد ــ الى غيرها من القبائح ــ إلا من أثر تلك الخرافات والاعتقادات الفاسدة من عبادة الأوثان والشرك بالصانع ، وجعل مالا يعقل ولا يدرك رباً من دون الله تعالى . لذلك ترى أنه بمجرد أن أزيل صدى تلك الخرافات عن لوحة عقول العرب وذلك ببركة قطب دائرة الكمالات والتمدن اعني بها تلك الذات القدسية المحمدية صلى الله عليه وآله ، اخذت تضع اقدامها في مدارج الرقي والعمران ، وتبدلت تلك الظلمة الحالكة ، بل ظلمات بعضها فوق بعض الى نور شعشعاني فوق دائرة تصور البشر ومخيلته حتى نجت من ذلك الذل والاستعباد للقياصرة والأكاسرة ، واستبدلت تلك الوحشية والبربرية بحضارة عالية وترق حقيقي سامي ، لم يدر بخلد التاريخ البشري منذ بدء الخليقة حتى بروز شمس الاسلام الساطعة . وعلى هذا قال المؤرخ « جرجي زيدان » فى كتابه (تاريخ التمدن الاسلامي) تحت عنوان : ــ « ما الذي جرّأ العرب على الفتح » حيث يقول :

لنبحث أولا في الأسباب التي جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين وهم أهل بادية ما برحوا من اجيال متطاولة ينظرون الى الفرس والروم نظر الاحترام والتهيب ، ويضربون الأمثال بضخامة ملكها ويخافون اسميها ، فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناوأتها ببضعة آلاف ليس على ابدانهم إلا غليظ الكساء وأكثر طعامهم الذرة والشعير وعدتهم الرماح مشدودة بقصب والسيوف معلقة بخرق ، ولِمَ لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟

الجواب :

إن العرب أصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله ، كانوا قبائل مشتتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة متحدة بقلب رجل واحد . وهذا وحده لا يكفي لاقدامهم على هذا الأمر العظيم وإنما ساعدهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التي دعوا اليها . اعتقادهم انهم إنما يفتحون الدنيا في سبيل الدين ، وان الله يدعوهم

الى نشر الاسلام في الأرض ، وإن من مات منهم مات شهيداً ، وما في العالم الآتي خير وأبقى . هذا الاعتقاد هو الذي جرّأ العرب على ركوب هـذا المركب الخشن .

وقال أيضاً فى كتابه (طبقات الأمم ص ٤٨) : (لا تظن أمة تمدنت وارتقت مدارك أهلها إلا كان التوحيد اعتقادها) . (أقول) ولأجل عظمة هذا الأمروشدة دخله فى إصلاح المجتمع البشري ترى الانبياء والرسل لم يتفوهوا قبل دعوتهم ولم يدعوا الخلق الى شيء في بدء الدعوة سوى كلمة التوحيد فقط . وهذا النبي محمد (ص) فانه أول ما دعى اليه الخلق قبل بيان تعاليمه الاصلاحية لهم وأول أمر افتتح به الدعوة العامة فتحمل فى سبيل ترويجه هو وأهله ومتعلقوه كل المشاق والصعوبات والاذى هو كلمته العظيمة : (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) على مسامع أولئك الوحوش عبادي الاوثان ومشركي قريش ومع ذلك فقد كانت هذه الكلمة من أثقل الامور وأثقل ما يقع في مسامع القوم . وهذا هو عين كتاب خاتم الانبياء الى هرقل ملك الروم إذ كتب اليه .

بسم الله الرحمن الرحيم :

من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك إثم البريسيين :

(ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدإلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله) « ١ » .

فبان من ذلك أن كلمة التوحيد هي العامل الوحيد للاصلاح والنجاح والفلاح ، وهي الأساس لجميع الفضائل وسعادة البشر ، وأي أمة لم تحرز هذا الشرف الرفيع أعني (التوحيد) كانت بعد هبوطها قليلا في حضيض الذلة

(١) سورة آل عمران الآية ٦٣ .

والهوان ، لا بد وان تستسلم الى الفناء المحتم والعدم المحقق . والى هذا أشار الكتاب المجيد بقوله : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق) .

فلسفة أهمية التوحيد

من المعلوم البديهي أن المرء اذا ما اعترف بالمبدأ الواحد القوي واعتقد بانه الفاعل بالارادة ثم خضع لأوامره ونواهيه بحيث لم ير رضاً او سخطاً سوى رضاه وسخطه وكان كل تخلف لقوانينه ودستوره أكبر وزر من أوزار البشرية لديه كان ولا شك متوجهاً بكل معنى كلمة التوجه الى جهة الوحدانية تحت ظل هـذا الاعتقاد المتين . وكان من أثر هذا التوجه بالضرورة زوال تلك الاختلافات التي هي أقوى باعث للخزي والانحطاط الناشئين عن التوجه نحو المبادىء المشتتة .

ثم لما كان هذا الأمر من النظريات الأوليات العقلية فان الله تعالى يقول في كتابه المجيد اشارة الى ذلك : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟)(١) وهو استفهام انكاري ينكر فيه قبول العقل الفطري او فطرة العقل أن تقبل الاعتقاد بالأرباب الكثيرة المتفرقة ولا يعتقد بالفطرة بالوحدانية لإله واحد قهار ، وهذه هي الفلسفة في أهمية توحيده تعالى .

(١) سورة يوسف الآية ٣٨ .

تنزيه القرآن لله

عن مشابهة الممكنات

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

إن اركان الرسالة ثلاثة

«١» توحيد الله تعالى وتقديسه وتنزيهه من لوث صفات الممكنات .

«٢» تقرير الحدود العامة للأعمال وبيان الصالحة منها واضدادها ويعبّر عنها اصطلاحاً بالشريعة .

«٣» احوال النفس وما يترتب عليها من موت وحشر ونشر وما يصل اليها من جزاء او عقاب او ثواب وهو المعبر عنه اصطلاحاً بالمعاد .

وإن أهم وأعظم هـذه الأركان الثلاثة هو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات الممكنات . وهذه السورة المباركة على اختصارها وإيجازها تعلمنا هذا الركن تعليما بليغاً .

فتقول إن الله واحد لا يتعقل فى ذاته الكثرة والتعدد وعليه فليس بمركب من الجواهر المختلفة اذ تمتنع فيحقه المادية لمنافات ذلك لوجوب وجوده . وهكذا فانه تعالى لم يكن مركباً من الاصول المتعددة غير المادية أيضاً كاعتقاد بعض ذوي الاديان بانه تعالى مركب من أصلين فاعل الخير وفاعل الشر ، وآخرون بأنه مركب من ثلاثة أصول تعتبر واحداً وهي عقيدة النصارى المزخرفة غير المعقولة ، لأنهم يعتقدون بالاقانيم الثلاثة المندرجة فى واحد أعني انه تعالى واحد فى ثلاثة كما انه هو ثلاثة في واحد ، وهو اعتقاد فاسد بالفطرة لا يحتاج الى برهان لابطاله فهو بنفسه يناقض نفسه . وهذه السورة الكريمة في القرآن

تثبت جميع أنحاء القداسة لذاته تعالى ، كما انها تنزهه عن كل مزخرف غير معقول بالنسبة اليها .

« فنقول » : إن الله تعالى موجد هذا العالم ذات واجبة الوجود يمتنع عليها البطلان والعدم ، وبالضرورة ان وجوب الوجود يستلزم عدم الشريك له تعالى وانه غير مركب من أجزاء ، لأن كل وجود فرض له الوجوب لا يخلو اما ان يكون بسيطاً لا يتصور فيه شيء سوى الوجود فثبت كونه بسيطاً ، واذا كان بسيطاً ثبت التوحيد وعدم الشريك ، لأن حقيقة الوجود الخالي من كل شوائب الامكان والعدم لا شك هو الوجود البحت وصرف الوجوب واستحالة الاثنينية فيه والى هذا كله أشارت السورة المباركة بقوله تعالى : « هو الله أحد » .

في الأرض كل نبعة او سنبلة — تقول وحده ولا شريك له

« الله الصمد » ، الصمد لغة : هو السيد وكبير القوم الذي ترجع اليه الناس في حوائجها وتمد اليه يد الحاجة كما قال الشاعر :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد — بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

والله « لفظة الجلالة » مبتدأ « والصمد » خبر له ، وهذا الخبر المعرّف « بأل » اشارة الى حصر الصمدية فيه كقولك : « زيد العالم » مخاطباً لمن ظن ان غيره أيضاً عالم ، وانت باضافة « أل » الى كلمة العالم رفعت عنه هذا الظن وأفهمته أن العلم محصور بزيد وليس غيره عالماً . كما ان هذه الآية أيضاً تحصر الصمدية بالله تعالى وتقول : ان جميع حاجات الخلق يجب أن تكون متوجهة اليه ولا تمدّ يد الحاجة إلا اليه ، وتعلمنا ان جميع المسببات تنتهي اليه ، وان كافة الفيوضات الوجودية في العالم هي من رشحات وجوده تعالى وتقدس .

وعلى هذا فاذا أراد انسان تحصيل سبب يجب أن يبحث ويفتش عن الطرق المرتبطة بالذات المقدسة ليعلم عن نظر وتدبر في المخلوقات أن فيض الوجود الموهوب من ذات واجب الوجود وكيف يصل في المجاري الطبيعية من الأسباب الى المسببات

ويعرف أيضاً أن الأسباب كلها تأتي بالعرض وبالنتيجة تنتهي الى ذات واجب الوجود .

والى هذا أشار سيد الموحدين أميرالمؤمنين عليه السلام في بعض فقرات دعاء كميل بن زياد (ره) حيث قال : « إلهي من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري » .

وقال خيام في بعض رباعياته إشارة الى هذا المعنى ما تعريبه تقريباً :

إلهي أنت الفاتح افتح لي البابا　　وأنت الذي تهدي أهدني نهجك الراقي
فلست لمن يبغي يدي باسطاً يدي　　فكلهم فان وما غيرك الباقي

والحاصل من هذه الآية الشريفة ان المرء لدى الحاجة وطلب أي نوع من المسائل والمشاكل يلزم ان يقدّم عرائضه وطلباته الى الله تعالى بنفسه دون أي وسيط من ممكنات خلقه . وهذا التعليم الحكيم يشير الى بطلان طريقة النصارى من غفران الذنوب بواسطة القسس والآباء .

فقد جاء في انجيل يوحنا . الاصحاح العشرون « عدد » ـ ٢٣ . من تعليم عيسى «ع» لتلاميذه ما مضمونه : « إن رؤساء الدين هم يغفرون الذنوب لمذنبيهم وذلك ان مرتكب الذنب اذا جاء الى رئيس الدين واعترف بذنبه ثم طلب المغفرة فان عفا عنه فقد غفر ذنبه وإلا فهو باق فى العذاب الأبدي كما هو صريح في هذا الباب » واليك نص العبارة : « من غفرتم خطاياه تغفر له ومن امسكتم خطاياه أمسكت ، وعلى قوله كما ورد فى انجيل متى . الاصحاح ١٨ . عدد ١٨ : « الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء » . فقد أعطيت القسس ورؤساء دينهم السلطة المالية بعد السلطة الربوبية وان سائر أفراد البشر وان كانوا من ذوي النفوس السامية وكانت مرتبتهم فوق مرتبة ' القسيسين فيجب عليهم أن يكونوا مكتوفي الأيدي تحت سلطة هول القسس . وبالطبع لم يتمكن ذلك المذنب المسكين

« عند النصارى » ان يستغفر ذنبه أو ان يجد غير القس واسطة يعرض ذنبه بسببه على الله ليكشف الغفران والصحة مما اقترفت يداه .

ثم إن هـذه الآية الشريفة أيضاً تعلمنا أن ذاته القدسية سبحانه كما انها تتصف بالصمدية بالنسبة الى أمور الانسان الشخصية كذلك تكون تلك الصمدية بالنسبة الى تحديد الحدود العامة ووضع أصول الشرايع . فعلى الانسان ان يرجع في جميع حدود الأعمال العامة اليه ، وان يجعل أوامره تعالى هي ميزان الموازين وأصل الأصول فلا يقر لأحد شرعة سوى شرعته كما قال تعالى : « قل إن الهدى هدى الله » (١) .

(لم يلد ولم يولد) .

لما كان التوليد والتولد من لوازم الذات التي ركب مزاجها وحصل الانفعال فى أجزائها بعضها في بعض كان ذلك ممتنعاً فى ذات واجب الوجود وحاصل فى الممكنات فقط ، لذلك فقد جاء القرآن منزهاً لله عزوجل عن صفة الممكنات ومشيراً الى فساد عقيدة المسيحيين وتثليثهم وبطلان قول المشركين بالتعدد ، أو إنه له ابن او بنت أو غـير ذلك من الأقوال الغير المعقولة كقول الله تعالى عنهم : (اتخذ الرحمن ولدا) . وكما يشير في مواضع أخر الى سخافة تلك العقيدة بقوله : (لقد جئتم شيئاً أدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـدا) (ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ان كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) «٢» « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » «٣» . وقال سبحانه : « فجعلوا بينه

«١» سورة ال عمران الآية ٧٣ .
«٢» سورة مريم الآية ٨٨ — ٩٥ .
«٣» سورة مريم الآية ٨٧ ،

وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون » «١» ، وفي آخر هذه السورة أي سورة الاخلاص جاء بالكلمة الجامعة السالبة لجميع صفات الممكن من تعدد ومماثلة عن تلك الذات المقدسة حيث يقول : (لم يكن له كفواً أحد) .

حكمة معادلة سورة التوحيد

لثلث القرآن

لقد سبق أن قلنا إن الرسالة المحمدية بنيت على ثلاثة أركان وإن أعظمها التوحيد ولما كانت هذه السورة المباركة هي المتكفلة لبيان هذا الركن العظيم وقد أدت حق التوحيد كما هو على اختصارها وإيجازها فلا استبعاد ولا غرابة إذا ما وردت الأخبار بمعادلتها لثلث القرآن ، ومعنى ذلك إن كل من تلا هذه السورة متأملا ما فيها من الحقائق عن إدراك وبصيرة معتقداً بما ورد فيها من لوازم التوحيد كان في الحقيقة كمن ادرك ثلث الرسالة الاسلامية وهو بلا ريب ثلث القرآن الذي هو عين مباني الرسالة ، بل هو المرسل الحقيقي وهذا هو المعنى المقصود من الأخبار والحكمة في ذلك .

«١» سورة الصافات الآية ١٥٧ ـ ١٥٨ .

صفات الله

في نظر القرآن

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) «١» .

من البديهى ان العلم من الكمالات الوجودية وقد ثبت لكثير من الممكنات فاذا لم يثبت العلم لله تعالى لزم أن يكون الممكن أكمل من الواجب وهذا مستحيل فيكون الباري تعالى متصفاً بصفة العلم بالضرورة . ثم إنا نرى أن هـذا النظام التام في عالم الممكنات وهذا الاتقان والاحكام فى الموجودات لا يمكن ان ينشأ عن مصدر جاهل لا شعور له . ولو لاحظنا الروابط والنسب بين النجوم الثابتة وحركات الكواكب السيارة على النهج المستقيم المقرر فى مداراتها المعينة ودوران الكرات فى مناطقها على نظام خاص بحيث تتولد الفصول الأربعة . ثم تأثير تلك الاجرام من حرارة وبرودة في عالم الموجودات المادية ومعرفة الثواني والدقائق والساعات والشهور والسنين من تلك الحركات المنظمة وصدور الأمور العجيبة فى الكون من اقتران تلك الكواكب واقترابها وابتعادها على ذلك الوضع المتقن الذي لوحصل فيه أقل خلل وانحراف عن محالها المقررة لظهر في العالم اختلال عظيم، لعلمنا بل ويعلم كل ذي أدنى شعور واحساس أن خالق هذا العالم العجيب ومبدع هذا النظام الحكيم المتقن الذي لا يسع بيانه هذا المختصر بل ولا المطولات من الكتب لا يعقل أن يصدر عن خالق غير عالم . ومن تصوره جاهلا فاقد الشعور فهو ولا شك سفيه مختل الدماغ او معاند مكابر عرف الحق فحاد عنه . على ان شواهـد

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

علمه تعالى لم تقتصر على اتقان النظام العلوي الفلكي وإحكام حركات الاجرام السماوية فقط ، بل هي محسوسة موجودة في جميع الموجودات علوية وسفلية من حيوان ونبات وجماد .

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

وقد فصّل ذلك علماء النبات في كتبهم ، وهو غيض من فيض وقطرة من بحر مما اودع الخالق المبدع في مخلوقاته من دلائل التوحيد الظاهرة والباطنة .

قال « ميلن ادوارد » أحد علماء الحيوان : إن حيواناً يسمى (اكسيلوكوب) يعيش في فصل الربيع فقط فاذا ما باض مات من ساعته ، لذلك ولرحمة الخالق بفرخه فانه يلهم ذلك الحيوان قبل أن يبيض ويموت أن يعمل لفرخه بيتاً كبيوت قوم عاد ، غير ان قوم عاد كانوا يبنونه في الجبال وبين الأحجار وهذا الحيوان يعمل بيته بين الأخشاب والأشجار ، وكيفية بيته أن يحفر أولا قطعة من الخشب حفراً مستطيلا ثم يملأ مقداراً من ذلك الحفر بالأزهار والأوراق الحلوة الطعم السكرية ، ثم يسقف ذلك الحفر المملوء بالأزهار والأوراق بمسحوق الخشب ممزوجاً مع الرطوبات اللعابية حتى يكون سقفاً محكماً ، وهكذا يعمل عدة مخازن على هذا المنوال ثم يبيض فيموت وقد خلف لفرخه منزلا جيداً وغذاءاً كافياً حتى يكبر . والسر فى عمل هذا الحيوان مفهوم حيث اذا ما فقست البيضة وخرج الفرخ رأى عيشه حاضراً لمدة سنة حتى يمكنه الطيران ، فاذا صار فى فصل الربيع عمل كما عمل أبوه أو أمه لفرخه فيموت ، وهكذا دواليك .

قال الكاتب : (إني شاهدت هذا الحيوان بنفسي إذ كانت لدي مروحة يدها من سعف النخل وقد كنت احياناً أسمع في داخل مقبضها الخشبي صوتاً خفيفاً لم أعرف مصدره حتى كنت ذات مرة أتروح بها وإذا بظهور ثقب صغير فى مقبضها وإذا بشيء أسود يظهر في الثقب لذلك فاني وسعت ذلك الثقب فرأيت

حيوانا صغيراً بقدر الزنبور (النحل) له أجنحة وريش خرج من الثقب وأخذ يتحرك ويمشي . ثم نظرت الى حفرة الثقب وإذا مستطيلة فعلمت إن ذلك الصوت الذي كنت أسمعه منها تلك المدة كان من هذا الحيوان .

فانظر وتأمل في هذا الحيوان الصغير وما لديه من المهارة والعلم فى صنعه ، كيف رتب حفرته بهذا الاتقان وكيف جمع لفرخه ما يكفيه مدة سنة حتى يقوى على الحركة دون زيادة أو نقصان . أترى من العقل أو الادراك أن يتصور ذو شعور في خالق هذا الكون العظيم بهذا الاتقان والنظام والحكمة انه عديم الشعور كالجمادات ؟ (فتباً لمن تفوه به) .

وإشارة الى هذا فقد قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١) :

ومن جملة العجائب خلق النحلة ، ذلك الحيوان العجيب الذي قال علماء الحيوان فيه : (انه إذا امتص فى أول النهار وردة متفتحة فلا يمتص إلا أمثالها من الأزهار ولا يمتص غيرها أبداً . والحكمة في ذلك الالهام .

(أولا) أن المواد العسلية التي تتولد في الزهرة قد تتولد فى بعضها في مدة ثانية واحـــدة وقد تتكون في أكثر وفي أقل فاذا ما اختلف على النحل امتصاص الأزهار أوجب تعب ذلك الحيوان أولا ، وقد تختلف المواد العسلية فلا يحسن عسلها فكان ذلك الاستمرار على الزهور المفتحة أول النهار سبباً لتحسين عسلها وقلة تعبها .

(ثانياً) انه لما كان من المعلوم ان الأزهار كغيرها من النباتات فيها ذكور وأناث تلقح من الذكور ، فاذا ما جلست النحلة على الزهرة الذكر تعلقت بأرجلها من تلك الزهرة أجزاء صغار ثم جلست على الزهرة الأنثى وألقت ما في

«١» سورة الملك الآية ١٤ .

أرجلها عليها سببت تلقيحها بتلك الأجزاء من الذكر ، خلاف ما اذا جلست على غير جنسها التي لم تلقح بتلك الأجزاء ، وهـذا أيضاً من الحكم الخفية الدالة على عظمة الخالق والخلق (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ولأجل هذا فقد سأل الفتح بن يزيد الجرجاني الامام السابع موسى الكاظم عليه السلام وقال يا بن رسول الله : إني وان كنت أعلم أن لطف الله تعالى خلاف لطف العباد ولكنني أحببت أن تشرح لي لطف الله سبحانه وتعالى .

فقال له الامام عليه السلام : إن الله لطيف بالخلق يعلم الأشياء اللطيفة ، ألم تر لطف صنعه في النباتات اللطيفة وغيرها من الحيوانات الصغيرة كالذباب والبق وغيرهما من الحيونات الصغيرة التي لا تراها العين المجردة والتي لا يميز ذكرها من أنثاها وجديدة الولادة منها مع قديمها ؟ ومع ذلك فانها تميز هي الضار لها والنافع وتهرب من المهلكات خوفا على حياتها وتجلب النافع لصلاحها ويعرف بعضها لغات بعضها ثم تفهم أفراخها وتتفاهم معها وتنقل غذاءها الى غير ذلك من لوازم الحياة ، فسبحانه من حكيم لطيف خبير .

الله قديم أبدى

هو الأول والآخر

إن القدم والأزلية من أحكام واجب الوجود وإلا لكان حادثاً والحادث هوماسبق بالعدم ، وكل مسبوق بالعدم يحتاج في تحقق وجوده الى علة وإلا لزم ترجيح المرجح بلا سبب وهـــذا محال . فاذا لم يكن واجب الوجود قديماً احتاج في وجوده الى موجد . وقد سبق في عنوان التوحيد أن واجب الوجود واجب لذاته ، فاذا فرض أنه حادث وفرض أيضاً أنه واجب حصل التناقض وهذا محال .

ومن أحكام واجب الوجود دوام عدم طرو العدم على ذاته وإلا لزم انفكاك ذات واجب الوجود عن ذاته وهذا يستلزم سلب الشيء عن نفسه وهو بالبداهة محال . وإن هذه الآية المباركة (هو الأول والآخر) لتثبت قدمه وبقاءه وتنفي طرو البطلان والعدم عليه بهاتين الكلمتين .

الحي

« الله لا إله إلا هو الحي القيوم »

إن معنى الوجود وإن كان من البديهيات العقلية غير انه قد يعبّر عنه بالظهور والثبات والاستقرار ، ومن المعلوم ان كمال الوجود وقوته بكمال هـذا المعنى وقوته . وعليه فكل مرتبة من مراتب الوجود يجب بالضرورة أن يستتبع أموراً من الصفات الوجودية بامور التي هي من كمال تلك المرتبة في الوجود وإلا فلا تكون تلك المرتبة ، فلو وجدت عقلا مرتبة من مراتب الوجود هي مصدر كل نظام ومنشأ قاطبة المراتب الوجودية كانت بالضرورة أكمل وأعلا وأقوى وأرفع من جميع المراتب . ولما كان واجب الوجود هو مصدر كل وجود ممكن وكانت كل مرتبة من مراتب الوجود والكمالات الوجودية المتشتة المتفرقة في الممكنات هي في تلك الذات الواجبة موجودة على نحو الجمع والبساطة ، لزم أن يكون أقوى وأعلا وأرفع ، ووجب أن يكون بمرتبته مستتبعاً من الصفات والكمالات الوجودية ما يناسب تلك المرتبة العليا . وعليه فكل صفة يتصورها العقل هي من كمالات الوجود ويعلم انها ممكنة الثبوت للوجود من حيث هو وجود يلزم أن يثبتها لمرتبة الوجود الواجب بنحو البت واللزوم .

ومن تلك الصفات الواجبة الثبوت على الذات القدسية الواجبة هي : الحياة ، لأن الحياة وما يلزمها من الارادة والعلم هي مصدر النظام وناموس الحكمة العالية ، وفي أي مرتبة كانت فهي مبدأ ظهور كمال تلك المرتبة . إذاً فالكمال وجود يلزم لذات الواجب أن تتصف به وإلا لزم أن يكون في الوجودات الممكنة وجود هو أكمل من الواجب ، والحال أن الواجب هو أكمل جميع الوجودات وهو معطي الوجود والكمالات الوجودية وكيف يكون معطي الشيء فاقده .

الله هو المريد

(إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)

إن من الأحكام اللازمة الثبوت لواجب الوجود هي الارادة ، والارادة هي : مبدأ تخصص فعل الفاعل بأحد الوجوه الممكنة ، ومن البديهي المعلوم ان كل موجود لابد وأن يكون له قدر مخصوص وصفة معينة وزمان ومكان خاص ، وهذا مسرح الأمور الممكنة فى كل موجود وهو المسمى بالتخصص . ثم إنا بعد أن أثبتنا أن ذات واجب الوجود عالم ، وأن كل ممكن خرج من خفايا العدم الى عرصة الوجود لا بد وأن يكون وفق علمه تعالى فان الارادة تثبت حينئذ بالضرورة . لأن هذه التخصصات التي تنطوي تحت نظام واحد غير قابل التشويش والاختلال بالبداهة كاشفة عن مبدأ تلك التخصصات ولا نعني من الارادة إلا هـذا .

الله قادر

« وكان الله على كل شيء قديراً » «١»

من الأمور التي هي واجبة الثبوت على ذات الباري تعالى القدرة وهي عبارة عن تمكن الفاعل من الايجاد والعدم .

ولما كان واجب الوجود هو مبدع الكائنات وموجد قاطبة الموجودات الممكنة من كتم العدم الى عرصة الوجود على طبق علمه وإرادته كان ولا شك قادراً ، إذ لا يعقل ان يصدر العالم المريد معلومه ومراده بلا قدرة وتمكن وسلطة منه على ذلك ، وليس معنى القدرة إلا هذا السلطان . وهذه التعاليم القرآنية الموافقة لجميع العقول السليمة البشرية تثبت لذات واجب الوجود تلك الأمور الضرورية الثبوت ، وتسلب عنه كل أوصاف الوجودات الامكانية الممتنعة الثبوت بالنسبة اليها . ثم تنزهه ذاتاً وصفة عن لوث لوازم الجسم والجسمية وتقدسه عن كل نواقص الامكان بكل معنى الكلمة .

يقول القرآن المجيد بكلمة موجزة : (ليس كمثله شيء) ، : (ولم يكن له كفواً أحد) . والآن فلنقس هذه التعاليم بتعاليم العهدين لدى المسيحيين في هذا الموضوع .

« فنقول »

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٦ .

مقايسة تعاليم القرآن المجيد

في ذات الله وصفاته

مع تعاليم العهدين عند المسيحيين

· فى الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين عدد ، (٢٢) فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال له : أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال : لا أطلقك إن لم تباركني . فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : « اخبرني باسمك فقال لما ذا تسأل عن اسمي وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلا لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي .

ولما جاوز فنيئيل طلعت عليه الشمس وهو يخمع على فخـــذه ، ولأجل هذا فأن بني إسرائيل حتى اليوم لا يأكلون عرق النسا الذي في الفخذ الأيمن ذلك لأن عرق النسا من فخذ يعقوب كان قد لُمس ، انتهى مضمونه .

وحاصل تعليم هذا الفصل فى التوراة : هو أن الرب كان مصارعاً عاجزاً لأنه صارع أحد مخلوقاته الى الصبح فلم يفز عليه في صراعه ، ثم التمس منه أن يتركه فلم يدعه حتى بارك له ، وبالأخير بارك له مجبوراً ليخلي عنه .

هكذا ورد في هذا السفر العجيب على أن من البديهي المسلم أن الغرض الأصلي والمقصد الأهم من بعث الرسل وإنزال الكتب ليس إلا تكميل النفوس البشرية في جنبتي الحكمة النظرية والعملية ، ومن اللازم العقلي والواجب على النبي

المرسل من قبل الله أن يبذل جل مساعيه في تقوية هاتين الجنبتين بكل معنى الكلمة وأن يقيم البراهين المنطقية المعقولة لاثباتها في النفوس الناقصة المستعدة ذاتاً للتدرج بمدارج الكمالات واكتساب الأخلاق الفاضلة .

ومن هذا يلزمنا عقلا أن نقول : إن الكتاب الالهامي المنزل على هذا الرسول من الله تعالى لا بد وأن يكون حاوياً للتعاليم المصلحة للبشر وللقوانين الصحيحة المنورة للفكر والحافظة لمدنية الجامعة الانسانية . وأن تذكر من صفات الباري عزوجل تعاليماً يؤيدها العقل السليم في تنزيه ذاته المقدسة من لوث الجسم والجسمية وعن مشابهة الموجودات الممكنة البتة .

وبالجملة فان الكتاب الالهي السماوي يجب أن يكون معدن الأخلاق والكمالات ليستفيد الناس وتستفيض من إرشاداته وأوامره ونواهيه وأن تتأدب بآدابه الحسنة ، لا أن يكون مشتملا على أمور غير معقولة وخرافات تزل العقول البشرية عن الجادة المستقيمة ، وتوقع النفوس في بحر الضلالة وتضلها في بيداء الحيرة والهمجية .

فلو وجد هكذا كتاب مشتملا على خرافات ومزخرفات غير معقولة لا بد وأن لا يكون كتاباً سماوياً ولا وحياً إلهامياً نازلا عن الله تعالى ، وإذا سمي بهذا الاسم أي قيل له كتاب سماوي فذلك غلط في غلط وجناية على العقول لا تغتفر .

تعساً لتلك العقول الآسنة والنفوس الساقطة التي تعد أمثال هذه الخرافات والترهات المجعولة ـ التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ كتاباً مقدساً ، وتعتبرها منزلة من الله تعالى ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الله في نظر التوراة

مع ملكين ظهرا لابراهيم

يأكل الخبز والزبد والعجل المشوي

في الاصحاح الثامن عشر من سفر التكوين ﴿ أن ابراهيم بينما كان جالساً في يوم حار على باب خيمة إذ ظهر له ممر ولما رفع طرفه إذا بثلاثة رجال أمامه فأسرع لمقابلتهم وأجلسهم على الأرض ﴾ ثم قال : « أي مولاي الآن وقدصرت منظورك فاعف عن عبدك وليأتوا لك بالماء لتغسل رجليك ثم تستريحوا تحت الشجرة ولنقدم لقمة خبز لتقوى قلوبكم ثم تذهبوا حيث هذا الأمر صار مروركم على عبدكم »
فقالوا له : « افعل ما قلت » .

فأسرع ابراهيم الى الخيمة الى زوجته سارة وقال لها : « لتحضري لنا ثلاثة أكيال من الطحين بكل سرعة ثم اعجنيها واخبزيها ، ثم ركض نحو البقرة وأخذ عجلا رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم ، ووقف هو قبالتهم تحت الشجرة الى أن فرغوا من الاكل

ثم يقول في ذلك السفر أيضاً : « ثم ذهب ملكان وبقي ابراهيم في حضرة الرب واقفاً » .

ثم يذكر في الباب التاسع عشر منه ما حدث بين الرب وابراهيم من الكلام والرد والنقض والابرام . وفي أول الباب المذكور يكتب : « وعند العصر ورد ذانك الملكان الى السدوم .

وفي الباب السابع عشر يقول : ﴿ وإن الرب ظهر لابراهيم وقال له :

« أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملا » . وهكذا يذكر مطالباً كثيرة وأموراً زائدة حتى كتب فى الفقرة الثانية والثلاثين : « إن الرب لما فرغ من كلامه مع ابراهيم صعد الى السماء » .

وبالجملة فان أمثال هذه الكلمات فى التوراة كثيرة ، ولا يشك كل إنسان عاقل منور الفكر أن هذه الفقرات وأشباهها دليل واضح على ان التوراة الأصلي لا وجود لها ، وأن مافي أيدي الناس مما يسمونها توراة موسى أو انجيل عيسى ليست إلا كتب مجهولة لا ربط لها بعالم الربوبية ، وما هي إلا موضوعات لنفر من طالبي الشهرة والرياسة الدنيوية والأغراض الشخصية ، لذلك تراهم لا يتوقفون عن الكذب ، ولا يتحرجون من كل ما ينسبونه الى ذات الباري المقدسة .

اعتراض مسيحي

قال المسيحي معترضاً : إذا كانت أمثال هذه الكلمات في التوراة أو في أي كتاب آخر دليلا على أن ذلك الكتاب مجهول موضوع وانها كاشفة عن أن ذلك ليس بكتاب سماوي فان وقوع أمثالها فى قرآن المسلمين كثيرة كآية « الرحمن على العرش استوى » «١» وآية « يد الله فوق أيديهم » «٢» « وجاء ربك والملك صفا » «٣» ، وغيرها مما تثبت جسمية الله ووجود حيز لذاته تعالى لدليل واضح كاشف عن أن هذا القرآن أيضاً موضوع مجهول مثل غيره .

«١» سورة طه الآية ٤ .
«٢» سورة الفتح الآية ٩ .
«٣» سورة الفجر الآية ٢٠ .

جواب محمدي

قال المحمدي مجيباً : إن القرآن المجيد كما ذكرناه مفصلا ليثبت لله تعالى أموراً ضرورية الثبوت ويقدسه وينزه ذاته عن كل صفة من صفات الممكنات من جسم وجسمية وما الى ذلك ، بل لا توجد آية في سورة من سور القرآن يحتمل فيها الاشارة الى التلميح الى ما يشينه تعالى أو تنسب الى ذاته القدسية ما ينافي الربوبية المقدسة .

وليس اعتراض هذا المعترض مستشهداً بالآيات الثلاثة التي ذكرها إلا عن جهل المعترض باللغة العربية وعدم اطلاع بمغازي الألفاظ ومراميها كما يريدها القرآن وتفهمه العرب .

ونحن لدفع اعتراضه ورفع الشبهة نكتفي ببيان معنى هذه الآيات الثلاثة لغة وعرفاً إذ لا حاجة لنا بعد ذلك في رده الى دليل آخر أو برهان ثان .

أما الآية الأولى فانا إذا فسرنا مفرداتها عرفنا معنى الجملة المركبة منها بكل وضوح ، وليس في مفرداتها ما يحتاج الى تفسير سوى كلمتي « عرش » و (استواء) أما العرش فهو يطلق على الجسم المحيط بالأجسام كلها وهو أحد مخلوقات الله العظيمة كما يشير الى ذلك في آية أخرى وهي قوله : « رب العرش العظيم » وأهل المعقول يدعونه : « بفلك الأطلس » و « محدد الجهات » . أما الاستواء فهو لازم ، متعد بأحدى حروف الجر ، فاذا تعدى « بعلى » كان له معان متعددة : منها الاستيلاء والتملك ، كما ذكر ذلك « الأب لويس » المسيحي في كتابه (المنجد) في الطبعة الخامسة في مادة « سوى » حيث يقول استوى عليه أي استولى وظهر ، واستوى على سرير الملك كناية عن التملك ، فيكون معنى الآية على هذا .

أن الله المتعال مستول ومالك لجميع العوالم الجسمانية ، وكل عالم صغير وكبير

هو مخلوقه لا فرق بين الجميع فى شمول الفيض الرحماني والنفوذ الآلهي ، قد عمت سلطنته وقدرته الصغير والكبير دون أي خلل أو فساد في النظام الأصلح من فيض الوجود كما تشير اليه الآية المباركة وهو قوله تعالى : « ما ترى في خلق الله من تفاوت » «١» .

وقد روي عن الامام السابع موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى كلمات الآية اللغوية كما في الصافي قوله تعالى : (استولى على ما رق وجل) وكما قيل عن أمير المؤمنين (ع) : (استولى تدبيره وعلا أمره) .

والخلاصة أن هذه الآية الحكيمة تعلمنا أن ذات واجب الوجود لها القدرة الكاملة التي لا تفرق بين أي خلق من مخلوقاته ، ولا حد لها كقدرة الممكنات التي تختلف باختلاف الأسباب والمسببات صغراً وكبراً .

أما الآية الثانية وهي قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) فان لليد في لغة العرب معان متعددة : منها العضو المعروف في بدن الانسان ، ومنها القدرة والسلطة كما في كتاب (المنجد) (للأب لويس) يقول في مادة (يد) اليد أيضاً : القدرة والسلطان يقال (مالك عليه يد) اي ولاية .

فعلى هـذا يكون معنى الآية أن قدرة الله وسلطانه فوق كل قدرة وسلطنة ، وأن قدرة جميع الممكنات وقوتها هي عدم ولا شيء في جنب قدرته وقوته .

أما الآية الثالثة وهي قوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا) فان مرسوم العرف ومتعارف الناس إذا ما رأوا جند الملك وعساكره وظهرت لهم آثار قدرته وغلبته أن يقولوا جاء السلطان ، وكذلك هذه الآية المباركة . (فان الله عزوجل إذا ماجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد وحشر الخلق لانجاز وعده ووعيده كما قال تعالى : (ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ٢)

---

(١) سورة الملك الآية ٢٠ .

(٢) سورة الزلزلة الآية ٦—٧.

ثم جعل قضاء ذلك اليوم وحكمه بالعدل لنفسه وحده وصفت ملائكة الرحمة وملائكة الغضب بأمره . هذا وقد عم الجميع آثار القهر والغلبة والغضب كما يقول عز من قائل : (وجيء يومئذ بجهنم) وكانت آثار الهيبة الآلهية والجلال الربوبي ظاهر ومتجل للعالم أجمع .

كل هذه الأمور إذا كانت ظاهرة ، وجميع هذه الآثار إذا تجلت بادية ظُن وتخيل أن الله ظاهر . فكأن هذه الآية لوحظ فيها المعنى العرفي الذي يصطلحون عليه عند ما يشاهدون عساكر السلطان وتظهر لهم قدرته وغلبته ، فيقولون : جاء السلطان وجلس في المكان الفلاني .

ولا غرابة فان أمثال هذه الكنايات العرفية ومصطلحات المحاورات العامة كثيرة تفوق حد الحصر كما في قوله تعالى في غير هذا المحل : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » (١) على أن الداخل هم جنودهم والمفسدون هم عساكرهم لا شخص السلطان أو الملك ، لكن لما كانت تلك الحركات والأفعال بارادة السلطان وأوامره نسب ذلك الفعل والفساد اليه .

هذه التفاسير التي ذكرناها هنا لدفع تلك الشبهات وذلك الاعتراض لم تكن إلا معنى كلمات تلك الآيات ، وليست هي توجيه وتأويل لها ، حتى يمكن للمعترض أن يقول نحن أيضاً نؤوّل أعداد توراتنا وانجيلنا ، وعلى فرض أنه يمكن للمعترض أن يؤول اعداد كتابه فاللازم أن يكون هناك مناسبة معقولة بين المؤول والمؤوّل اليه .

والآن فاحكم أنت بينك وبين وجدانك كيف تؤول قولهم : (إن الله تعالى يأكل العجل المشوي والحليب والزبد والخبز ، وإن ابراهيم يغسل رجل الله وإن الله يجلس تحت الشجرة ثم يصعد الى السماء بعد أن يفرغ من حديثه وكلامه مع ابراهيم .

وهل يحتمل من عنده أقل شعور أن يصدق ذلك عقلا أو وجداناً أو عرفاً ؟ أو ليس هذا يدل على أن توراة هؤلاء المعترضين يقول بان الله جسم وهو أحد

(١) سورة النمل الآية ٣٣ .

الممكنات ، أو ليس هذا هو أحد المخالفات الصريحة للعقول ؟ ! وهل يمكن أن ترى كتاباً يقول بهذه المقالة ثم تعترف بانه سماوي من الله ؟ ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وإذا بلغنا الى هـذا الحد فلنذكر لك بعض صفات الله تعالى في العهدين ثم نطبقها و نقيسها بالتعاليم القرآنية في هذا الموضوع .

الله في توراة مسيحي هذا العصر

جاهل كذاب خائف من العباد

في الباب الثالث من سفر التكوين في قصة ظهور ترك الأولى من آدم وحوا ومفارقتهما للجنة مكتوبة هذه الكلمات الآتية :

﴿ ١ ﴾ الحية التي هي أذكى جميع حيوانات الصحراء التي خلقها الله تعالى قالت للمرأة حواء : ﴿ أحقاً ان الله قال : ﴿ لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ ﴾ .

﴿ ٢ ﴾ قالت المرأة للحية : نحن نأكل من ثمار أشجار الجنة .

﴿ ٣ ﴾ لكن الله قال : ﴿ لا تأكلوا من ثمرة الشجرة التي في الوسط ولا تلمسوها لئلا تموتوا ﴾ .

﴿ ٤ ﴾ قالت الحية للمرأة : انكم لا تموتون .

﴿ ٥ ﴾ بل إن الله يعلم انكم في اليوم الذي تأكلون منها تفتح أعينكم فتكونون كالله عارفين بالخير والشر .

﴿ ٦ ﴾ ولما رأت المرأة أن تلك الشجرة جيدة للأكل وجميلة في نظرها ، وكانت الشجرة جاذبة للقلب منعشة للنفس أخذت من ثمرها وأكلت ثم أعطت زوجها فأكل

﴿ ٧ ﴾ وفي الحين فتحت عيناهما كلاهما وعرفا أنفسهما عريانين فأخذا من ورق التين وخاطاه ستراً ولباساً لهما .

﴿ ٨ ﴾ وسمعا صوت الرب عند هبوب نسيم الربيع في البستان فتواريا بين الاشجار

﴿ ٩ ﴾ فنادى الرب آدم وقال : « أين أنت ؟ » .

(١٠) لما سمعت صوتك في الجنة خفت لأني عريان فتواريت عنك .

﴿ ١١ ﴾ من أطلعك انك عريان ؟ أهل أكلت من تلك الشجرة التي نهيتك عن الأكل منها ؟ .

﴿ ١٢ ﴾ إن هذه المرأة التي خلقتها قرينة لي هي التي أعطتني من ثمرة الشجرة فأكلت .

﴿ ١٣ ﴾ فقال الله للمرأة : « ما هـذا الذي عملتيه ؟ قالت : الحية أغوتني فأكلت » انتهى .

وفي عدد (٢٢) من هذا الفصل يذكر هذه الكلمات : إن الرب قال : « إن الانسان أصبح مثلنا يعرف الحسن والقبيح إذاً فلا ينبغي أن يمدّ يده فيأكل من شجرة الحياة أيضاً فيبقى حياً الى الأبد .

« ٢٣ » ثم إن الرب أخرجه من جنة عدن ليعمل في الأرض ذلك العمل الذي أخذ عليه ، ثم أخرج آدم وأسكن الكروبيان في الطرف الشرقي من عـدن ، ثم كان السيف المشتعل يطوف في كل الجهات ليحافظ على طريق شجرة الحياة .

إن صريح هذه الكلمات لتنسب إلى ذات الرب المقدّسة أموراً يأباها أخس مخلوقاته الممكنة ، ولا يرضى بأن تنسب اليه .

« ١ » كانسبات الكذب الى ذاته المقدسة عن كل رذيلة من الصفات كقوله تعالى لآدم : (إذا أكلت من هذه الشجرة تموت) على أنه أكل ولم يمت بل إزدادت معرفته وروحانيته ، ثم تقدم من درجة البهيمية التي لم تميز بين الحسن والقبيح الى درجة الانسانية الكاملة حتى التفت الى قبح عريه .

وعلى هذا فلا يمكن لأولئك المعترضين أن يقولوا بأن القصد من الموت الذي ذكره الله هنا الموت الروحاني لا الظاهري بعد أن علما « آدم وحوا » أنهما أكلا من تلكم الشجرة أصبحا مميزين بين الحسن والقبيح وازدادت . روحانيتهما وحياتهما .

(٢) مما نسبت تلك الكلمات الى ذات الرب تعالى هو الجهل وعدم العلم تقول إن آدم وحواء تواريا خلف الشجرة كيلا يراهما الرب وهو يتمشى في الجنة .

(٣) نسبتها الخوف اليه تعالى تقول إنه خاف من آدم أن يأكل من شجرة الحياة فيصبح أحد الأرباب الذين يخشى منهم على سلطانه ولذلك أخرجه من الجنة .

(٤) إثبات الجسمية له إذ تقول إن آدم سمع صوت الله مع نسيم الريبع في الجنة وأعجب من كل هذا نسبة العشق والمغازلة اليه . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

عشق الله ومغازلته النساء

حسب كتابة التوراة

في الاصحاح الرابع من نشيد الانشاد :

(ها أنت جميلة ياحبيبتي ، ها أنت جميلة عيناك ، حمامتان من تحت نقابك ، شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد ، أسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متئم وليس فيهن عقيم ، شفتاك كسلكة من القرمز ، وفمك حلو ، خدك كفلقة رمانة تحت نقابك ، عنقك كبرج داود المبني للأسلحة ألف مجن علق عليه كلها أتراس الجبابرة ، ثدياك كخشفتي ظبية توأمين يرعيان

بين السوسن الى أن يفيح النهار وينهزم الظلام . الى آخر الاصحاح المملوء بأمثال تلك الأحاديث والمزخرفات .

فاذا كان الله ـ نعوذ بالله ـ مغازلا فانه ـ واستغفر الله ـ لا يفهم التشبيه في مغازلته لأن كل شاعر صاحب ذوق لا يمكن أن يشبه شعر محبوبه بقطيع المعز ولا أسنانه بقطيع الغنم منزوع الصوف ، كما لا يوجد أي سليقي ذا ذوق من يشبه العنق بالبرج أو النهود بفرخي الغزال . أترى هل يمكن أن يقال إن أمثال هذه المزخرفات هي عن قدس الله تعالى وعدله ؟ حاشا ثم حاشا .

فان هذه الأقوال وأمثالها لأكبر دليل على أن العهدين الجديد والقديم لا ربط لها بعالم الربوبية ، وانها منذ تأسيسها من أعمال شرذمة من الرجال الذين لا علاقة لهم بالدين ولا بالمذهب قد وضعوها باسم الوحي والالهام ، ونشروها بين الناس لترويج أغراضهم الباطلة ومراميهم الدنيوية الخسيسة . والشاهد على صدق هـذا المطلب وهذه الدعوى هو وجود النشيد والغزل السليماني . وإن كتاب (استير) لم يوجد فيه مطلقاً اسم لله تعالى ولا في موضع واحد ، فكيف تذكر فيه صفات الله وأحكامه ، بل ان الثاني هو قصة الرجل اليهودي واستير ، والأول تعريف للنساء والمغازلة معهن من الأول الى الآخر . وهذا جداً عجيب أن يكون رب العالم جلت عظمته ينزل كتاباً بواسطة روح القدس على أحد أنبيائه ثم لا يذكر اسمه ولا صفاته ولا أحكامه على الاطلاق في ذلك الكتاب ولا في موضع واحد أبداً . بل إنه بدل عن ذكر القوانين المصلحة للبشر يكون كتابه مشتملا على أمور مهيجة للباه ومنبهة للشهوات وعلى كل ما يحث المرء على القبائح .

فتعساً للرجال الذين ينسبون هذه النسب الى قدس الله عزوجل ، ثم يسمونه كتاباً مقدساً ومنزلا من الله تعالى أجارنا الله وإياكم من الوقوع فى مثل هـذا الجهل الحالك .

القرآن دستور الدين الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد .	الزمر ـ ٢٢ .

يمتاز الدين الاسلامي من سائر الأديان الآلهية باستهدافه السعادة المزدوجة واستجماعه عناصر الخلود وموجبات عموم الدعوة ، إذ أسست تعاليمه الأصلية على صرائح العقول السليمة ومقتضيات الفطرة والغرائز الانسانية الطبيعية التي تثبت فى كل زمان وتصلح لكل قوم ، فهو دين عام خالد ، صالح لكل عصر ويوافق كل أمة ، ولا يقبل النسخ ما دامت الفطرة الانسانية موجودة فى العالم ، وهو ناسخ ومكمل لما سبقه من الأديان ، شرعه الله تعالى للعباد بعد تهيئتهم للكمال الدائم بواسطة الشرايع السماوية السابقة عليه .

نعم ترقت الأقوام البشرية جيلا فجيلا وكان لها في كل مرحلة من مراحل سيرها دين يناسبها ، وأخيراً جاء الاسلام ، وقد بلغت الانسانية رشدها فكان ديناً وسطاً عرف لكل من الجسم والروح حقه ، وبنيت أحكامه على الاعتدال من غير افراط ولا تفريط ، وكان نظاماً كاملا شاملا لا يقف نفعه على الأمـة الاسلامية وحدها بل هو عام للمجموع البشري إذ قد أسس على قاعدة المساواة واحترام الحقوق ، ولذلك صارت الدعوة اليه عامة دائمية ، وكلف به جميع البشر على اختلاف قومياتهم الى الأبد .

فكان لا بد لهذا الدين الآلهي العام الخالد من قانون إلهي ودستور سماوي يسايره في البقاء والدوام بنفسه وهو كتاب الله المعجز الخالد ـ أعني القرآن الكريم ـ الذي جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية ، وهو كافل لكل ما يهم البشر لسعادته فى دينه ودنياه ، وفى الحياة الفردية والنظم الاجتماعية من أخلاق وثقافة وعلوم وتشريع .

ففي التشريع الذي ينظم جميع أمور الدولة والأمور المدنية والجنائية والأحوال الشخصية جاء القرآن الكريم بالآيات القانونية التي يسميها الفقهاء (آيات الأحكام) وهي الأساس الأول في التشريع الاسلامي . وآيات التشريع على قلتها تعرضت الى جميع ما يصدر عن المكلف من أفعال وأعمال ، فتعرضت الى العبادات من صوم وصلاة وخمس وزكاة وحج وجهاد . والى الأمور المدنية كبيع وإجارة وهبة وصلح ومزارعة ومساقات ووكالة وحوالة وربا ونحوها .

والى الأمور الجنائية : من قتل وسرقة وزنا وقطع طريق ونحو ذلك . والى نظام الأسرة وعوامل التربية والأحوال الشخصية : من زواج وطلاق وميراث ونحوها . والى الأمور الدولية كالشرع الدولي والقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم الحرب وما الى ذلك .

والقرآن بهذه الآيات القانونية وسائر آياته الواردة في الأخلاق ونظام الاجتماع قرر القوانين الكلية والأصول الدولية ، حتى تكون في نص القانون سعة بحيث يمكن أن يطبق على ما يوجد من حاجيات ، ويحدث من جزئيات تاركا تخرج أحكام الجزئيات لاجتهاد أهله يستنبطونها حسب الزمان والمكان .

هذا النظام المتقن الصنع لم يدع مجالا لعلماء أوربا دون أن اعترفوا بتفوقه على غيره من سائر كتب الأديان .

إليك شهادة (المسيو ديته فنان) فانه يحدثنا في كتابه (أشعة خاصة بنور الاسلام) يقول : (إن القرآن دون الكتب المقدسة الأخرى ، هو الكتاب

الوحيد الذي يأمر بالرفق والاحسان في الدين . جاء الى الرسول (ص) أحد بني سالم ابن عوف واسمه الحسين قال : يا رسول الله إن لي والدين مسيحيين يأبيان الدخول في دين الله وإني لمجبرهما على ذلك ، فقال له النبي (ص) : (لا إكراه في الدين) وفي هذا الباب ما جاء في سورة الكافرين « لكم دينكم ولي دين » . وجاء في سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » .

ويشهد الدكتور « غوستاف لوبون » بتفوق القرآن وحسن أدبه فتراه قائلا : « إن التعاليم الأخلاقية التي جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادىء الخلقية الكريمة ، فقد حض على الصدقة والاحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا الى الاستمساك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهد ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذي القربى ورعي الأرامل والقيام على اليتامى ، ووصى في عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة . تلك هي الآداب السامية التي دعا اليها القرآن وهي أسمى بكثير من آداب الانجيل » . انتهى ' .

وقال « داورار لوهارت » : « فالقرآن الذي أنزله الله على قلب نبيه ورسوله محمد (ص) الذي هدمت لبعثته الأصنام وتمزق لنبوته رداء الجهل الذي كان كغشاوة على أبصار العرب ، وأشرق بصقعهم نوراً يا له من نور وهو نور حكمة القرآن الذي أنزله الله على صدر نبيه المبعوث لا محالة لارشاد البشر ، والله يعلم حيث يجعل رسالته . الى أن قال : وأبقى لهم دستوراً لن يضلوا ابداً وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم » .

وقال « شبلي شميل » : « إن في القرآن أصولا اجتماعية عامة ، فيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها في كل زمان ومكان حتى في أمر النساء فانه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج واحدة عند عدم الامكان العدل ، وإن القرآن قد فتح أمام البشر

أبواب العمل فى الدنيا والآخرة ، بعد أن أغلق غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية والتخلي » .

وقال العلامة المستشرق « ماكس منين » : (كان محمد أميناً وأعدل رجل ، إن مرشد المسلمين هوالقرآن وحده ، والقرآن ليس بكتاب دين فقط بل هو أيضاً كتاب الآداب ، وتجد به الحياة السياسية والاجتماعية ، بل هو مرشد الانسان الى وظائفه اليومية والأحكام الاسلامية التي لا توجد بالقرآن توجد بالسنة التي لا تكون واضحة لا في القرآن ولا فى السنة توجد فى الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق الاسلامي) .

وقال « واشنطون » : قال « جيبون » إن أوامر القرآن ليست بمحصورة في الفروض الدينية والأدبية فقط ، فان سكان الممالك التي هي من حدود الأوقيانوس الاتلانتيكي الى الفنجس يعتبرون إن القرآن الكريم عليه مدار الأمور الأخروية والدنيوية من الفقه والتوحيد والأحكام الحقوقية والجزائية وما به انتظام الكون وقمع المظالم وصيانة الحقوق وذلك أمرإلهي لامرية فيه . وبعبارة أخرى أن القرآن المجيد هو الدستور العمومي لكافة العالم الاسلامي وهو دستور الدين الاسلامي ، وهو نظام الكون فى المعاش والمعاد ، وبه النجاة الأبدية وحفظ الصحة البدنية والمصالح العمومية والشخصية وما يترتب على ذلك من الفضائل الأدبية والاجراءآت الجزائية الدنيوية والأخروية كل ذلك منظم في القرآن المجيد .

(العلامة ارنست رينان) قال : (لغة الكتاب العزيز تنشر في أنحاء المسكونة العلوم الأدبية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والشرعية وغيرها ، فهي الرابطة القوية والعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، بها تتقارب الأجناس المختلفة وتتشابه الأضدادبالتدريج فى الأحكام والاخلاق والمبادىء،وبها تتساوى الناس فى معرفة الشريعة الغراء لا فرق فى ذلك بين البيض والسود والصفر والحمر ، فهي أقوى رابطة « بروح القرآن وفي ظله » وتفوق متانة كل روابط الجنسية والوطنية وغيرها .

القرآن الكريم الحامل تلك الشريعة المطهرة هو السبب فى إبقاء اللغة العربية حية بين الشعوب لانهم لا يفهمون دينهم على وجهه الصحيح من هذا الكتاب الكريم إلا بها) .

قال (المسيو جول لابوم الفرنسي) : « القرآن أكثر من الوعظ والزجر والترغيب والترهيب فلم يوجه الكلام فى واحدة للكبراء والقادة ولكنه وجهه للناس كافة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً «١» « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم » «٢» . وما ذكر أولئك السادة إلا في معرض النص على الأمم فى استسلامها لضلال قادتها وأهواء كبرائها فقال : « وقالوا ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » «٣» . ثم قال لا جرم إن هذا الأصل أقوى باعث لهداية الأمم الى الطرق الحقة فى حصولها على سعادتها وعروجها إلى كمالها » .

وقال « لوماكس الاميركاني » : « أول قبس يشع نوره من القرآن الكريم : بسم الله الرحمن الرحيم . ففي كلمة الرحمن يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الآله الواحد الذي يسبغ على عباده النعم في الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، الى أن قال فمن هنا ترى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا هو النور الأعظم وهو نور الآله إنما هو الشفقة والرحمة .

وقال « سيديو المؤرخ الافرنسي » : « ما فرّط القرآن في شيء من تلك الآداب التى قوامها الحكمة وأساسها العدل والاحسان وغايتها قصد سبيل الحق ، والصد عن محجة الضلالة والخروج من ظلمات الرذائل الى أنوار الفضائل ، والتطهر من شوائب النقص والتحلي برتبة الكمال . وإن هذا لدليل على تقدس غايته الشريفة

«١» سورة التحريم الآية ٥ .

«٢» سورة النساء الآية ١٧٣

(٣) سورة الأحزاب الآية ٦٦ .

الاسلامية في حرمة مذهبها ورفعة حكمتها وموافقتها لما أنزل من قبل الرسل الكرام وبذلك يهتدي البصير الى فضل القرآن المجيد لانه جمع فأوعى بآيه أتى النبيون من البينات . ومما دل على عمى بصائر هؤلاء الذين ينتقدون الاسلام وصمم آذانهم عن الحق وزلل أقدامهم في سبيلا الصدق . واليك ما في القرآن الكريم من الآيات الناسخة لما ألفه العرب من الفضايح كالأخذ بالثار أو التبارز والتفاخر .

« وقال أيضاً » : « وكان أشهر معجزات محمد (ص) القرآن الكريم ، لاشتهاره بالبلاغة والفصاحة عند قريش الذين كانوا يفتخرون بحسن الكلام ويتغالبون فيه » . وقال أيضاً في القرآن : « هو كتاب مجيد واجب التعظيم لا يمسه إلا المطهرون أبان ما لله على عباده وما لهم عليه من الحقوق ، ضرب فيه من كل مثل وما فرط فيه من شيء ، جمع فأوعى فضائل وحقائق وطاعات ، ونزل على رسول الله صلى الله عليه وآله متجهاً حسب الوقايع ، فكان رابطة بين قبائل العرب مؤسساً للوحدة الدينية » .

وقال (ديسون الفرنسي) : (وفي القرآن أمثلة كثيرة على هذه الدعوة العالمية الى الاسلام ، والواقع أن القرآن يساير الفلسفة الحديثة كل المسايرة ويتفق معها كل الاتفاق ، فتعاليمه لا تعارض الحضارة الحديثة وأوامره لا تناقض المبادىء العلمية ، وقد يعجب القارىء من هذا التزاوج بين الفلسفة والقرآن ، ولكن حسبك تقديراً لآياته ، وحسبك فهما لمعنى الفلسفة الحقة لتدرك أن لا تضارب هناك ولا تناقض . فالقرآن ليس كتاب عقيدة وإيمان فحسب إذ لا يمكن أن تفرض إيماناً إلا إذا جعلته في صورة يقبلها العقل ويطمئن اليها الفكر ، ولا يمكن أن يعتقد الانسان عقيدة جديدة دون مبرر قوي وبراهين واضحة ، ولم يكن القرآن أول نزوله إلا كتاباً يتناوله العرب بالشك والريبة ويتهمون صاحبه بالجنون والسحر ، فكان من الطبيعي في القرآن أن يشفع أقواله بالبرهان الناصع ويقرنها بالدليل المقنع والقرآن ليس بكتاب تشريع وأخلاق فحسب ، فالتشريع والأخلاق لا بد لها

من فلسفة قوية يقومان عليها ، والمشرع الأخلاقي يجب أن يكون فيلسوفاً قبل كل شيء ، فلا يمكن القرآن أن يحث على الزهد فى الدنيا إن لم يتحدث عن قيمة الحياة الآخرة والخلود والبعث ، وهذه مسائل فلسفية ، كما أنه لا يمكن للقرآن أن يبشر بالتوحيد إن لم يطرق البحث للخالق وصفاته وما هيته وهذه مسائل فلسفية أيضاً ، فالقرآن قد تعرض لكل بحوث الفلاسفة فتكلم فى الله وفي صفاته وعرض للروح وكنهها ، وبحث في الخلود والبعث ، وصور للانسان مثلا أعلى يجب أن ينشده ، واختط له طريقاً يجب أن يسلكه) .

قال (المستر أ . ف الانكليزي) : (لقد كان من حسن الصدف اني اطلعت على مجلة (اسلاميك ريفيو) ووقفت على موادها الخصبة وبحوثها الفياضة عن الدين الاسلامي الحنيف ، ولقد كان من جراء هذا أن ثارت فى نفسي الرغبة في الاطلاع على القرآن الكريم لأستنير من آياته البينة فى معرفة ذلك الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله من عند الله ، وأقف على التعاليم والمبادىء الذي اتخذ بها العالم ولم يستمتع بها إلا المسلمون وحدهم ، ولا أكتمكم اني صرت أشعر بدافع غيرعادي لست أعرف سره يحفزني الى البحث عن نسخه من المصحف الشريف واقتنائه حتى أدرس ما نزل فيه من شرايع غرر وتعاليم قويمة ، قد يكون لي منها مصباح يضيء الى السبيل الموصل الى الهدى .

وقال (المستر هاري الانكلزي) : (لم يطل انتظاري حتى أسعدني الحظ بالحصول على نسخة من كتاب نبي الله محمد (ص) هو المثل الأعلى ، ذلك المؤلف القيم الذي أكاد التهمه وأنا أقرأه بشغف عظيم لما تضمنه من جليل وصف النبي الكريم ، وجميل اسلوبه وسلاسة تعبير وصدق حجة وقوة برهان لا تجعل للشك من أثر . إن محمداً هو المثل الأعلى ، وإن الدين الذي جاء به هو الدين الأسمى ، وإن القرآن الذي تنزل عليه هو الاعجاز والمعجزة الحقة ، وكم أنا مسرور إذ أنه محى كل ما كان عالقاً فى ذهني من سوء فهم أوضعف عقيدة ، وبعد أن اتممت قراءته

بامعان دقيق استعدت تلاوته ، ثم عكفت على قراءة آي من الذكر الحكيم مستضيئاً بتفسيرات (خوجه كمال الدين) ذلك فكان من أعظم أسباب هناك وسعادة أرجوالله أن تتحقق رغبتي في أن تتاح لي فرصة أؤم فيها « ووكنغ » ـ هو مسجد في لندن ـ وأحضر ما يلقى من دروس دينية عن الاسلام الحنيف وتعاليمه الغراء بغية التبحر في هذا الدين المجيد وجمع ما أستطيع جمعه من كنوزه الغنية النادرة) .

الى كثير من هـــذه الحقائق الناصعة المتجلية لدى رجال الفكر من علماء اروبا .

وإنك لتجد في كل موضع من القرآن آيات كريمة تحض على فعل الخير والمبرة ، فنقتصر على نبذة يسيرة من ذلك نقتبسها من مواضع شتى من آي القرآن الكريم ، لعل راغباً فى الأدب يتأدب بأدبه السامي ويتخلق بخلقه الكامل .

جاء في الآية الثانية عشر من سورة البلد المكية : (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة) .

وجاء فى الآية الرابعة عشر من سورة الليل المكية : (فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) .

وجاء في الآية الثامنة من سورة الانسان المكية : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا) .

وجاء فى الآية المائة والثلاثة والثلاثين من سورة آل عمران المدنية : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون أموالهم في السراءوالضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .

وجاء فى الآية المائة والسابعة والسبعين من سورة البقرة المدنية : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين

وا بن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

وجاء في الآية الثانية من سورة المائدة المدنية : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) .

وكما أوضح الاسلام رحمة المولى جل وعلا فقد نوّه بأعمال المحبة التي هي ثمرة رحمة المرء لقريبه وأظهر شديد عناية باليتيم وحماية الفقير والرضيع والمحروم من الميراث ، وجعل الاخاء والمحبة ركنين للمجتمع الاسلامي . وهذا لعمري تقدم باهر إذا قابلنا عهد الاسلام بعهد الجاهلية أيام كان أرباب الثراء والسيادة يزدرون سلفهم في إطعامهم المساكين ويسومونهم الخسف .

ومن الآيات التي تأمر بالعدل ما جاء في الآية السادسة والعشرين من سورة ص المكية : (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وجاء في الآية السادسة والخمسين من سورة النساء المدنية : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وجاء في الآيه الثالثة والعشرين من سورة الاسراء المكية : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا) .

هذا أدب القرآن السامي الذي ظهر به للمجموعة البشرية ، وهذا هو الشرف والفخار فأروني أدب غيره من الكتب التي يزعم أهلها أنها وحي آلهي .

إقتضت حكمة الله تعالى أن لا يُنزل القرآن جملة واحدة بل منجماً مفرقاً فكانت آياته تنزل بحسب الوقايع والحوادث ومقتضيات الأحوال ، أو جواباً لأسئلة واستفتاءآت ، وهذا ما يُسهلّ حفظه وتعليقه على ماهو دون العادي من الحوافظ

والملكات ، قال تعالى : (وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) . وكان جبرئيل «ع» يلقي على النبي (ص) ما يلقي من الآيات فينطبع فى قلبه (ص) انطباعاً قسرياً ، وينقدح في نفسه انقداحاً لا تستطيع له رداً ولا تملك له تغييراً ولا تبديلا ، ولا يصيبها فيه اضطراب ولا خطأ ولا نسيان ولا زيادة ولا نقصان ، كما ينقل الكلام من المتكلم الى لوحة الحاكي إذا نفخ في صورها بصوت تلقته كاملا غير منقوص ثم تعيده كما نفخ فيها قال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى) .

ولنزول القرآن منجماً أسباب .

١ : ـ إن نزوله جملة واحـدة يغيب على المسلمين ذلك التشوق والترقب الذي هو أقوى الأسباب في سهولة حفظه عليهم ، ولا مرية إن تترقبه النفس يتمكن منها أكثر مما يفاجئها على غير ترقب وانتظار . والله يريد أن يعيه المسلمون ويحفظوه

٢ : ـ إنه معجز فى كله وفى أجزائه وفي غالب أوقاته ينزل منه القدر المعجز ، فهو في منزلة تكرر الاعجاز بتكرر النزول ، ولا ريب أن استمرار ذلك ٢٣ سنة أبلغ فيه من حصوله مرة واحدة .

٣ : ـ إنه مرّب للأمة في بلاغتها وبيانها ، فهو كل يوم يلقي عليها درساً جديداً في البلاغة والبيان .

٤ : ـ إن العرب ليسوا سواء في البلاغة وتناول الأحكام منه ، ففي تنجيمه تيسير على متحفظيه ومستخرجي أحكامه .

٥ : ـ إنه كان ينزل في الغالب بحسب الحوادث التي تعن للرسول «ص» فتكون فصل الخطاب في احكام تلك الحوادث والمسائل المشكلة .

كما أنه في إنزاله منجماً ما يسهل التكاليف على المؤمنين وما يزيد في بصيرتهم فان تنزيله متضمناً الأخبار عن الغيوب والفصاحة التامة حسب الوقايع يزيد المبالغة

في إعجازه ، إذ التحدي بما نزل منه أول الأمر يجعل كل نجم متحدى به ، وعجزهم عن معارضة كل جزء أقطع دليل على أنهم عن معارضة جميعه أعجز وان هذا ما يزيد قوة في قلبه «ص» وخوراً في عزائمهم .

كما أنه لو أنزله تعالى جملة واحدة لكان استواؤه في الفصاحة والاعجاز آية قد يجوز على العقل فهمها ، ولكنه مع طول الزمان وتغاير المكان واختلاف الأحوال ظلت طبقته فى الفصاحة واحدة مستوية ، فكانت آيته فوق طوق العقل وعلامة كلام الخالق الأعلى ، إذ لوكان من نفس ذات إحساس بشري لتلونت آيته بتلون قائلها ، إذ ما يكون لبشر أن يمكث على حالة واحدة بضعاً وعشرين سنة يمنح الكلام من نفسه على وتيرة مستوية والكلام كما يعرفه القراء لونه من لون متكلمه

ونزل القرآن في خلال ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وجملة القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، نزل منها بمكة المكرمة قبل الهجرة ـ ٨٦ ـ سورة ونزل ـ ٢٨ ـ سورة فى المدينة المنورة وأكثرها من السور الطوال . وكان أول ما نزل منه بمكة قوله تعالى :

« إقرء باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . وذلك عند ما كان «ص» يتحنث في غارحراء يوم الأثنين ـ ١٧ ـ رمضان فى السنة الحادية والأربعين من ميلاده لستة من آب سنة ـ ٦١٠ ـ ميلادية لقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

كان النبي (ص) يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتردد لذلك ثم يرجع الى خديجة فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء فاجأه الملك فيه فقال : إقرء يا محمد ، فقال رسول الله (ص) : فقلت ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرء ، فقلت ما أنا بقارىء ،

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرء ، فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فأرسلني فقال : « اقرء باسم ربك الذي خلق » حتى بلغ ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله « ص » ترجف بوادره . ولم ينزل بعد هذه الآية شيء من القرآن الكريم لمدة ثلاث سنوات وتسمى هذه المدة زمن فترة الوحي .

ثم بعد هذه المدة أخذ القرآن ينزل منجماً لما في ذلك من التثبيت لفؤاده صلى الله عليه وآله كما قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . وكانت تنزل عليه «ص» بعض الآية كقوله تعالى : « فان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » .

والآيات الخمس والعشر كما كانت تنزل السورة كلها ، مثل سورة الفاتحة والاخلاص . والكوثر . وتبت . ولم يكن . والعصر. والمرسلات . والمدثر . وآخر ما نزل منه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » ، وكان نزولها في حجة الوداع يوم غدير خم .

يحدثنا الخطيب البغدادي في تاريخه ج ٨ ص ٢٩٠ ط بمصر بمطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هج يوصل سلسلة السند الى أبي هريرة عن النبي «ص» إنه قال : « من صام يوم ثمان عشرة من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً » . وهو يوم غدير خم لما أخذ النبي « ص » بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال : ألست ولي المؤمنين ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، فقال عمر بن الخطاب : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي ومولى كل مسلم فأنزل الله : « اليوم أكملت لكم دينكم » .

أينسى المسلمون حديث الغدير الذي سارت به الريح الى كل سمع وكتبته

الشمس على صحيفة النهار بأنوارها والنجوم على أديم الليل البهيم بأضوائها . الحديث الذي رواه ولا احصي من رواه النسائي في الخصائص بما ينيف على عشرين طريقاً منها ما نصه : أخبرنا أحمد بن المثنى ثم أوصل السند الى زيد بن أرقم قال : لما دفع صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع و نزل غدير خم أمر بدوحات فقممن ، ثم قال: « كأني دعيت فأجبت ، وإني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » ، ثم قال إن الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ، ثم إنه أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال : « من كنت وليه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، فقلت لزيد سمعته من رسول الله فوضع يديه على أذنيه وقال إستكتا إن لم أسمعه وإنه ما كان في الدوحات أحد إلا رآه بعينه وسمعه بأذنه . ثم رواه بطرق أخرى تقرب من ذلك . وقد روى مسلم حديث الغدير ولكن ببيان آخر كما تجده في صحيحه ، ورواه الحافظ بن عبد البر فى الاستيعاب وهذا نصه : روى بريدة وأبو هريرة وجابر والبراء بن عازب وزيد بن أرقم كل واحد منهم عن النبي صلى الله عليه وآله إنه قال يوم غدير خم . « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، ورواه الامام أحمد بن حنبل بعدة طرق وابو نعيم في الحلية والقاضي في الشفا ، وكل كبراء العلم وعظماء المحدثين . ولو ذهبنا الى إحصاء رواة هذا الحديث لجمعنا أضخم كتاب وفتحنا أوسع باب .

تعاليم القرآن بالاخلاق الفاضلة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً «١» .

الأخلاق الفاضلة هي الحياة الانسانية وروح المدنية وناموس الاجتماع ومعراج السعادة والرقي ، ولا يليق بالكتاب المنسوب الى الوحي أن يخلو من التعليم بها ، لذلك أردنا أن ننبه على شيء من تعليم القرآن بالأخلاق الفاضلة ، لتعرفوا ما تظمنه من التربية والتعليم ما لم يتظمنه غيره من الكتب السماوية ، وبذلك يظهر أن القرآن كما هو معجز في الفصاحة والبلاغة معجز فى التربية والتعليم وحسن التهذيب . « فنقول » .

القرآن هو التعليم الجاري على الحكمة ، والداعي الى الصلاح والهادي الى الرشد والدال على باب الرحمة ، والمبيّن لحقيقة التوبة بتطهير النفس بالأعمال الصالحة والمبشر بالنجاة والفوز ، والمعرف برحمة الله وجلاله وغناه ، والمبين لوجه العفو وحسنه وأهلية التائب له .

أنظر قوله تعالى في آية السبعين من سورة الفرقان إذ يقول جل وعلا : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى ربه متاباً » .

«١» سورة الاسراء الآية ٩ .

بيان ذلك انه من رجع عن كفره وفساده وندم على ما فرط منه ووطن نفسه وعاهد ربه على عدم التلوث بتلك الرجاسات وتطهر بالأعمال الصالحة ـ ومنها الخروج من عهدة حقوق الناس ـ فانه يزكو ويرجع الى الله رجوعاً حقيقياً بالعبودية الصالحة ، ويندرج في زمرة الأبرار فهو الأهل للعفو عما سلف منه . والبيان يضيق عما في هذه التعاليم من كشف الحقائق وحسن الارشاد وسمو التعليم وإن نورانية هذه الآية هي التي تهدي الى كنوزها الفائقة .

وانظر قوله تعالى في الآية الثالثة والستين من هـــذه السورة إذ يقول جل وعلا : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » .

كيف اشترط سبحانه فى الأبرار الذين يريدون السعادة بالانتساب الى عبودية الرحمن والتحرز عن عبودية الهوى والشيطان ، وأوضح أن الرقي الى فضيلة عبودية الرحمن إنما هو للذين يمشون على الأرض هوناً بحسن السلوك بالأخلاق الفاضلة وكريم الأدب مع النفس بتهذيبها ، ومع الناس بعدل المدنية وبحسن الاجتماع فيسلكون على هونهم في تحري الطريق ولزوم الجادة ، واتباع البصيرة والتوقي من عثرة الاسترسال وورطات الجهل المركب والعجب والغرور ، من دون تسرع يورطهم فى هفوات الشهوات وطفرات الغضب والظلم ويدنسهم برذائل العجب والغرور فيزل بهم تسرعهم عن النهج المستقيم ويضر بسعادة أنفسهم وراحة بني نوعهم . فجمعت هذه الكلمة الواحدة للتعليم بكل خير وخلق فاضل يتكفل بالسعادة والعمران الحقيقي وراحة المجتمع الانساني ، والتعليم باجتناب الهرولة الى بطالة التقشف البارد ومسكنة العجز المضرتين برقي النفس فى الكمال والمعاضدة في العمران ، وإذا تعرض الجاهلون لهؤلاء الفضلاء بكلام الجهل أجابوهم بما فيه السلام حسبما تقتضيه الظروف والأحوال من الملاطفة بالارشاد والموعظة وما يصلح للجواب بالسلام .

وانظر قوله تعالى في الآية الرابعة والستين من هذه السورة إذ يقول جل وعز : « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً إنها ساءت مستقراً ومقاماً » .

هذه هي المظاهرة في الرابطة الحقيقية في عبودية الله والخضوع له ، وعبادته الخالصة وحقيقة الرهبة منه وهي الحقيقة المعقولة الجامعة بين الرغبة فى طاعة الله وعبادته لأجل عظمته ومعرفة أهليته للعبادة الصادقة ، وبين الرهبة بالالتفات الى وبال المعصية وبطلب المعونة منه والتوفيق للخلاص من المعاصي واستحقاق عقابها الأليم .

وما أجل قوله تعالى في وصف عباد الرحمن إذ يقول : « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » فان هذا هو الاخلاص بالعبادة ، وفيه السلامة من الرياء الذي يسري في العبادة كدبيب النمل ، فان بعض الناس لا تخطر المراءآت للناس في باله عند عبادته ولكنه ينشط للعبادة بين الناس ويكسل إذا خلا بنفسه وهذا من داء الرياء الكامن ، وأين هؤلاء من عباد الرحمن الذين يغتنمون الخلوات وظلام الليل فينهضون بالنشاط والاقبال الى عبادة الله ، ما أشرف هذا التعليم المحي للروح والمنعش للنفس .

وانظر قوله تعالى فى الآية السابعة والستين من هذه السورة إذ يقول تعالى: (والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .

يا حبذا هذا التعليم الفائق في نظام المعاش وإعانة النوع ونظم أمر العيال ، ووضع الانفاق مواضعه حسبما تقتضيه الحاجة ومواقع الحكمة ، وإنه يقول إن هؤلاء الكاملين ينفقون ويكون إنفاقهم مستقيماً على الحكمة لا يميل به التقتير الى التقصيرين اتباع رذيلة البخل والاخلال بواجبات النوع ، ولا يميل به الاسراف الى عبث السفه المؤدي الى القصور عن الواجبات والى ارتكاب الممنوعات والى عادة تقلق على بني النوع نظام معيشتهم .

وانظر قوله تعالى في الآية الرابعة والسبعين من هـذه السورة إذ يقول جل شأنه : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) .

ما أكرم هـذا التعليم لبقاء النوع الانساني ودوام الحنان العائلي ، وكف النفس عن الخيانة مع النساء الأجنبيات ، والتنزه عن رذيلة الحسد للناس ، ومن أهم ما تقرّ به العين من الأزواج والذريات هو لزومهم لجادة التقوى والصلاح ، فان من ذلك ينشأ الخير والاستراحة بهم . وزاد في تأكيد ما مضى من التعاليم الفاضلة أنه ينبغي لعباد الرحمن أن يسعوا في تكميل أنفسهم وتهذيب أخلاقهم بأن يطلبوا أن يكونوا بأقوالهم وأحـوالهم وأعمالهم وأخلاقهم قدوة للمتقين وأدلاء على الخير والهدى .

هذه هي الحـكم الروحية والآداب المدنية الاجتماعية والتعاليم السامية التي انفرد بها القرآن الكريم دون غيره من الكتب السماوية .

وانظر قوله تعالى في صفات السعداء وأخلاقهم الفاضلة إذ يقول جل شأنه : (الذين هم على صلاتهم دائمون) «١» . يريد انهم يصلونها عن رغبة في الطاعة ومعرفة بعظمة المعبود وشوق الى شرف مناجاته ، لم تكن صلاتهم عن تكلف فيقطعها الكسل ، ولا عن رياء فيهملونها في الخلوات .

وقوله تعالى : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) «٢» يعني إن اعانتهم لذوي الحاجة من الناس لم تكن بتكلف تابع للسوانح الوقتية من دواعي الهوى والخجل والرياء فتكون اتفاقية تابعة لهذه السوانح إذا غلبت على الحرص والبخل بل جعلوا في أمـوالهم لاعانة المحتاجين حقاً معلوماً حسب فرض

«١» سورة المعارج الآية ٢٣ .

«٢» سورة المعارج الآية ٢٣ .

الشريعة وفرض رحمتهم لا ينقصه الشح يعينون به السائل ومن حرمه الناس من المعروف لأجل عفته وعدم سؤآله .

وانظر قوله تعالى (والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) «١» . هؤلاء هم الذين تركن النفس الى كمالهم باطمئنان ، فان الانسان في هذه الدنيا لايكمل له الأخلاق فى السر والعلن الا إذا كانت نفسه دائمة الشوق الى رفعة ونعيم عظيم باق تستحقر دونه زخارف الدنيا الفانية ، ودائمة الرهبة من عذاب تهون دونه مصاعب الدنيا المنقضية وشدائد مخالفات الهوى والغضب وحب السمعة ، وان المصدق بيوم الدين هومن لا يتغافل عنه ولا يتناساه ولا يتساهل في أمر جزائه وثوابه وعقابه . بل هو مشفق من عذاب ربه دائماً ، فهنيئاً لهؤلاء الكرام .

وانظر قوله تعالى شأنه في الآية العاشرة من سورة الحجرات إذ يقول : (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

إن الاصلاح بين الناس هوقوام النظام وحياة الاجتماع ، فليتق الناس ربهم من اهمال الاصلاح ، وليطلبوا رحمة الله بالنهوض اليه .

وانظر قوله تعالى في الآية الحادي عشر من هـذه السورة إذ يقول جل وعلا : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

أيها الساخـر إن لم يكن لك تقوى يصدك ولا شرف يردعك فاترك السخرية حذراً من أن يكون من تسخر به خيراً منك عندالله وعندالناس فتجلب الهزء والفضيحة على نفسك . أيها العائبون للخلق لا تنبهوا الناس على عيوبكم ، فلا تلمزوا الناس بالعيب ولا تذكروهم بألقاب السوء .

«١» سورة المعارج الآية ٣٥ ــ ٣٦ .

وانظر قوله تعالى فى الآية الثانية عشر من هذه السورة إذ يقول جل شأنه : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

لا ينهى عن ظن الخير الذي تحسن به الروابط وتتأكد به علائق الألفة ويصفو به الاجتماع ، ولكنه ينهى عن ظن السوء المؤسس للبغضاء والنفرة والمثير للشر ، فان بعض الظن إثم وخطأ وظلم للبرىء ، وسبب للتهجهم بالبغضاء والأذى ، وإن التجسس مثار الفساد ومنبع الشر والفتن ومقلق لنظم الاجتماع ومكدر لصفائه ، وإن الغيبة شر ما يغرس البغضاء ويقدح بالشرف ويخدش العواطف ويكشف عن رذيلة المغتاب إذ يغفل عن عيوب نفسه ويذكر عيوب الناس . أفلا تنظرون الى هذا المثل الفائق في المطابقة فى التنفير والتوبيخ والاحتجاج إذ يقول أيها المغتاب إن الذي تغتابه أخوك ، وإن عرضه أمانة عندك وهو فى غيابه كالميت لا يقدر أن يحمي شرفه وعرضه من لسانك ، فلماذا تملأ فمك من غيبته وتنهش عرضه بأنياب كلامك ، أو لست تكره أن تأكل لحم أخيك الميت ؟ فلماذا تفعل مثل ذلك بغيبتك لأخيك الغائب .

وفى الآية الحادية والسبعين من سورة الفرقان : (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً) .

إنه ليطربني قوله : مروا كراماً ، فانه يعلم بأداء الوظيفة الصالحة لذلك المرور حسبما يقتضيه الحال والمقام من الاعراض ، والموعظة ، والنصيحة ، واللين ، والشدة والزجر ، والتأديب ، فان العامل بالوظيفة كريم ، والمهمل لها لئيم .

وفي الآية الحادية والثلاثين من سورة المعارج (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون) . ما أكرم الراعين لأماناتهم فى كل

ما يؤتمنون عليه . ولعهودهم مع الله ومع الناس والقائمين بشهاداتهم على حقها وحقيقتها من دون كتمان ولا تحريف .

وانظر قوله تعالى فى الآية الخامسة من سورة المؤمنين إذ يقول جل شأنه : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .

ما حال العادين على غير أزواجهم والمتعدين حدود الشريعة وشرف الانسانية أما إن الزنا أضر شيء على المجتمع الانساني وحياة النوع والحنان العائلي ، إذ هو السبيل في هدم صرح الأمة وتقويض دعائم العائلة وإفساد سنن العقل والطبيعة مع الاخلال بالصحة وإفساد النسل ، إذ بواسطته تكون الأمراض الزهرية . وتعلمون لا معول أفتك فى النفوس وفي النسل من معول الأمراض الزهرية التي تفعل فى اضمحلال بنية الانسان مباشرة بالمرض الدنيء القتال ، أو بما تورثه من إسقاط الحمل أو موت الاجنة في الارحام ، أو موت الأطفال الأبرياء أو آمثالهم أو سوء نموهم وتشويه تركيبهم مما يجعلهم عالة على الأسرة والمجتمع .

أفلا تنظرون الى خونة العفة وخبثاء الأنفس وقردة الاخلاق من الزناة كيف تنتابهم أنواع الأمراض ، فهم أشبه شيء بالكلاب التي تلغ فى آنية توضع لها بالطرق فكلما ولغ كلب ولغ بعده كلب آخر ، وقد يلغ فيها كلب فيه كلب أو جرب فتسري العدوى الى الصحيح بقاعدة الانتقال . كذلك الزاني يقع على مومسة قد لقحت بالزهري وكل داء فتاك وألم مبيد وعلل ممـــزقة فيتلقح الخبيث ويحمل من تلك البؤرة أنواع الجراثيم ، ثم يواقع أهله أو يواكلهم أو يشاربهم فتنتقل العدوى الى نسله فيكون محلا لتلك الأدواء . وهذا هو البلاء المبرم الذي ينهدم به قوام العائلة وشرف الانسانية .

ليس بين الأمراض المعدية ما هو أشد فتكاً بالانسانية وأكثر مصائباً وآلاماً

من الأمراض الزهرية المتولدة من الزنا فهي أمراض كثيرة الانتشار ومناطقها آخذة فى التوسع كلما احتكت الشعوب مع بعضها وازدادت العلاقات بين الأمم المختلفة .

حتى أن السفلس وهو أحد الامراض الزهرية يُدعى أبو الأمراض لكثرة تفشيه وعظم مصائبه التي يتجرعها المصاب . فعلى الشبان النابهين أن يأخذوا التدابير والوقاية التامة حفظاً لصحتهم المطلوبة ، فان مراعات الصحة أفضل من استعمال الدواء .

وتسمى هذه الأمراض أيضاً بالأمراض التناسلية لانها تسري بواسطة الجماع غالباً ، وهي اليوم معروفة عند الأطباء على ثلاثة أنواع :

«١» الافرنجي المعروف بالسفلس .

«٢» السيلان المعروف بالسوسنك .

«٣» القرحة اللينة .

أما الافرنجي المشهور عندنا بالسفلس هو أبو الأمراض الدموية لفظاعته وشناعته ، مرض تناسلي معدي كثير الانتشار في الجنسين الذكر والأنثى ، يفتك بكل عضو من أعضاء الجسم ويهدم كل جهاز من أجهزته ويرافق المصاب حتى الموت .

يتميز ويعرف هذا المرض بظهور قرحة على القضيب بعد مرور ثلاثة أسابيع على فعل الجماع على الأكثر ، أو على الشفة إن قبل المرأة المصابة . ومن سوء الحظ أن هذه القرحة الأولية لا تتقيح ولا تؤلم صاحبها . وهذا ما يدع المصاب الى عدم الالتفات اليها وإهمال معالجتها ، وربما اكتفى البعض بوضع بعض المعاجين واللبخات المستعملة فى الدنابل الاعتيادية فتختفي القرحة ويظن المصاب أن الدواء هو الذي أخفاها ، غير عارف انه من طبيعة هذه القرحة الاختفاء بعد انقضاء الدور الأول ، ثم تظهر فى الدور الثاني كالدنابل والآلام في المفاصل ، فيبح بسببها الصوت وينتشر المرض في الجسم كله ، حتى أن المرأة الحامل المصابة لتسقط جنينها بسببه ، أو تلده مشوه الخلقة أعمى العينين أو جاحظها ، أفطس الأنف غير منتظم الاسنان

متضخم الكبد منتفخ البطن ، ولا يلبث هذا الطفل أن يموت بعد أيام معدودات ، وكثيراً ما تلد الأم طفلها جثة هامدة بعد أن تعبت في حمله أشهراً عديدة . وهكذا ينقل الرجل المرض الى إمرأته إن كان متزوجاً أو إلى أفراد عائلته نظراً لاشتراكهم معه في مأكله وملبسه ومشربه . وليت المرض وقف عند هذا الحد ولا يتجاوزه ، بل ينتقل الى القلب ويغير بعض أنسجته فتتآكل صماماته ويعجز حينئذ عن تسيير الدورة الدموية الضرورية لادامة الحياة . كل هذا من نتائج داء السفلس المتولد من جراء الزنا .

وأما السيلان المعروف بالسوسنك : مرض معد سببه الزنا فى امرأة مصابة بالمرض ، حيث تنتقل الجرثومة الى ذكر الزاني فتحتقن الحشفة وتحمر ، ويحس المصاب بحرقة بسيطة لأول وهلة أثناء تبوله ، ثم يخرج قيح أصفر يميل الى الخضرة وسرعان ماتزداد كمية هذا القيح ويشتد الألم حيث يحرم المصاب من النوم . والويل كل الويل إن أهمل تداوي المرض حيث يسري المكروب الى بقية الأعضاء التناسلية أولاً فتلتهب الخصية بعضاً وتتورم حتى يضطر الرجل الى ملازمة الفراش ، أو أن المثانة تلتهب فالكليتين حيث الموت المؤكد .

الاثم كل الاثم إن كان المصاب متزوجاً حيث ينتقل المرض الى إمرأته فيلتهب الموضع وتجري منه المواد القيحية التي تنتقل الى المثانة فالحالبين فالكلى ومن سوء الحظ أن تداوي المرض فى المرأة صعب بالنسبة للرجل ، فتبقى هذه المسكينة متجرعة للآلام ، والانكى من ذلك هو أن الجرثومة تنتقل الى عين الولد أثناء ولادته وأمه مصابة بالمرض فيصاب بالعمى . ومن المؤسف جداً انما نسمعه عن بعض العواصم الاسلامية أن عدد أطفالها الذين يصابون بالعمى سنويا لا يقل عن ١٥٠ طفلاً ، وذلك نتيجة إصابة الأمهات بالسيلان ، فهل هناك إثم أكبر من هذا الاثم ؟ .

يفهم مما سبق أن هذه الأدواء الزهرية من أدهم الأدواء لكثرة انتشارها ،

وخصوصاً فى زهرة الشباب ، والشباب قوام الأمة وعليهم اعتمادها ، فاذا انتابتهم هذه الأمراض وسببت ما سببت من تخريب في أجسامهم وعقم فى أجهزتهم التناسلية فويل للأمة التي فقدت بفقدهم عنصرها الحيوي الفعال ، ولا شك أن أهم الأسباب في سراية هذه الأدواء وانتشارها هوالزنا . فمحاربة المواخير وبيوت الدعارة واجب أولي من وجائب الحكومات والهيئآت الاجتماعية والأفراد ، والا فليست الوقاية الفنية والصحية والدوائية بشيء يذكر . فعلىالهيئة الاجتماعية التي يحيق بها ويل هذا الاثم الفظيع أن تنظرفيعلاج هذا الداء الوبيل الذي ما فشا فى أمة إلا وضربها الله بالهوان وأذاقها الذل والخسران .

وليس ببعيد على الأمة الرشيدة أن تضع من القوانين ما يرد الفاسقين عن غيهم ويحفظ على الأسر كراماتها ، وليس بعزيز أوعسيرعلى رجال حكومتنا الناهضة أن تقطع دابر الفساد لتخف وطأة هذه الأمراض السارية الفتاكة ، وبودي أن أذكر رجال حكومتنا الصادقين فى الخدمات العامة أن تجعل نصب أعينها الحديث النبوي المشهور : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

بعث النبي(ص) لاصلاح ما أعوج منالعادات القديمة ولتنفيذ الآراء المغلوطة فحبذ الزواج وحرّم الزنا ، وفهم الناس أن لا رهبانية في الاسلام ، إذ أن الفرد ضعيف بالطبع لا يقوى على مكافحة كل خطر إلا إذا شد أزره أعوانه وأصحابه ، وهذا لا يحصل إلا بالزواج . والزواج هو الوسيلة الوحيدة لتكثير النسل والمحافظة على الجنس البشري ، ولكن من المؤسف أضحى الزواج فى هذا الدور مشكلة من المشاكل ، إذ ان بعض الأفراد أبوا أن يمتثلوا بأقوال النبي فكثروا المهور معتقدين أنه من العار أن تزوج البنت بمهر بخس ، وجعلوا المهر مقياس الشرف ، مخالفين بذلك ما أوصانا به نبينا من التساهل فى هذا الباب .

القرآن وخرافات المعارضين

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) «١» .

محور الموضوع هو إعجاز القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة .

نضع أولاً بين يديك نموذجاً في تعريف فصاحة الكلام وبلاغته لكي تستطيع بعد معرفته أن تقيس بين الكلام الفصيح البليغ وبين غيره .

« فنقول » : الفصاحة والبلاغة بلغك الله مراقيها إنما هي من الصفات المعنوية التي تحس وتدرك ولا تمس ولا تمسك ، وتعرفها الطباع السليمة بغرائزها وأذواقها لانها مما تشهدها العيون باحداقها ، وهي كما عرّفها مهرة علم البيان ، قالوا : (لا يكون الكلام فصيحاً إلا إذا كان خالصاً من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، ولا يكون بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى الحال مع فصاحته ، وهي أما منحة فى الجبلة وموهبة فى الذات بحسب الفطرة كما هي فى العرب الأولين المتفاوتين فى ملكاتها وكمالاتها بتفاوت ذواتهم المشرقة المضيئة بمقتضى ما سبق لهم من العناية والمشيئة . واما حصولية كسبية ومهنة تعليمية يزرعها التعلم والتعليم في باحة الطبع المستقيم ، فلا تثمر إلا بعد الجدّ والتعب والكد والطلب ، كما في سائر أساطين هذه الصناعة من ذوي التقدم والبراعة من الشعراء وغيرهم .

«١» سورة الاسراء الآية ٨٨ .

فالناس إذاً صنفان لا ثالث لهما أما ذو حظ وتمييز من معرفة العربية قليل أمرها أو كثيره جليله أو حقيره بالطبع والمنحة وعلى أصل الاستقامة والصحة ، أو بالكسب والتحصيل أو بالتعلم بعد الجهد الطويل كما في سائر الناس منذ الأزمنة المتأخرة من سائر طبقات الأمم ، فان الناس من أي أمة تفرض وأي قوم منذ زمان متقادم الى اليوم قد تلاشت عنهم تلك الصفة ـ أعني صفة الغريزة والمنحة ـ وانسلخت عن ألسنتهم وأذواقهم تلك المعرفة ، وصار الرجل لا ينال من العربية ومعرفة البلاغة حظاً ـ لا معنى ولا لفظاً ـ إلا بالكسب والطلب والتعب والنصب . فقد كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم ؟

أرأيت أهل جزيرة العرب كيف انضووا الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من دقة الفهم التي كانت سبب الانجذاب الى الحق ؟

« بلى قادرين على ان نسوي بنانه » . يقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان في هذه السنين فيسلم فيسأل لِمَ أسلمت ؟ فيجيب قائلا : قرأت في القرآن المنزل على ذلك النبي العربي الأمي « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » . وقد أصبحت جميع الحكومات لا يستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامه ، ولم يجد الناس رجلين في الكرة الأرضية تتشابه أناملها في مسامها ونظامها ، فلِمَ اختص البنان بالذكر ؟ وعلم البنان لم يكن ليعرفه الناس إذ ذاك ، ولم تدركه الحكومات السابقة بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبي الأمي ، فهذا القول إنما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التي في الأرض فلذلك آمنت به وصدقت .

جاء أعرابي الى رسول الله (ص) من المشركين من فصحاء الأعراب وقد سمع أن الله تعالى قد أنزل عليه قرآناً عجز عن معارضته فصحاء العرب ، فقال له : يارسول الله هل فيما أنزل عليك ربك مثل ما قلته ؟ فقال رسول الله «ص» : وما قلت ؟ فقال الأعرابي : قلت :

وحي ذوي الأضغان تسبي عقولهم   تحيتك القربى فقد يُدفع النغل
وإن جهروا بالقول فاعف تكرماً   وإن ستروا عنك الملامة لم تبل
فان الذي يؤذيك منك استماعه   وإن الذي قد قيل خلفك لم يقل

فأنزل الله تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلاذوحظ عظيم » « ١ » فقال الأعرابي : هذا والله هوالسحر الحلال ، والله ماتخيلت ولا كان في علمي انه يزاد أو يؤتى بأحسن مما قلته . أشهد أنك رسول الله ، والله ما خرج هذا إلا من ذي إل « أي عهد » .

يقول الأصمعي : كنت أقرأ « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالاً من الله والله غفوررحيم » « ٢ » وبجنبي أعرابي فقال : كلام من هذا ؟ فقلت كلام الله ، قال أعد فأعدت فقال ليس هذا كلام الله ، فانتبهت فقرأت والله عزيز حكيم ، فقال أصبت هذا كلام الله فقلت أتقرأ القرآن ؟ قال : لا ، فقلت من أين علمت ؟ فقال يا هذا عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع .

أنظروا الى البنت الأعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ، ومجمل الخبر أن الأصمعي قال : سمعت بنتاً من الاعراب خماسية أو سداسية تنشد .

أستغفر الله لذنبي كله   قتلت إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم في دله   وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت ويحك أيعد هذا فصاحة مع

« ١ » سورة السجدة الآية ٣٣ ـ ٣٤ .

« ٢ » سورة المائدة الآية ٣٧ .

قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » «١» . فجمع سبحانه وتعالى في آية واحدة على اختصارها وايجازها بين أمرين و نهيين وخبرين و بشارتين

وانظر قوله تعالى فى آية الأربعين من سورة هـود وهو موضع الاعجاز والاعجاب إذ يقول جل شأنه : (وقيل يا أرض ابلعي مائك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين) . انظرها وهي فى مقامها واختبرها في عقد نظامها ، ثم استقصها أثراً وتعرفها خُبراً وخَبراً ، ثم انظر ما ذا تسمع وما ذا ترى من مظهر القدرة القاهرة من الايجاز والاعجاز وشرف المعاني والمباني وبلاغة التقريع والترتيب وفصاحة النظم والتركيب ، وما اشتملت عليه من أنواع البديع وغرائب الأساليب التي عجزت عن معارضتها مهرة الصناعة وحملة تلك البضاعة .

ولا تحسبن أن هذه الآية عديمة النظائر والاضراب في ذلك الكتاب ضع نظرك أنى شئت من بيناته ، وسرح فكرك فى أية آية أردت من محكماته تجدها لتلك شقيقة إن لم تكن بالتقدم حقيقة : . « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها » «٢» ، أو حاكية فى الاعجاز عنها « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » «٣» ، وما هي بواحدة ولا إثنين ولا ولا .

هاك انظر قوله تعالى في الآية الثالثة والسبعين من سورة الحج إذ يقول جل شأنه : « يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز » .

«١» سورة القصص الآية ٦ .

«٢» سورة الزخرف الآية ٤٧ .

«٣» سورة البقرة الآية ١٠٥

الله أكبر وسبحان الله ألفاً ألفاً عدد ما أنزل الله حرفاً حرفا ما أدري ماذا أجرى قلم القدرة وماذا أنشأ لسان القوة وماذا حوى وحمل لوح العظمة والسطوة ما أدري كيف أسبغها وأساغها ، وفى أي قالب صبها وصاغها ، والى أي حد من البلاغة انهى بلاغها ؟ يقول جل شأنه أليس هناك شيء عجيب وشأن غريب الذي هو بمثابة من العجب والغرابة أن ترى من ذوي العقل جماعة يخصون بالعبادة وينقادون بالطاعة لمخلوق مثلهم قطعاً لا يملك لنفسه فكيف لغيره ضراً أو نفعاً ، وهو من الضعف والعجز في حال يعجز عن صنع مثل أصغر الحيوانات بل أخس الهوام والحشرات ، وانظر الى تلك التتمة بل التكملة المهمة وهي قوله تعالى : « ولو اجتمعوا له » ، فانه بمحل ومكان لا يأتي عليه الحسن ولا الاستحسان ، ثم انظر الى ما وراء ذلك من الترقي والمبالغة زيادة في التشنيع والتقريع لهم والتفظيع فى عبادة ذلك الخلق الوضيع وهو قوله تعالى : « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » فانه الغاية فى إهانتهم والكشف عن عجزهم ومهانتهم ، وما هو من المبالغة والاغراق الذي هو فوق الواقع بل ترقٍ فى تصريف المعاني على نحو من البيان بديع بارع .

ثم انظر كيف عقب ذلك بما يزيد الحال في الشناعة والفظاعة وأعطى فذلكة المقام فلخص وأجمل فى كلمة ضربها ضرب المثل فقال عز شأنه : « ضعف الطالب والمطلوب » . وسرح نظرك الى آخر الآية مما تاهت فيه العقول وتناهت الألباب وعجزت الأفهام وحُجزت الأوهام وكلت الألسن وأعشت الأعين وانقطعت العبارات وامتنعت الاشارات .

وانظر الى ما هي دون ما ذكرناه فى الفصاحة والبلاغة قوله جل شأنه في الآية السادسة والتسعين من سورة الانعام إذ يقول تعالى : « فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » . انظرها

وهي أربع كلمات كل واحدة بنفسها درة ، وفي جبين البلاغة غرة إن ضممتها الى اخواتها سطعت وإن افردتها لذاتها برعت ، فاذا الفت زادت حسناً وإحساناً وإذا أفردت شعت بنفسها إشراقاً ولمعاناً ، في اسلوب يريك أنه يصدر عن علو الأمر ونفاذ القهر ومتناهي الفخر ، متجل ببهجة القدرة متحل بخالص العزة ، يجمع السلاسة الى الرصانة والسلامة الى المتانة والرونق الصافي والبهاء الضافي . لا أريد انه شمل الطباق المليح والايجاز الصحيح والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل فانه وإن جمع ذلك وأكثر ، لكن العجب ما ذكرنا من انفراد كل كلمة بنفسها وتعاليها في أوج سماء قدسها حتى حسن أن تكون عين رسالة أو خطبة ، وصدر مناجاة أو ندبة وعنوان رسالة أو كتاب وفاتحة مقالة أو خطاب .

وما أكثر أمثال هـذه الآي من معجز آياته وزبر بيناته مما لا يتسع لعده وسعي وفراغي ، ولا يبلغ أدناه أقصى جهدي وبلاغي . وكيف لي أن أتسنم أو أتسنى لصعود تلك المزالق ورقي هاتيك الشواهق والوصول الى تلك الرقائق والحقائق من بيان عظمة القرآن وما فيه وإعجازه في مبانيه ومعانيه وذكر علومه وتعاليمه وشرف مناطيقه ومفاهيمه ،

وإن من العجب أن ترى الرجل في جميع المقامات من النظم والنثر والخطب كخطيب مصقع فارساً في كل حلبة ولدى كل موضع فاذا تصدى من أجل ضعف في دينه أو خور في عود يقينه او زندقة في هواه الى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام الفخم وتبلد وأبكم وتلدد . هذا مسيلمة وسجاح وأمثالهم من الأولين والمتنبيء والمعري وأضرابهم من الآخرين كل بزعمه جاء بقرآن وبينات وسور وآيات ولكن دونك فاضرب فكرك فيما يحكى عنهم من تلك المزخرفات فهل تجد إلا ما يضحك الصبيان في مكاتبها ، وتسخر منه ربات الحجال في مضاربها .

وها نحن نسوق اليك طرفاً مما جاء به هؤلاء زعموا أنها كتب سماوية وسور

إلهية نزل بها الروح الأمين ، اجعله مسرحاً لفكرك واعرضه على ذوقك وفهمك ، فهل تجد فيه عظمة القرآن ومعجز ذلك البيان من سحر البلاغة وحسن النظم وجودة الأسلوب ؟ .

هاك ما جاء به مسيلمة وقد أخذ اغلبه من القرآن قال معارضاً لسورة (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى) قال (سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى فأخرج منها نسمة تسعى من بين اضلاع وحشى ، فمنهم من يموت ويدس في الثرى ، ومنهم من يعيش ويبقى الى أجل ومنتهى ، والله يعلم السر وأخفى . ومنه « واذكروا نعمة الله عليكم واشكروها ، إذ جعل الشمس سراجاً والغيث ثجاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً وفضة وزجاجا وذهبا وديباجا) . ومنه : (يا ضفدع بنت الضفدعين نقي لجاد ما تنقين وسحي لحسن ما تسحين ، اعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين) . ومنه (والفيل ما الفيل وماأدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل ، إن ذلك من خلق ربنا لقليل) . ومنه معارضاً لسورة الذاريات : (والمبذرات زرعاً والحاصدات حصداً والدائسات قمحاً والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً والثاردات ثرداً واللاقمات لقماً لحما وسمناً . ومما يناسب المقام إتماماً لهذه السورة أن نقول والخاريات خرياً .

قال الأصمعي : نزلت برجل من الأعراب فقام يصلي المغرب فقرأ في الركعة الأولى « قد أفلح من هيثم في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته وحاط من بعيره وشاته ثم ركع وسجد ، وقام الى الثانية فقرأ :

بنونا بنوا ابنائنا وبناتنا بنوهن ابناء الرجال الأباعد

ثم ركع وسجد وتشهد ، وقام الى الثالثة فقرأ :

ويوسف إذ ولاه ابناه علة فأصبح في قعر الركية ثاويا

ثم ركع وسجد وتشهد فقلت له من أين هذا القول وهو ليس من القرآن

فقال : صه يا أصمعي ، أشهد الله على عمتي انها تلقته من مسيلمة رسول الله مذ أربعين سنة .

واليك نبذة من قرآن أبي الطيب المتنبيء الشاعر الشهير إدعى النبوة في بادية السماوة وقد تبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم ، زعم انه انزل عليه قرآن تصديقاً لنبوته وتأكيداً لمطلوبه ومن قرآنه (والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي إخطار) . ومنه (امضي على سننك واقف اثر من كان قبلك من المرسلين فان الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين وضل عن السبيل .

وخذ اليك جملة من قرآن المعري الذي سماه ، « الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات » .

إذ يقول : « أقسم بخالق الخيل والريح الهابة بليل بين الأشرط ومطالع سهيل ، ان الكافر لطويل الويل ، وان العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدارج السيل ، وطالع التوبة من قُبيل ، تنج وما اخالك بناج . وقوله أذلت العائدة أباها ، وأصاب الوحدة ورباها ، والله بكرمه اجتباها ، أولاها الشرف بما حباها ، ارسل الشمال وصباها ، ولا يخاف عُقباها . فقيل له ما هذا إلا جيد غير انه ليس عليه طلاوة القرآن . فقال : انتظروه اربعمائة سنة حتى تصقله الالسن فى المحاريب وعند ذلك انظروا كيف يكون . ؟

وهاك صفحة من قرآن « علي محمد » مؤسس دعوة البابية اجعله محط نظرك وموقع فكرك وتأمله ملياً وانظر ماذا ترى وماذا تسمع من الخرافة التي لا توصف !

يقول فى قرآنه الذي سماه « البيان » مدّعياً انه معجز وحجة على صدق الدعوى وجاء فيه بأمور . وهي انه في اكثره بل غالبه جاء بجمل القرآن وابعاض آياته فيؤلف ما بينها تأليفاً يشوه صورتها الحسناء ويحطها من السماء الى الأرض ، إذ يجمع فيها بين الأضداد وسوء الترتيب وسخافة التركيب والغلط والالحان في الاعراب . وإن الله قد ضرب المثل لنوره بالمشكاة والمصباح فسهلت لي حكمة

ذلك أن اضرب لك الامثال للقرآن وابتلاءه بمقابلة كتاب الباب . ومن الامثال انه اجتمع فارسيان فقال أحـــدهما لصاحبه ما صناعتك ؟ قال شاعر ، وانت ما صناعتك ؟ قال ماعر ، قال فاقرأ لي من شعرك ، فقال الشاعر: إني قلت في انقضاء برد الشتاء والثلج وارتياح الاطيار بطيب الربيع وبهجة الازهار : (كبك دركوه ميزند خنده) . فاقرأ لي معرك فقال الماعر : وأنا قلت (مبك درموه ميزندمنده) فقال الشاعر : هذا شعري انت مسختـه ، فقال الماعر : لا ، هذا معري وأنا انشأته هذا ولكن الماعر احسن الاتباع بالوزن والاسلوب والانسجام .

وزبدة القول هاك استمع بعض الآيات من قرآنه - بعد ضرب المثل - قال في البيان ما لفظه : شئون الحمراء آثار النقطة جل وعز البيان ، في شئون الخمسة من كتاب الله عز وجل ، كتاب الفاء ، بسم الله الأبهى الأبهى بسم الله البهي البهي الله لا إله إلا هو الأبهى الأبهى ، الله لا إله إلا هو المبتهي المبتهي ، الله لا إله إلا هو المبهى المبهى ، الله لا إله إلا هوالواحد البهيان ، ولله بهى بهيان بهاء السماوات والأرض والله بهيان مبتهي مبتهاء ، قل الله ابهى فوق كل ذي بهاء ، لن يقدر أن يمتنع عن مليك سلطان ابهائه من احد لا في السماوات ولا في الأرض ولا ما بينهما انه كان بهاءاً باهياً بهياً . ثم أكثر من هذا التكرار بهذه المادة في البهيان والمبتهى . الى أن قال :

إنا قدجعلناك جلالا جليلا للجالين وإنا قد جعلناك جمالا جميلا للجاملين .

ثم أخذيكرر إنا قد جعلناك وما بعدها . فلنحذف قوله إنا جعلناك ونذكر ما بعدها وهو : عظاماً عظيماً للعاظمين ، نوراناً نويراً للناورين ، رحماناً رحيما للراحمين ، تماماً تميما للتامين ، كمالا كميلا للكاملين ، كبراناً كبيراً للكابرين ، عزاناً عزيزاً للعازين ، نصراناً نصيراً للناصرين ، فتحاناً فتيحاً للفاتحين ، قدراناً قديراً للقادرين ، ظهراناً ظهيراً للظاهرين ، حباناً حبيباً للحابين ، شرفاناً شريفاً للشارفين . سلطاناً سليطاً

للسالطين . برهاناً بريهاً للبارهين . حكاناً حكيماً للحاكين . جوداناً جويداً للجاودين . وزراناًوزيراًللوازرين . بطشاناً بطيشاً للباطشين ، نبلاناً نبيلا للنابلين جهراناً جهيراً للجاهرين . جرداناً جريداً للجاردين . سرجاناً سريجاً للسارجين . طرزاناً طريزاً للطارزين . الى ان قال :

تبارك الله من سلط مستلط رفيع . وتبارك الله من وزر مؤتزر وزير . وكرر قوله تبارك الله في قوله جمل مجتمل جميل . عظم معتظم عظيم . نور متنور نوير . رحم مرتحم رحيم . شمخ مشمخ شميخ . بذخ مبتذخ بذيخ . بدء مبتدء بدىء . فخر مفتخر فخير . ظهر مظتهر ظهير . قهر مقتهر قهير . غلب مغتلب غليب . كبر مكتبر كبير . عز معتزز عزيز . جود مجتود جويد . طرزمتطرزطريز . جذب مجتذ جذيب .

هـــذا كلامه واسأل الكردي المكترد الكريد . والزنجي المتزج الزنيج . ممن له أقل المام بالعربية ومعرفة أصولها وقل أية فقرة سالمة من الغلط المغتلط الغليط فانه يقول ليس فيها صحيح إلا قوله رحماناً رحيما للراحمين . فاعتبروا إن كنتم من المعتبرين . ولا أظن انك لا تستطيع معارضة هذا القرآن على زعمه مع فهمك وصفاء ذهنك فاذا اشتهيت أن تسمع المعارضة فدونكها وشرطنا أن لا نذكر فيها أسماء الله وصفاته الكريمة تنزيهاً لجلاله عن مثل هذا الهذر في الهاذرين . بل نصرف الكلام الى بستان تجلت من زهيان الانشاء فى البقعة الخضراء في شئون الصفراء ما تحت الزرقاء مهملا مسلسلا كما يقولون كتاب الصاد . بزهو البستان الأزهى الأزهى . بستان لم يزدهي الا هو الزهي الزهي المزدهي المزدهي المزهى المزهى الأوحد الزهيان . له زهيزهيان زهاء الخالص وخريسان وما بينهما . زهاءزاهي زهي زهية الخالص وخريسان وما بينهما . زهيان مزدهي مزداه أزهى فوق كل ذي ازدهاء أزهى فوق كل بستان ذي زهاء لا يتوصل أن يعاند عن ملكوت سلطان زهيانه

من بستان لا في الخالص ولا خريسان . إنه كان زهاء زاهياً زهياً . انه كان زهيانا مزدهياً زهياً .

قل أيها البستان إنك أنت زهيان الزهائين . إنا ملكناك بستاناً بسيتاً للباستين . إنا ملكناك جردا ناً جريداً للجاردين .

« وأعتبر هذا التكرار في قولنا » سعفاناً سعيفاً للساعفين . خوصاناً خويصاً للخاوصين . كربانا ً كريباً للكاربين . ليفاناً لييفاً للايفين . « وأعتبر هذا التصريف في اللفظ بقولنا » . طلعانا ً . لقحاناً . بلحاناً . عذقاناً . بسراناً . رطباناً . تمراناً قسباناً . قصاناً . كرساناً . كبساناً . دبساناً . شجراناً . نبعاناً . ورقاناً . غصناناً وردانا ً . ثمراناً ، عنباناً . خوخاناً . تفحاناً . كوجاناً . نوماناً . سندا ناً . إنا ملكنا فيك باسق النخل ويانع الشجر وجني الثمر مما يشتهون . فحياك الحيا من بست مبتست بسيت (وكرر قولنا حياك الحيا من . مع قولنا) خضر مختضر خضير . عمر معتمر عمير . حيط محتيط حييط « وأعتبر بهذا التصريف في قولنا » كبر . طول . عرض . عمل . سمد . كرب . هلز وهكذا .

وقال أيضاً . يا خليل بسم الله الأقدم الأقدم . بسم الله الواحد القدام . بسم الله المقدم المقدم . بسم الله القادم القدام . بسم الله القادم القدوم . بسم الله القادم القدمان . بسم الله المقتدم المقتدوم « وكرر هذا التصريف . بقوله . القادم المتقادم . المستقدم . القيدوم . القدم . القدم . المقادم . القادم . القدامين . القدمات القدومين . القدامين . المقاديم . المتقدمات . التقدمات . المستقدمات . القدام . القدادم « وجرى على التقلب فى هـذا التصريف نحو ثلاث أوراق كما تقلب في البهيان والأبهاء .

ولنضرب لك مثلا ــ بالنظر اليه ــ ليسهل عليك أن تعارض هذا الكلام فلا نحتاج الى التطويل فى المعارضة والتبذير في القرطاس . وقد أعطيناك إنموذج الكلام أما المثل فهو أنه لما تمت عمارة صحن الكاظميين عليهما السلام عملوا له احتفالا

عظيماً و نظم فيه الشعراء ، فجاء بعض الظرفاء ممن ليس له طبع الشعر وقال اني قد عملت قصيدة بديعة فى عمارة الصحن الشريف وذكرت جميع أجزاء العمارة بما لم يأت به الشعراء ، ونظمتها بالفارسية لمناسبة الباذل لمصارف العمارة وهو الشاهزاده فرهاد مرزا . وها هي القصيدة .

عجب صحني چه صحني خوب صحني . عجب طيني چه طيني خوب طيني .

عجب نوره چه نوره خوب نوره . عجب آجر چه آجر خوب آجر .

عجب كاشي چه كاشي خوب كاشي . واستمر على هذا في جميع أجزاء العمارة وأسبابها ثم التفت الى ذكر العملة على هذا المنوال ، فقال : عجب استا . عجب خلفه . عجب صانع . عجب مهدي . عجب أحمد . عجب ناصر . وهكذا والقصيدة على طولها لم يأت فيها بلفظ مهمل كالبهيان والمقتدوم وأشباهها ، ثم أنه بعدمدة قدم العالم المرزا أبو الفضل الطهراني رحمه الله من سفر الحج ، فمضى ذلك الرجل الظريف الى زيارته وقال إني نظمت فى حجك وقدومك قصيدة غراء ، فقال له المرزا المذكور أنا أتلو قصيدتك عليك قبل أن أسمعها منك ، ألست تريد أن تقول :

عجب حجي چه حجي خوب حجي　　عجب ناقه چه ناقه خوب ناقه

عجب محمل چه محمل خوب محمل . وهكذا فى جميع أجزاء السفر وأسماء الأماكن ذهاباً وإياباً فقال الظريف أحسنت وانك لشاعر عالم بما في الضمير .

فقل في المعارضة للكلام السابق على شرطنا . يا حبيب بحموضة الخل الأعتق الأعتق ، بحموضة الخل الممتاز العتاق ، بحموضة الخل المعتق المعتق ، بحموضة الخل العاتق العتاق ، بحموضة الخل العاتق العتوق ، بحموضة الخل العاتق العتقان ، بحموضة الخل المعتتق المعتتوق . (وكرر هذا التصريف بقولك) العاتق المتعاتق المستعتق العيتوق العتق العِتق العتاقة العاتق العتاقين العتقات العتوقين العتاقين المعاتيق ، المتعتقات التعتقات . المستعتقات . العتاق العتاتق (وحيث ارتفع بهمة المرزا علي محمد حرج

العقلاء وأهل اللسان فى تصريف الألفاظ فزد في ذلك وقل في التكرار) العتقق العيتقيق العيتقوق ، ونحو ذلك مما هو أشبه ببعض الألفاظ من لفظ المقتدوم .

ومن العجيب ولا عجب ممن يقرء أمثال هذا في كتب البابية ويقول مفتخراً هذه هي الحقائق لا قولهم في علم الصرف . نصر ينصر نصراً : فنقول له إنا نعلّم أطفالنا علم النحو والصرف لنحفظ لهم شرف أدبهم وكمالهم فى معرفة الصحيح من اللغة والكلام وليميزوا بأدبهم من هو الذي يغلط ويهذر ويكفر وهو يدّعي انه باب العلم ونبي مبعوث وإله جاء بكتاب معجز فى اللغة العربية وقد سمعت انموذجه .

ولا غرو إذا اغتر عوام العجم بهذه الهمهمة والدمدمة وتوّهموا انها ترجع الى طائل ومعنى محصل فقبلوها وهم لا يشعرون ، ولكن ما بال بعض العرب وهم يدَّعون الفهم والأدب قد انخدعوا لصاحب هــــذه الطامات والخرافات والأغلاط المضحكة ، وأعجب من هذا انه يدَّعي بها الاعجاز وهم يؤمنون ، ولا عجب من الهوى وخداعه سنة الذين خلوا أفلا تتفكرون .

وبعد هذا كله . فاني ملتمس سائل ولكل واحدٍ ممن عرف للبلاغة معنى قائل . ألا بذمة الانصاف عليك ألا بما أسدى الحق والحقيقة من الفضائل اليك ألا بحرمة شرف الانسانية ألا بالمروة والتكرم ألا بشرف العلم والتعلم إلا ما طالعت وتطلعت وراجعت ما استطعت ، فها هو القرآن بين يديك ، اجمع جمعك واسع وسعك واعقد عندك محتفلا ولجنة واجمع فيه من تراه من المهرة فى البلاغة وذوي المهنة والصياغة فانهم بين يديك وما كان يخفى مقامهم عليك فان الصناعة الواحدة داعية التعارف وواسطة التكاتف واستقبلوا من القرآن أية خطة شئتم وأي مقام أردتم مقام الدعوة الى التوحيد . مقام الوعد والوعيد ، مقام التشويق الى الجنان ، مقام التحذير من النيران ، مقام القصص والانباء ، مقام دعوة الأنبياء ، مقام تهذيب النفس الانسانية ، مقام نشوها ونموها من الجمادية الى الحيوانية ، الى غير ذلك من

الموجودات السمائية والأرضية مما يتعلق بالعلوم الطبيعية والرياضية، كالسحاب والمطر والرعد والبرق والبرد والصواعق والزلازل وغيرها من كائنات الجو .

أعطيك نموذجاً في القول وعنواناً من البيان تقيس عليه ما شئت من غيره مما مر عليك وطرق سمعك . خذ من أوائل سورة القصص الى عشرين أو ثلاثين آية مثلاً وانظر فيما اقتص الله جل شأنه من نبأ موسى وتفاصيل أحواله وما جرى له من حين ارتضاعه وأيام صباه الى الوقت الذي كلمه الله فيه واجتباه مفتتحاً بقوله جل شأنه :

(نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) .

إلى قوله تعالى بعدما اقتص من زواج كليمه ببنت شعيب بثماني حجج قال سبحانه : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين * وأن الق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين * ثم اقتص جل شأنه خبر إرساله إلى فرعون وتفرعنه بقوله تعالى : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي

أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * إلى منتهى القصة وهوقوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يذكرون »

انظرهذه قصة من قصصه وخبر من أخباره ولمعة من أنواره ، لا أخصها لك بعينها ولا أعينها عليك بخصوصها ، بل أشرت لك بها الى الغرض وصيرتها منهجاً وذكرتها مثالاً ونموذجاً خذ أياً شئت من نبأ آدم وإبليسه ، وإبراهيم ونمروده ، ولوط وقومه ، وصالح وثموده ، وهود وعاده ، ويوسف وأخوته ، وشعيب ومدينه وداود وجالوته ، وسليمان وبلقيسه ، وزكريا وأمته ، ويحي ورهبانيته ، وعيسى وروحانيته ، ومحمد ونبوته ، خذ مما عددناه وما استوفيناه ولا أحصيناه أي قصص شئت وعلى أي باب وقفت ثم تدبره جيداً ورجع النظرة والفكرة مردداً ثم اجمع أهل ثقتك ممن تعترف لهم بالفصاحة وتذعن لهم بشأو البلاغة وقل يا هؤلاء إنا نريد أن نسبك هذه القصة على غير ما جاء بها هذا الكتاب من سبكها ، ونبدل هـذه الدرر بامثالها وننظمها في غير ما وجدناه هناك من سلكها ، فاعينوني بقوة واسعدوني بسطوة ، واقض في الخوض معهم ليلك ونهارك بل أيامك بل اعوامك بل عمرك بل دهرك ، ثم خذ لك مني وعـد صدق وعلى الله انجازه أن ستعرف هناك حقيقة العجز ويستبين لك ما بلاغة القرآن وما إعجازه . هناك تجد الأفكار الا راجعة متقهقرة والألباب إلا واقفة متحيرة ، هناك يهزك الفزع ويأخذك الهلع ، هناك تنصدع صفاتك وتخف حصاتك ، هناك يخضع لجاجك ، هناك يعتدل اعوجاجك هناك يبدو لك عـذر من كان قبلك فى ترك المعارضة ممن هو أشد منك في البلاغة

بأساً وأقوى منك معاناة لها ومراساً ممن بعد فيها فوته وارتفع بها صيته وصوته ، هناك تحسن وجداناً وتجد عياناً وتعود مضطلعاً خبيراً بصحة قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا «١» .

صورة أخرى لاسلوب القرآن

ترتكز على العقل

تتضمن بعض معجزاته العلمية

إن القرآن لم تكن مهمته أن يتحدث الى عقول الناس عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة ولا من الارشادات الخفية الى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله .

ومن الثابت تاريخياً أن محمداً «ص» فضلاً عن كونه امياً لا يقرأ ولا يكتب قد نشأ فى مكة حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا جامعات ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية ، كما ان محمداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي الذي كان موجوداً في الشام والاسكندرية واثينا ورومية . ومع ذلك فان النظريات العلمية التي أشار اليها القرآن لم تكن معلومة في ذلك العصر فى القرن السابع الميلادي ولم يكتشف العلم أسرارها إلا منذ أمد قريب .

«١» سورة الاسراء الآية ٨٨ .

وهذه الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن والتي سنعرضها في هذا البحث نتركها للقارىء ليحكم بعقله بعيداً عن هوى النفس ليرى هل يعقل أن تكون هذه الآيات القرآنية من كلام محمد كما يفترون أم هي وحي إلهي أنزله الله على محمد «ص» ؟ .

قال الله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً «١» . هذه الآية سمعها العرب ، ففهم بعضهم من نسقها أن القمر نور والشمس نور ولكن اختلف اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ . ثم فهم أهل العلوم الحديثة مع كل هذه الوجوه أن المراد من الآية إثبات ما كشفته هذه العلوم من أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي « سراجه » إذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداءاً ولا بدّ له من مصدر يبعثه . فذكر السراج بعد النور دليل على أن هذا مصدره ذاك .

فتأمل أيمكن أن يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرناً في تلك الجزيرة ؟ وهذا المعنى لم يعرفه المفسرون في عصور المدنية الاسلامية الزاهرة

قال الله تعالى « أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من اطرافها » «٢»

إن شكل الأرض بصورة عامة مستدير كروي غير أنها غير تامة الاستدارة وغير منتظمة التكوير ، فهي مبططة عند قطبيها ومنتفخة عند خط الاستواء وبشكلها هذا دعيت بالقطع الناقص الجسم ، وحينئذٍ نقص قطرها القطبي عن قطرها الاستوائي مقدار ٤٣ ، ٦ كيلو متراً تقريباً .

وتبطيط الأرض عند قطبيها وانتفاضها عند خط الاستواء نتيجة لتأثير فعل القوة الطاردة المركزية المسببة من الحركة الدورانية للأرض حينما كانت سائلة .

من أين لمحمد (ص) هذه الحقيقة عن الأرض ؟ والتي لم يُهتدى اليها إلا منذ ثلاثة قرون تقريباً ، إن في ذلك لآية على أن القرآن من عند الله .

«١» سورة نوح الآية ١٥ – ١٦ .

«٢» سورة الرعد الآية ٤١ .

قال الله تعالى : (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) «١» . فقد ثبت في علم الفلك أن الكواكب واقفة بقوة الجاذبية وما ثمّ مادة تربطها وتوقفها مكانها ، وقد كان الفلكيون يزعمون انها مرتبطة بفلك الأفلاك . ويقول الله تعالى أيضاً في هذا المعنى : (إن الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا) «٢» . فالله جل شأنه يمسك السماء والأرض بناموس الارتباط العام بين ذرات العالم أجمع ، وهو ناموس الجاذبية .

قال الله تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) «٣» .

فالقرآن يصرح أن السماء كانت دخاناً وهـــذا سر عجيب من اسرار خلق السماوات والأرض لا يعرف العلم إلا أن السماء كانت يوماً دخاناً ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخاناً يشاهده الفلكيون بمراقبهم القوية حديثاً في السماء .

وقد قرأت أخيراً في مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٥١ أن الدكتور (وندل لاتيمار) العالم الفلكي قال : « إن الأرض والكواكب الأخرى تكونت نتيجة لتكثف سحابة مؤلفة من جزئيات صلبة غازية يبلغ حجمها ضعف حجم الكرة الأرضية الحالي عشرة آلاف مرة » .

قال الله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) «٤» . هذه الآية تخبرنا أن السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل

«١» سورة الرعد الآية ٢ .

«٢» سورة فاطر الآية ٤١ .

«٣» سورة فصلت الآية ٩ — ١١

«٤» سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

الأجزاء ، وهذه معجزة من معجزات القرآن ، يؤيد القرآن بها العلم الحديث في قوله : « إن العالم الشمسي كان كتلة سديمية واحدة فانفصل بعض أجزاء الكتلة تدريجياً بطريقة ما فتكونت منها السيارات والأرض وغيرها التي أخذت تدور حول والدتها وهي الشمس » .

قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله » «١» . مفتاح هذه الآية هو في قوله تعالى : « ثم يؤلف بينه » ، فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات فيرونها مجازاً من المجازات البلاغية وهي حقيقة من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم ، فان التألف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية .

فالسحاب مكهرب من غير شك كما أثبت ذلك فرنكلن لأول مرة في عام ١٧٥٢ والمعروف أن نوعي الكهربائية يتجاذبان ، وان الموجب والموجب ، أو السالب والسالب يتنافران ، هذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد لكن الله سبحانه قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قرباً كافيا فاذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتهما ، والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي .

فالعوامل المسببة للأمطار محورها إذاً هي الكهربائية الجوية وقد أشير اليها إشارة واضحة في آية الحجر ، قال تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » «٢» . فالملاقحة فى هذه الآية بين

«١» سورة النور الآية ٤٣ .

«٢» سورة الحجر الآية ٢٢ .

سحاب وسحاب ، والشبه تام بين هذا التلقيح والتلقيح النباتي ، لأنه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين يختفي به الشيئآن ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

قال الله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » «١» .

وصف الله فى هذه الآية جماعة الحيوان والطير بالأمم ، وانها تشبهنا بعض الشبه أي أن لها عقلاً تدبر به أمورها .

وفى آية أخرى من القرآن نسب الله للنمل كلاماً : (قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) «٢» .

هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً ، فقد دل على أن جماعات الحيوان أمم يربط آحادها رباط اجتماعي وثيق العرا ، وان منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ، وإن لكل جماعة منها لغة يتفاهم آحادها بها. بينما كان العلماء الأقدمون لا يعترفون للحيوان والطير بعقل ولا بذكاء فكانوا يظنونها مجرد آلات حية تحس وتتألم لا تحيل عقلا ، وكل ما يشاهد منها من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الالهام والغريزة . بقي هذا الاعتقاد الى عصور متأخرة ، فكان الفيلسوف « ديكارت » يرى أن الحيوان كالآلة المعقدة المجردة من الحياة العقلية ، فهو لا يفكر كما يفهم الناس بل يعبر فى سلوكه عن الغرائز . واشتهرعنه هذا التعريف وتناقله الباحثون ولم يعترف للحيوان بعقل وتفكير نسبيين إلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، من ذلك ما أعلنه (دارون) ان التفكير موجود في الحيوان ولكنه بدرجة أقل من الانسان .

إن هذه الحقيقة التي أعلنها القرآن هي ولا شك أحدى معجزات القرآن

«١» سورة الانعام الآية ٣٨ .

«٢» سورة النمل الاية ١٨ .

الذي قرر حقيقة أقربها العلم بعد أن استبحرت البحوث فى الحيوان والطير وقضى العلماء أعمارهم فى ملاحظتها ودراستها .

قال الله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » «١» .

كان علماء المادة منذ زمن ليس بالبعيد يقفون في ابحاثهم عند الذرة ويقولون إنها الجوهو الفرد الذي تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة لتناهيه في الصغر والدقة ، ولكنهم اكتشفوا حديثاً قابلية الذرة للتجزئة والتحطيم إذحطموها فعلا واستكشفوا ما فيها من أسرار . فكلمة « أصغر » في الآية القرآنية ليست إشارة الى الذرة فقط بل هي تصريح جلي بامكان تجزئتها وتحطيمها ، وهذا سر من أسرار القرآن كشف عنه العلم حديثاً .

قال الله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) «٢» .

فقد ثبت علمياً أن الزوجية منبثة فى الممالك الثلاث الكونية : الحيوان ، والنبات ، والجماد ، حتى الكهرباء فيه قوّتان سلبية وإيجابية ، ولم يكن معروفا ذلك فى عصر محمد صلى الله عليه وآله ، وإنما كانوا يعرفونه فى المملكة الحيوانية وشيء من المملكة النباتية ، والحال أن القرآن جعل هذا المبدأ عاماً إذ قال : (ومن كل شيء) كما أن القرآن أثبت الزوجية للحيوان (وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) «٣» .

قال الله تعالى : (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) «٤» . فالآية صريحة

«١» سورة يونس الاية ٦١ .
«٢» سورة الذاريات الاية ٤٩ .
«٣» سورة النجم الاية ٤٥ .
«٤» سورة الانعام الاية ١٢٥ .

بانه من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الاختناق ، والعلم أثبت من قريب أن أوكسجين الهواء ينقص في طبقات الجو ، وأنه كلما ارتفع الصاعد في أعماق الجو يشعر بعوارض الاختناق من صعوبة التنفس ، ولذا يستعمل الطيارون الذين يصعدون الى الأعالي آلات التنفس الصناعي الذي يحتوي على مادة الاوكسجين حتى يتفادوا الاختناق

قال الله تعالى : (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) «١» . الشاهد في هذه الآية هو كلمة (موزون) فان علماء الكون الأخصائيين في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين ، وكذلك تختلف نسبة بعضها الى بعض في كل نبات ، وهذه مسألة لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر .

قال الله تعالى : (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) «٢» . فقد أثبت العلماء في العصر الحديث أن أوكسجين الهواء لو زاد عن المقدار الذي هو فيه لهلك كل كائن يتنفس ، وذلك لان حاجة الكائنات الحية الى الاوكسجين لا تتعدى الكمية الموجودة حاليا ، فكما أن قلة الاوكسجين تسبب الموت اختناقا فكذلك كثرتها تضر بالرئتين وتؤدي الى الموت . أجل ! كل شيء في هذا الكون بمقدار بحيث لو زاد لفسد نظام الكون ، فلو زاد الماء في الكرة الأرضية لغرقت ولو انعدم لمات من عليها ، ولو زادت كمية الملح في البحر لهلكت الأسماك . . . الخ

قال الله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (٣) .

«١» سورة الحجر الاية ١٩ .
«٢» سورة الحجر الاية ٢١ .
(٣) سورة القيامة الاية ١ ــ ٤ .

معنى هذه الآيات أن الله تعالى يقول : أيظن الانسان انا لن نجمع عظامه ؟ بل نحن قادرون على أن نرتب أصابعه عند الحشر ونرجعها الى ما كانت عليه في الدنيا . هنا المعجزة وبيت القصيد . فلماذا اختار الله سبحانه بنان الانسان ولم يختر عضواً آخر من أعضاء الجسم الكثيرة ؟

نعم تتشابه أعضاء الجسم فى الانسان كالعين والأنف والأذن وغيرها من إنسان لانسان ، ولكن الأصابع لها مميزات خاصة لا تتشابه ولا تتقارب ، وهذه المميزات لم تعرف لأول مرة إلا فى القرن الماضي أي بعد نزول القرآن بأثني عشر قرناً ونصف القرن تقريباً . ففي سنة ١٨٨٤ م استعملت رسمياً في انكلترا طريقة الاستعراف والتعرف بواسطة بصمات الأصابع ، إذ أن بشرة الأصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع : أقواس ، اوعراو ، او دوامات بمعنى دوائر متحدة المركز ، وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الاشكال التي لم توصف فى الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات . وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة وتتميز بين شخص وآخر . فالقرآن ليس هو مجرد ألفاظ ، فكل لفظ له مدلوله وكل آية لها مغزاها .

قال الله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق) «١»

أثبت الطب أن منيّ الانسان ما هو إلا سائل يحوي حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة ، وترى بـ (المكرسكوب) وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه فى شكله دودة العلق فى شكلها ورسمها . فيقول الله سبحانه : (خلق الانسان من علق) أي أنه خلقه من هذه الحيوانات التي تشبه العلق شكلاً وليقرّبها الى عقول البشر بهذا التشبيه .

وهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم تظهروقت نزولها ولا بعده

«١» سورة العلق الآية ١ ـ ٢ .

بمئات السنين ، الى أن اكتشف (الميكروسكوب) وعرف كيف يتكون الانسان من هذه الحيوانات .

قال الله تعالى : (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك) «١» . (ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن ، فقد أخـــبر أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات وهي الآن يطلق عليها الغشاء المنباري ، والخوريون ، والغشاء اللفائني . والجدير بالذكر أن هذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة » .

قال الله تعالى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) «٢» .

إذا أمعنا النظر في هذه الآية وجدنا انها دلت بوضوح لما دل العلم بعدها على أن الانسان خلق من طين . فان النطفة فى كل من الذكر والأنثى التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الانسان ، وأصل هـــذه التغذية ومنشؤها التراب .

والمراد بالنطفة في الآية هي الحيوان المنوي للذكر والبويضة للأنثى ، فخلق الانسان لا يتم إلا باجتماع هاتين النطفتين والتلقيح بينهما . والقرار المكين : هو الرحم ، وفي وصف القرآن بانه (مكين) إعجاز يفهم الأطباء الذين درسوا التشريح . فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن أشد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح ، ففيه مخابىء عجيبة خلقت لذلك خلقاً ، وفيه مواد يفرزها لوقاية الجرثومة وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها وذلك كله تجده في تشريح كلمة مكين .

«١» سورة الزمر الآية ٦ .

«٢» سورة المؤمنون الاية ١٣ ـ ١٤ .

ثم يخبر الله تعالى بانه يصير علقة وصحيح أن شكله يكون مثل علقة الماء تماماً ويستمر كذلك في الأربعة الأسابيع الأولى تقريباً . وإذا عرفنا أن طوله حينئذ لا يزيد على خمس السنتمتر الواحد ، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماماً ، وان أول (ميكرسكوب) عملت في سنة ١٦٨٣ م أي بعد ألف سنة تقريباً من نزول القرآن عرفنا أنه كلام الله تعالى . هذا بينما فسر العلماء المسلمون قديماً قبل اختراع « الميكرسكوب » العلقة : بالدم المتجمد الغليظ على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغير انتظام ومكوراً ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع . وقدسماه الله « مضغة » لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة وهي في الاصطلاح الطبي عبارة عن نمو العلقة وتنوع خلاياها وتميز بعض أجزائها عن البعض الآخر ، وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة . وبعد أن تتكون العظام يبدأ اللحم في التكوين بظهور العضلات وذلك بتنوع الخلايا التي تحيط بالعظام ، وبينما تظهر العظام والعضلات تتكون بقية أعضاء الجسم .

وفي قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ معجزة دقيقة من معجزات القرآن ، فقد ثبت أن الجنين أول تخلقه يكون في الانسان والحيوان على شكل واحد فتحوله الى الصورة الانسانية بعد ذلك انشاؤه خلقاً آخر . ومن هذا كله يتبين لنا بوضوح أن أطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي نقب عنها العلم الحديث حتى اكتشفها ، أيكون ذلك في مقدور أمي في جزيرة العرب منذ أربعة عشر قرناً أن يأتي بها من عنده إلا أن تكون وحياً أوحاه الله اليه ؟ .

هـــذه هي بعض معجزات القرآن العلمية ، وهناك معجزات أخرى طبية أوردناها في بحث ﴿ صحة الأبدان ﴾ هذه المعجزات تدحض كل شبهة تتبادر الى الذهن في الشك فيما يرويه محمد عن ربه والتي هي من أقوى الوسائل الاقناعية بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الوجهة الاسلامية

في تعرف الأحوال النفسية

تنتاب النفوس علل وأمراض يتفاوت وقعها وتختلف أعراضها ، ولا شفاء لهذه الأمراض ولا برء للنفوس منها الا بتعرف علاجها والاهتداء الى دوائها فيما شرع الله اللطيف الخبير فى كتبه السماوية وأجرى على ألسنة أنبيائه وأصفيائه من آيات الحكمة وفصل الخطاب وأودع سيرتهم من ضروب الاصلاح ومظاهر التقوى . ووصف الأمراض النفسية وأحوالها لا يتاح إلا لكل نفاذ البصر قوي البصيرة رقيق الحجاب مؤيد من عند الله بتوفيق ، له في طب النفوس جولات وبالفراسة الروحية واسع دراية ، ينظر بنور الله ويسمع ويحس ويصول ويسعى تكلؤه رعاية الله .

وقد تخادع الأحوال الجسمية أطباء الاشباح ويحارون في وصف أمراضها وربما يرون دم الاحتقان دماً يمت الى السلامة بأسباب ويستسمنون ذا ورم وتغرهم المظاهر فتغيب عنهم العلل .

والمدّعون معرفة أحوال النفوس من العلماء والزهاد والفلاسفة والصوفية كثيراً ما يعزب عنهم التوفيق فى تعرف أسرار النفوس . وما النفس إلا الروح في بعض ماهياتها وتعاريفها : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا) «١» .

«١» سورة الاسراء الآية ٨٤ .

ليس فى الاسلام مقاييس مادية تقاس بها أحوال النفوس ، ولا مسابير تسبر بها اغوارها ، ولا كيفيات تستخدم فيها الحواس والجوارح ويؤخذ فيها الناس على غرة ويجس حينئذ نبضهم وتقرأ الأسرار من أحوالهم .

برىء الاسلام من ذلك التخمين والأخذ بالظن وترتيب النتائج على هذه المقدمات الفاسدة لأن الاسلام يخاطب العقول ويناجي اليقين ولا يعرف الحدس فهو ابن الفطرة ليله كنهاره ، وقد كدم في غير مكدم وأجهد نفسه وأركبها الشطط ذلك الذي ظن أن تعرف الأحوال النفسية يرجع الى هذه القواعد والكيفيات وما دروا أن الله يتولى السرائر . حقاً قد اهتدى العارفون لكثرة ما عالجوا من أحوال المريدين والسالكين الى مظاهر وعلامات تعتبر أقيسة عامة لتمييز الاخلاص من الرياء وبواطن النفوس وظواهرها ، وتهيء لهم من ذلك شيء كثير أبصروه على نور من الله ومعرفة واسعة بالحلال والحرام واستيعاب لعلوم الكتاب والسنة ولم يلجأوا في ذلك الى ضروب من الحيل وإنما هي فراسة دينية ومنن رحمانية ، وقد صاغوا تلك الاختبارات فى قوالب من الوعظ والحكمة على محا كها يبين الزيف من السليم والصحيح من السقيم والنفوس المزكاة من المدساة . وإنا لذاكرون لك طرفاً منها تتعرف به أحوال بعض النفوس .

١ ـ ينبغي للعاقل أن ينظر الى الاصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه ويصادقه ثم لينظر بعد ذلك فى الصور فان صلاحها دليل على صلاح الباطن ، واما الصور فانه متى صحت البنية ولم يكن فيها عيب فالغالب صحة الباطن وحسن الخلق ، ومتى كان فيها عيب فالعيب فى الباطن أيضاً ، فاحذر من بهم عاهة فان بواطنهم في الغالب ردية . ثم مع معرفة أصول المخالط وكمال صورته لا بد من التجربة قبل المخالطة واستعمال الحذر لازم .

٢ ـ قال عمر بن عبد العزيز لرجل : أشر علي فيمن استعمل ، فقال : أما أرباب

الدين فلا يريدونك وأما أرباب الدنيا فلا تردهم ولكن عليك بالأشراف فانهم يصونون شرفهم عمالا يصلح . وكان يحي بن خالد يقول لولده لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس ، فان النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر . يحدث الحسن بن يحي عن ابي اسحاق قال دعاني المعتصم يوماً فأدخلني معه الحمام ثم خرج فخلا بي وقال : ياأبااسحاق في نفسي شيء أريد أن أسألك عنه إن أخي المأمون اصطنع قوماً فانجبوا واصطنعت أنا مثله فلم ينجبوا قلت : ومن هم ؟ قال اصطنع طاهراً وابنه اسحاق وآل سهل ، فقد رأيت كيف هم ، واصطنعت أنا (الافشين) فقد رأيت الى ما آل أمره و (اساش) فلم أجده شيئاً وكذلك « ايتاخ ». « وصيف » ، قلت : يا أمير المؤمنين هاهنا جواب على أمان من الغضب ؟ قال : لك ذاك ، قلت : نظر أخوك الى الأصول فاستعملها فانجبت فروعها ، واستعملت فروعاً لا أصول لها فلم تنجب ، فقال : يا أبا اسحاق مقاساة ما مر بي طول هذه المدة أهون علي من هذا الجواب .

٣ ـ قال أمير المؤمنين (ع) : بنيت الفتنة على ثلاث : النساء وهن فخ إبليس المنصوب ، والشراب وهو سيفه المرهف ، والدينار والدرهم وهما سهمان مسمومان فمن مال الى النساء لم يصف له عيش ، ومن أحب الشراب لم يمتع بعقله ، ومن أحب الدينار والدرهم كان عبداً لها ما عاش .

٤ ـ من عرف الشرع كما ينبغي وعلم حالة الرسول «ص» وأحوال الصحابة وأكابر العلماء علم أن أكثر الناس على غير الجادة وإنما يمشون مع العادات ، يتزاورون فيغتاب بعضهم بعضاً ويطلب كل واحد منهم معائب أخيه ، ويحسده إن كانت نعمة ويشمت به ان كانت مصيبة ، ويتكبر عليه إن نصح له ويخادعه لتحصيل شيء من الدنيا ويأخذ عليه العثرات إن أمكنه ، فمن كان فيه ذلك كان مظلم النفس دنيء الطبع

٥ ـ الكمال عزيز والكامل قليل الوجود ، فأول أسباب الكمال تناسب أعضاء

البدن وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خلقاً وصورة الباطن تسمى خُلقاً . ودليل كمال صورة البدن حسن الصمت واستعمال الأدب ، ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق .

فالطبائع : العفة . والنزاهة . والأنفة من الجهل . ومباعدة الشر .

والأخلاق . الكرم . والايثار . وستر العيوب . وابتداء المعروف . والحلم . فمن رزق هذه الأشياء رقته الى الكمال وظهر عنه أشرف الخلال .

٦ ـ ومن حسن التدبير التلطف بالأعداء فان ذلك يحول حالهم أو يكون سبباً في كف أذاهم قال الله تعالى : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) «١» . وقد كان الحسن بن علي (ع) إذا بلغه أن رجلاً قد شتمه أهدى اليه وأعطاه فهوبالعاجل يكف شره ويحتال فى تقليب قلبه

٧ ـ قال رسول الله «ص» : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » . ولقد دخل المتزهدون فى طرق لم يسلكها الرسول «ص» ولا أصحابه من إظهار التخشع الزائد على الحد والتنوق في تخشين الملبس ، وأكثرهم في خلوته على غير حاله فى جلوته وأنفع العلوم النظر فى سير الرسول «ص» وأصحابه « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » «٢» .

٨ ـ من العفة ألا تجد فهناك أقوام لا يقترفون الذنوب لبعدهم عنها لأنهم ألفوا الترك ، ومقياس عفتهم ان يختبروا بادناء مواضع الفتن منهم فاذا ثبتوا على ورعهم وتجافوا عن الآثام فأولئك قويت نفوسهم وطهر سرهم وجهرهم .

٩ ـ من المتصوفين من لا يستوحشون من ظلم الناس ثم يتصدقون على الفقراء

«١» سورة السجدة الآية ٣٣ .

«٢» سورة الانعام الاية ٨٩ .

وربما توانوا فى إخراج الزكاة وتكاسلوا باستعمال التأويلات فيها ثم إذا حضر أحدهم مجلس وعظ بكى كأنه يصانع بتلك الحال .

١٠ ـ من علامات العالم أن يكون حزيناً مفكراً مطرقاً صامتاً تهظر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر اليه ناظر إلا كان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله . فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذل والتواضع . وأما التهافت فى الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق . فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشدة سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله .

١١ ـ أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه من المعاد اليه ، وأن يبين الذي لهم من الأخذ بذلك والذي عليهم في تركه ، وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلحقه أجره من بعد الموت .

١٢ ـ العجب آفة العقل ، واللجاج قائد الهوى ، والبخل لقاح الحرص ، والمراء فساد اللسان ، والحمية سبب الجهل ، والأنف توءم السفه ، والمنافسة أخت العداوة .

١٣ ـ مما يدل على علم العالم معرفته ما يُدرك من الأمور وامساكه عما لا يدرك ، وتزيينه نفسه بالمكارم ، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب ، ومعرفته زمانه الذي هو فيه ، وبصره بالناس وأخذه بالقسط ، وإرشاده المسترشد وحسن مخالفته خلطاءه ، وتسويته بين قلبه ولسانه ، وتحريه العدل في كل أمر ورحب ذرعه فيما نابه واحتجاجه بالحجج فيما عمل وحسن تبصره .

١٤ ـ أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتي اليهم إلا ما ترضى أن يؤتى

اليك ، وانفع العقل أن تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير وأن لا تكترث من الشر بما لم يصبك . من العلم أن تعلم انك لا تعلم بما لا تعلم ، ومن أحسن ذوي العقول عقلاً من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحداً منهما نفاذ الآخر فان أعياه ذلك رفض الأدنى وآثر عليه الأعظم .

١٥ ـ من علامات اللئيم الخادع أن يكون حسن القول سيء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد حمولاً للفحش مجازياً بالحقد متكلفاً للجود صغير الخطر متوسعاً فيما ليس له ضيقاً فيما يملك .

١٦ ـ كان يقال الرجال أربعة : أثنان تختبر ما عندهما بالتجربة ، وأثنان قد كفيت تجربتهما ، فاما اللذان تحتاج الى تجربتهما فان أحدهما بر كان مع أبرار ، والآخر فاجر كان مع فجار فانك لا تدري لعل البر منهما إذا خالط الفجار أن يتبدل فيصير فاجراً ، ولعل الفاجر منهما إذا خالط الأبرار أن يتبدل براً فيتبدل البر فاجراً والفاجر براً . وأما اللذان قد كفيت تجربتهما وتبين لك ضوء أمرهما فان أحدهما فاجر كان في أبرار ، والآخر بر كان في فجار .

النعرة القومية

والفكرة الاسلامية

قامت فى هـذه الأيام ضجة حول مبدأ التمسك بالوطنية وترك ما عداها .

وأنصار هذه الدعوة رفعوا شعار الدين لله والوطن للجميع فقال المصريون منهم : نحن مصريون فرعونيون قبل كل شيء ، وقال بعض السوريين : نحن فينيقيون . وقال بعض العراقيين نحن كلدانيون ، وقس على ذلك ، تريد كل فئة أن تتمسك بمجدها التالد وتحتبس في حدودها ، غير ناظرة الى ما يهددها من المخاطر من جراء عزلتها التي تجعلها فريسة سائغة لكل مستعمر قوي مغتال .

يجب على كل أمة أن تعرف تاريخها قديمه وحديثه لأن ماضي الأمة يلعب دوراً كبيراً في حاضرها ومستقبلها ، ولا يمكننا أن نتناسى الماضي لأن عقائدنا وأفكارنا كلها آتية منه ، وهو الذي يكوّن روح الأمة وشكلها ، ولذلك كلما كانت الأمة عريقة في المـدنية وذات مبادىء حقة كان نسلها ذا استعداد طبيعي لكل تقدم ورقي .

قال الدكتور « جستاف لوبون » : « حظ الشعب متوقف على ما يعتقد أنه الحق ، وأن التطورات الاجتماعية وتأسيس أو هدم الممالك وتقدم أو انحطاط المدنية ناتجة عن قليل من العقائد التي تنزل من النفوس منزلة الحقائق وهي تمثل مسايرة الشعب الوراثية وفقاً لحوادث الدهر » .

إن من أخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضي وعدم الاعتراف به ،

وكيف يمكن ذلك ؟ إن ظل الاسلام يحكم أرواحنا وهو يكوّن الجزء الأكبر منا كما عليه ينسج القدر حظنا ، وان حياة الموتى أكثر بقاءاً من حياة الاحياء .

لا يمكن لأي مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من المتعلمين الروحانيين ، أو بالأحرى بدون مبادىء عامة قوية ، لان قوة الأخلاق أو القوة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم .

معرفة الماضي يجب أن تكون أداة لاذكاء روح الحمية والغيرة والعزة والرفعة والاستقلال وهنا حدود الوطنية البريئة ، ولكن لا يجوز أن تتعداها الى الصلف والكبرياء والعزلة والاغترار بالنفس وعدم الاعتراف للغير بفضائله ومحاسنه فهذا هو الطيش والحمق .

الوطنية الصحيحة لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة وهذه بدورها تستمد قوتها من الدين الحنيف . وتاريخ العراق قديمه وحديثه شاهد على ما نقول ، ولذلك كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء فى المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلقون فى روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى ، ومحاربة الدين الاسلامي على الخصوص لانه يبعث في نفوس النشء الاسلامي الاحتفاظ بالكرامة ومبادىء الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق مع سياسة المستعمر الغاصب في إخضاع الأمم الاسلامية واذلالها .

فالذين يدعون الى القومية وترك الدين جانباً إنما يدعون الى قضية محققة الخسران لانهم يدعون الى مبادىء لا روح فيها ولا حياة ، إذ كيف يكون حال نشء فى الوطنية وهو خلو من مبادىء الفضيلة ومراقبة الله عزوجل في السروالعلن ؟

هؤلاء لا تكون لهم إلا سياسة واحـــدة وهي سياسة المنافع وجرّ المغانم ، أو بعبارة أخرى سياسة الهوى : وهي سياسة مقضي عليها بالفشل . وقد قال « لامرتين » ـ بحق ـ (إن ضميراً خالياً من الله كالمحكمة الخالية من القاضي)

الدين له القدح المعلّى والمكانة الأولى فى نفوس السلف الصالح ، واليه يرجع الفضل في كراهة الأجانب الغاصبين وتوحيد القوى الوطنية . فالذين ترتبط عقيدتهم الدينية قديماً وحديثاً بالله عز وجل يجب أن يكون قصدهم متبعين أوامره منتهين عن نواهيه .

فالاسلام عندي هو الدستور الطبيعي الذي يوصلهم الى غاياتهم السامية . قال تعالى : (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين١)

الدين الاسلامي الحنيف لم يبخس الوطنية حقها ، بل جعل حب الوطن من الايمان ، وان تحرير الأوطان لا يكون إلا بالدأب على العمل المنتج . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) «٢» . وإن الثمر متوقف على بذل الجهد (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) «٣» .

فلماذا إذاً نحيد عن هذا الصراط المستقيم الذي يقودنا الى سعادة الدنيا بالعمل الصالح المنتج والى سعادة الآخرة بمعرفة الله عزوجل . لقد أعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها الصحيح واذاعوها من أن العراقيين هم كلدانيون وأن واجبهم أن يشتغلوا بشئونهم دون سواهم أما أن يشتغل العراقيون بشئونهم أولا فهذا ما يقره عليهم الاسلام حسب قاعدة . إبدأ بنفسك ثم بمن تعول ، وأما أن ينعزلوا عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة لهم ، فهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة العراقيين ولا مع مبادىء الاسلام السليمة ونحن فى عهد تحالف واتفاقات دولية اصبحت احدى وسائل القوة والمنفعة ، ومن عاش منفرداً في هذا الزمن عرض نفسه الى القهر والسلب . يجب أن نفهم الحقيقة على وجهها الصحيح حتى لا نضل الطريق السوي فنهلك .

«١» سورة فصلت الاية ٣٢ .

«٢» سورة التوبة الآية ١٠٥

«٣» سورة النجم الاية ٣٩

إن الله جل شأنه هو الذي اختار رسوله الأمين محمداً «ص» ليبلغ دينه الى الناس كافة ، فالدين الاسلامي هو دين الجميع لا دين عرب أو عجم ، وان من أكبر قواعـده الديمقراطية ، إنه لم يجعل الفضل للجنسية بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى : « إن أكـرمكم عند الله أتقاكم » «١» . وقال (ص) : (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) ، وقال (ص) : (خير الناس انفعهم للناس)

الاسلام هو الدستور البشري السليم الذي يعطي كل ذي حق حقه ولا يبخس الناس اشياءهم .

إن اشتغال العراقيين بمسألتهم القومية والدفاع عن حريتهم واستقلالهم لا يمنعهم بأي حال من الأحوال من العطف على الأمم الاسلامية ومساعدتهم حسب ما في قدرتهم . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

نحن نرتبط مع جيراننا من الأمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة والدين فيجب أن نحرص عليها أشد الحرص و نعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلائق الاقتصادية والاجتماعية بيننا و بين الأمم الشرقية كافة والاسلامية منها خاصة

يا دعاة القومية والوطنية إن كان اتجاهكم بهذه الدعوة إعزازاً للوطن ورفع مستواه وحفظ شرفه غيرة وحمية فليكن اتجاهكم لتزكيته من الرذائل وتطهيره من المفاسد ـ التي افقدته كل غيرة وحمية حتى خسر عزه وشرفه ـ أولى وأحرى . تلك الرذائل التي جعلته بؤرة للفساد وحمئة للسفالة .

انظروا أقلا الى الأمم المستعمرة تدخل بلاد الشرق وتعطيهم من العلوم قشورها ومن الصناعات أضعفها وتمنع عنهم نور العلم وتعدّهم أشبه بالحيوانات الذليلة فهي تسهل إدخال المشروبات الروحية من الخمر والمخدرات ، وتسهل لهم أحوال البطالة والكسل بما شجع أرباب المحال التي تستهوي العقول ، فيجلس الشبان أكثر

«١» سورة الحجرات الاية ١٢ .

النهار بلا عمل فيها ، وتوعز للذين يأتون بالصور المتحركة « السينما » أن تكون كلها أو جلها حافلة بالشهوات والمخازي وكل ما يسقط النفوس في المهاوي . فهذه المناظر وتلك المشارب جعلتها الأمم المستعمرة شبكات لاصطياد العقول القوية .

أجل بها يصطادوننا فلا نقدر بعد ذلك على الخلاص . وهـذا هو الذي يبقي الاستعمار . وهكذا يذيعون الروايات المملوءة بما يحط قيمة النفوس الانسانية فتتحول العقول في تلك البلاد الى حال تشبه حال العجماوات ، ولكن الأمم الحرة لا تدخل شريطاً (للسينما) إلا إذا وجدته مهذباً للأخلاق رافعاً للنفوس معلماً للأمة ما تعيش به كالفلاحة والصناعات المختلفات ، فبدل أن تكون (السينما) والروايات لتشويق النفوس الى كل ما يهدم الانسانية تكون لاعلاء شأنها ورفع قدرها وتعليمها الصناعات وسوقها الى المعاني والمعالي .

فالروايات (والسينما) وأمثالها إما مهيئات نفوس الناس الى منزلة من منازل المجد والعز ، وإما الى حفرة من حفر الرذائل والسقوط .

هاك ما جاء يوم الأثنين ٢٧ محرم ١٣٤٧ هـ منشوراً في جرائد مصر تحت هذا العنوان .

« القديم والجديد »

عقدت احـدى صحف لندن فصلا في موضوع القديم والجديد قالت فيه ما يأتي :

بينما تظهر الأمة الشرقية فى عيون الغربيين غربية أو بالأحرى روائية لما يحيط بها من هالة الشفق التاريخي نراهم يطمحون الى أن يكونوا من أبناء العصر بل أن يبلغوا أسباباً فوق العصرية ، ونسمع اليوم من كل حـدب وصوب عن التقدم في الشرق تقدم العلوم والمعارف ، تقدم النهضة الفكرية ، تقدم الأفكار الجديدة تقدم اقتباس الآراء الغربية ونبذ كل قديم ورجعي .

هذه صورة حقيقية ، ولكن الى حد معلوم ونقطة معينة ، نعم إن اموراً جسيمة تحدث فى الشرق اليوم . ولكن هناك ناحية أخرى تظهر فيها حاشية الرتق تلك الناحية الخافية التي تؤثر في حياة الناشئة الشرقية وتحط من شأن السجايا والطباع

فكم من الأحداث والشبان يجد ماياخذ بيده ويهوى به الى أسفل الدركات فى تلك البدع التي يسمونها المدنية الغربية كأشرطة السينما القذرة المخلة بالآداب التى يرونها يوماً بعد يوم في دور السينما ، والمؤلفات البذيئة التي يطالعونها ، والمعاشرة الرديئة التي يلاقونها ، فلا يتخرج الطالب من المدرسة إلا وهو عبد لعادات وشهوات شنيعة يظل أسيراً لها بقية أيام حياته ، وتكون عبئاً ثقيلا يرزح تحته ، ومذلة تذله وتضع أنفه فى الرغام وتسمه بوصمة عار لا تمحى ما زال حياً . هذه حالة البنين .

أما حالة البنات فانكد وأضل سبيلا ، فان زوبعة الحمية التي هبت في الشرق والاندفاع الشديد في تعليم الأناث وتحرير المرأة واقتباس الملابس والأزياء الاوربية ومعظم ضروب الرياضة البدنية والالعاب والرقص وما الى ذلك قد اوجدت طفرة في البلاد كان لها أشد مساس بالآداب وعبث العضيلة . فاذا أرادت الشرق أن تصل الى مصاف الأمم الراقية فعليها أن تحرص على الحياة الأدبية ولا سيما بين الناشئة والاحداث ، وأن تحسن تربية البنين والبنات وتغرس في قلوبهم التقوى ومخافة الله والحشمة والنزاهة ومبادىء الشرف والامانة ، وخير التربية هي التي يوضع أساسها في البيت أولا ويشاد صرحها في المدارس ثانياً انتهى

القضاء والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » «١» .

لهج الناس في كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر ويقولون إن الله يقول: « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . وإذا كان كذلك فلِمَ العذاب ولِمَ العقاب والعتاب؟ ثم إنه رحمن رحيم فأين الرحمة للمعذبين وأين السعادة للمظلومين ولِمَ هم في عذاب الجحيم ؟

هذه حال الانسان على أي ملة كان وأي دين في مشارق الارض ومغاربها . حيرة لا حد لمداها وأسئلة لا جواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم فيكونون في نوع الانسان أشبه بالعين . هذه صورة منطبقة على أهل هذه الارض أجمعين .

فهاك أيها الذكي فاستمع ما ألقيه الساعة اليك بقلب صاف ونفس واعية وتدبر فانه لهذا الداء دواء ولمرض الحيرة فى القلب شفاء وكن من المستبصرين .

ولأضرب لك أولا مثلا برجل مهندس عبقري في الهندسة عزم على أن يبني بيتاً وهو بأنواع البيوت عليم ، ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها فى نفسه واصطفاها لمسكنه ، ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن

«١» سورة القمر الاية ٤٨ .

منوال وأجمل مثال ، وفي البيت فرش مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال البديعة الجمال ، ويحيط به بستان تقرّ به عيون الناظرين ويسرّ بمرآه جمهور الزائرين . فدخل البيت زائرون منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا في البيت كما يشاؤون ، ويتفرجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون ، فانطلق أحد العميان فى المنزل فاصطدم في أرض الحجرات بالأرائك نخر على الأرض كالصريع وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله في المرحاض فقعد حزيناً كئيباً وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم فكيف خاب ظني فيه ، فأين الهندسة والنظام وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟ ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر فأخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الاتقان ففرح أشد الفرح ، وقال : هذا هو النظام وهذه هي الرحمة والاحسان . هذا أيها الذكي هو المثل الذي ضربته لبيان هذا المقام .

إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفاءه منها واحداً هو أجملها ضرب مثل للقضاء ، فالقضاء راجع لما ثبت فى العلم القديم للمكونات وإبراز البيت على ما قدره المهندس فى نفسه على أحسن منوال ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

العميان ضرب مثل لجميع الجهلاء على أي دين كانوا ، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليما ناقصاً في مدارس الشرق والغرب أجمعين .

والمبصرون ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم وزكت نفوسهم واشتد شوقهم للعلم والبحث ، فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بما لا يعرفون فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا الى اخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ويكلمونهم بما

يعقلون ، وسعدوا سعادة لا حد لمداها وكانوا من الفائزين ، وهؤلاء يقال لهم : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » «١» . فاذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء ليس لامرىء أن يقصر فى عمله محتجاً بالقضاء فتلك حجة الكسالى الغافلين فاذا ما اتمه على حقيقته واجتاحته الحوائج فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة البائسين .

إن هذه المسألة ليست هي وليدة اليوم ألم تر كيف يقول الله تعالى حكاية عن كفار العرب أيام النبوة : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء » «٢» . فردّ الله عليهم مهدداً بالوعيد بقوله : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم ألا تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » «٣» .

ونقول كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون فى القضاء والقدر وهم جاهلون .

ان الأمم التي فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هي التي قد استعدت للفناء وباءت بالوبال ونسيت عقولها وعدتها حملا ثقيلا عليها لانهم على الشهوات عاكفون وفي غمرة الجهالة ساهون . وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون ، وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال فى الفتيات والفتيان ؟ .

إن المسلم الذي شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها

«١» سورة الفجر الاية ٢٦ .

«٢» سورة الانعام الاية ١٤٧ .

«٣» سورة الانعام الاية ١٤٧ - ١٤٨ .

لحرّي به أن يبوء بالخسران . فهذه الطائفة فى الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون في أماكن الشرب العامة ببلادنا العراقية ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم فهم فى ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات : عامة مصدقون ، وحكماء محققون ، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون .

فالفريقان الأولان مطمئنون ، والفريق الثالث جعلت حيرته مهمازاً يسوقه الى البحث فاذا قصر فهو في ضلال مبين ، وكيف يخوض فى القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه وبدائع تركيبه ؟ وان في كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات . ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية وهي لا تزيد في سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثون مليون اسطوانة وهذه كلها مبينة بالتصوير الشمسي واضحة ، وبهذه الملايين يكون الاحساس والنظر

بينما كنت أكتب في هذا المقال وجه إلي أحد الأصدقاء الأفاضل اعتراضاً جاء فيه ما يأتي :

إن هناك فرقاً بين المثل والممثل له . فان المهندس رب البيت ليس مسئولاً عن العمى ، فليس من حق الأعمى الذي حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ، لان المهندس لا سلطان له على عين الأعمى ، ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذي أصبح مشككاً متحيراً هو نفسه من صنع الله ، فالاشكال باق والمسألة على حالها والمثال لا يجدينا نفعاً . فأمنّ الحاضرون على كلامه فقلت : لا إشكال ، فقال الحاضرون أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك أسرتان ، أسرة كبرى : وهي نوع الانسان ، وأسرة صغرى : وهي المعروفة . ألستم ترون في الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذي يديره ، وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئاً مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟

قالوا : نعم ، قلت : فهل وجود الأطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللاً وظلماً ؟ قالوا : كلا ، بل الأطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة فى العالم الانساني يمثل لهم بالخدم لانهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا . وأما رب البيت فهو ضرب مثل لصانع العالم . وأما الأطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا في نظام هــذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم وهؤلاء هم المتعلمون تعليماً ناقصاً فهؤلاء إذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة لانها تدفعهم الى استيعاب العلوم ليصيروا حكماء ، فاذا كسلوا وناموا كما هي الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين فانهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب ويرجعون القهقرى وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة . وهذا هو السر في تأخر بعض أمم الشرق التي كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها ، لان الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمي غير مكين . فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام قالوا : كلا ، لانهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا ، قلت : إذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا ومآلا عدل وحكمة وكمال فقالوا نعم فقلت الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة . انتهى

ومن العجب أن يقع التشكيك لأحد فى أمر القضاء والقدر الواردين فى القرآن مع علمه أن القرآن بحر واسع ظاهره أنيق وباطنه عميق ، قد اشتمل على أنحاء الكلام والتعبيرات الواقعة في كلام العرب المتداولة فيما بينهم من المجاز والكناية والاستعارة واطلاق السبب على المسبب وعكسه ، ولا يميز مواقع كلامه تعالى بعضها من بعض إلا من خاطبه الله تعالى به وأطلعه على جميع معانيه وليس هو إلا النبي صلى الله عليه وآله وأمره الله سبحانه بأن يعلمه أهل بيته المعصومين (ع) ، ويجب على الناس أن يرجعوا اليهم في أخذ علوم القرآن .

فهذه الألفاظ الموهمة إنما هي موهمة عندنا ، وليس نحن مما خوطبنا به حتى يلزم الاغراء بماله ظاهر وأريد خلاف ظاهره . والذين خوطبوا به قد فهموا معانيه منه تعالى من غير إبهام ولذا سماهم تراجمة وحيه ، وليس هذا إلا من باب أن يكون سلطان له رعية لا يفهمون كلامه ، فيجعل بينهم وبينه مترجماً في تفهيم كلامه للرعية ؛ فهو يخاطب المترجم ويفهمه ما أراد ، والمترجم يفهم الرعية معنى كلام السلطان . فليس للرعية أن يعترضوا ويقولوا إن هذا السلطان قد خاطبنا بما لا نفهم لانه لم يخاطبهم بل خاطب المترجم . وليس لهم أيضاً أن يأتوا الى كلام الملك ويحاولوا فهم معناه لعدم قابليتهم لفهمه لانه رموز وكنايات بينه وبين من وجه الخطاب اليهم فربما فهموا من كلامه غير ما أراد ، كما اتفق في تفاسير الجمهور من حمل كلام الباري سبحانه على المحامل التي أرادوها بآرائهم الفاسدة . وفي الحديث : (من فسر القرآن برأيه فقد كفر) .

وحيث انتهى بنا الحال الى هنا فلنذكر لك بعض معاني القضاء والقدر فنقول : إن القضاء يأتي على عشرة معان .

أولها العلم ومنه قوله تعالى : « ألا حاجة في نفس يعقوب قضاها » يعني علمها

ثانيها الأعلام ، ومنه قوله عز وجل : « وقضينا الى بني إسرائيل » ، وقوله : « وقضينا اليه ذلك الامر » أي أعلمناه .

وثالثها الحكم ، ومنه قوله تعالى : (يوم يقضي بالحق) يعني يحكم .

روى يزيد بن معاوية الشامي قال : دخلت على الرضا (ع) بمرو فقلت له : يا بن رسول الله روي لنا عن الصادق (ع) انه قال : (لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين) فما معناه ؟ فقال (ع) : (من زعم أن الله عز وجل فعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر ، ومن زعم أن الله فوض أمر الخلق والرزق الى حججه فقد قال بالتفويض والقائل بالتفويض مشرك) فقلت له : يا بن رسول الله

فما أمر بين أمرين ؟ قال : « وجود السبيل الى اتيان ما أمروا به وترك ما نهوا عنه » فقلت : فهل لله مشية وإرادة فى ذلك ؟ فقال : « أما الطاعات فارادة الله ومشيته الامر بها والرضا لها والمعاونة عليها ، وإرادته ومشيته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والعقوبة عليها والخذلان لها » . فقلت : فلله فيه القضاء ؟ قال : « نعم ، ما من فعل فعله العباد من خير أو شر إلا ولله فيه القضاء » ، فقلت : فما معنى هذا القضاء ؟ قال : « الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة » .

رابعها القول ومنه قوله تعالى : « يقضي بالحق » أي يقول بالحق .

خامسها الحتم ومنه قوله تعالى : « فلما قضينا عليه الموت » أي حتمناه فهو القضاء الحتم .

سادسها الأمر وهو قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أي أمر ربك .

سابعها الخلق وهو قوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات في يومين » يعني خلقهن .

ثامنها الفعل ومنه قوله تعالى « فاقض ما أنت قاض » أي افعل ما أنت فاعل

تاسعها الاتمام وهو قوله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل » أي أتمه وقوله : « أيما الأجلين قضيت » أي أتممت .

العاشر الفراغ من الشيء ومنه قوله عز وجل : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان » . وقول القائل قد قضيت لك حاجتك .

إذا تحققت هذا فاعلم ان القضاء في كل خبر ينزل على معنى من المعان المناسبة له ، فما وقع فى الروايات من قولهم عليهم السلام إن الأشياء كلها بقضاء الله وبقدره بمعنى أن الله عزوجل قد علمها وعلم مقاديرها ، وله عز وجل في جميعها حكم من خير

أو شر ، فما كان من خير فقد قضاه بمعنى أنه أمر به وحتمه وجعله حقاً وعلم مبلغه ومقداره ، وما كان من شر فلم يأمر به ولم يرضه ، ولكنه عز وجل قضاه وقدره بمعنى أنه علم بمقداره ومبلغه وحكم فيه بحكمه .

وأما المعاصي فقضاء الله عز وجل فيها : حكمه فيها ، ومشيئته فيها نهيه عنها وقدره فيها علمه بمقاديرها ومبالغها .

يحدثنا الكليني (ره) فى الكافي قال : كان أمير المؤمنين (ع) جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه ثم قال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا الى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر ؟ فقال له أمير المؤمنين : (أجل يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلا بقضاء من الله وقدر) ، فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين ، فقال له : (يا شيخ فوالله لقدعظم الله تعالى لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مقامكم وأنتم مقيمون وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليه مضطرين) . فقال له الشيخ وكيف لم نكن فى شيء من حالاتنا مكرهين ولا اليه مضطرين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا ؟ فقال له (ع) : (أو تظن أنه كان قضاءاً حتما وقدراً لازماً ، إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر من الله تعالى ، وسقط معنى الوعد والوعيد ، فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمدة للمحسن ، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب ، تلك مقالة اخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحــزب الشيطان وقدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تبارك وتعالى كلف تخييراً ونهى تحذيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرها ولم يملك مفوضاً ، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) . فأنشأ الشيخ يقول :

أنت الامام الذي نرجوا بطاعته يوم المعاد من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالاحسان إحسانا
فليس معذرة في فعل فاحشة قد كنت راكبها فسقاً وعصيانا
لا لا ولا قائلاً ناهيه اوقعه فيها عبدتُ إذاً يا قوم شيطانا
ولا أحب ولا شاء الفسوق ولا قتل الولي له ظلماً وعدوانا
أنى يُحب وقد صحت عزيمته ذو العرش أعلن ذاك الله أعلانا

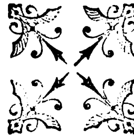
ثم قال : فما القضاء والقدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين ؟ قال ﴿ع﴾ : ﴿ الامر بالطاعة والنهي عن المعصية ، والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية ، والمعونة على القربة اليه والخذلان لمن عصاه ، والوعد والوعيد والترغيب والترهيب كل ذلك قضاء الله في أفعالنا وقدره لأعمالنا ، أما غير ذلك فلا تظنه ، فان الظن له محبط للأعمال ﴾ ، فقال الرجل : فرجت عني يا أمير المؤمنين فرج الله عنك .

ومن النكت المليحة أنه لما دخل أبو حنيفة المدينة وكان معه عبد الله بن مسلم فقال له عبد الله : يا أبا حنيفة إن هاهنا جعفر بن محمد من آل محمد فاذهب بنا نقتبس منه علماً فلما أتياه إذا هما بجماعة من شيعته ينتظرون خروجه أودخولهم عليه فبيناهم كذلك إذ خرج غلام حدث فقام الناس هيبة له فالتفت أبو حنيفة وقال يا بن مسلم من هذا ؟ قال : هذا موسى ابنه ، قال والله لاجبهنه بين يدي شيعته ، قال لن تقدر على ذلك ، قال والله لأفعلن ثم التفت الى موسى « ع » فقال يا غلام أين يضع الغريب حاجته في بلدتكم هذه ؟ قال ﴿ع﴾ : يتوارى خلف الجدار ويتوقى أعين الجار وشطوط الانهار ومسقط الثمار ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها فحينئذٍ يضع حيث شاء .

ثم قال يا غلام ممن المعصية ؟ قال : ﴿ يا شيخ لا تخلو من ثلاث إما أن تكون من الله وليس من العبد شيء فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم يفعله ،

واما أن تكون من العبد ومن الله والله أقوى الشريكين فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه ، وإما أن تكون من العبد وليس من الله شيء فان شاء عفا وإن شاء عاقب ﴾ . قال عبد الله : فأصابت أبا حنيفة سكتة كأنما ألقم فوه الحجر فقلت له ألم أقل لك لا تتعرض لأولاد رسول الله «ص» ؟ وفي ذلك يقول الشاعر :

لم تخل أفعالنا اللاتي نلام بها　　　أحدى ثلاث معان حين نأتيها
إما تفـــرد بارينا بصنعتها　　　فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يُشركنا فيها فيلحقه　　　ما سوف يَلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لإلاهي في جنايتها　　　ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها



الاسلام دين الفطرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون «١» .

لم تزل المدنيات منذ بدء الخلقة والتكوين على وجه هذه البسيطة تظهر حيناً وتختفي حيناً ، والدروس الاصلاحية فى المجتمع يروج سوقها ثم يكسد ، والتعاليم المرشدة تعم المعاهد العلمية ثم تختفي بعد مدة فى زاوية الخمول ، كما أن شموس الهداية الدينية أيضاً كانت تطلع على الناس ردحاً من الزمن فتصلح حال البشر ثم تأفل زمناً آخراً فيخلفها الفساد وتعم الهمجية والوحشية . وهكذا الحكمة الالهية البالغة والعناية الرحمانية الغير المتناهية لا زالت في كل قرن من القرون تبعث رسلها الاصلاحية بقوانينها الارشادية وأحكامها المصلحة الى هذا البشر حسب استعدادهم وقابليتهم في ذلك العصر .

وعلى هذا المنوال لم تزل أمم العالم فى قيام وقعود وحركة وسكون ، تارة فى أوج النشوء والارتقاء ، وآونة في حضيض السقوط والانحطاط حتى كمل استعداد العقول البشرية ، وتمت قابليتهم لقبول أنوار الاسلام المشعة التي هي نقطة اعتدال جميع أديان العالم .

«١» سورة الروم الاية ٢٩ .

أرسل المشرع الأقدس من فيوضاته العامة دين الاسلام المبين الذي هو عصارة قاطبة المدنيات العالمية وخلاصة كافة الأديان السالفة مصلحاً لأحوال البشر صالحاً للأعصر كلها غابرة وآتية على العالم الانساني . وقد بعثه بواسطة شمس الرسالة وقطب دائرة الهداية خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله رحمة للعباد وفضلا منه ولطفاً ، ولم يمض على هذه المدنية الحقة « ربع قرن » حتى غمر ذلك النور الأرض وأسس للعالم البشري ديناً قيماً محكماً كافلا للمـــدنية السعيدة والسياسة الرشيدة ، وانتشر في الشرق والغرب كالبرق الخاطف بواسطة قوة الحق والحقيقة . هـذا وقد كان العالم ـ يوم ذاك ـ أجمع في تأخر وانحطاط وسقوط وهمجية من جميع الوجوه والجهات ديناً وعلماً ، معارفاً ومدنية ، سياسة واجتماعاً حتى ظهر على وجه الأرض تغير واضح وتبدل بين ، فأوجد هذا الدين الحنيف في جسم البشر روحاً جديدة وحياة أخرى . وبدلت الشقاوة بالسعادة ، فحلت أصول الحياة وقوانين الانتظام وأحكامه المحكمة التي لا تزول ولا تفنى محل جرائم الوحشية والبربرية في الربع المسكون . هذا كله كان بواسطة حكم ذاك الحاكم العادل الذي أحيي جسم الأرض الميت ومنحه حياة جديدة سعيدة .

إذاً فلا قياس لهذا الدين الحنيف بسائر الأديان الأخر لانه دين الفطرة للبشر . والفطرة لغة هي الخلقة ، والخلقة بلسان العصر هي الطبيعة ، فمعنى دين الفطرة هو دين الخلقة والطبيعة البشرية . فهو لا يكلف الانسان بغير الأمور المنطبقة على الطبيعة والمناسبة للحال والجبلة البسيطة يقول دستوره : « لا يكلف الله نفساً إلاوسعها » «١» وبهذا الاعتبار صار الدين الاسلامي الحنيف ملائماً لكل عصر ومكان ، وموافقاً لائقاً لجميع الاستعدادات البشرية في العالم .

أما الأديان الأخر فهي إما الى الافراط وإما الى التفريط ، ولا ترى ديناً

«١» سورة البقرة الاية ٢٨٥ .

وسطاً واقعاً في نقطة الاعتدال سوى الدين الاسلامي فقط . وعلى هذا قال الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » «١» .

فاذا ما لاحظنا هـذا الدين الحكيم وعرفنا اعتداله وتوسطه بين الافراط والتفريط جامعاً لجنبتي الدنيا والآخرة حائزاً كلا الحيثيتين حكمنا بالضرورة عدم ورود أي اعتراض عليه لعدم وجود أي خدشة وخلل فيه . وما من اعتراض أو إيراد يرد على بعض أحكامه من بعض الجهلاء إلا وسيزول ويبطل تدريجاً عندما يتنور العقل البشري وتترقى الأفكار بالعلم والمعارف ، بل إن هذه الأحكام المعترض عليها بعد العلم بصحتها وعدم ورود الاعتراض عليها ستكون هي الدليل على أحقية هذا الدين وملائمته لكل عصر وأمة وكل قطر ومكان .

ومن جملة تلك الأحكام المعترض عليها هي مسألة الخمر المشروبات الكحولية كانوا يعترضون على ورود تحريمها في شريعة الاسلام ، ويقولون إن استعمالها بنحو الاعتدال من دون إفراط وتفريط مقو للجسم مجلب للنشاط ، ولكنهم ادركوا أخيراً مضراتها بواسطة المكتشفات الطبية الحديثة والتحليلات الكيماوية . وقد أبطل هذا القول ـ أعني تقوية المشروب الكحولي للجسم ـ ثلاثة أعلام من علماء الكيماويين في فرنسا وهم : «١» الاستاذ « لكمان » «٢» الاستاذ « بيرن » «٣» الاستاذ « دردي » ، حيث قالوا إن الشراب الكحولي الوارد الى الجسم يخرج غيرمؤثرفيه أي نفع أو فائدة . وأضاف ثالثهم قوله : (إني جزأت الدم وحللته فلم أر فيه أي عنصر من عناصر الكحول .

وقال دكتور آخر في الجمعية الطبية البريطانية : « إني لم أجد مرضاً تشفيه الكحول . وقال آخـر أمريكي في كتاب له كتبه في هذا الموضوع وسماه (اليد الطبي) ص ١٧٥ الى ص ٥٠٤ في باب مضرات الكحول وبيان الاستدلال

«١» سورة الروم الاية ٣٠ .

على سميته حيث يقول : من شك فى سمية الـكحول فاليلاحظ ورود هذا المشروب الى المعدة فانه إذا ورد اليها فبمجرد وصوله اليها يجرّد الأغشية المخاطية ويخرج كل الطوبات التي عليها ويفسد غددها وينهك قواها الدافعة بكل سرعـــة . وهذه الانفعالات لا شك أنها من خواص السموم . لان السموم إذا وردت المعدة قاومتها جميع الأعضاء للدفاع عنها أمامن الأعلى فبالقيء أو من الأسفل فبالاسهال . وهذا أمر لا ريب فيه ، ومن أجل هذا فقد امتنع ما يناهز الخمسة والأربعين مليوناً من أهالي أمريكا عن استعمال الـكحول وحرّموها على أنفسهم ، وحتى صدر أمر الحـكومة الامريكية التي هي أول أمة متمدنة بتحريمها وصار الأمر رسمياً فيها .

ومن جملة الأحكام التي هي مورد الطعن والاعتراض . مسألة تعدد الزوجات فى الاسلام ، ومن البديهي أنه ما من دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك في لفظه أو فعله أو نتائجه . فانظر فى سير الانبياء السابقين واللاحقين ، ترى أن لـكل واحد منهم ولـكل قائم بعمل من سائر الناس في أحواله وأعماله (وجهين) وجه يتلألأ نوراً وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تنعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسوّد وجوههم فيلج الشك في قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم . وهذا في المشاهدات معلوم يرى الناس الاشجار على شواطىء البحار ذات ظل في الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا ، وإنما ظله مرتسم على سطح الماء فيخيل للناس انه متدل الى أسفل ، ويرون النار المتقدة من بعيد كبيرة وهي صغيرة ، ويرون الشبح فوق الجبل صغيراً وهو كبير ، ويرون الزجاج المصدوع أبيض ولا بياض وإنما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتتبين الحقائق عند التدقيق . ومثل هذا فى المسموع عن الانبياء ، ألا ترى الى قصة الخضر « ع » إذ اقتلع لوحاً من السفينة فلامه موسى عليه السلام على فعله ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن ـ فوق كل ذي علم عليم ـ وأن الوجه الذي تراءى له أسود ، وأن المقصد

إغاثة اليتامى بعيب السفينة لئلا يأخذها الملك غصباً ، وما كان ذلك الاعتراض من موسى إلا للأخذ بظواهر الامور ، وانعكاس الحقائق في المرويات كما عكست في المرئيات .

وفي قصة ابراهيم ويعقوب وجدعون معتبر ، ولنا غنى في قصة داود وسليمان فقد لأولهما (٩٩) امرأة ، ولآخرهما المئآت من الحور الحسان ـ كأنهن الياقوت والمرجان ـ مما ماج به قصره وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء المعمورة .

وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرون الارض وهم نصف النوع البشري نحو (سبعمائة مليون) يؤمنون بداود وزبوره ومزاميره ، وترى اليهود والنصارى يتلونها آناء الليل وأطراف النهار يناجون ربهم بكرة وعشيا متضرعين بما في المزامير من الآيات ، لا يجدون في صدورهم ما يجد الناس اليوم مما تموج به بحار الانفس وقواميس العقول ، وتغلي به مراجل التعصب لبضع من النساء كن عند آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله .

مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجم من النساء ولا اعتراض عليهم حسب شرايعهم وأزمانهم وأممهم لا تعترض ولا تسخط . قتل الانسان ما أجهله ، قتل الانسان ما أظلمه ، قتل الانسان ما أقل علمه وما أتعس نفسه . يتركون ما لديهم ويأتون بخيلهم ورجلهم وصفوفهم ليحاربوا ديناً في مسألة عرضة لاجوهرية وثانوية لا أولية . اللهم إن عبادك في الارض يصلون وأكثرهم فاسقون ، يتبعون الشهوات في لهجة الدين ، فوالله لا يريدون وجه الله إنما هو وجه الشيطان وخبث النفوس وجهل العامة ، اللهم إن أكثرالناس ظلوم كفار ، اللهم إننا خلقنا في أمم يسير سوادهم مع الاهواء يساقون كما تساق الانعام ، ما حججهم إلا المغالطات كل يسعى لملء بطنه وسد نهمته وشهوة فرجه وسلخ جلود الامم الضعيفة وذبحها على

انصاب الامم القوية ، فسلاح العلم اليوم أذكى سلاح وأمضاه وهو طليعة جيش المدافع والسهام .

وبالجملة فانهم بعد أن أدركوا بطلان تلك الوهميات والتوهمات التي خالجتهم كتبوا في كتبهم الاجتماعية : إن لتعدد الزوجات في الشريعة الاسلامية منافع شخصية ونوعية كثيرة ، لان ذلك موجب لكثرة النسل وزيادة النفوس ، وهذا أحد الركنين الذين بهما يحفظ كيان الامة وقوة النوع .

وهكذا تدريجاً يتضح لدى كل متأمل بطلان اعتراضه وصحة ما جاء به الدين الاسلامي من أحكام وقوانين حيث يدرك أن جميع هذه الاعتراضات مجرد خيال وتصور لا غير ، لزوالها عند التأمل وإدراك أسرارها ومنافعها ، لذلك ترى عقلاء العالم وعلماء الامم المتمدنة لا زالوا يرشدون البشر الى فهم هذه الحقائق السامية خضوعاً للحقيقة والوجدان حتى سموا الدين الاسلامي بروح الاديان .

وبين يدينا كتاب الابطال تأليف الاستاذ المؤخر « كارليل الانجليزي » يحدثنا في فصل ـ البطل في صورة النبي ـ يقول : (وإن ديناً آمناً به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للانسان أن يؤمن به وهذا الشيء هو روح جميع الاديان . روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة وهي في الحقيقة شيء واحد . وباتباع هذه الروح يصبح الانسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الاكبر) . انتهى

وهـــذا كتاب « الاسلام سوانح وخواطر » تأليف « كونت هنري دي كاستري » الفرنساوي يقول في ص ٢٣ : والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث فنقول : إن دين الانبياء كان كله واحداً ، فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد (ص) وقد نزلت ثلاث كتب سماوية .

وهي : الزبور . والتوراة . والقرآن . والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور . وإن محمداً بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الامر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي يُنزل للناس وصاحبه خاتم الانبياء ، فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا .

الكلام على تعدد الزوجات

بين المسلمين

ليس على الاسلام والمسلمين أشد انتقاداً ولا أمرّ مذاقاً ولا أعظم وقعاً من هذه المسألة ، فهي التي أطالت السنة القادحين وأطمعتهم فى هذا الدين ، وإني بعون الله تعالى أفيض الكلام في هذه المسألة وأوضح القول فيها أيضاحاً وألتمس فيها نهجاً وسطا لا رمزاً ولا شططا بين ذلك ، متخذ المساواة سبيلا والايجاز أحسن تأويلا .

(أقول) لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشرقيين والغربيين ولن تجالس أمرءاً من بني التاميس أو الصين أو الطونة أو من الالمان أو الطليان وكان من المغرمين بالديانات إلا فاجأك بهذا الحديث . ولقد والله عجبت لهذا الانسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى الفضيلة والشرف ، وينحط حتى تستنزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات . هذا الانسان أيها العزيز مخلوق غريب ، ترى الاوربي عالماً بكثير من الشئون ، طائراً فى الجو جارياً على الأرض

بالصناعات ، عائماً في البحر سابحاً فيه بعمله ، حتى إذا دخل في مجادلات الدين هالك أمره . فأيقنت أن هذا الانسان المسمى بالمتمدن مقلد يستتلي كما نستتلي الجنيبة

عاب الاسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة ويا ليت شعري لو أنها كانت ثلمة في الدين لم تغن فتيلا في الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه ، فكيف وهي كما سنوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الانساني .

التعدد المعتدل على ما سترى من أعمدة المدنية المقبلة ومن عقاقير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع أيما تعديل وتقومه أحسن تقويم ، فمزاج الانسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تعفن الاخلاط وتراكم إرادته وتتابع آلامه . ومسألة اجتماعه المنزلي من عويصات المسائل وكبرياتها ، فلافض في القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول :

١ ـ إعلم أن المقرر في الطبيعة كما هو المعلوم في سائر الدول والممالك أن عدد الذكور في الميلاد يساوي عدد الأناث تقريباً كما بني عليه نظام الأمم المقبلة إن صحت عزيمة الانسان وأراد التملص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته ، فلو انك استقصيت مواليد الأمم أمة أمة والبلدان بلدة بلدة لرأيت هذه العجيبة الغريبة وهي التساوي بين الجنسين بحكمة مطردة صادقة ، فلتقرأ مواليد بلدتك أو أي بلدة تجاورك أو أي مملكة أحصت ذكورها وأناثها تجد التساوي تماماً إلا قليلا لخلل عرض . وضعف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية . هذا هو القانون العام وهذا أس بنينا عليه ما لهـذا الانسان من نظام طبيعي في أخلاقه وسياسته وصناعته وحكومته .

وكيف زاغت الحـكومات وضلت السياسات واضمحلت الجماعات واكفهرت الأجواء واختلفت الأنواء وتواثبت الشبان ونقضت العهود والأمانات كل ذلك لجهل

الانسان بفطرته وزيغه عن جادته فاقرأه فى موضوعه من الكتب المخصصة لهذه الابحاث تر العجب العجاب مما لا محل لذكره هنا ، وإنما نريد من ذلك أن هذا الانسان تساوت ذكرانه باناثه فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطراراً ، ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل ، بل كل ذلك بمقدار ، فلم نسمع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوماً ما جميعاً اناثاً أو ذكوراً بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة .

٢ ـ المقدمة الثانية إني قرأت فى أحدى صحائف (اللورد كرومر) الذي كان عاملا للانكليز فى مصر في صحيفته السنوية : أن تعداد الزوجات بين المسلمين لا يزيد عن خمس فى المائة ، ثم نقل عن آخر من السائحين من بعده فقال : إنهم لا يزيدون عن ثلاثة في المائة .

هذان هما الأصلان اللذان أبني عليهما النتائج الآتية . فاذا تقرر هذان الأصلان نقول :

منذ سنين معدودة عدّت أمة الانكليز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة فى كل ألف رجل وامرأة ، فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئات الآلاف ، وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل ، وقالوا إن هذا إلا تباب أين نضعهن ومن يعولهن وماذا نصنع فيهن ؟ وزلزلت أرض نادي العموم زلزالها ، وأخرجت أرض الهموم أثقالها ، وقال سادات الانجليز مالها فيومئذ حدثت الجرائد أخبارها ، إن عدد النساء ازداد وما تغني المدافع والجنود .

هذا ما كان من أمة الانكليز فى التعداد العام ، ولعمرك ما من أمة إلا أصابها موت الأبطال فى ساحات الوغى وفقد الرجال مما يقل تعداد رجالها عن نسائها ، وهذه الحروب المستعمرة الآن شاهد عدل فكم من نساء ايمات قد فقدن النصير

وأعزهن العشير فقلّت الرجال وكثرت النساء فترى فى القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلافاً من النساء .

ولقد علا صراخ الانكليز وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت فى كل ألف رجل وامرأة لعلة عارضة فى النسل وطارىء من الضر على ارحام النساء واصلاب الرجال ومناهج التربية وطرق الأغذية وما شاكل ذلك .

فما بالك بهذه الحروب الطاحنة والاضغان الظاهرة ، وقد جندل الأبطال وعم النكال واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدهم بأساً في العراك والقتال ، فطاحت تلك القماقيم الجحاجح وبادت تلكم الصناديد الفواتك والصماميم الصوائل ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وحرمهم الغواني الحرائر البوائر العوانس .

فبعد تقديم هاتين المقدمتين لا مناص عن القول بانا لو أبطلنا جواز تعدد النساء وحرمناه لاصبحنا وجهاً لوجه أمام الخطر الداهم الذي طغى سيله وطم وعم فساده من أوربا فأغرق الشرق سيله الجارف . ألا وهو الزنا الرسمي كما هو الآن منتشر فى بعض العواصم وغيرها من سائر الممالك المتمدينة ، لان ذلك الغني يطلب أكثر من أمرأة ، وتلك النسوة البائسات الجميلات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات ، فلو حجرنا عليهم وعليهن وجب أن نخصص أماكن للفجور كما هو حاصل الآن ، فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت المرؤة .

أما الاسلام فلمتعجب ولتنظر أباح تعدد الزوجات فزال الخطر المحدق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف .

ما أسوأ الأمم الغبية الجاهلة التي تقول لاقويائها لا تتزوجوا علناً وتزوجوا سراً لتموت أبناؤكم في المراحيض ، ما أجهل تلك الأمم ما أقل علمهم ! ما أكثر جهلهم ما أوضح العلم وما أجهل أولئك فى علم الاجتماع ! !

فالحق ـ والحق أقول ـ إن العالم الانساني اليوم يعوزه الفلاسفة والحكماء

ليعرف كيف يعيش فان نظرياته ضئيلة ضعيفة ، يحيا ويموت على عادات موروثة ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ماليس من عادته وفي التنزيل : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » «١» . يقولون تعدد الزوجات أفسد المجتمع الاسلامي .

ويا للعجب لو أن التعدد افساد لم يكن الثلاثون في الألف شيئاً مذكوراً حتى يفسد الألف ، ومن ذا الذي ضل عقله وزاغ بصره فحكم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون ؟ .

هذا قول من في قلبه مرض وعلى عينه غشاوة ، فكيف وقد استحال الفساد صلاحاً وأضحى الثلاثون في الألف أو الخمسون منها اصلاحاً لباقيها ، يلدون لهم البنين والبنات ويخرجون القواد والعلماء والعقائل اوالفتيات ، وهم أقدر في الغالب على التربية والتعليم ، لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال .

فيا ليت شعري كيف تسنى للأمم أن يقولوا للمرأة افعلي الخنا إذا اخترته سبيلا ، وكوني زانية إذا راق لديك وصفا وقتك .

ويا أيها الرجل أبحنا لك الزنا واخترنا لك الخنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تغازل من تشاء من الفتيات ، فأي فتات فضحتها وأفزعتها ، وأي امرأة أزلت صونها ومـــددت يديك الى سترها فمزقته والى بيت شرفها فهدمته وكان ذلك على اختيار منها ورضاً فانا لكم معينون وإن أثمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام في الأمة ، وإن فاق اعداؤها عـــدداً فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيشهم ثم تقول تلك الأمم انفسها :

أيتها المرأة ويا أيها الرجل إياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً فلا يكن عندك

«١» سورة يونس الآية ٣٩ .

أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع ، احذروا ذلك فانها عادة المتوحشين ، ولو صينت الاعراض وأقفلت بيوت الخنا وقمت أيها الرجل على امرأتك فاقتها وكسوتها ورحمتها نحن نحرم عليك ذلك وعليك أيتها المرأة نحرّمه تحريماً باتاً ، ولكننا في الوقت نفسه نبيحه على سبيل الفجور والخنا ، فاجمع يا رجل من شئت من النساء ولو ألفاً ما دام ذلك سفاحاً ، وإياكما أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً ولو أدى ذلك الى حياة البنين والبنات وكثرة القواد والمؤلفين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو المفاجىء الداهم .

رضينا بالخنا رضينا بالزنا ، رضينا بقلة النسل وكثرة العقم ، رضينا أن يكون نسبتنا الى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيس الى الالمانيين لما في الأولين من إهمال أمر الزواج وفي الآخرين من الحرص عليه ، وإنما علينا إذا حكمنا أمة من الامم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها علينا أن نحسدها ونتطير منها ونشفق ، ونسومهم سوء العذاب ، ونوجس شراً من كثرة نسلها ، ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ، ونصطفي الحكام من صغار النفوس المتواضعين ونوحي اليهم أن قبحوا لهم هذه الشريعة البيضاء سوّدوها في وجوههم ، افعموا افئدتهم بالسوء والجدل والمناقشة ، وهوشوا عليهم لعلهم يرجعون عن التعدد بل لعلهم يـ.نون ولعله يقل نسلهم فنتمكن من حكمهم كما قال « هنري الفرنسي » فى كتابه عن الجزائر .

« قعدنا لهؤلاء المسلمين كل مرصد وسددنا عليهم السبل وأحطناهم بسرادق من نار لعلهم يقلون فلم نقدر حتى الخمر سلطناها عليهم وهي السلاح الفذ لمحاربة الشرقيين ، فمنعه الاسلام أن يشرب حبه في قلوبهم أو يفتت أكبادهم ، فهم يتناسلون والفرنسيون لا يتناسلون » .

حارت والله تلك الأمم . حارت فى محاربة النسل في الأمم المستعمرة ، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة . ولقد أخبرني صديق أن احدى

الأمم لما رأت الزنوج الافريقيين والوثنيين يتزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس فى خيمته طول نهاره يتمتع بما تكسب النساء له من كدهن وعملهن وهو قوي البنية ولا يصرفها إلا في احبالهن وايلادهن وانجاب الذرية فكثر النسل ولم يقدر الاوربي أن يحاربه .

ضربت الحكومة على المتزوجين من هذا القبيل الخراج عسى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الانسان ! « قتل الانسان ما أكفره » «١» . « إن الانسان لظلوم كفار » «٢» . « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » «٣» .

جاء فى مجلة المرشد ما نصه : إن قوانين الاقتصار على زوجة واحـــدة أكثرت فرائس العزوبة في الغرب ، وزيادة عدد الاناث على الذكور أوقعت العقلاء فى مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص ـ ولات حين مناص

جاء في المجلد السابع من العرفان ما نصه : « إن عدد النساء في ايطاليا يزيد على عدد الرجال بمليوني نسمة » . وفى ملزمة « ٣٤ » من الهلال في ضمن مقال بقلم « أميل زيدان » عن جريدة « الماتان » الافرنسية عن الاستاذ « بيتار » الطبيب الكبير الذي كان عضو مجلس النواب في فرنسا انه يقول : « إن فى فرنسا الآن ٠٠٠، ٥٠٠، ١ فتاة لن يجدن لهن أزواجاً على افتراض أن كل شاب افرنسي يتزوج بفتاة واحدة ، وإني أقول بصراحة ـ ما أنا واثق من صحته ـ إن المرأة لا تتمتع بصحة جيدة مالم تصبح أماً ، وفي اعتقادي أن القانون الذي يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على نقيض ناموس الطبيعة إنما

«١» سورة عبس الاية ١٧ .

«٢» سورة ابراهيم الاية ٣٤ .

«٣» سورة الروم الآية ٤١ .

هو قانون وحشي بل مناف لكل عدالة . وفى ملزمة « ٣٧ » منه أيضاً : « يزيد عدد الاناث على الذكور في انجلترا بمليون ونصف مليون . أما زيادة الاناث على الذكور في المانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة فى عدد المتزوجين ، ففي انجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع انها في سن الزواج . وقال « شوبنهور » الفيلسوف الالماني الشهير فى رسالته « كلمة عن النساء » تعريب حسن رياض ما نصه :

(إن قوانين الزواج في أوربا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل ، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعفت علينا واجباتنا ، على انها ما دامت أباحت للمرأة حقوقا مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضاً عقلا مثل عقله) الى أن قال « ولا تعدم امرأة من الامم التي تجيز تعدد الزوجات زوجاً يتكفل بشئونها ، والمتزوجات عندنا نفر قليل وغيرهم لا يحصين عدا تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هائمة متحسرة ، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الاعمال ، وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار . ففي مدينه « لوندره » وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحة الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الاوربية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما آن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره ؟ الى أن قال : « على أنه من العبث الجدال في أمر تعدد الزوجات ما دام منتشراً بيننا لا ينقصه غير قانون ونظام » .

أمعن النظر في هذه الفقرة الى أن اعترف بقوله : « بل اننا لا ننكر اننا في بعض أيامنا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء ، وما دام الرجل محتاجاً لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شئون هذه النساء » .

وعن مؤلف كتاب « العشيقة الشرعية » الذي حاز السبق في مضمار الزواج في فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من ٥٠٠،٠٠٠ نسخة « انه ذهب الى أن يكون لكل رجل الى جانب زوجته خليلة تكون لها صفة قانونية فلا تحتقر ولا تمتهن في نظر الشريعة أو في نظر الرأي العام . قال هـذا هو الأمر الواقع اليوم في آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعترف بهذه الحالة وندخلها رسمياً في عرفنا

قلت من هذا نعلم أن القوم لا يأنفون من تعدد الزوجات ومعترفون باباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيحه لهم بعد أن ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ، ورأوا المفاسد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله .

هذا ولا يخفى أن التعدد الذي يعيبه الجاهلون اليوم قد أباحه بالأمس المصلح الكبير في النصرانية (لوثر) فسمح لأمير الالمان (هس) بأن يتزوج ثانية لان امرأته كانت شوهاء « ادوارد السابع » وهو من علمت أصدر في أواخر أيامه منشوراً يبيح فيه تعدد الزوجات وكانت أمه من قبل معارضة لهذا الرأي أشد المعارضة . وسيأتي يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد فيميلون اليه ميلة واحدة ويعترفون بفضل القرآن . انتهى ما جاء في المجلة المذكورة .

يقول مؤلف الكتاب حسن السيد علي القبانچي النجفي عفا الله تعالى عنه ووفقه لمراضيه : لقد فرغت من تبييض هـذا الموضوع صباح الاثنين اليوم الثالث من شهر ذي الحجة سنة ١٣٧١ هجرية .

ورغبتي أن أختم الموضوع بنادرة وها هي أقصها .

كان (هنري) الثامن ملك انكلترا مزواجاً وكانت انكلترا في ذلك الحين كاثوليكية فلم تحرّك رومية عليه ساكناً ، ولكن حدث ما نغص عيشه فانه لم يرزق ذكوراً ، وخاف الملك أن يحول ذلك دون أن تتولى ابنته ماري العرش أو أن يذهب تاج انكلترا بالزواج الى ملك غريب ، أضف الى ذلك أن « هنري »

الثامن قد سمّم امرأته « كاترين » صاحبة أراغون فقد كانت أسن منه كثيراً ، وحاول هنري الثامن أن يقنع البابا بكل سبيل بالسماح له بطلاق « كاترين » فلم يقبل البابا ، وأخيراً تزوج هنري الثامن فتاة صغيرة السن اسمها « آن بولين » سراً على أمل أن يحصل على اذن بالطلاق فيما بعد فلم يوفق ، ولكن ما دامت القضية قضية قانون شكلي فقط فلماذا لا يسير الملك اليه من سبيل آخر ، فلما أصرّ البابا (كلمنت السابع) على الرفض اجتمع البرلمان الانكليزي وقرر فسخ زواج هنري بكاترين ، وأعلن صحة زواجه بآن بولين ولكن هنري الثامن لم يكن أسعد حظاً إذ رزق من زواجه الجديد بنتاً أخرى ، حينئذ طلق هنري آن بولين وتزوج امرأة ثالثة هي « جاين سيمور » التي رزق منها ابنه وخليفته على عرشه « ادوارد السادس » .

ومنذ أيام هنري الثامن نفسه بدأت الطقوس البروتستانية تتسرب من ألمانية الى انكلترا ، وأخذت انكلترا كلها تقاوم البابوية بالميل الى المذهب البروتستاني حتى أصبحت البروتستانية الدين الرسمي فيها . وكل من قرأ عشر صفحات من التاريخ يعلم أن الحروب التي ثارت بين البروتستان والكاثوليك كانت أشد وأطول من الحروب التي ثارت في سبيل المطامع القومية والسياسية والاقتصادية معاً .

من هذا كله يجب أن نعلم أن للمجتمع قوانينه ، وأن ثمة حاجات يجب أن تسد سواء ـ أردنا أم لم نرد ـ وان وقوفنا في وجهها لا يقوم دليلا إلا على قصر نظر جلي .

ثم إن الغاية من الزواج بناء مجتمع سعيد قوي ، والمجتمع السعيد القوي يقوم على النسل في الدرجة الأولى أو على النسل الصحيح ، فيجب علينا أن ننظر الى قوانين الزواج والطلاق من ناحية النسل في المقام الأول .

الزواج

هو حاجة من الحاجات الجسدية أوجدها الخالق الحكيم لحفظ وجود النوع الانساني ، فاذا لم يجعله حاجة جسدية لم يأبه به أحد ، لان تكاليف الحياة الزوجية شاقة لا يتحملها الانسان إلا إذا كانت حاجته الى الزواج شديدة . وإنا لموردون هنا كلاماً عاماً عن هـذه العلاقة الاجتماعية ثم مردفوه من الابحاث بما يقتضيه موضوعه الخطير فنقول :

وحدة الزوجة وتعدد الزوجات

وحدة الزوجة هو الأصل في الزواج ، وهو أول ما حدث فى العالم الانساني ثم تلاه تعدد الزوجات لأسباب سنبسطها فيما يلي .

وغدا وحدة الزوجة هي الأصل فى التزاوج فان هنالك أسبابا معيشية واجتماعية تدعو اليه ، مثال ذلك : الأمم التي تعيش بالاغتذاء من الغابات كالقبائل الساذجـة المنتشرة في البرازيل من امريكا الجنوبية تجبرها هذه الحالة على الاكتفاء بزوجـة واحدة لصعوبة المعيشة ، وعلى هذا النمط قبائل البوشيمان في افريقية فانهم مع سماح شرائعهم لهم بتعديد الزوجات يكتفون غالباً بزوجـة واحدة لتلك العلة بعينها . وقد شوهدت علاقة أكيدة بين وحدة الزوجة وبين شغل القبيلة لسطح متسع من الأرض وتبعثرها عليه . مثال هذا قبائل الفيداه في الهند فانهم يكتفون بزوجـة واحدة ويتشددون في ذلك للعلة المتقدمة عينها . إن ميل المتوحشين لخطف النساء بالقوة يقتضي وحدة الزوجة ، فان الرجل لم يستطع أن يخطف إلا امرأة واحدة

في مبدأ الأمر ، فكانت وحدة الزوجة سابقة على التعدد لا محالة ، وقد استمر بعض المتوحشين على توحيد الزوجة مـدة مديدة مضطرين لذلك بصعوبة حصول الرجل على أكثر من زوجة واحدة إذا كانوا في جهة لا يكثر فيها النساء . هذا وإن هذا الرباط الزوجي بين الرجل والمرأة لم يكن أكيداً ، فان الأقوى من المتوحشين كان يعدو على الضعيف ليأخذ امرأته .

روى العلامة (لوردافبري) . ان الرجل من قبائل خليج هودوسون بامريكا لا يستطيع أن يحتظي بزوجة إلا إذا كان صائداً ماهراً وقوياً مقداماً ، أما إذا كان ضعيفاً فيعيش عزبا ولا كـرامة . وقد شوهد عند بعض البدويين من العرب أن هذه الرابطة الزوجية واهية لدرجة أن بعضهم تزوج مطلقة خمسين مرة .

من الأسباب الاجتماعية التي حدّدت وحدة الزوجة : ارتقاء فكرة الملكية عند المتوحشين ، وانتظام أمر الأخذ والعطاء بينهم ، وقد قلّت حوادث خطف النساء عند ما أعدّت القبائل لها عدتها في الدفاع ، فقد كان المتعرض لها يجد من الصعوبات ما يثني عزمه ، أو يقع أسيراً فيلاقي صنوف التعذيب ، وزاد هذه القلة لما بدأت الأمم تشتري النساء بالدراهم أو تعطاهن في مقابل عمل يعمله الرجل على سبيل الأجر ، ومن دفـع لامرأته ثمناً أو تحصل عليها بعد خدمة السنين الطويلة عز عليه أن يسلم امرأته إلا بعد جهاد جهيد .

ولما كان رجال القبيلة كافة لم يحصلوا على نسائهم إلا بالـكد فتراهم يتحزبون مع كل من يدافع عن امرأته ونشأ من ذلك اعترافهم لـكل منهم بحق صيانة امرأته وهذا السبب عينه قلل من حوادث الطلاق ، فان الرجل متى علم أنه لا يستطيع أخذ امرأة غيرها إلا بدفع مبلغ من المال أو بخـدمة سنين عديدة تبصرّ في أمر الطلاق وكبر عليه طرد امرأته .

ثم إن الوحدة سادت تمام السيادة في البلاد حين تساوى فيها عـدد الرجال

والنساء ، سواء بقلة الحروب المجتاحة للرجال أو بغيرها من الأسباب . وفي هذه الحالة ظهر أمام تعدد الزوجات حائل طبيعي شديد ، فانه في مثل هذه الحالة لا يمكن أن يحتظي الرجل ببضع نساء إلا إذا أوجب العزوبة على بضعة رجال . هذه الحالة السيئة تدعو الرجال لكراهة تعدد الزوجات كراهة تامة فيتكون رأي عام مضاد للتعدد فيبطل من نفسه .

وقد روى العلامة (لاو) ان هذه الحالة حدثت في قبائل الدياكس من جزيرة (بورنيو) بالاوقيانوسية فبعد أن كانت معددة للزوجات رجعت الى توحيد الزوجة ، حتى أنه كان الرئيس منها إذا عدد زوجاته فقد مكانته في افئدة قومه .

ومن فوائد وحدة الزوجة أنها متى تساوى عـدد الرجال والنساء في مجتمع تكون أحسن لتكثير النسل وحفظه من تعدد الزوجات ، فانه في حالة تساوي الجنسين لا يستطيع أحد من الناس أن يكـون له عدة نساء إلا بايجاب العزوبة على عددهن من الرجال فيكون داعياً لقلة النسل ، لاننا لو أخذنا عدد النساء في المجتمع مقياساً لعدد المواليد لرأينا أن أولئك النسوة يلدن أكثر متى كانت كل واحدة منهن لرجل ، ويقل نسلهن متى كانت كل طائفة منهن لرجل واحد .

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات موجود الآن في كل قارات العالم ولدى جميع الأجناس البشرية ، فهو موجود عند الفويجيين من امريكا والاستراليين والتاسمانيين ، وفي كالدونيا الجديدة وتاناوفات وايروانجا وليفو ، ولدى قبائل الماليوبو لينيزيين وتاييتي وجزائر ساندوتش وجزائر تونجا وزيلندة الجديدة ، ومدغشقر وسومطرة ، ومنتشر في قبائل امريكا المتوحشة جنوبا وشمالا وهو أمر عام عند الافريقيين كافة وعند أكثر أهل آسيا . وبالاختصار إن تعدد الزوجات أمر شائع عام في كل قارات العالم ، وعدد المعددين للزوجات يفوق بكثير عدد الموحدين للزوجة ، وكان

هذا يكون لا شك أعم مما هو الآن لو لا أن الأحوال القسرية تحول دونه . ودليل ذلك أنه توجد أمم كثيرة تحترم مبدأ تعديد الزوجات ولكن يندر فيهم المعدد لفقرهم المدقع ، كما هو شأن البوشيمان في افريقيا . ولدى قبائل الجوندس قلّ أن نجد معدداً للزوجات فان ثمن المرأة لديهم مرتفع جداً ، وكذلك الحال عند قبائل الاوستياك والفيداه بالهند ، وقد شوهد أن هذا الفقر ليس بمانع للاستراليين والفويجيين من تعديد الزوجات ، والسبب فى ذلك أن المرأة يمكنها هناك أن تغذي نفسها باجتهادها .

يروي لنا السواح أن تعدد الزوجات ينتشر كل الانتشار بين جميع آحاد الأمم التي يشرفون عليها فى الاقطار التي ذكرناها آنفاً ؛ ولكن لو كان حقاً مايقولونه وكان لكل رجل زوجات عدة لكان عدد النساء لدى هؤلاء الناس أكثر من عدد الرجال كثرة هائلة ولا نرى سبباً موجباً لهذه الكثرة . والتحقيق أن ذلك التعدد ليس بمنتشر بين سائر أفراد القبيلة بل هو خاص بأفراد من الاغنياء ، أما بقية الآحاد فلا يتعدون امرأة واحدة وإن ملوكهم ورؤساءهم هم الذين يعددون الزوجات ، وكذلك الشأن في جاوة فان مبدأ تعدد الزوجات مقبول عندهم ، ولكنه لايوجد بالفعل إلا عند الرؤساء والملوك ، وكذلك الحال عند أهل سومطرة من الاوقيانوسية فان قوانينهم تسمح للرجل أن يختار من النساء بقدر ما يريد ولكن لا تجد المعدد للزوجات فيهم إلا الرؤساء والقادة ، وكذلك الأمر عند قبائل نيكاراجا من امريكا .

إن عادة تعدد الزوجات نشأت من أسباب طبيعية معقولة ، وذلك أن بعض الأفراد امتازوا في قبائلهم بدرجة مفرطة من القوة الجسدية والحيل العقلية ، فصاروا من كبار المحاربين أو أعاظم الرؤساء في قبائلهم . هذه الميزة الجسدية عينها مكنتهم من اختطاف جملة نساء سواء من قبائل أجنبية أو من قبيلتهم ذاتها ، ومن هذه

الأسباب عينها أعتبر اختطاف المرأة وحيازتها من علامات الفخار والمجد ، وكلما تعددت النساء عند رجل كان فخاره أعظم وشجاعته أدعى للاعجاب . من هنا سارع الشجعان وأصحاب الفتوة لحيازة أكثر من واحدة من النساء .

ومن الأدلة على ذلك أن رجال قبيلة الاحباش يعتبرون الرجل الأكثر نسوة أحق بالاحترام والاجلال ممن لا يساويه فى عددهن . وقد نقل الرحالة (كلافيجيرو) أن خلفاء ملوك (المكسيك) بامريكا كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون أن يحفظوا مقاماتهم بأزاء الناس إلا إذا أكثروا من النساء والسراري . وقد روى الجغرافي « اليس » أن في جزيرة مدغشقر حيث تعدد الزوجات شائع قانوناً يحظر على الرجال إلا الملك أن يقتني أحدهم اثنتي عشرة امرأة . وروى (بورتون) أن لدى بعض أهل افريقية عادة الفخر باقتناء النساء حتى أن أحدهم ليختار لنفسه من اثنتي عشرة الى ثلاثمائة امرأة .

من هنا نري أن تأصل هذه العادة سببه حب الفخر بعدد النسوة ، لان عددهن يشعر أولا بقوة الرجل ثم بغناه وثروته وكلاهما من المفاخر فى كل جيل .

وقد روى « تاسيت » المورخ اللاتيني أن الجرمانيين القدماء كانوا هم من القبائل الوحيدة التي لا تعدد الزوجات . وقد روى المشرع (مونتسكيو) الفرنسي المتوفى سنة « ١٧٥٥ » م ان الملوك « الميروفنجيين » الذين حكموا فرنسا من القرن الخامس الى سنة (٧٥٢) ميلادية كانوا معددين للزوجات وكان ذلك لهم من المفاخر

وهناك أسباب اقتصادية بعثت على تعدد الزوجات منها أن المرأة كانت تقتنى لتشغيلها فى الغيط وفي البيت . وقد اعتاد رؤساء كالدونيا الجديدة بالاوقيانوسية أن يتزوج أحدهم من عشرة الى ثلاثين امرأة بقصد تشغيلهن فى الحراثة والسقاية .

هذا السبب الاقتصادي أدى أهل افريقية أجمعين الى تعديد الزوجات ، فان عمل النساء هنالك : السروح الى مسافات شاسعة لجلب الخشب والماء ، وأزواجهن

يجبرونهن على الزرع والحصد .

وعند أهل الكفر وهو قطر من افريقية الجنوبية يشغل الرجل امرأته فى أشق الأعمال وأقساها وهو يعتبرها بقرة له ، وقد كلم الرحالة (شوتر) الانكليزي أحد الكفريين فى شأن تشغيل امرأته فقال له كيف لا اشغلها وقد اشتريتها بمالي . وبناء على هذا فان كثرة النساء عند هؤلاء الأقوام هي بمثابة كثرة الارقاء والخدام .

ومما ساعد على انتشار تعدد الزوجات اعتبار هذه العادة من الصالحات الدينية ، وقد دلت أحوال قبائل الشيبوي على أنهم يعتبرون المعدد للزوجات محترما عند الروح الأكبر وهو معبودهم . وكذلك كان الشأن عند المصريين القدماء فان تعدد الزوجات عندهم ليس بمضاد للاخلاق الفاضلة ولا للتعاليم الآلهية ، ومما يدل على ذلك أن قوانينهم خالية مما يدل على أن الله بارك فى رجال كانت لهم أزواج عدة وسرار كثيرة .

ومن الغريب أن هذا الاعتبار لمبدأ تعدد الزوجات ليس خاصاً برجال أولئك القبائل بل بنسائهم أيضاً ، فقد شوهد أن نساء قبائل « الكوش » من امريكا الشمالية لا ينظرن لتعدد الزوجات بنظر كراهة بل يعتبرونها أمراً حسناً ، والسبب فى ذلك أن المرأة لما كانت معتبرة كالبهيمة فهي تحب أن يكون معها شريكات لتخف عنها الأعمال .

وقد روى الرحالة « لفنجستون » الانكليزي أن نساء قبائل الماكولولوس من افريقية عند ما سمعن بان الانكليز لا يعددون الزوجات صحن قائلات إنهن لا يستطعن أن يفهمن كيف أن السيدات الانكليزيات يرضين بهذه العادة ؟ فان الرجل الفاضل يجب عليه أن يعدد زوجاته ادلالا على غناه وسماحته . هذه الافكار سائدة كما يقول « لفنجستون » لدى القبائل النازلة على طول نهر « الزمبيز » من افريقية الجنوبية .

ومما شوهد عند السودان ليس لديهم حب ولا انعطاف المرأة غير الميل البهيمي المعروف . فقد روى « مونتيرو » الرحالة الذي مكث في السودان سنين عديدة أن الأسود لا يعرف الحب ولا الانعطاف ولا الغيرة على المرأة ، وذكر أنه ما رأى قط رجلا يحتضن امرأة ويلاطفها ، بل ليس في لغتهم كلمة تعبر عن الحب أو الانعطاف . وقد ذكر اللورد (اميري) (الفزيولوجي) الانكليزي الشهير أن قبائل ﴿ الهوتانتوف ﴾ من افريقيا ليس بين رجالهم ونسائهم أدنى انعطاف متبادل ، حتى يظهر أنهم يجهلون الحب جهلا تاماً ، وذكر مثل ذلك عن أهل الكفر من جنوب افريقية وقال إن في ﴿ يارينا ﴾ من السودان يتزوج الرجل بالمرأة ولا يهتم لذلك إلا بقدر ما يهتم بقطع سنبلة من سنابل القمح ولا يشاهد عليه أدنى دليل للانعطاف على امرأته . وليس هذا عيب تعدد الزوجات بل عيب الجهل إذ أنه يوجد بين القبائل الموحدة للزوجات ايضاً .

ومما يجب التنبيه اليه هنا أن نتيجة هذا الجفاء المتبادل بين الرجال والنساء تظهر بأفظع مظاهرها في سني الهرم ، لان الرجل لم يكن غرس في قلب امرأته حباً في صباه يحملها على العناية به في كبره فتهمله أو تقصر في خدمته فيموت على اسوأ حالة .

ومما ساعد على ترقي فكرة وحدة الزوجة إحتظاء المتوحش بواحدة من نسائه واعتباره إياها أعلى من غيرها درجة . هذا الاحتظاء كان موجوداً من القدم ولكن تأصل مع الزمن وظهر بمظهر مؤثر على تركيب الأسرة ، فترى من عادة المتوحشين الاحتظاء بالمرأة لشبيبتها أو لجمالها أو لأسباب أخر كما عند سكان جزائر « تاييني » وقبائل (الشيشاس) فان الرجل منهم يعتبر امرأته الأولى هي المرأة الشرعية . وقدحددت التوراة هذا التمييز تحديداً صريحاً فأباحت للشخص أن يتسرى من سبايا الحروب بما شاء وأن يتركهن متى شاء .

تعدد الزوجات فى الاسلام

بقي علينا فى هـذا الباب أن لا نغفل ذكر مسألة هامة جداً إن سكتنا عنها طولبنا بها وهي مسألة تعدد الزوجات فى الاسلام ، وهي المسألة التي لا يزال يطعن علينا من جهتها العلم الاوربي ومجادلة الملل المناظرة لنا .

نقول إن الاسلام ظهر في أمة كانت معددة للأزواج وكان لكثير من أفرادها حين نشوئه أكثر من امرأة لهم من جميعهن أولاد ، وكانت هذه العادة متأصلة فيهم وفي جميع الشرقيين الى حد انها امتزجت بطبائعهم ، وكان عدد الرجال من العرب يفوق عـدد النساء فوقاناً ظاهراً ، كما هو الحال لدى كل الأمم البدوية من دوام الحروب والغارات .

فلوصدم الاسلام هذه العادة صدمة فجائية أحدث نفوراً فى النفوس ومعارضة لنمو الأمة لا يتفق مع الغرض الذي شرع من أجله وهو أن يكون ديناً عملياً لا شكلا خيالياً ، فكانت الحكمة تقضي باباحة التعدد مع تضييق دائرته بالنصوص المزهدة فيه الى أن تدخل الأمة فيدور من أحوال الاجتماع يعتبر في التعدد مناقضاً لعاداتها ومألوفاتها وغير مناسب لعدد الرجال والنساء فيها فتتلاشى بأسبابه الطبيعة المقبولة .

اما حكمة إباحته وعدم تحريمـه بتاتاً فهو أن الأمم في أثناء نشوئها تتعرض لكثير من المؤثرات الطبيعية ، منها قلة عدد الرجال عن عدد النساء قلة ظاهرة بسبب الحروب التي تحتاج اليها آحادها فى بعض أدوارها . وفى هذه الحالة تكون الزوجات أمراً ضرورياً لحفظ الأمة من التلاشي والفناء ولله فى خلقه عوامل يسلطها عليها وقت الحالة . وقد جاء الاسلام ديناً عاماً لكل الأمم لا لبعضها دون الآخر ، فان تمسكت به قبيلة ثم وجدت في حال اجتاحت رجالها واستبقت نساءها ونشأت فيها انذارات التلاشي والفناء إن لم تعمد الى مبدأ تعدد الزوجات ، فما ذا يكون من أمر هـذه القبيلة إلا أن تقع في حيرة من أمرها . فهي إن أجابت داعي الطبيعة

عصت الدين ، وإن أجابت داعي الدين عصت الطبيعة وفنيت بالمبيدات المختلفه ، وكيف ندرك أن وحياً إلهياً يخالف نظاماً طبيعياً فاذا كان الدين من الخالق والطبيعة منه وقد خلق سبحانه في الطبيعة من العوامل ما يجعل تعدد الزوجات في بعض الأحوال ضرورياً فكيف يعقل أن يحرّمه فى شريعته على ألسنة رسله .

ليس علينا بعد هـذا البيان إلا أن نثبت لك أن تعدد الزوجات من العوامل الطبيعية التي تكون ضرورية في بعض أدوار الأمم . اليك هذا البرهان عن لسان العلامة العمراني الكبير « هربرت سبنسر » الانكليزي من كتابه أصول علم الاجتماع قال : « إن تعدد الزوجات مفيد للمجتمعات البربرية المحاطة بمجتمعات معادية لها . فقد شاهد « ليشتنستين » عند الكفرويين أن رجالهم أقل من نسائهم لأن الأولين يموتون في حروبهم المستديمة بكثرة زائدة . ومن هنا ينشأ تعدد الزوجات واستعمال النساء في سائر الخدم البيتية » . قال « هربرت سبنسر » : « إذا طرأ على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب ولم يكن لكل رجل من الباقين إلا زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج ينتج من ذلك نقص في عدد المواليد لا محالة ، ولا يكون عددهم مساوياً لعدد الوفيات ، فاذا تقاتلت أمتان مع فرض انهما متساويتان في جميع الوسائل المعيشية وكانت احداهما لا تستفيد من جميع نسائها بالاستيلاد فلا تستطيع أن تقاوم خصيمتها التي يستولد رجالها جميع نسائها ، وتكون النتيجة أن الأمة الموحدة للزوجات تفنى أمام الأمة المعددة للزوجات » . انتهى كلام سبنسر .

نقول نتج من هنا أن هنالك حالا يعتري القبائل لا يكون لها من وسيلة لحفظ ذاتها من التلاشي إلا تعديد الزوجات ، وهذه الوسيلة من الوسائل الطبيعية التي خلقها الله في الكون وألزم الأمم المعرضة للفناء بالعمل بها . فكيف يخلق الله في الامم حالا ويلهمها الوسيلة لتلافي أخطارها ثم لا يبيح تلك الوسيلة فى وجه على

ألسنة رسله ؟ كلا ، إن خالق الكون هو موحي القرآن وقد تطابق قوله وخلقه فلا عجب بعد هذا أن يكون الدين مبيحاً لتعدد الزوجات ، بل العجب أن لا يكون قد أباحه مع وجود الداعية اليه إذ ذاك ، وفى رأيي أن الامم متى رأت أن لا حاجة اليه فلها إبطاله .

الزواج عند الامم المختلفة

الحيوانات التي تعيش مجتمعة كالقردة والفيلة وغيرها يتقاتل ذكورها على حيازة أناثها وكذلك يفعل الانسان . فقد روي عن قوم (الشيبيوبان) من امريكا الشمالية : أن الرجل متى أحب امرأة رجل آخر قاتله فان تغلب عليه أخذ منه امرأته عنوة . وكذلك روي عن قوم « البوشيمان » من افريقية أن الرجل الأقوى يعدو على الضعيف فيسلب منه امرأته على رغم أنفه .

وهذا القتال الشهواني لا يحصل فقط بين الرجال لسبي النساء ولكن يحصل أيضاً بين النساء ، وذلك أن الرجل فى بعض قبائل « كينسلان » من استراليا يتزوج الى خمسة نساء ، فيجتمع هؤلاء النسوة ويتقاتلن بالعصي الغليظة ولا يزلن يتضاربن حتى تسيل دماؤهن وتكون الغالبة هي صاحبة الحظوة لدى زوجها .

ومن عادات قبائل استراليا المتوحشة أنه إن حدث قتال بين قبيلتين وغلبت احداها الأخرى ذهب نساء المغلوبين الى الغالبين عن طيب نفس بلا أدنى مقاومة .

إن ما نعهده اليوم من نظام الزواج وصيغ التعاقد ليس بموجود عند المتوحشين شأنهم في ذلك كشأنهم في كل أمورهم الحيوية ، فان في امريكا متوحشين ليس لديهم احتفال بالزواج مما يدل على سقوطه في نظرهم وعلى أنه أمر عرضي ، وكيف يحتفل بزوجة تكون اليوم لرجل فتصبح غداً بحق الغلبة لرجل آخر ؟ .

وقد روي أن القبائل في « كاليفورنيا » الدنيا ليس لديهم احتفال بزواج ، بل ليس لديهم في لغتهم ما يدل على معنى الزواج ، فهم يتزاوجون كما تتزاوج العصافير والبهائم

ليس إلا . وفي كثير من بلاد المتوحشين يتم الزواج بالخطف ، فمتى خطف الرجل امرأة كانت زوجته سواء رضيت أم لم ترض ، فان خطفها رجل آخر كانت له . وفي بعض القبائل المتوحشة الاحتفال بالزواج ينحصر في أن يضرم الزوجان ناراً فيجلسان بجانبها ، وعند البعض الآخر يتم الزواج متى قامت الزوجة ببعض الخدم البيتية للزوج ، وعند قبائل « غينا » الجديدة يتم الزواج متى أعطت المرأة لزوجها قليلا من التبغ ، وعند قبائل « التفاجوس » يتم أمر الزواج بين الرجل والمرأة بمجرد جلوسهما في شبه قصعة كبيرة وأكلهما معاً من الأغذية التي يكونا قد وضعاها فيها ، وكما أن الزواج بسيط عند هؤلاء الأقوام فكذلك أمر الطلاق عندهم ، فان الرجل من قبيلة « الشيبيوية » من امريكا الشمالية إذا أراد طلاق امرأته ضربها وأخرجها من بيته فتطلق . وعند الأقوام الموجودين في « كاليفورنيا » الدنيا من امريكا للرجل أن يتزوج من النساء ما شاء بلا قيد ، وله أن يشغلهن كالارقاء ومتى بدا له أن يطلق احداهن فما عليه إلا إن يطردها ، وكذلك الشأن عند « النوبيين » من استراليا إذا عرض لأحد الرجال أن يطلق امرأته وهبها لرجل آخر . ومن نظامات « التاسمانيين » من استراليا ضرورة التطليق كما أنه أمر من الامور الضرورية ، واما عند قبائل « الكازياس » فان الطلاق كثير لحد أنه فقد معه معنى الزواج .

ومما يدل على أن الروابط الزوجية عند المتوحشين ضعيفة ، وإن نظرهم للزواج يخالف نظرنا فيه واعتبارنا له ، أن قد اعتاد بعضهم تقديم نسائه لضيوفه ليتمتع بهن ما داموا عنده ، ومن المتوحشين من يهب بناته أيضاً لضيوفه ، من هؤلاء الاقوام « الاسكيمو » وهنود امريكا وبعض قبائل ﴿ بولينيزيا ﴾ و ﴿ السودان ﴾ والحبشة والكفرة . . . الخ .

ونقل إن المرأة البوشيانية تستطيع باذن الزوج أن تنضم الى أي رجل

آخر ، ثم تعود اليه . وهي تشبه عادات بعض العرب فى الجاهلية من إذن الرجل لزوجته بالذهاب الى رجل معين ثم عودتها اليه . وهـذه العادة تعدّ عند الاسكيمو « في جروينلاندا » من مكارم الاخلاق وكرم السجايا .

هذا الانحلال فى الروابط الزوجية عند هؤلاء الاقوام يشعر بأن أولئك الرجال لا يعلقون كبير اهتمام على عفة المرأة ، فقد روي أن فى جهات (الكونجو) من افريقية يعرض كثير من الرجال بناته للفسق ليكسبوا من وراء ذلك دراهم .

وعند المكسيكيين عادة غريبة وهي أن البنت متى بلغت سن الزواج أمرها أهلها بأن تخرج الى الرجال لتكسب مهرها ؛ فتطوف ـ لذلك ـ البلاد في حالة عهارة مطلقة حتى تجمع المبلغ الكافي ثم تعود الى بيتها لتتزوج . وروي عن السكان الأولين لجهة (داريان) من امريكا انهم ما كانوا ينظرون للفسق بعين المقت ، وكان الزنا من الأمور التي لا تؤثر عندهم أي تأثير ، حتى شهر عن نساء أعليائهم أنهن كن يقلن إن من أخلاق سفلة النساء أن ترد احداهن طلب طالب . ولم يزل يعتقد نساء « اندمان » من آسيا أن من سفالة المرأة أن ترد يد لامس . وروي عن أقوام « الشيبساس » من امريكا الوسطى أن الرجل يعتبر مغازلة الرجال لزوجته بل مباضعتهم لها من موجبات السرور والفخر له ، ولو تزوج أحدهم بامرأة فوجدها بكراً حقرها وعدّها كلا شيء لانها لم تثر شهوة رجل قبله .

وإذا كان المتوحشون فاقدين أخص ما يربط الزوجين من روابط الحب والاثرة فان لديهم إحساساً حاداً بامور أخرى ترتبط بالزواج ليس لدينا منها أدنى تأثير . من ذلك ما اعتاده (الشوشوابس) من كولومبيا بامريكا وهو أنهم يعتبرون العار كل العار أن تتزوج امرأة من أسرة بدون أن تدفع لأهلها شيئاً . ويعتبر « المودوكس » من كاليفورنيا أن الأولاد الذين يولدون من أب لم ينفح أسرة أمهم بشيء من الأولاد المحقرين الذين لا يستوجبون أدنى كرامة . ومن

عوائد أهل « ايبوكونا » من افريقية أنهم يحقّرون كل من كان معدداً للازواج
وروى « لفنجستون » الرحالة الانكليزي أن أهل « زمبزيا » من افريقية الجنوبية كانوا يتعجبون غاية التعجب لما علموا أن الانكليزي لا يتزوج إلا امرأة واحدة . وروى العالم الانكليزي « بيلي » أنه خاطب أحد رؤساء جزيرة سيلان فجرهما الحديث الى ذكر بعض قبائل الهند فأظهر الرئيس احتقاره لهم وعد من أشد المطاعن عليهم فى عوائدهم أن الرجل لا يتزوج إلا امرأة واحدة .

التزوج بالمحارم

أما التزوج بالمحارم فيظهر أن ما نشعر به نحن من الكراهة الشديدة لذلك لم يحس به المتوحش ولم يؤثر على ضميره بشيء .

فقد روي عن « السيبويان » من امريكا أن الرجل منهم يباضع أمه ، وأنهم يكثرون من التزوج بأخواتهم وبناتهم ، وروى كثير من العلماء مثل ذلك عن كثير من الأمم المعاصرة لنا من المتوحشين . وروي أن ملوك (رأس جونزالف وجابون) من افريقية لأجل حفظ الدم الملكي خالصاً من الشوائب يتزوج الملك ببناته وتتزوج الملكات بأبنائهن . وقد أثبت التاريخ أن عدداً كبيراً من أفراد « البطالسة » الذين ملكوا مصر تزوجوا بأخواتهم .

وعلى قدر ما رأيت من انحلال رابطة الزواج عند الأمم المتوحشة ترى أن أمة الفيداه من بلاد الهند تحرّم الطلاق تحريماً باتاً ، وهم يقولون إنه لا يجوز أن يفرق بين الرجل وامرأته إلا بالموت .

لم نجد من استقراء أحوال الانسان أن هنالك علاقة بين انحلال الروابط الزوجية وبين الأخلاق ، ولكن شوهد عند قبائل « التلنكيس » أنه مع احترام الرجال لنسائهم وحسن معاملتهن ومع كون نسائهم شديدات الانعطاف على

أزواجهن ومتواضعات لبعولتهن . تجد من جهة أخرى هؤلاء أكذب خلق الله ألسنة وأشدهم لصوصية وأقساهم قلباً ، فتراهم يمثلون بأسراهم تمثيلا قبيحاً لعباً ولهواً ويقتلون أرقاءهم قسوة . وكذلك قبائل (البشاسان) بينما تجدهم يقتلون النفس بلا أقل حرج ، ويكذبون كذباً لا حد له ، تجد نساءهم من أفضل نساء الأرض محافظة على الاخلاص الزوجي . وكذلك بينما ترى سكان جزائر ﴿ فيجي ﴾ على غاية ما يكون من القسوة والخشونة والبربرية تجدهم يحفظون عهد الزوجية حفظاً لا مزيد عليه .

ومن أعجب التقاليد عند قبائل « كوتياجاس » أن المرأة ما دامت بلا زوج لها أن تعمل ما شاءت من الجري وراء هواها . ولكنها متى تزوجت حفظت عفتها حفظاً ليس بعده مرمى ، وكذلك الحال عند قبائل « كوماناس » وعند أهل « بيرو » من امريكا لا يهتم الأب بالبحث عن سيرة ابنته ، وليس من العار عليها أن يكون لها أخدان عديدون ، ولكنها متى تزوجت حفظت غاية ما يمكن من العفة وعند قبائل « السيبشاس » لا يهتم الرجال لعفة النساء قبل الزواج كما رأينا ولكنهم بعد زواجها يحافظون عليها كل المحافظة ويتأثرون من فسقها تأثراً لا مزيد عليه .

مما مرّ يرى القارىء أن الانسان المتوحش يسلك بالنسبة لأمر التزاوج سيرة الحيوانات ، فلا يعرف الروابط الزوجية ، ولا يهتم بنظام الأسرة والقرابات ، ولكنه على قدر ترقيه في سلّم الحضارة تترقى سائر شؤنه الاجتماعية .

ومما يجب التنويه به في هذا الباب : أن القبائل المتوحشة لكثرة حروبها وغاراتها كانت تهتم بتربية الأولاد الذكور وتهمل تربية الأناث ، بل كان من عوائدهم الشائعة قتل الأناث لا سيما وقد كانت تربيتهن كعبء ثقيل عليهم ، ولكن حدث من جرّاء ذلك أن قلت النساء فنشأت عادة خطف الأناث بين القبائل والتزوج بهن . فكان الرجل إذا احتاج لامرأة اصطادها من قبيلة أخرى كما يصطاد حيواناً وتزوج بها .

ومن العجيب أن هذه العادة لم تزل تتأصل حتى اعتبر الزواج بطريق السبي هو الزواج وحده ، بل عدت فيما بعد عادة دينية ، ولم يزل يوجد للآن من قبائل الهنود والقوقازيين من يحرمون الزواج من قبائلهم ويرون ضرورة الزواج من القبائل المجاورة ، ولكن اعترض بعض العلماء على هذا التعليل بقوله : (إن تلك القبائل لو كانت معتادة قتل البنات واستحياء الذكور لأفضى ذلك الى قتلهن من كل القبائل ولأدى الى نتائج خطيرة ولكن التحقيق أن هذه العادة نشأت من الحروب فان المحاربين من كل الأمم متى غلب فريق منهم خصمه أخذ كل ما قدر عليه من ماله وسبي نسائه وهذا أمر حاصل للآن بين جميع القبائل) .

روى العلامة (متشل) الانكليزي أن بعض البيض من الأوربيين حكوا لبعض أهل استراليا السود بأنهم قتلوا رجلا تعرض لهم من قبيلة من قبائلهم فنظر اليهم الاسترالي شزراً وقال لهم ما أحمقكم ولِمَ لم تسبوا امرأته ؟ .

وأما قبيلة (الكارايب) فانها مع نهمها فى أكل لحوم البشر تستبقى النساء من أسرى الحروب للاستيلاد ، ومن عادة المتوحش أن يحمل مع ما يحمله من آلة حربه شعر عدوه الذي قتله أو ضفائر منه ، وبعضهم يعلق عليه رأسه بعد أن يجففها وأحسن من ذلك كله أن يختطف امرأته فتبقى عنده ذات فائدتين أولاهما أنها من الارقاء ، وثانيتهما انها من علامات الفخر والشرف له . ومن كان لديه من هذه النسوة أكثر كان له من الفخر ما ليس لغيره .

النساء من جهة الأعمال العالية اعتبرن من الخدم الارقاء وليس لهن إلا الطاعة المطلقة لأزواجهن . فقد يوجد من القبائل من يكلف النساء بكل شيء حتى بجلب الغذاء فقد كان لدى (السامانيين) الذين انقرضوا أن الرجل ليس عليه من غذاء الأسرة إلا صيد حيوان يقال له (جونجوروس) أما المرأة فكان عليها أن تتسلق الأشجار لاقتطاف الثمار وتشق الأرض لاستثارة الجذور النباتية منها وتسحب على

الأرض لاصطياد القواقع وتقتحم البحر لتصيد الحيوانات الرخوة وكان عليها مع ذلك أن تربي أولادها .

وعند الفويجيين والاندامانيين والاستراليين على الرجل أن يصطاد وعلى المرأة أن تحمل له الفريسة وكذلك الحال لدى كثير من القبائل حتى أن الرجل من الاسكيمو متى قتل فريسته اعتبر حملها عليه فيدع وظيفة حملها لامرأته .

وعند الاسكيمو هؤلاء تبني المرأة البيت وتنصب الخيام فيراها رجلها وهي حاملة من الاحجار ما يهد القوى ويكسر الفقرات الظهرية فلا تأخذه عليها شفقة ولا يمد لها يد مساعدة .

ومن عوائد المتوحشين تحميل نسائهم أمتعتهم ولا يحمل الرجل السلاح وربما كان لهم عذر فى ذلك ، فان حياة الرجل المتوحش مهددة دائماً فلا يأمن أن يكون قد كمن له رجل فى طريقه ليقتله ويأخذ منه امرأته ، فلو حمل أمتعته أو لو ساعد فيها امرأته لم يكن على تمام الاستعداد عند مهاجمة العدو له فيهزم أو يقتل ، فلذلك يدع الاحمال لامرأته ويمشي هو معتقلا سيفه ورمحه .

ومن متناقضات المتوحشين ما يوجد عند قبائل (الكورادوس) من أن الرجل هو الذي عليه الطبخ وإيقاد النار . وعند قبائل ساموا الرجال هم المنوطون بالطبخ ولا يستثنى من ذلك الرؤساء أنفسهم . ومن متناقضاتهم أن النساء في جاوة هن اللاتي يذهبن الى السوق يبعن ويشترين .

وروي مثل ذلك عن قبائل (انجولا) فان النساء هن اللاتي يذهبن يبعن ويشترين . أما الرجال فيجلسون في البيت يغزلون القطن وينسجونه ، ويعملون أعمالا هي عندنا نسوية محضة .

وعند أهل (بيرو) القديمة من امريكا على النساء أن يشتغلن في الخارج فيتاجرن ويحرثن الأراضي ، وعلى الرجال حفظ البيت والغزل والنسج . أما عند

الأحباش فمن العار أن يذهب الرجل الى السوق ليشتري ولو أصغر شيء ، أو أن يحمل ماءاً ، بل عليه أن يجلس في البيت لغسل ملابس الأسرة وليس على المرأة أن تشاركه في هذا العمل .

ومما أسند للنساء من الوظائف في بعض البلاد حمل السلاح كالرجال ، فقد كان لدى ملك « الداهومي » وهي من ممالك افريقية التي ملكتها فرنسا منذ نحو ثلاثين سنة جيش مكون من ثمانية آلاف نفر نصفهم من النساء الجميلات الشابات ، وقد كان هؤلاء النسوة حافظات لعفتهن كل الحفظ . وكان لدى ملوك (ود) وهو قطر من الهند حرس من النساء خاص بخدمة القصر الداخلية .

وقد روى « البرنس سوليتكوف » أن في قصر ملوك الدكن بالهند فصيلة من الحرس متسلحات بالبنادق ، ولابسات على رؤوسهن قبعة حمراء عليها ريشة خضراء ، وعلى أجسادهن حلة حمراء عليها خطوط بيضاء ، وتحت ذلك بنطلون أخضر ، فاذا عرض الانسان هـذا الجيش تخيل أنه فصيلة من الشبان المرد لو لا غدائرهن الملقاة على ظهورهن وصدورهن البارزة بأثدائهن .

ومما يشبه ذلك الحرس الملكي الخاص بملك سيام وهوقطر من آسيا فانه مكون من ٤٠٠ نسمة من النساء المنتخبات من أجمل النساء وجوهاً وأشجعهن قلوباً ، يأخذونهن من سن الثلاث عشرة للخامسة والعشرين ، ثم يحولن الى خدمة السراي الداخلية . هذه النسوة يعاهدن أنفسهن على الترهب إلا إذا دعا احداهن الامبراطور لنفسه فتسكن اليه وتصبح من الحظيات عنده .

ومما شوهد من ماجريات الحوادث الانسانية أن المرأة في القبائل الحربية تكون أكثر عبودية وأشد انحطاطاً منها فى القبائل التي بدأت فيها الحياة الصناعية لان الحربية تجعل بين عمل الرجل وعمل المرأة حداً فاصلا لا نسبة بينهما ، بخلاف الصنائع اليدوية فانها تحدث شبه تساو بين الجنسين لاشتراك الكل فيها فتنشأ للرجل

فكرة المساواة وتنصلح حالة المرأة عنده .

ومن أصرح الامثلة لذلك حالة القبيلتين المتجاورتين من ﴿ بولينزيا ﴾ وهما ﴿ الفيجيين والسامون ﴾ فالاولون معيشتهم على الحروب وما تستلزم من حكومة مطلقةاستبدادية ، وخشونة بالغة حدود البهيمية بالنسبة للنساء وتعدد فى الزوجات حتى أن الرئيس ليستطيع أن يتزوج من عشرة نساء الى مائة امرأة ، وللزوج على امرأته من الحقوق ما له على الحيوانات العجم ، وذلك إنه يستطيع بيعها أو ذبحها وأكلها إن شاء .

أما لدى السامون الذين نشأت فيهم مبادىء الصنائع فقد وصلوا تحت تأثير السلام الى حالة راقية فى حكومتهم وصنائعهم ، وحسنت حالة المـرأة عندهم لدرجة أن الرجل لا يحملها من الاعمال إلا ما تطيق ويترك مالا تطيقه لذاته ، وإذا حدث أن الرجل فارق امرأته بعد معاشرتها سنين تشاطرا المال معاً ، وذهبت بشطرها لتعيش به .

ومما علم من تاريخ المصريين الاقدمين الذين بلغت لديهم الصنائع شأواً بعيداً من الكمال أن المرأة كان لها مقام عال في الهيئة الاجتماعية وكانت تعتبر مساوية للرجل ، فكانت تحضر معه في الحفلات العامة ، وكان الطلاق صعباً لديهم ، وتعدد الزوجات وإن كان من مقررات شريعتهم إلا أنه لم يكن شائعاً بين جميع أفرادهم .

ومما يجب التنبيه اليه هنا إنه قد ثبت أن حالة المرأة في الاسرة تابعة من بعض الوجوه لشكل الحكومة . وعليه فقد رؤي أن الحكومة لو كانت مطلقة مستبدة كانت المرأة فىالاسرة فى أشد حالات العبودية لزوجها ، وإن كانت شورية دستورية كان للمرأة شيء من الحقوق والحرية . ومن الامثلة على ذلك حالة المرأة لدى الرومانيين الاقدمين أيام كانت حكومتهم استبدادية ، فقد كان للاب رئاسة مطلقة على امرأته وأولاده بحيث يستطيع أن يبيعهم وأن يقتلهم .

ولدى أهل الصين الذين تصعد مدنيتهم الى ما قبل عيسى ﴿ع﴾ بألفي سنة تجد سلطة الرجل على امرأته لا حد لها ، كما أن سلطة الامبراطور على شعبه لا حد لها أيضاً ، ولو لا أن الصناعة هذبت من أخلاق الصينيين ولطفت من احساساتهم لكانت معاملتهم للمرأة لا تفترق عن معاملة المتوحشين لها ، على أن الرجل الصيني للآن يشتري المرأة ويتسرى كما شاء ، وللحم هناك أن يبيع زوجة ابنه المتوفى ، وعلى النساء عندهم أن يشتغلن في أقسى الاعمال ، حتى أنهم ليربطونهن في المحاريب لحرث الارض . ولكن العرف قضى الآن على هذه الوحشيات وإن كانت من المباحات القانونية ، وكذا الشأن لدي اليابانيين هم واليونانيون الاقدمون في جاهليتهم كانوا يعترفون للمرأة ببعض الحقوق ، ثم رأيناهم في عهد مدنيتهم يعاملون المرأة أقسى معاملة ، ولا يسمحون لها بالخروج من بيتها . وقد عللنا ذلك باهتمام الرجل فى ذلك العهد بأعمال السياسة واهماله لما عداها من أموره ، فلم يكن للمرأة حق التصرف فى شيء مما لها إلا باذن الرجل لها ، وكان نظر فلاسفتهم لها باحتقار ، فقد قال ﴿ارسطو﴾ في كتابه ﴿السياسة﴾ : ﴿ليس للعبد إرادة ، وللطفل إرادة ولكن ضعيفة ، وللمرأة إرادة ولكن عاجزة . أما لدى الرومانيين فكانت المرأة تعمل في البيت وكانت محجبة في عهد الجمهورية ، ولما جاء عهد الامبراطورية خرجت من خدرها ولكنها كانت لا ترث ، فاحتال الرومانيون لتمويلها بواسطة الهبة ؛ فلما آنس المشرعون ذلك ورأوا أن الهبة للمرأة ستفضي الى نقل الثروات من بيوتها الاصلية الى بيوت أخرى ، قرروا أن ليس للرجل حق الهبة للمرأة إلا الى حد محدود ، ثم تقرر أن يرثن أزواجهن وأن يكون لهن مثل ما لكل ولد من أولادهن .

وقد استمرت أوربا في تقاليدها وشرائعها على ماكان عليه شعوبها المختلفة من المتوحشين تحت سيطرة الرومانيين حتى جاءتهم الديانة المسيحية ، فلم يكن حظ

المرأة من آباء الكنيسة مرضياً ، فلم يعتبرها بعض أولئك الآباء إلا أنها آلة الفتنة وسبب الخطيئة ، وقد قرروا في قوانين الكنيسة سمو الرجل عن المرأة من كل وجه وكانوا يعتبرون الزواج شراً ضرورياً ' وكان يعتبر لدى آباء الكنيسة كافة انه تابع لخطيئة آدم ' وانه لو لا تلك الخطيئة لكان الله عمد الى طريقة أخرى في استدامة النوع الانساني ، وما كانت هذه الآراء مما تلاءم روح الانجيل الداعية الى المساواة والعدالة ، ولكن حدث في أوربا حدث هائل كان في مصلحة الجنس الرقيق .

ذلك الحادث هو غارة المتوحشين على أوربا في القرن ﴿ الخامس ﴾ وهم من قبائل الجرمانيين ، ووجه كون هذا الحادث في مصلحة النساء الاوربيات ، أن هذه القبائل كان لها غرام فطري باحترام النساء لذاتهن لا بصفتهن أمهات ولا زوجات ، فلما اختلطت هـــذه الشعوب في المملكة الرومانية وتوزعت بلادها وسادت عليها أحكامها وأخلاقها ارتفع شأن المرأة في أوربا وصارت لها في نظر الرجل منزلة سامية ، ولم تزل ترقى في ذلك حتى وصلت الى ما هي فيه اليوم .

كانت المرأة قبل الثورة الفرنسية التي حدثت سنة ﴿ ١٧٨٩ ﴾ معتبرة مساوية للرجل في الحقوق ولكنها كانت قانوناً معتبرة دون الرجل في كل حق ' فلما حدثت الثورة الفرنسية اعترفت بمساواتها للرجل قانوناً خارج الزواج ، ولكنها متى تزوجت كانت تحت وصايته لا تتصرف بمالها إلا بعد اذنه .

ثم إن القانون الفرنسي الذي يعتبر أكثر القوانين عطفاً على المرأة يحرم عليها أن تكون ذات وظيفة في الهيئة الاجتماعية ولا تستطيع أن تكون شاهدة في قضية عامة ، ولا أن تكون حكماً ولا أهل خبرة . ثم إن القانون هنالك يحرم على المرأة الوظائف العامة ، فلا تقبل إلا مديرة لبوستة أو لمحل بيع الأوراق المدموغة ، وأن تكون معلمة للأطفال أو عاملة لبعض البنوك . . . الخ من الوظائف الحقيرة .

أما الاسلام فقد سبق الامم كافة في اعتبار المرأة شريكة للرجل في الحياة

بنص قوله تعالى : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) «١» . وقرر بأنها كائن متمتع بكل الخصائص الانسانية التي تؤهلها لأرقى مراقي الكمال البشري .

قرر الاسلام أن المرأة في بيت زوجها سيدة محترمة لا خادمة ممتهنة ، فليس عليها أن تخدم زوجها ولا تمتهن نفسها في الخدم البيتية جبراً ، بل لو لم تحسن الطبخ وجب على زوجها أن يأتيها بالأكل مجهزاً ، ولا يوجب الشارع عليها إرضاع ولدها ويجبر الزوج على استرضاعه بواسطة مرضع مأجورة إن لم ترد الأم ارضاعه .

إذا تأملنا في هـذه الحقوق الممنوحة للمرأة فليس فى وسعنا أن نتخيل أن فوقها مرمى . فاذا أضفنا الى هذه النظرات أن هـذه الحقوق التي نفاخر بها الاوربيين قد أتى بها رجل عربي أمي قبل أكثر من ثلاثة عشر قرناً وهو في أمة لا تعرف للمرأة حقاً و بين أمم كلها مستعبدة للنساء . لو تأملنا في هذا الأمر حدث برهان قاطع محسوس نضيفه على ما لدينا من البراهين ، على أن هذا الاسلام وحي إلهي لا وضع بشري ، فانه ليس فى طوق الانسان أن يتعدى حدود عاداته ومألوفاته ، بل حدود عادات الأمم كلها ومألوفاتهم في أمر كائن ضعيف كالمرأة فيهب لها حقوقاً لم يتخيلها البشر لذلك العهد . ولو كان ذلك في طوق البشر لاتى به أرسطو أمير الفلسفة الذي يعدّ أكبر عقل ظهر فى الاقدمين وقد علمت رأيه في المرأة مما تقدم . وإذا ثبت أن هذا الاسلام وضع إلهي فالآتي به لا شك نبي كريم ورسول عظيم يستحق منا أكرم صلاة وأشرف تسليم .

«١» سورة الروم الاية ٢١ .

الزواج عند اليونانيين

يؤثر عن اليونانيين القدماء أنهم كانوا موحدين للزوجة ولكنهم كانوا يبيحون لأنفسهم التسري بالاحرار والاسرى ، وكان للزواج غرضان : أحدهما ديني والآخر مدني ، ويطلب لأجل إيجاد النسل ، وقد سمحت شرائعهم بأن يتزاوج الأهل الأقربون والأخوة ، كل ذلك لحفظ الدم نقياً من الشوائب .

وكان احتفالهم بالزواج ينحصر في تقديم ضحايا لآلهة الزواج « زوس ، وهيرا ، وابوللون » وغيرها ، وأخذ العهد على الزوجين ، ثم عمل قربان عظيم يوم الزواج تعقبه وليمة تحضرها العروس محجبة ، ثم يتلو ذلك احتفال زفاف العروس الى بيت زوجها فتركب في مركبة تجرها الجياد وحولها الموسيقى تعزف بأنغامها والمغنون يترنمون بأناشيدهم .

الزواج عند الرومانيين

كان للزواج عند الرومانيين نوعان : أحدهما يقال له زواج (بمانوس) ، والآخر زواج بغير « مانوس » . ففي الأول تعتبرالمرأة بنتاً للرجل تندمج في أسرته التي له عليها كل سلطة وتخرج بتاتاً من أسرة أبيها ولا يبقى لها به أية علاقة وفي النوع الثاني تحفظ المرأة مكانها الاول من أسرة أبيها ولا تتصل من أسرة زوجها بأي سبب ، وفي كلا هذين النوعين لا بد من شروط لصحة الزواج كبلوغ الرجل سن الحلم وكذلك المرأة ، وكحريتها فانه لا زواج عندهم للارقاء ، وكان الطلاق مسموحاً به لديهم وكذلك التسري .

الزواج عند المسيحيين

يتم الزواج عند المسيحيين بايجاب وقبول بين الزوج والزوجة ولا بد من أن تعقده الكنيسة ، ولكنه على أي حال يعتبر عندهم أدنى من درجة العزوبة . فقد جاء في قوانين الكاثوليكيين : أنه يعتبر محروما كل من قال إن حالة الزواج أفضل من حالة العزوبة ، ومن قال بأن الانسان يكون أسعد حالا إذا كان متزوجاً مما إذا كان عزباً . حكموا عليه هـذا الحكم باعتبار أنه من الشهوات البهيمية الجسدية ، والانسان الكامل لديهم يجب أن لا يفكر في اللذائذ البدنية ، بل ينقطع الى عبادة الخالق ليتصل بعالم الكمال الأقدس ، ومع ذلك سمحت به الكنيسة المسيحية للضرورة ليس إلا .

الزواج في الاسلام

لما كان مبدأ الاسلام عمارية الأرض وإبلاغ النوع الانساني كماله من الوجهتين المادية والمعنوية جاء رسوله حاضاً على الزواج مشجعاً عليه ، بل عدت فيه الرهبنة من الأمور المحظورة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا رهبانية في الاسلام » وقال : « تناكحوا وتناسلوا فاني مباه بكم الأمم » . وقد اجمعت الأمة على أن الزواج من العقود الشرعية المسنونة ، ومن قصد نكاح امرأة حل له أن ينظر الى وجهها وكفيها بالاجماع .

أزمة الزواج في العصر الحاضر

أصيب الزواج بأزمة في العصر الحاضر لعدة أسباب : أولها سلطة العادات فان الناس أصطلحوا فيما بينهم على عادات خاصة بالمهر والاحتفالات وغيرها صار أكثرهم لا يطيقها على قدر منازلهم من الهيئة الاجتماعية فيمتنعوا عن الزواج قسراً عنهم . مثال ذلك اعتاد الاوربيين أن يأخذوا من النساء مالا عند تزوجهم بهن

يسمونه « الدوتة » فيصعب على كثير من النساء إيجاد هذا المال فلا يتزوجن ، وقد حملت المطامع الرجال على مساومة النساء في قدر هـذا المال ، فيريد كل منهم أن يأخذ امرأة لها أكبر ما يتوق اليه من المال فلا يجد ذلك بسهولة ، فيلبث أعزب حتى يصادف مطلوبه وهيهات .

ومن أسباب أزمة الزواج مطامع الرجال فان أكثرهم يطمع في أن يصاهر الأسر السرية الثرية ، ولما كان ذلك لا يتأتى له إلا بعد أن يحصل لنفسه مركزاً سامياً في الهيئة الاجتماعية فيظل يتربص ذلك فيبلغ الخمسين من العمر وهو أعزب وربما مات على تلك الحال .

ومنها سوء الحالة الاقتصادية عند كثير من الناس وصعوبة المعيشة الزوجية ، وهذه الحالة ترجع الى الحالة الأولى وهي سلطة العادات فاننا لا نظن أن الفقر يمنع من الزواج إلا إذا كان فقراً مدقعاً وهو نادر ، بل الشحاذ لا يعدم إن أراد الزواج أن يجد له كفؤاً من النساء .

هذه الأمور الثلاثة ، بل هذان الأمران ضربا الزواج ضربة قاسية في كل جهة ، وهذه الضربة في أوربا أشد منها عندنا ، فقد أصبح هنالك عدد النساء العازبات يفوق حد الكثرة ، والسبب في كثرتهن هنالك هذه الكثرة المهددة بالخطر يرجع الى تسامح الرأي العام في اختلاط النساء بالرجال ، ولو شاع بيننا السفور فيحتمل أن يقل الزواج من بعض الطبقات قلة شديدة الخطر على كيان الامة لاسترسال أكثر الشبان مع تيار المطامع الباطلة ، فان الأوربي في الدرجة الوسطى أكثر ما ينتظر من امرأته من « الدوتة » خمسمائة جنيه وهو مبلغ لا يزيد إيراده عندهم عن خمسة عشر جنيهاً سنوياً ، ولكن بعض المناطق الشرقية تتمكن من تلك الدرجة ينتظر الشاب أن يتزوج بمن لا يقل إيرادها عن مائتي جنيه في السنة وهو مبلغ لا يجيء إلا من رأسمال قدره خمسة آلاف جنيه . وقد ذاعت هذه المطامع

حتى صار الخاطب لا يسأل عن المرأة إلا من الوجهة المالية دون سواها ، فأثر هذا الانحراف أسوأ تأثير على الأخلاق والعادات والآداب .

فان المرأة ما دام لا يسأل عنها إلا من الوجهة المالية ولا يعتبر شيئاً لها ما تأتيه من صنوف التبرج ما دامت غنية يسهل عليها أن لا تدخر وسعاً في الظهور بكل مظهر تودّه ولو أثر ذلك على سمعتها وسمعة بيتها .

هذه المخاطر لم يتصد لها الى اليوم كاتب اجتماعي خطير يشرح أخطارها ويبين وجوه فسادها وهو نقص كبير نؤمل أن يتصدى له من يسده في القريب العاجل .

وإننا قبل أن نختم هذا الفصل نودّ أن نذكر كلمة عن حقيقة السعادة المنتظرة من الزواج وعن ضلال أصحاب المطامع عن وجه تلك السعادة .

الزواج حاجة من حاجات الانسان وهو ككل حاجاته لا يؤدي وظيفته على كمالها ولا ينتج كل السعادة المرجوة منه ، إلا إذا وافق الناموس الطبيعي والأدبي معاً فلننظر ما هي الحاجة الحقيقية للانسان من هذه الوجهة ؟ ثم لنقارن بينها وبين ما يتطلبه المنحرفون من شروطها ، ليرى القارىء ظلالهم البعيد من الفرق الشاسع بين الحاجة الطبيعية والحاجة المصطنعة . فنقول :

الحاجه الحقيقية للانسان من الزواج أن يجد بجانبه إنسانة تشاركه الحياة رخاءها وشدتها لذتها وألمها تحنو عليه حنواً تضطرها اليه وحدة المصلحة واشتراك الوجهة . وترى أنه اتحد بها جسداً وروحاً فصارا إنساناً واحداً كل منهما يكمل نقص صاحبه . هذه هي الحاجة الساذجة الداعية لكل إنسان الى الزواج . وهناك شروط طبيعية أخرى ولكنها ثانوية يتطلبها أحد الزوجين من الآخر وهي جمال الوجه ، وتناسب السن ، وكفاءة العقل .

فطالب الزواج إن تحرى من الشروط غير ما تشعر اليه الحاجة الطبيعية فانما

يتحرى أسباب شقائه وعوامل آلامه ؛ لان كل شيء خرج عن حده الطبيعي أدى غير الثمرة المطلوبة منه .

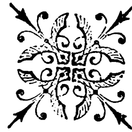
لا بأس أن تكون الشروط الطبيعية موجودة مع شروط كمالية أخرى ، كأن تكون الزوجة شابة جميلة ومؤدبة وهي مع ذلك أصيلة ومتعلمة تعلماً دينياً راقياً . أما الثروة فاني ممن يعتقدون أن سعادة الزواج لا تتم بمعناها الطبيعي إلا إذا كانت المرأة بغير إيراد ، ذلك لان الله خلق الرجال قوّامين على النساء ، عليهم أن يؤتوهن حاجاتهن من المأكل والملبس ، وقد فرضت الطبيعة ذاتها على الرجال ذلك وطبع الرجل على أن يكون رئيس بيته وقائد أولاده وسبب كل خير في أسرته فيسرّه سروراً لا يقدر أن يدخل بيته فلا يجد فيه ذرة إلا هي من ثمرة كدحه ونتيجة جده ؛ ولا يصادف فيه نسمة إلا وهي عالة عليه في مأكلها ومشربها وملبسها هنالك تتجسم له اللذة على قدر تجسم العهدة الملقاة على عاتقه ، ويشعر بارتياح لا يشعر به إلا كل عالي الهمة شريف النفس ؛ وهي لذة طبيعية ساذجة تغذي الروح وترفعها الى كمالها .

خلّ هذا جانباً وتخيل رجلا آخر تزوج من امرأة غنية ، فهو يدخل بيته فيرى أشياء ليست من ثمرة كده ، ويلقي بنظره على امرأته وبنته فيجد أنهم في غنى عنه ؛ فوجوده وعدمه سيان عندهم من الوجهة المعيشية . هذا الشعور يفقده من لذة الزوجية والأبوة ما لا يمكن أن يعوضه له شيء آخر في حياته البيتية . ثم يكون مثل هذا الزوج من وجهة أخرى فاقداً لكرامة الرجولة في نظر زوجته فلا تنظر اليه باعتبار أنه عائلها والحامي لها ، بل باعتبار أنه واحد ممن تعولهم هي بمالها . هذا إذا كانت زكية النفس عالية الاخلاق ؛ ولكنها إن كانت منحطة الهمة ساقطة الآداب منّت عليه بمالها وتحمدت عليه بثروتها وأظهرت له فى كل مناسبة أنها غنية عنه بذاتها ، وان لديها من المال ما يكفيها فيكون مقامه معها محفوفاً

بالأكدار مشوباً بالمنغصات .

هذا هو الواقع ، ولكن بعض الناس أصبحوا بما خالط نفوسهم من ذلة المطامع لا يبالون بكل هذه الشوائب ، فهم يرجون الزوجة الغنية ليبتزوا مالها ويسلبوها تراثها ، أما ليغنوا أنفسهم بافقارها أو ليرتعوا فى شهواتهم بمالها . أولئك المنحطون أخلاقاً الساقطون آداباً ، الذين لا يعرفون من لذة الحياة إلا ملء بطونهم وتوفية شهواتهم ، وإن كان مع الذل والمهانة .

فعلى الذين لم تفسد المطامع نفوسهم أن يتحروا من الزوجات الكاملة خُلقاً وخلقاً ، الأصيلة أباً وأماً . ولا نريد بالاصالة الثروة والجاه ، وإنما السمعة الطيبة والذكر الحسن وأن يتحروا مع ذلك أن لا تكون المرأة ذات إيراد للمحظورات التي ذكرناها والايضاع من سعادتهم البيتية بقدر ما لدى نسائهم من الدخل . والله الهادي الى سواء السبيل .



حجاب النساء

عادة احتجاب النساء قديمة جداً فقد جاء في دائرة معارف « لاروس » ما خلاصته : « كان من عادة نساء اليونانيين القدماء أن يحجبن وجوههن بطرف مآزرهن أو بحجاب خاص كان يصنع في جزائر « كوس وأمرجوس » وغيرها وكان شفافاً جميل الصنعة » . وكانت الفينيقيات يحجبن بحجاب أحمر .

وقد تكلم عن الحجاب أقدم مؤلفي اليونان حتى يروى أن (بنيلوب) امرأة الملك (عوليس) ملك جزيرة (ايتاك) كانت تظهر محتجبة . وكان نساء مدينة (ثيب) يحتجبن بحجاب خاص ، وهو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه وله ثقبان أمام العينين لتنظر منهما المرأة

وفي (أسبرطا) كان الفتيات يظهرن أمام الناس سافرات ، ولكنهن متى تزوجن احتجبن عن الأعين . وقد كان حصل النساء على شيء من الرخصة فقد دلت النقوش على أن النساء كن يغطين رؤوسهن ويكشفن وجوههن فقط ، ولكنهن متى خرجن الى الأسواق أوجب عليهن الاحتجاب سواء كن عذارى أو متزوجات

كان الحجاب موجوداً عند نساء « السيبلتريين » والشعوب النازلة في آسيا الصغرى والميديين والفرس والعرب . . . الخ .

وقالت دائرة معارف لاروس أيضاً : « وكان نساء الرومان مغاليات في الحجاب لدرجة أن القابلة « الداية » كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة ملثمة

باعتناء زائد وعليها رداء طويل يلامس الكعبين وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها » . انتهى

الحجاب في الاسلام

عدّت دائرة « معارف لاروس » العرب من الأمم التي كانت عادة الحجاب متأصلة فيها من القدم ، وهو الذي يتبادر الى الذهن في أمة كان من رجالها من يتلثمون ، ولكن يظهر أن ساقطات النساء كن يسفرن للرجال ويتبرجن ، فيحدث من ذلك اختلاط معيب بين الجنسين ، فنزلت آيات من القرآن تحث على عدم التبرج الخطاب موجه فيها لنساء النبي والمراد نساء المؤمنين كافة . قال تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية » «١» ، ثم قال تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما » «٢» .

انبرى رجال وبعض الكتاب الى طلب احتذاء المرأة المسلمة شاكلة المرأة الغربية في رفع حجابها وإن كان شفافاً ، وهم يريدون أن يتذرعوا بذلك الى احتثاث الاختلاط بين الجنسين ، وجهلوا أو تجاهلوا ما نجم وينجم عن ذلك من الفساد الاجتماعي . فكان حقاً علينا أن نكتب كلمة في الحجاب فنقول :

في كل أمة مسألة خطيرة تكتب بحروف عريضة في المجلات والجرائد اليومية هي مسألة المرأة . ففي أوربا ذات المدنية العتيقة وفي امريكا صاحبة الحضارة الحديثة والحرية المطلقة تتجلى هذه المسألة على أشكال وحالات شتى ، يغم على الباحث الاجتماعي وجه الحل فيها فيكاد يعتقد أنها عضلة العقد والمعمى الذي لا يفك ما دام الوجود الانساني قائماً ، ونحن الذين أخذنا نندفع وراء المدنية بغير حساب

«١» سورة الاحزاب الاية ٣٣ .

«٢» سورة الاحزاب الاية ٥٩ .

بحكم التقليد الذي هو بعض ما تمنى به الأمم الضعيفة المغلوب على أمرها حيال الأمم القوية قد أصبح لدينا شيء يقال له مسألة المرأة أيضاً. ولكن شتان بين الدوافع التي تدفعنا للتذمر والدوافع التي تدفع الغربيين لذلك. إنهم هناك يشكون آثار الأضاليل الاجتماعية التي سماها كتابهم قبل قرن من الزمان باسم (تحرير المرأة) فتأذوا بها الى النقيض مما يطلبون لها.

كانت المرأة في أوربا مستعبدة ليس لها شخصية ممتازة، فكانت لا ترث ولا تملك وقد تغالى آسروها حتى حرّموا عليها الضحك وأكل اللحم ووضعوا على فمها الأقفال الحديدية، وحكم عليها بانها مجردة عن الروح الانسانية التي للرجل، فقام أفراد يطلبون لها الحرية. وحسناً طلبوا لو كانوا وقفوا بمطالبهم عند حدود الحكمة ولكن دفعتهم الأهواء الى متاهات التعسف فطلبوا للمرأة باسمها كل شيء حتى ما ينافي وظيفتها ويفسد خصائصها. طلبوا أن تستخدم في المعامل وأن تكون طبيبة ومحامية ومهندسة... الخ

كان لهم ما طلبوا، فان الدعوة الى الأهواء تجد آذاناً مصغية وقلوباً واعية فيعمل بها العاملون ثم لا يفيقون إلا يوم يصيح بهم صائح الفطرة فترتكس الحال بهم الى الضد، « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ».

أصبح لاوربا وامريكا محاميات وطبيبات ومهندسات وخرجت المرأة من التقاليد البيتية، ولكن لا تنس أن ترى أن بجانب كل مهندسة أو طبيبة أو محامية مائة ألف من بنات جنسها وقعن تحت كلاكل الأشغال الشاقة تكد أجسادهن الأعمال وتلفح وجوهن النار. غصت المعامل بالنساء الضعيفات، وشحنت بهن مخازن التجارات في مقابل أجور لا تبلغهن البلغة من العيش، وهل في ذلك من عجب بعد أن أنزلهن محرروهن الى ميدان الأعمال وقرنوهن بالرجال! فكان الرجل أسبق منهن الى المغانم وأقدر على مزاولة المشاق.

قال الفيلسوف الاشتراكي « برودون » فى كتابه (ايجاد النظام) في تقليل سبق الرجل للمرأة في ميدان الأعمال : « إن نسبة مجموع قوى الرجل الى مجموع قوى المرأة كنسبة ثلاثة الى اثنين ، فيكون التحرير الذي يطلبه بعضهم باسمهن هو تسجيل الشقاء عليهن تسجيلا قانونياً إن لم أقل تسجيل العبودية » . وقال العلامة (اجوست كونت) مؤسس علم الاجتماع البشري في كتابه النظام السياسي : (إنه لو نال النساء هذه المساواة المادية التي يتطلبها لهن من يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن فان صياناتهن الاجتماعية تفسد على قدر ما تفسد حالتهن الأدبية لأنهن في تلك الحالة سيكن خاضعات فى أغلب الصنائع لمزاحمة يومية قوية بحيث لا يمكنهن القيام بها ، كما أنه فى الوقت نفسه تتكدر المنابع الأصلية للمحبة المتبادلة » . انتهى

نقول بخ بخ . أهـذه غاية محرري المرأة ؟ يدعون أنهم يحصلون لها حقوقاً مسلوبة فيوقعونها في هذه المـآزق المهلكة .

أيعدمن النتائج الحسنة للحركة المسماة بتحرير المرأة أن يصبح في أوربا أكثر من ثلاثين مليون امرأة تصهر أجسادهن الرقيقة نيران المصانع ، ويصوح زهرة جمالهن قسوة المزاحمات ؟

ليست هذه الصيحات هي التي تفتن الشرقيين فهم بمعزل عنها ، بل هي تلك الأسراب النسوية من بنات الغرب يرونهن غاديات رائحات على حال يوهم الناظر السطحي أنهن بلغن غاية المدنية ، وأن رجالهن قد حصلوا بهن على أقصى نهايات الراحة البيتية . لذلك الناظر أن يظن ذلك فليس هو بأول سار غره قمر ، وليكتمه في نفسه أو ليسأل عن تفسيره خبيراً ، أما جعله نتائج هذه المشاهدات السطحية مبادىء ، ثم النهوض لنشرها بين الناس فلا نسلم له فيه .

إن هـذا المظهر الفاتن الذي يؤثر على مشاعر بعض شباننا في أمر النساء ويضرم في نفوسهم نار الغيرة لابلاغ نسائنا هذه الدرجة الراقية في أعينهم يكفينا

لأجل أن نريهم مبلغ خطأهم فيه أن نبرهن لهم أنه مثار البلاء على أهله ومنبعث الانحلال على مدنيتهم .

جاء في دائرة معارف « لاروس » بعد ذكرها أن خراب مدينة (روما) إنما جاء من انطلاق النساء مع الأهواء قالت : (وفي هيئآتها الاجتماعية الحاضرة التي فيها تتمتع النساء بحرية مفرطة نرى أن دناءة ذوقهن وميلهن الشديد الذي يحملهن دائماً على الاشتغال بجمالهن ولكل ما يزيد حسنهن كل ذلك أكثر خطراً وهولاً مما كانت عليها الحالة في روما .

نعم لسنا أول من لاحظ هذا الأثر السيء الذي يحدثه حب النساء للزينة فيوماً على أخلاقها . فان أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الكبير ، وكثير من أقاصيصنا التي قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على الأسر الشره الجنوني بالتزين والتبرج ، فكيف النجاة من هذا الداء الذي يقرض مدنيتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جداً ؟ وإن شئت فقل بانحطاط لا دواء له . انتهى . هذه أقوال أصحاب الدار ولكن أنى لها أن تصل الى الواقفين مع الظواهر ، وخصوصاً هذه الظواهر الفتانة .

يخيل لمن يكتب في المواضيع الاجتماعية عن شعوره الذاتي بغير علم أن جميع المسائل تابعة للقانون المنطقي والاستحسان الشخصي ، فمتى رأى رأياً وقدره بنظره لم يجد أمامه بعد ذلك أدنى صعوبة في جعله مبدأ له يصح أن يدلي به الى الناس كأصل من أصول الحياة . فما المانع بعد ذلك في رأي الكاتب من أن يأخذ به الناس ويعملوا به مندفعين ؟

هكذا يخيل لمن يكتب في المسائل الاجتماعية عن شعوره الخاص بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو حقق النظر واخترق غلف المظاهر المحيطة به وعرض أمام عينيه حالات الاجتماع بعواملها المتراكبة وبواعثها المتشعبة للهيئة الاجتماعية وهي

فى حالة تدافع وتفاعل لهاله ما يرى ، ولو وقف حيث هو ، يتطلب من الله بصراً نافذاً يهديه الى العلل الأولية للأشياء والى العوامل المهيئة لها .

قلنا إن للمرأة مسألة حية فى كل أمة ، فهي في أوربا وامريكا كما أثبتنا هنا عبارة عن شكوى الرجال من افراطهن في التبرج وتطلعهن للشغل بالأمور العامة ، وتخوفهم من انحلال هيئاتهم الاجتماعية بما يستتبع ذلك من الاعراض . ولم أعرج فيما كتبت على ما يجأرون منه من فساد الأخلاق وشيوع المخزيات ، فان لهذه المسألة في بلادنا موضوع آخر : وهو شكوى الرجال من انحطاط النساء في المعارف ووقوعهن بذلك في آصار الأسر والاستعباد ، وما يستتبع ذلك من قلة اقبال الشبان على الزواج لندرة الاكفاء منهم ، ويلقي بعض الكاتبين تبعة ذلك كله على الحجاب

فالحجاب في اعتقادهم صاد للمرأة عن العلم ، مسقط لها تحت كلاكل الرق ، مفسد لأخلاقها الكريمة ، مانع من رؤية الخاطب لخطيبته أو معاشرته لها قبل الزواج . فهو مجتمع الأرزاء ومثار كل بلاء ، ولو زال الحجاب في يقينهم أصبحت عالمة بما لها وما عليها ، محصلة على تمام حريتها أزاء الرجل ، أديبة مهذبة منزهة عن الأهواء . وفوق ذلك تصبح عرضة للخطاب فيتهافت على طلبها الشبان ويستطيعون أن يعاشروها قبل الزواج فيقترن بها من يهواها عن بينة واختبار ، فيعيش معها عيش السعداء كما يعيش الاوربي مع امرأته ، خالي البال من المنغصات فارغ الصدر من الكدورات فيعدم الطلاق أو يقل كما هو في أوربا .

ثم يكون من أثر هذا الانتقال البديع اقبال الشبان على الزواج ورواج سوق المصاهرات ، فلا يعود الشرق يشكو من انتشار العزوبة ، كما لا يشكو منه الغرب الآن . هكذا يقولون .

أكل هذه المسائل الخطيرة سببها هذا الحجاب الشفاف الذي يشبه اللثام الذي تضعه الآن الاوربيات المغاليات بحب الظهور بأقصى حد من الجمال ؟

ما الذي يمنع أن يكون الحجاب فى نظر باحثنا الشرقي علة كل هذه

الأرزاء ؟ لا شك عندنا أن هذا النظر القصير من بعض الكتاب . وهذه الخفة المتناهية في تقدير المسائل الاجتماعية سيكون لها نتائج وخيمة جداً على مجموعنا الاسلامي إن لم يسرع أهل الذكر بالوقوف أمام تيارها ، وان هذه المسائل الخطيرة ما دامت متروكة لأقلام السطحيين من الكتاب فلا ينتظرون منها إلا أسوأ العواقب على العفاف والاعراض ، وإني أعرف أن الذين يطرقون هذا الباب هم من الشبان الذين ليس لهم زوجات ، وان ليس المقصود بهذه الحركة الشؤوم خلع النساء للحجاب فقط بل المقصود منها أمر وراء ذلك وهو تسهيل سبيل مخالطة النساء للرجال ، ولا ندري ما الذي رآه غيرنا من وراء هذه المخالطة حتى نخف لتقليدهم فيها بدون نقد ولا تدبر ولا استبصار ؟

يقولون إن الحجاب يصد المرأة عن العلم ، وهو ادعاء يكذبه العيان فان المرأة لا تنتقب إلا في الطرقات وليست الطرقات بمجامع العلماء ولكنها مضطرب الفساق ومزدحم الغوغاء .

يقولون : إن الحجاب يفسد الأخلاق وهو ادعاء ادخل في الخطأ مما سبقه ، فهذا الحجاب إن لم يمنع الفساد بتاتاً فهو من أكبر موانعه لمن ينظر بعقل وانصاف وهل يجهل المعادون للحجاب ان أكثر الفساد لا يتأتى إلا من اختلاط الرجال بالنساء ؟ إن جهلوا ذلك أو تجاهلوه تركناهم وشأنهم فليس علينا إلا البيان وما علينا أن يرضي المتعنتون من خفاف الأقلام .

يقولون الحجاب يسبب كثرة الطلاق لعدم تمكن الخاطب من رؤية خطيبته بسببه ، وهو قول من لم يبحث عن حقيقة الأسباب ، ولو كلف هؤلاء الباحثون أنفسهم بالتنقيب عن العوامل الأولية للطلاق لوجدوا أن تسعمائة وتسعة وتسعين حالة من أحوال الطلاق في كل ألف سببها الشقاق البيتي الذي يسببه في أكثر الأحوال الرجال بسوء سيرتهم نحو نسائهم ، ولتطلعهم الى سواهن ممن قابلوهن في الأسواق ولا نظن أن فى كل ألف حالة واحدة يطلق الرجل امرأته لعدم الاستحسان .

يقولون الحجاب هو سبب كل هذا الطلاق ، لأن الرجل لعدم إمكانه معاشرة المرأة قبل زواجها يجهل أخلاقها تمام الجهل فاذا اقترن بها وجدها على ما لا يرام فيطلقها . وهذا قول بعيد عن الصواب ، لأن الانسان لا تظهر أخلاقه كما هي في الخلوات والجلوس في المقاهي وخصوصاً إذا كان وراء ذلك الزواج فيسهل على كل من الزوج والزوجة أن يتصنعا الكمال ويتكلفا محاسن الخصال ليتم المراد . ولو كان هذا النظر من خصوم الحجاب صادقاً لبطل الطلاق عند الاوربيين والامريكيين وهو لديهم آخذ في الازدياد .

قال الكاتب الامريكي « لوسون » في كاليفورنيا من الممالك المتحدة (حصل في ألفي زواج سنة ١٨٩٧ (٦٤١) طلاقاً أي في كل ثلاثة عقود طلقة واحدة)

قال الكاتب عقب هذا الاحصاء بالحرف الواحد : « فالطلاق ينتشر اذن للدرجة القصوى ، والمدهش أن ثمانين بالمائة من طلبات الطلاق آتية من النساء مما يثبت أن ليس للرجل إلا دور ضعيف في حل عروة الزواج ، ذلك لأن الطلاق يخجله جداً ، ولذلك نراه إذا تعب من امرأته يبحث عن سواها ولا يسعى في انفصاله من الأولى إلا إذا طالبته الثانية بالزواج » .

نقول ماذا يقول أضداد الحجاب في هذه الاحصاءآت ، فهل كثرة الطلاق في امريكا هي من رزايا الحجاب ؟ والمرأة الامريكية أكثر نساء العالم حرية وانطلاقا من القيود .

أللهم إن هؤلاء الكتاب يكتبون بلا علم ويتفلسفون بلا اطلاع ، وإن بعض الجرائد تنشر مقالاتهم بلا نقد ولا تمحيص . فاهد أللهم القارئين لأن يدركوا هذا الضعف فيهم فلا يرفعوا بما يكتبون رأساً ، وإلا أضلوا عبادك إنك بالناس رحيم .

يقول هؤلاء الكتاب إن العزوبة تنتشر في العراق ولا سبب لها إلا اضراب الشبان عن الزواج مخافة الاقدام على ما يجهلون ، والحقيقة أن الشبان في العراق

يتأخرون عن الزواج ليتسع لهم الوقت لاصطياد فريسة واكتساب مغنم ، فليس لأكثرهم همٌّ إلا التزوج بالمثريات ، فترى أحدهم لا يزال يتحرى مواقع الثروة غير مفكر في كمال ولا جمال حتى يعثر بمطلوبه فيعمل كل ما فى وسعه للتزوج بها ، وهي تأبى أن ترضاه لطمعها فيمن هو أغنى منها فحدث ما تراه من قلة الاقبال على الزواج وهناك سبب آخر ساعد كثيراً على انتشار مبدأ العزوبة وهو شيوع الفحشاء في البلاد وسهولة اتيانها سراً وعلانية ، وهذا المبدأ بكل علله ومعلولاته احدى هدايا المدنية الاوربية التي نسجته بها مع علومها وآدابها ، ليس سببه هذا الحجاب الشفاف كما يذهب اليه المفتونون ببدع الحياة الغربية المادية .

كتب العمراني الخطير (جيوم فربرو) فى مجلد سنة ١٨٩٥ من (مجلة المجلات) الفرنسية ما يأتي : (إن العلامات المنذرة بقرب حلول الازمة النهائية لهذا الشكل من المدنية الذي نعيش فيه كثيرة جداً (تأمل) بحيث لا يمر يوم حتى يقف الباحث على انذارات جديدة فيه ، فلنعط نحن أيضاً أنفسنا وظيفة الطبيب ولنقدر ما شخصه الأطباء من هذا المرض الاجتماعي في زماننا هذا بدرس هذا الشكل الجديد من الرهبنة التي هي مع عدم استنادها على دين تهددنا بأنها ستصل الى الحد الذي وصلت اليه الرهبنة الدينية في زمن من أزمنة القرون الوسطى) .

وكتب الكاتب الامريكي المشهور (لوسون) في المجلد الخامس والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية احصاءً عن الطلاق بامريكا بلد الحرية النسوية المطلقة بناء على طلب المجلة نقتطف منه ما يأتي قال : (سجلت المحاكم في ولاية (ماساشوزيت) من ولايات الممالك المتحدة ١٠٢٢ ورقة طلاق سنة ١٨٨٤ بعد أن كانت فى السنة التي قبلها ٧٧٠ فقط أي أن الطلاق آخذ في الازدياد بسرعة) .

أما في مملكة « اوهيو » من تلك الممالك المتحدة فقد سجلت المحاكم سنة

« ١٨٦٥ » ٢٢١٩٨ زواجاً حدث فيها ٨٣٧ طلاقاً أعني أنه وقع في كل ٢٦٠٥ زواجاً طلاق واحد .

وأما في سنة ١٨٩٤ أي بعد مضي ٣٥ سنة فقد سجلت المحاكم ٣٣٨٥٨ زواجاً وبلغ الطلاق ١٧٥٣ أي أن في كل ١٢٠٥ زواجاً وقع طلاق واحد . وقد شوهد أن عدد الطلاق فيها في مدة عشر سنين بلغ زيادة عن معدله بمقدار ١١٠٠٠ ونقص الزواج عن معدله ٨٤٠٨٩ .

يعلم النساء والرجال بالتجربة وفى كل بلد ان تلك العقبات التي تحول دون الزواج تزداد يوماً بعد يوم ، وان هناك أسباباً لا عدد لها ـ اقتصادية على الخصوص ـ تقف فى طريقه حتى أن كثيراً من الناس لما يئسوا من إمكان تذليلها صبروا على العزوبة بكل وسعهم . ثم قال :

وقد ابتدأ علماء العمران يشعرون بوخامة عاقبة هذا الأمر المنافي للسنن الطبيعية فان عامة النسوة بمزاحمتهم للرجال صار بعضهن عالة على الهيئة الاجتماعية ، لا يجدن ما يشتغلن به . ولو دام الحال على هذا المنوال لنشأ عنه خلل اجتماعي عظيم

وقالت مجلة المجلات الفرنسية في المجلد الثامن عشر : في فصل عن المرأة ما يأتي :

إن الزواج الذي كان آباؤنا يعتبرونه ضرورياً يظهر أنه قد صدم صدمة شديدة في كل جهة ، فان الرقي العقلي الذي نالته المرأة وامتداد حقوقها يوماً بعد يوم وغرامها الشديد بمساواتها الرجل فى حقوقه وافراطاته كل ذلك يهدد مدركاتنا التي ورثناها على الزواج . ثم قالت المجلة المذكورة : « إن رفض الناس للزواج وميلهم الى الطلاق هما الأمران اللذان ينتشران يوماً فيوماً فى امريكا وفي كل الممالك الاوربية . ثم إن كل هذه الاعتصابات النسوية تشعر بمرض يجب أن يتنبه اليه المتشرعون » انتهى .

نسبوا للحجاب إضراب الفتيان عن الزواج فى العراق وهذا الاضراب فى الحقيقة عرض من اعراض هذه المدنية الاوربية ، فعزوا المعلولات لغير عللها الحقة واستهتروا في ذلك استهتاراً فقدوا معه أدب الكاتب وأدب الاجتماع معاً ، فأضروا بمبدئهم من حيث يريدون إذاعته .

إن هؤلاء غلوا في أوهامهم غلواً بعيداً فعزوا لتكشف النساء كل آثار التربية والتعلم والآداب الصحيحة ، وغاب عنهم أن فلاحات العراق و بدويات القفار وزنجيات افريقيا متكشفات وهن مع ذلك محرومات من كل ثمرات الحياة الصالحة ، وراسفات في أثقل قيود الأسر والعبودية لرجالهن ، فلماذا لم يؤثر تكشفهن على حالتهن الاجتماعية فتخفف من وطأة النوازل عليهن ؟ .

إن الاختلاط بين الجنسين إذا كان له أثر على حالة النساء فلا يكون إلا في تدنيس طهرهن وافساد فطرهن ، وتسهيل سبل الفسق والفجور على الرجل وعليهن

مساكين أولئك الكتاب السطحيون ينظرون للسراب فيحسبونه ماء فيملؤون الدنيا صياحاً بالدعوة الى ورده ولو أنبأهم الناس لما حصلوا على شيء .

يقولون بمخالطة النساء للرجال يتمكن الخاطب من رؤية خطيبته ومعاشرتها فيعجم عودها ويخبر خيمها ، فما أعجب هذه الآراء وما أبعدها عن التعقل ! .

إن نتيجة هذه المعاشرة في أوربا قد سببت من المفاسد الاجتماعية ما لو أردنا احصاء بعضه للزمنا كتاب خاص .

منها خدع الفساق من الرجال للنساء فترى أحدهم يتصدى لشابة فيوهمها أنه يريد التزوج بها ، ويظهر لها من الانعطاف والميل ما يخلب لبها ، فاذا آنس أنه تمكن من قلبها عاشرها معاشرة الأزواج فتلد منه ولداً وأثنين وثلاثة ثم يهجرها بأولادها هجراً غير جميل ، فلاتجدهذه المسكينة ذات الأولاد حينئذ وسيلة للخلاص اسهل من الانتحار . فان كنت في شك فانظر الى ما تقوله الاحصاءآت .

جاء في المجلد الحادي عشر من مجلة المجلات الفرنسية : أنه حصل في ايطاليا من سنة (١٨٨٩) الى سنة « ١٨٩٣ » أي في مدة خمس سنين « ٥٦٩ » انتحاراً من جهة النساء ، وحصل في فرنسا في تلك المدة عينها « ٥٨٦٩ » حادثة من ذلك أي أنه ينتحر في فرنسا كل سنة نحو ألفي امرأة وهو عدد ليس بالقليل لمن يتأمل .

لو كانت هـذه المعاشرة قبل الزواج تضمن دوام الارتباط الزوجي أو تقلل الطلاق لـكان الطلاق باوربا نادراً ، وقد رأيت أنه أخـذ في الانتشار بسرعة مدهشة . وهناك أمر جدير بالنظر وذلك ان النخوة الرجولية في أوربا أرقى منها في البعض ، فاذا كان يسهل على جمهور من العراقيين أن يروا بأعينهم مداعبة تحدث بين فاسق وفاسقة على قارعة الطريق فلا يغضبون .

فان مثل هـذه المخازي في فرنسا وانكلترا مثلاً مما لا يتصور حدوثها على مرأى المارين والجالسين ولا البوليس الموكل بالآداب . فاذا شاع عندنا الاختلاط بين الرجال والنساء غلبت مبادىء الفساق على تصون الفضلاء وأصبحت بلادنا مسارح يمثل فيها الفجور عياناً .

إن بعض العواصم الاسلامية تساهلوا في أمر الحجاب فنشأ فيهم من أنواع الخنا ما لا يغيب عن ذهن القراء ، فما من بيت إلا ويجاوره أو يحاذيه بيت عامر بالخلاعة مقفر من الـكرامة .

هذا اللين المتناهي عيب من العيوب ولا سبب لشفائنا منه إلا بعد أجيال ، فاذا اختلط النساء بالرجال ونحن متلبسون بهذه النقيصة زاد الطين بلة وقضينا بأيدينا على البقية الباقية من الآداب .

أنا لست ممن يذهب الى أن المرأة أميل من الرجل الى الفسوق ، بل أنا ممن يعتقد أنها أقرب للطهر والكمال وأكثر تمسكاً بأذيال العفاف من الرجل ، وأعتقد من جهة أخرى أن الحجاب فيه شيء من الحبس لحريتها ولـكن ما الحيلة إذا كان

هو الضمان الوحيد لعدم الاختلاط الذي وراءه كل ما ذكرناه من الآفات ؟ وكم في الحياة من قيود وأغلال نضعها في أرجلنا مضطرين إذا كانت الحياة تقتضيها أو كان من ورائها الخلاص من بلاء مبين .

المرأة فى الاسلام

وهي الشطر الأكثر والنصف الأوفر من المجموعة البشرية ، ولها حقوق ولها واجبات وعليها مثل ذلك ، وقد عنيت الشريعة الاسلامية بها عناية فائقة ، وأعطتها من الحرية ما لم تعطها ملة من الملل ولا دولة من الدول ، ولها في الكتاب الكريم سورة باسمها خاصة من كبريات السور « سورة النساء » مقدمة على « المائدة » ، بل ربع القرآن أو أكثر في أحكام النساء ، الايصاء بالعطف عليهن ورعاية حقوقهن وتحريم إعضالهن وإيذائهن أو أخذ شيء منهن دون رضاهن اماً تارة وزوجة اخرى واختاً ثالثة ومطلقاً رابعة ، وجعل لهن من الحقوق مثل ما للعنصر الآخر فقال تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن » «١» .

أما صاحب الشريعة فقد جاء بأوسع من هـذا في حقهن فجعلهن ودائع الله وأماناته وقال : (إنها حبيبة نفسه من الدنيا ، وقرنها بالصلاة وهي قرة عينه ، وكان يجد المرأة أعظم الحق ، كيف لا وأول من نصره على نشر شريعته وقبول دعوته وبذل النفيس بل والنفس في سبيل نصرته هي المرأة الصالحة الجليلة والعاقلة النبيلة

«١» سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

ذات الثروة الطائلة التي تتجر بأموالها قريش كمال عندها ، تلك التي كان النبي (ص) يحن اليها كلما ذكرها ، بل ربما كان يبكي تلهفاً عليها ووفاء لها ويقول : نصرتني حين خذلني الناس ، وآوتني حين طردني الناس ، الى كثير من أمثال هذا مما يشهد بأن الشريعة الاسلامية وشارعها الأعظم قد جعل للمرأة أسمى مقام وأعلى منزلة في المجتمع . ولا نريد أن نستوفي هذا الموضوع ـ كما هو ـ حقه . ولو أردنا أن نعطيه حقه لزمنا أن نؤلف كتاباً يستوفي ذلك ، وإنما ذكرنا هذا من باب التمهيد والمقدمة

والذي نريد أن نقوله : إن الله سبحانه حين برء الخليقة ونشر البشر على هذه البسيطة جعل الانسان يحتاج بعضه الى بعض ، ولا يمكن أن يقوم بكل شؤونه بنفسه منفرداً كما تعيش البهائم والوحوش في الغابات والصحاري ، فهو اجتماعي فى الوضع مدني بالطبع كله يقوم بحاجة كله ، ولذلك جعل الأعمال بين البشر موزعة ، والوظائف على الكل مجتمعة ، لكل من الجنسين أعمال تخصه ، لا يجوز بل لا يقدر أن يتعداها ويتجاوزها الى غيرها . فكما جعل من خصائص النساء بالفطرة والغريزة الحمل والولادة والرضاع كذلك خصها بأكبر عمل وأشرف وظيفة وهي التربية . نعم جعل النساء للتربية تربة طيبة تنثر فيها بذور البشرية فتنميها وتربيها حتى يشتد عودها وتمتد غصونها وتثمر الثمر الطيب الجني ، جعل النساء معملاً جباراً ينشيء الأطفال ويربي الرجال وينتج في الفتيان والفتيات والاخوة والأخوات .

وهذا المعمل الكبير الذي أوجده الحكيم القدير هو الذي بصلاحه تصلح المجموعة البشرية وبفساده تفسد الانسانية ، كما أن بفساد الأرض والتربة يفسد نباتها وبصلاحها يصلح ريعها ويطيب زرعها . وأول مدرسة للأولاد والبنات حضن الامهات ، وبمقدار ماعندها من الكمال والنجابة والفضيلة أوفسادالأخلاق والسقوط في الرذيلة يكون لذراريها ويسري الى بناتها وبنيها ، وعلى ما تعطيه من روح الطموح وعلوالهمة وشرف النفس ينشأ الولد ، وبذلك التوجيه الأول يعظم أويصغر

ويخبث أو يطهر . وما أجود ما قيل : « إن التي تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها »

كانت في العرب مربيات صالحات نجيبات يغرسن في نفوس الأطفال بذور الأخلاق الفاضلة قبل أن يسقط في حمأة الرذائل القاتلة (والتعليم في الصغر كالنقش في الحجر) .

كانت الأم تنهى ولدها وهو ابن خمس سنين عن الكذب والسرقة وأمثالها وتضرب له الأمثال الصالحة والحكايات المنفرة له عن ذلك ، وتروي له أمثال قصة الولد الذي سرق وهو صغير بيضة من داره أو من بيت جاره فعلمت بذلك أمه فلم تردعه ، بل ربما حبذت له فتمادى في هذه الخصلة السيئة حتى سرق خزانة الملك وتكرر ذلك منه حتى حكم عليه بالشنق ، فلما أوقفوه لدى المشنقة سألوه ماذا تريد ؟ قال : احضروا لي أمي ، فلما أحضرت قال لها : أخرجي لسانك ، فعضه حتى كاد يقطعه ، وقال هذا هو الذي أصارني الى هذا المصير ، ولو انك أنكرت علي يوم سرقت البيضة ولم تحبذي لي لم أقع بهذه الجريمة .

وتروي لطفلها ـ التحذير من الكذب ـ قصة العبد الكذاب الذي ألقح الفتنة بين قبيلتي الزوج والزوجة حتى تقاتلا وأريقت الدماء بينهم . مضافاً الى ما يجتهدن فيه من تلقيح أذهان الصبيان بالعقائد الحقة من التوحيد والنبوة وتعليم احكام دعائم الاسلام ، كالصلاة والصيام والنظافة والنظام . وهذه هي الوظائف والأعمال التي خص الله بها النساء . فقد جعل لها البيت وإدارة البيت وتدبير المنزل والبيت كله هو الدنيا كلها ، وهل الدنيا إلا البيت والاسرة التي تتكون من البيت وتنشأ في البيت وبتربية ربة البيت ؟ .

البيت للمرأة وعلى المرأة ، وخارج البيت للرجل وعلى الرجل . أساس الدنيا كلها المرأة وسياسة الدنيا كلها للمرأة ومن المرأة ، قل لي بربك أي وظيفة أكبر من هذه الوظيفة وأي مهنة أسمى من هذه المهنة الشريفة ؟ .

تريد المرأة أن تأخذ أو تعطى حقوقها السياسية ، فهل تريد أن تكون مديرة ناحية أو حاكمة إدارية وما الى ذلك ؟ والباري جل شأنه يريد أن تنشيء مدراء صالحين وحكاماً إداريين صحيحين .

تريد المرأة أن تكون عيناً من الأعيان أو نائبة من النواب ، ونحن نريدها ترتق ما تفتقه المجالس النيابية ، وتفتح ما تغلقه النوادي العينية .

تريد هي أن تدخل في معامع السياسة وزوابع الرياسة ، وهل السياسة اليوم إلا الخداع والمكر والكذب والغدر وخيانة الامة والمساومة على الوطن وخدمة المستعمرين والتمرغ على اعتاب الظالمين ؟ وفيها يقول داعية الحق ابن عبده (ره) : « لعن الله الساسة والسياسة وكل ما يشتق منها » .

أفسدت السياسة عقول الرجال وهو العنصر الصلب الحصيف فكيف لا تفسد النساء وهي العنصر اللطيف الذي يعبر عنه بالقوارير لرقته ولطافته ، وسرعان ما ينصدع ويتأثر ولأول صدمة ينثر وينكسر .

أيتها الحرائر النجيبات المهذبات البقيا على أنفسكن لا تدخلن فيما دخل فيه الرجال من التكالب على الكراسي والوظائف والتهالك على هذا الشرف الزايف ، وقد شاء الله لكن المقام الأسمى من الخدمة في تدبير المنزل وتربية الأولاد . وإذا أردتن التوسع في الخدمة للمجتمع وتكوين الاسرة فأمامكن مجال واسع للعمل ، ولعل من أعظم الاعمال الصالحة والخدمة للانسانية عموماً ولأخواتكن ـ من الجنس اللطيف خصوصاً ـ أن تنهضن نهضة جبارة لتطهير النساء من سورة العهر والبغاء ، انتشلن تلك الفتيات التي أسقطتها الصروف والضروف في مهاوي تلك المهالك وسلكت بها أرذل المسالك ، فقد فسدن وأفسدن جمهرة من الشباب وقذفتهم في أوبئة الامراض الفتاكة . أليس تشكيل الجمعيات وعقد المؤتمرات لمكافحة هذه الموبقات أنفع وأرفع من المطالبة بالحقوق السياسية والدخول في المناصب الادارية والقضائية ؟ .

فسد الرجال وانغمسوا الى اذقانهم بكل رذيلة ، وما كفاهم ذلك حتى سحبوا النساء وأشركوهن معهم ، فصرن يشربن المسكرات ويرقصن في الحفلات ويلعبن القمار ويركبن العهار وكما يستعمل الرجال بعضهم بعضاً استعملت النساء ذلك فيما بينهن فاذا كانت هناك نساء صالحات طاهرات تريد الخدمة والنفع العام فليطهرن الجهاز النسوي من هذه الجرائم المهلكة التي انتشر شرها وعم ضرها . من الواجب على كل أحد من أبناء هذا الوطن المحبوب أن يتيقظ من سباته ويتنبه من غفلته فيسير برعيته نحو النهج القويم ويدعوهم الى التمسك بالفضيلة ، فانهم مسؤولون عن ذلك ، يقول صلى الله عليه وآله : « كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته » .

« فلولا كان من القرون من قبلكم اُولوا بقية ينهون عن الفساد » «١» .

أما البقية من هذا القرن فهم يأمرون بالفساد يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، والحكومة بجميع طبقاتها من رأسها الى ذيلها تمدهم وتساعدهم ، كيف لا وكل هذه الفظائع والفجائع والجرائم والمآثم التي ترتكبها الامم الاسلامية هي قرة عين المستعمر وأعظم شرك له في استعبادهم وامتلاك بلادهم . هذه الخمور والملاهي التي شاعت في بلادنا أكثر مما هي في بلاده يسلب بها عقولنا وأموالنا ويفسد بها أجسامنا وأحلامنا .

أيتها النسوة المثقفات الرقيقات الشفيقات أما تأخذكن الشفقة والرقة على هذه الامة التي تصنع بأنفسها مالا يصنع العدو بعدوه ، ألا تتفجعين وترثين لما أصاب هذه الامة من البلاء الذي تجنيه على نفسها ؟ ! .

وهل هذه الامة إلا أبوك أو أختك أو ولدك أو أم لك ، يا هل ترى لو أن احداكن رأت أختها والنار قد علقت بأذيالها أفلا تفزع وتجتهد لاطفاء تلك النار مخافة أن تحترق . وها هي الشعوب العربية قد أصبحت فى آتون من الرذائل ومن

«١» سورة هود الآية ١١٦ .

المستعمرين تحترق فيه ولا تحس ولا تشعر (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون)«١»

كانت الآباء والامهات يجتهدون في تربية أولادهم من الصغر على الآداب والأخلاق الفاضلة والعفة والنزاهة . أما اليوم فعلى العكس المطرد ، وإذا نشأ الفتى أو الفتاة ورأى أباه وامه يدمنون على معاقرة « الويسكي » و « البيرة » وأخواتها ويسكرون ويقامرون ويتراقصون رقص القرود فماذا يكون حال هؤلاء الأطفال ، وكيف يكون مصيرهم ، وهم ودائع الله عندنا وأماناته لدينا ونحن مسؤلون عنهم ومحاسبون عليهم ؟ .

أفليس من المؤسف - بل المتلف - أن تقوم جمعية النساء والامة بمثل هذا الحال الشائن فتطالب بحقوقها السياسية ، ولا تجتهد فى نيل حقوقها الأخلاقية واصلاح أحوالها الأدبية . أما السياسة فأقول ولا برحت أقول : « إنها جمرة نار أحسها ولا ألمسها ، نار أراها ولا أغشاها ، وأريد أن أضرب لكنّ مثلاً أيتها الحرائر النجيبات تأخذن منه درساً للعظة والعبرة » .

كان في صدر الاسلام وبدء إشراق أنواره على العالم امرأة من النساء الجليلات التي تحتل أسمى مركز في الاسلام لما لها من الصلة الوثيقة والرابطة الوشيجة بصاحب الشريعة وقد أحاطها سيدالأنبياء بهالة منالتكريم والجلالة ونشأت فى بيت الوحي والرسالة واسمعها الذكر المبين وصدع صفات قلبها قائلا : (يا نساء النبي لستن كأحد منالنساء وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)«٢» وأنذرها النبي وحذّرها غير مرة أن تزلق في تلك المداحض وتقع في هوة تلك الحفائر قائلا : « أيتكن تنبحها كلاب الحوأب » . ثم التفت اليها قائلا : « لاتكونيها أنت يا فلانة » . ومع كل هذه القوارع والانذارات استهواها بعض الرجال لمآربهم

«١» سورة الحجر الآية ٧٢ .

«٢» سورة الاحزاب الآية ٣٢ - ٣٣ .

وساقوها وسيلة لأغراضهم وأركبوها جملا يسمى « العسكر » ، وساقت الجنود والعسكر فغلطت تلك الغلطة الشنعاء التي أحدثت أول معركة في الاسلام تقابل فيها جيشان من المسلمين ، وقاتل كل منهما الآخر حتى أريقت الدماء ، وراحت ضحية هذه الغلطة زهاء ثمانين ألف من فوارس المسلمين ورجال الفتوح الاسلامية وخيرة أصحاب النبي «ص» منهم طلحة والزبير (وهما ما هما وما أدراك ما هما) .

وهـذه الحادثة المشومة هي التي فتحت باب محاربة المسلم لأخيه ، وسنت حروب أهل القبلة وقتال المسلمين بعضهم مع بعض ولم يكن قبل ذلك ، ثم تسلسلت الحروب الاسلامية من ذلك اليوم حتى تطاحن المسلمون في حروب دامية ومجازر ذهب بها من أبطال المسلمين وشجعانهم في ثلاث سنوات أو أربع أكثر من مائتي ألف فارس عدا ما هلك من الاموال والنساء والأطفال .

ولو ان هذه العدة والعتاد توجه الى خارج الثغور الاسلامية لاستولى المسلمون على كل هذه الكرة برها وبحرها وأرضها وسمائها ، ولـكن تدخّل المرأة في معمعان السياسة هو الذي أوجب هذا الخسران العظيم والضرر الفادح على المسلمين في الاموال والأنفس والثمرات . هذا وهي تلك المرأة الكاملة زوجة أكرم نبي وبنت أكبر خليفة نشأت في بيت النبوة وارتضعت من افاويق الفتوة ، فما ظنك بغيرها من النساء الواهنات لو دخلن في دهاليز السياسة المظلمة الملتوية ولججها العميقة وفلواتها السحيقة فكم يكون لها من الاخطاء والاغلاط والفتوق التي لا يمكن رتقها ؟ .

نعم سارت تلك الامرأة الجليلة ضجيعة رسول الله (ص) وحبيبة خدره ، سارت أو سيّروها من الحجاز الى العراق الى البصرة ومرت في أثناء الطريق على ماء أو موضع نبحتها كلابه ، فسألت عن اسمه فقال لها أهله النازلون فيه اسمه : « الحوأب » ، فذكرت كلام الصادق الأمين لها ورأت بعينها صدق نبوته ، فارتعدت فرائصها وعزمت على الرجوع ، فدبر المسيّرون لها شاهدين شهدا أن هذا ليس

هو ماء الحوأب ، فكانت أول شهادة زور حدثت في الاسلام . وغلب عليها خور الطبيعة وضعف العزيمة اللتان هما جبلة في النساء غالباً ، فصدّقت سمعها وكذّبت بصرها ونسيت المثل المشهور (ليس الخبر كالعيان) ، واستمرت على سيرها حتى وقعت الواقعة ، وكان المسببون لهذه الفتنة واللذان أشعلوا نارها أول أضحيتين أو جزورين نحرا فيها ، وصح المثل (من حفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه) .

ونظم شعراء ذلك العصر ما جريات هذه النكبة المفجعة واستنكروا أن تسعى الام لهلاك أولادها ، ويخطر على بالي أن الجاحظ روى في كتاب الحيوان بيتين بديعين للسيد الحميري وهما :

جاءت مع الاشقين في هودج تقود للبصرة أجنادها
كأنها في فعلها هـــرة من جوعها تأكل أولادها

وليس من غرضنا شرح هذه الحوادث المؤلمة وأسبابها ونتائجها وويلاتها ، وإنما الغرض بيان حال المرأة وتدخلها فى السياسة .

ولا أظن أنه يوجد شاهد صدق على فشل المرأة واخفاقها فى السياسة كهذا الشاهد ، وكم هناك من شواهـد أخرى على ذلك لا مجال لها في هذه الجملة المرتجلة والكلمة المقتضبة ، ونحن نحترم تلك المرأة الجليلة ونجلها ونقول « لأجل عين الف عين تكرم » .

وجل الغرض بل كله ، بيان ما جبلت عليه طباع المرأة من الميل مع العاطفة وانها سريعة الاعتقاد سهلة الانقياد سليمة النفس مرهفة الحس وشيكاً ما تنخدع وسرعان ما تنصدع ، وما كان سبب واقعة الجمل السيئة التي تقطعت فيها على خطام ذلك البعير الأديب عشرات الالوف من الاكف والأيدي سوى من قتل حوله الى أن عقر الجمل وسقط الهودج ومن فيه ، هنالك وضعت الحرب أوزارها وأطفأ الحق نارها . وما كان سبب كل هـذا إلا الانخداع وسرعة التأثر والانطباع ، فأودت

بأرواح صناديد الاسلام وأبطال المسلمين ضحية الاطماع ونتيجة الخداع ، وهذه هي التي أوقدت جمرة الغيظ والألم العميق في احشاء أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فوصم النساء بأنهن ناقصات العقول ناقصات الايمان ناقصات الحظوظ . ولا شك أن هـذا الكلام منه سلام الله عليه ليس على اطلاقه وعمومه ، وإلا فكم من امرأة يفوق عقلها عقل عشرين رجل أو أكثر من القديمات قبل الاسلام أو الحادثة بعده وكم امرأة مؤمنة إيمانها أقوى من إيمان ألف رجل وحظها أوسع من حظوظهم .

أما نقصها في الارث وفي الشهادة فهو تكريم لها وتعزيز لا تحقير وتنقيص ، كما ذكرنا وجه ذلك أو نذكره في مجال آخر ، على أن لبعض النساء من الشجاعة النفسية والقوة البدنية مع ما لها من رقة الطبع ولين العاطفة ما يقصر عنه كثير من الرجال . وكفاك شاهداً حديث صفية بنت عبد المطلب مع حسان بن ثابت وهما في اطام من اطم يثرب وقد رأت يهودياً يريد اقتحام الأطام ، فقالت لحسان انزل اليه فاقتله فخاف وجبن ، فتلثمت ونزلت اليه فقتلته وقالت لحسان انزل اليه فخذ سلاحه واسلبه ثيابه فاني امرأة ولا يليق بالمرأة أن تسلب الرجال . ومثلها قصة أم هاني وقد دخل دارها بعض المشركين وكان أخوها علي «ع» يريد قتله فاستجار بأم هاني وهجم عليه الامام ليقتله ، فقبضت على يده تمنعه من قتل من استجار بها ، يقول سلام الله عليه : لما كبست يدها على عضدي خارت جميع قواي ولم أستطع أن أتحرك وأخلص بنفسي منها .

أما الشجاعة الأدبية في النساء وثورتهن على الظلم ونقمتهن على الظالمين فيكفيك حديث النساء الوافدات على معاوية ، وقد استوسق له الملك واتسق له السلطان واستقامت له الامور فصار يطلب كل واحدة من نساء الانصار ممن حرضت عليه في صفين فيدخلن عليه ويقرعن صفاته ويصرعن جبروته ويذكرن ظلمه وعتوه غير مكترثات ولا خائفات . راجع كتاب (بلاغات النساء) .

وانظر واعجب لتلك الشجاعة والبسالة في حين أن الرجال يتمرغون على اعتابه ويطول وقوفهم على أبوابه رجاء ثوابه أو خوف بطشه وعقابه ، وإذا شئت أن تنظر الى ما هو أعلى من هذا الطراز وأرفع من حقيقة هذا المجاز ، فحول نظرك الى مواقف حرائر الرسالة وبنات النبوة والامامة ، انظر الى خطبة سيدة النساء فاطمة في حشد المهاجرين والانصار وهي مفجوعة مصابة بفقد أعز الخلق عليها وعلى الخالق جل شأنه ، وهي أيضاً شابة لا يزيد عمرها على ثمانية عشر سنة ، تهيب بهم ولا تهاب وقد نيطت بينها و بينهم ملاءة ، تقف بذلك الحفل الرهيب وقفة القارع الخطيب ، وتلقي عليهم تلك الخطبة البليغة المرتجلة التي لو جاء بها الرجل الفارغ في الفصاحة بعد بذل أقصى الجهد والروية في سنة كاملة لكانت آية في البراعة ومفخرة في الصناعة ، ومثلها أو أعظم منها خطبة بنتها الحوراء زينب في مجلس ابن زياد بالكوفة وهي أسيرة في جمع من النساء والأطفال كلهم أسراء ، وثواكل بغير حام ولا كفيل ، أدخلوها عليه وهو ثمل نشوان بخمرتين خمرة الفتح والغلب وخمرة ابنة العنب ، جالس على كرسيه بين حشده وجنده ، وهي متنكرة وعليها ارث ثيابها فدفعه خبث جوهره ولؤم عنصره أن يظهر الشماتة بها ويتحداها ، فقال من هذه المتنكرة ؟ فيقل له هي زينب بنت علي ، فقال لها زينت أرأيت صنع الله فيك وفى أخيك والعتاة المردة من أهل بيتك ؟ قالت : « ما رأيت إلا جميلا ، أولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك و بينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك امك يابن مرجانة » ، فأحمته بهذه الكلمة التي عرفته أنه ابن اللخنا ومن عنصر الزنا ، ولم يحر جواباً وكان بيده سوط فهم أن يضرب بها فمنعه جلساؤه .

ثم خطبت تلك الخطبة الخطيرة وهي مسبية أسيرة في ذلك الحفل الحاشد بالقواد والاجناد ورجالات الكوفة ورؤساء القبائل والاسباع والارباع ، وقالت فيما

قالت : « إنما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا يا بن مرجانة » .

فكر واعجب ما شئت . انظر الى هـذه الشجاعة وقوة القلب وعزة النفس والاتزان . والأسير غالباً يكون مخذولا خائفاً مضطرب الجوانح مرتجاً عليه ، فكيف استطاعت تلك العلوية الطاهرة الشريفة وهي بذلك الوضع الشائك أن تأتي بتلك السبائك الذهبية ، بل يخس ويخسى الذهب عنها وما قيمة الذهب أزاء تلك الدراري التي تشع نوراً ولمعاناً وعظمة وايماناً ويقيناً واتزاناً .

وأعظم من هـذا موقفها في مجلس يزيد « وما أدراك ما يزيد وما مجلس يزيد » ، ما أدراك ما طاغوته وجبروته الشاب العاتي الظلوم الثمل السكران بسكر الشراب والشباب وسكرة الملك والسلطان وسكر الفتح والظفر ، جالس على كرسي الملك الذي أقام دعائمه على جماجم أهل البيت والعترة الطاهرة ، وأدخلت عليه مع الاسارى من بني علي وفاطمة وهم مربقون بالحبال . نعم اُدخلت عليه العقيلة ورأس الحسين (ع) بين يديه ، وبيده مخصرة ينكت بها ثنايا سيد شهداء الآباء وأب الشهداء ، فصدّعت تاج طاغوته وجبروته بتلك الخطبة ارتجالاً التي استهلتها بالآية الشريفة فقالت : صدق الله تعالى حيث يقول : (ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) «١» .

أظننت يا يزيد حيث أخـذت علينا أطراف الأرض وآفاق السماء ، فصرنا نساق بين يديك كما تساق الاماء ، ان بنا على الله هوانا وبك عليه كرامة ، فنظرت في عطفك وشمخت بأنفك جذلان مسروراً ، حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والامور متسقة ، وحيث صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلاً مهلا لا تطش جهلا ، فوالله ما فريت إلا جلدك ولا قطعت إلا لحمك ، وسيعلم من سول لك ومكنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلا وأيكم شرّ مكاناً وأضعف جنداً . يوم ينادي المنادي

«١» سورة الروم الآية ١٠ .

ألا لعنة الله على الظالمين ، الى أن قالت له : (ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك واستعظم توبيخك ، لكن العيون عبرى والقلوب حرى ، فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، وهل جمعك إلا بدد وأيامك إلا عدد ورأيك إلا فند) فلم تزل تصب تلك الصواعق على رأس يزيد حتى تركت كثرته قلة وعزته ذلة وصيرته أحقر من نملة .

ولما طلب الشامي منه أن يهبه احدى بنات الحسين لتكون خادمة عنده ، قالت : « كلا ما جعل الله ذلك له ولا لك » فقال يزيد : هو لي ولوشئت أن أفعل لفعلت ، قالت : « كلا ، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » قال لها : إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك ، قالت : « بدين جدي وأبي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلما يا عدو الله » .

انظر واعجب وفكر ما شئت امرأة أسيرة بين يدي جبار طاغي تقول له في ملأ من وزرائه وقواده وهو على سرير الملك وله السلطة والسلطان والجنود والاعوان (يا عدو الله) غير مبالية بملكه وسلطانه ولا خائفة من بطشه وطغيانه . أي شجاعة وأي بسالة هذه وأي اقدام وتضحية وهل يوجد في الرجال فضلا عن النساء مثل هذه الشهامة والصرامة ؟ ولله قلبها المصدوع ما أقواه ولله ايمانها ما أشده

هذه الخطب الحديدية وكلماتها النارية هي التي سلبت من يزيد تاجه وأسقطت ملكه بأسرع زمان ، بل محقت وأزهقت جميع ما سعى واجتهد له معاوية مدة عشرين سنة في توطيد الملك لولده يزيد وأولاد يزيد ، حتى دس السم للحسن «ع» الذي صالحه على أن تكون ولاية العهد له ومن بعده للحسين «ع» ، ولكن إن بطش ربك لشديد ، أهلك يزيد وقوم يزيد ، وسرعان ما انقرض ملك بني سفيان وصار في قصر المدة كلعقة الكلب أنفه .

والغرض من ذكر هذه الكلمة أن نقول للحرائر النجيبات في عصرنا هذا

إننا نتطلب منهن مثل هذه الشجاعة الأدبية ، نتطلب منهن الثورة على الظلم والظالمين وتتابع الصرخات على المستعمرين ومحاسبة المسؤلين . نريد أن يؤلفن الجمعيات ويتعاقدن ويتحالفن على نصرة المظلوم ومعاونة الضعيف وتشغيل الأيدي العاطلة واسعاف المرضى وذوي العاهات . وأعظم وألزم ما عليهن انتشال المرأة من أوضار الفحشاء وأضرار البغاء والضرب على أيدي السماسرة والعملاء لهذا الداء الوبيل ومعالجة أمثاله من الامراض الاجتماعية التي انتشر شرها في جميع الممالك الاسلامية وخاصة في العراق كالخمور وشهادة الزور .

وهذه الامور هي الجذور الاصلاحية التي يجدر أن تقوم بها الجمعيات النسوية إذا لم ينهض لها الاكفاء من الرجال ، أو يساعدن الرجال في مقاومتها وابادتها وإلا فالعاقبة وخيمة ، حكومة غير حكيمة وشعوب ساقطة كالبهيمة ، حكومة تتذمر من شعب وشعب يتذمر من حكومة فكيف تكون العاقبة ؟ .

ألا وإن من أسمى الاعمال الاساسية والسياسية السعي الحثيث الى الاصلاح ، اصلاح من الرجال والنساء للرجال والنساء ولهذه الناشئة الطرية التي سقطت في مداحض الرذيلة بكل أنواعها .

ألا صرخة في الكون يعصف ريحها فتترك دار الظالمين بوارا
ألا عزمات توقد الارض جمرة تصب على المستعمرين أوارا
ألا نهضة تترى رجالا ونسوة فتملأ أرجاء البسيطة نارا
ألا أمة تحيي فتحيي بلادها فتحفظ أوطاناً وتغسل عارا

حديث الذباب

ووقوعه في الطعام

« آية من آيات النبوة ومعجزة من معجزات الدين الاسلامي » .

رأينا هذا المقال تحت هذا العنوان فى مجلة الاسلام المصرية عدد « ٣٦ » من سنتها الثانية ، فناسبنا نقله فى كتابنا هذا « الجواهر الروحية » لما له دخل فيما نتحرّاه ولأهميته الكبرى و نفعه العام .

س ـ حضرة صاحب الفضيلة استاذي الجليل الشيخ يوسف الدجوي .

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته ، و بعد فقد أمر الأطباء بمحاربة الذباب وابادة جراثيمه لما يشاهد من وقوعه على القاذورات فيحمل منها ثم ينتقل بعد ويقع على الوجوه والاعضاء ، وفوق هذا فانه سبب لنقل العدوى من الاجسام المصابة بالحمى الى الاجسام السليمة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : « إذا وقع الذباب فى آناء أحدكم فليغمسه كله ، ثم ليطرحه فان في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء »

فأكتب الى فضيلتكم راجياً بيان التوفيق بين ما يرشد اليه هذا الحديث و بين ما يقرره الاطباء في خطر الذباب ، ونحن بصفتنا الاسلامية نقبل و نطيع لهذا الحديث ، وأرجو أن تتفضلوا بنشر هذا البيان على صفحات مجلة الاسلام ودمتم للفضل والعلم .

الجواب :

مقدمة

يتوهّم بعض الناس أن العلم قد يعادي الدين ويباينه ، لأن بعض النظريات العلمية المعروفة لا تتفق هي وبعض النصوص الدينية ظاهراً ، غير أن المتأمل الذي يحقق ويبحث يعلم أن كثيراً من نظريات العلم يطرأ عليها التغيير ، وأن كثيراً من الآراء العلمية التي كان يرى أصحابها انها هي الثابتة ، والتي أفضى اليها البحث قد أظهرت الاكتشافات الحديثة خطأها وعدم صحتها .

من يتحقق هذا ويعلمه ـ وهو ما تدل كل الدلائل عليه ـ يجزم بأن ما يرى من الآراء العلمية في ظاهره مخالفاً للدين لا يباينه في الواقع ونفس الأمر ، وان الصحيح في الأمر هو ما ذهب اليه الدين ، وأن الرأي العلمي هو الذي لم ينضج ولم يستوف الباحثون بحثه .

وإنا ناقلون لك كثيراً من الشواهد على ذلك ، ولكني أحب أن أُعلمك قبل كل شيء إننا لسنا ممن يعادي الجديد أو ينكر فضل تقدم العلوم الطبيعية والمكتشفات الحديثة في هذا العصر الى حد لم يكن يحلم به أهل العصور الأولى . ومن ذا يستطيع أن ينكر ما بهرنا به العلم من فوائد يرتقي بها العمران وعوائد قد عادت بالخير العميم على نوع الانسان ، ولكن هناك ظاهرة من الظواهر لا تكاد تفارق كثيراً من الباحثين وهي في الحقيقة ظاهرة من ظواهر الضعف الخلقي ، تلك الظاهرة التي لا يكاد الباحث يخلص منها أو ينفك عنها : هي تلك الكبرياء الممقوتة التي تخيل له أنه قد قتل الأشياء بحثاً وأحاط بها خبراً ، فتراه ـ وما أوتي من العلم إلا قليلا ـ يتكلم في كل شيء ويحكم على كل شيء ، حتى أنه كثيراً ما يعتقد أن الخارج عما وصل اليه من النواميس وحدده من القوانين لا نصيب له من الصحة مادام

مجاوزاً دائرة فهمه وحدود علمه ، حتى إذا جاء من بعده ضحك من غروره وهزء بما كان يتبجح به من معلوماته مبيناً ما كان له من زلات وما تورط فيه من جهالات .

وقد ترى ذلك الهازىء الساخر قد وقع فيما اعترض به على السابقين ، وكان فوزه فيما استدركه عليهم من أكبر الاسباب لأن يطغى عقله فتزل قدمه ، ولو وقفوا عند ما وصلوا اليه من المعلومات الحقة التي شهد لها الحس وأقرها الامتحان وقام عليها البرهان ولم يتعرضوا لما سوى ذلك لكانوا في أمن من الزلل وعصمة من الخطل ، ولكن طغيان نفوسهم أبى عليهم أن يعرفوا قدرهم أو ينبسوا أنفسهم لجهل أوقصور

والخلاصة ان من تأمل فيما يتجدد كل يوم من العلم الحديث ويظهر من آن لآخر من أسرار الكون لا يشك في أن العلم البشري لا يزال طفلا وأن الناس ما أوتوا من العلم إلا قليلا ، وهذا هو مقتضى الضعف البشري وهو لازم من لوازم وجوده بموجب خلقته وتكوينه .

وبهذا يتبين أن قول المتبجحين من قصار النظر أنهم عرفوا ما يمكن وما لا يمكن ، ظناً منهم أنهم أحاطوا بنواميس الكون ، غروراً يبرأ منه التحقيق العلمي ويستهزىء به النظر الواسع المدقق ، ولنا على ذلك الشواهد الكثيرة والأمثلة العديدة .

١ ـ لو قال قائل إن الهواء أو الماء مؤلف من عدة عناصر لسخر منه أساطين علماء الطبيعة الأولون ، وعده أكابر علماء الفلسفة السابقون قائلا بالجهل منا بذاً للعلم لايدري ما يقول ، فانهم كانوا مجمعين على أن كلا منهما عنصر بسيط ، وقد قامت البراهين الملموسة من عهد غير بعيد على أن قولهم هو الجهل ، وان ما سموه علماً ولم يكن محلا للشك ليس بعلم ، وجدير أن يقذف به في عالم الميتولوجيا وإن شهد أهل زمانهم بأنهم الأخصائيون في ذلك .

٢ ـ لو واجه أولئك العلماء باحث بأن بعض الفلزات كالذهب عنصر بسيط

للتي منهم أشد الانكار ، والعامة تكون في جانب المنكرين لا محالة لما يرون فيهم من الزعامة لهذا الشأن ، وقد أصبح اليوم انكار هذا الأمر هو الجدير بأن ينكر ، الى غير ذلك من الامور العديدة التي تجدد بها العلم .

هذا الجسم الانساني كم فيه من جزء كانوا يظنون أنه لا منفعة فيه ثم تبين بعد ذلك أن فيه عدة منافع . وناهيك ما يقولون الآن في الغدد وما اكتشفوه فيها من الأسرار والخصائص ، ولا يزال العلم بأسرار ما أودع الله في مخلوقاته في دوره الأول . ولذلك يقول القرآن الكريم : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ولا يزال قوله تعالى : (وفوق كل ذي علم عليم) صادقاً « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حتى تقوم الساعة ، ولا ينبغي أن ينخدع منخدع بكثرة ما ظهر من الآلات الدقيقة كالمجهر (المنظار المعظم) ، فان المنصفين من أهل العلم لا يزالون يقولون في بعض الحيوانات التي تسبب بعض الامراض انها تحت المجهر ، يريدون أن المجهر لا يزال قاصراً عن كشفها ، وإنما عرفوها بآثارها ، ولا يزال كثير من الامراض مجهول الميكروبات الى اليوم رغم تقدم الابحاث العلمية والتفنن في صناعة الآلات الكاشفة .

وكم من شيء في العقاقير الطبية يعرف تأثيره بعض الأدواء ولا يدرى لماذا يكون هذا التأثير ، ولذلك نرى الطب كل يوم في تطور ، حتى لقد قال لي بعض حذاق الأطباء الذين مارسوا صناعة الطب زماناً طويلا : (إننا اليوم نسخر من أشياء تلقيناها في المدرسة وكانت إذ ذاك هي العلم الذي لا يعول على غيره) .

وما يدريهم أن ما هم عليه الآن ستظهر فيه الاكتشافات المقبلة من الخطأ ما ظهر لهم في خطأ من قبلهم ، وقد قرر ذلك غاية التقرير وزير خارجية انجلترا سابقاً المسيو « بلفور » عند ما رأس مجمع ترقي العلوم البريطانية بمدرسة اكمبرج الجامعة أثناء اغسطس سنة (١٩٠٤) .

ولا بدع فبحر عجائب أسرار القدرة الربانية مشحون بالدرر ولا يدرك غوره أحد ولا ينتهي منته الى كل ما فيه ، « وأنى المتناهي أن يبلغ ما لا يتناهى » .

هذا وإن من الحقائق الفلسفية المقررة الثابتة التي تكاد تلحق بالبديهيات أن هناك فرقاً بين عدم العلم بالشيء وبين عدم الشيء في نفسه ، وان الأول لا يستلزم الثاني ، وأن عدم الدليل على الشيء ليس دليلاً على عدمه .

وبعد فاذا عرفت ما أسلفناه حق المعرفة وهو الحق الذي لا مرية فيه أمكنك أن تضع يدك على الجواب الجملي ، ومع هذا فلا بأس أن نتكلم بشيء من التفصيل المتعلق بنقط السؤآل .

الجواب التفصيلي عما جاء في السؤآل : كيف يأمر النبي (ص) بغمس الذباب فى الأناء إذا وقع فيه ؟ مع أنهم يقولون إنه خلق من القاذورات وإنه ينقل عدوى كثير من الأمراض .

جوابه إن كون الشيء من القاذورات لا يمنع أن يكون دواءاً لبعض الأدواء بل قد يكون نفس المستقذر هو الدواء النافع للمرض الذي يداوى به ، وكيف يستعبد ذلك وكثير من الامراض يتداوى منها بها أو يكون طريق الوقاية منها بالحقن ، وهل عملية التلقيح للوقاية من الجدري إلا بالمادة المعروفة ؟ وقد استبان حديثاً أن من انجع الأدوية للأمراض المستعصية الحقن بمادة المرض نفسها ، فيأخذون دواء من السائل المخاطي ومن الدم ومن التقيحات . . . الخ ، أفلا يكون في ذلك ما يكفي ؟ وكثير من هذه الأدوية ليست من القاذورات فحسب ، بل هي القاذورات أنفسها وقد يكون فيها الجراثيم للأمراض الكثيرة ، أفيسلّم ذلك للأطباء وينكر على سيد الأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام فلينصف المنصفون .

ومن المجرب أن لسعة الزنبور تفيد كثيراً في بعض الاوجاع الروماتزمية ، وقد رأينا من استفاد منها ، وأي قذر أقذر من دم الكلب الكلِب وهو الدواء

المعروف الآن للشفاء من الكلب ، حتى لقد أنشدنا بعض ظرفاء الأطباء قول ذلك الأديب « وداوني بالتي كانت هي الداء » .

وأما الجواب عن السؤآل الثاني فانه : لا غرابة في أن يكون الشيء بعضه سم والبعض الآخر ترياق ، وعدم وقوف الأطباء على ذلك لا يقتضي عدم وجوده ، وهذه مسألة ليس مرجعها الى علم التشريح فانه إنما يتكلم على بعض الوظائف للأعضاء بحسب ما ظهر لأصحابه وهو قليل من كثير .

وقدقال بعضهم الفرق بيننا وبين آبائنا اعتقادنا إننا جهلاء واعتقاد آبائنا أنهم علماء فليكن هذا من ذلك الخفي وقد أسلفنا أن عدم العلم بثبوت الشيء لا يقتضي نفيه ومن ادعى احاطة العلم بكل ما في الأشياء من الخواص فقد كذب على العلم وحمله ماهو منه بريء ، والخالق الذي جمع في جسم الحيوان بين القوى المتضادة والعناصر المختلفة قادر أن يجعل في أحد الجناحين سماً وفى الآخر ترياقاً ، والأطباء صادقون في دعوى أنهم لم يعلموا ولكن لا يضر ذلك شيئاً كما أوضحناه ، على ان المكتشفات الجديدة قد أيدت الحديث تمام التأييد واستمع شيئاً من ذلك بعد فانتظر .

الطب الحديث

وما يقوله في الموضوع بخصوصه

رأينا بحثاً ممتعاً لحضرة الأستاذ الفاضل ابراهيم افندي مصطفى عبده معيد فن الصيدلة وتركيب العقاقير وهي محاضرة طويلة نقتطف منها ما يأتي .

قال بعد أن ذكر الحديث الذي في سؤآل السائل ما نصه :

وقع كثير في خطأ تكذيب هـذا الحديث زاعمين عدم مطابقته للحقيقة ، وذلك قبل أن تدحض مفترياتهم الابحاث العلمية الجديدة منذ بضع سنين وتكشف عمـا تضمنه من بليغ الحـكمة ، ولو أنهم جاروا السلف الصالح في التصديق لـكان خيراً لهم .

ويحق لنا أن نضم هذا الحديث الى المعجزات العديدة التي جاء بها خاتم المرسلين منذ أكثر من ثلاثة عشرة قرناً ، وأن ما يقدمه الذباب للناس من المنافع لآية عظيمة على وجود الخالق وقدرته ، كما انها توضح الحكمة فى ضربه مثلا في القرآن الكريم لتعجيز الكافرين . ومعلوم أن الذباب يقع على العفونات والمواد القذرة المملوءة بالجراثيم التي تولّد الأمراض المختلفة .

أندرون ما هو العمل الجليل الذي خص به الذباب وسخر له ؟ فكما أن الذباب ينقل بعض الجراثيم بملامسته مصدرها فانه أيضاً يأكل منها أكثر مما ينقل ، وليس كل واجبه تقليل نسبة وجود الجراثيم فحسب ، بل إن ما يتناوله منها في فمه يتحول داخل جسمه الى ما سماه علماء الطب « بالبكتريوناج » أو مبعد (البكتريا) الذي ينتصر على كثير من جراثيم الأمراض فيبيدها عن بكرة أبيها ، ولا يمكن لتلك الجراثيم أن تبقى أو يكون لها أي تأثير فى جسم الانسان فى حالة وجود (البكتريوناج) . فسبحان الخلاق العظيم .

والآن اسمعكم ما جاء بمجلة « التجارب الطبية » الانجليزية عدد « ١٠٣٧ » عام (١٩٢٧) قالت :

لقد أطعم الذباب من زرع ميكروبات بعض الامراض وبعد حين من الزمن ماتت تلك الجراثيم واختفى أثرها وتكونت في الذباب مادة مفترسة للجراثيم تسمى « بكتريوناج » ، ولو عملت خلاصة من الذباب في محلول ملحي لاحتوت على البكتريوناج التي يمكنها إبادة أربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، ولاحتوت تلك الخلاصة أيضاً على مادة خلاف البكتريوناج نافعة للمناعة ضد أربعة أنواع اخرى من الجراثيم .

وقد برهن على ذلك أيضاً الاستاذ الدكتور « دريل » مندوب الصحة البحرية و « السكورينتينات » المصرية في الهند للبحث عن ظهور « الكوليرا » بها

وأنجع الطرق لمقاومتها ، وقدم تقريراً مفصلا في ديسمبر سنة (١٩٢٧) عما أجراه مع زملائه من الابحاث الفنية والتجارب العلمية ، فقد ذكر في تقريره : ان البكتريوناج أجسام حية صغيرة الحجم جداً أمكن تكوينها ورؤيتها بترسيب ذرات الفضة عليها ، وانه حصل على البكتريوناج وتمكن من زرعه وتنميته واذابته في الماء واعطاء محلوله الى المرضى بنسب مخصوصة ، وبزيادة الجرع وتنظيم تناولها كان المريض ينال الشفاء فى يومين أو ثلاثة . وتمكن أيضاً من استخراج البكتريوناج من براز الناقهين واستعماله لنفس الغرض ، وكان يضع من زرع البكتريوناج فى بئر القرية فاذا شرب منه أهلها زالت عنهم اعراض الكوليرا . وبذلك برهن على أن الذباب ينقل البكتريوناج من براز الناقهين الى آبار الماء فيشرب به الأهالي ويتناولون الأطعمة التي ينقل الذباب اليها البكتريوناج فسرعان ما تخف عنهم وطأة الكوليرا ثم تزول .

واجريت مثل تجارب الاستاذ (دريل) في البرازيل عن « الدوسنتريا » الحادة واستعمل البكتريوناج في ايطاليا في علاج الحمى التيفوئيدية وكذلك ضد جراثيم « الاستافيلوكوك » فأفاد :

واطلعت على تفصيل قوة البكتريوناج في مقاومته وإبادته الجراثيم في كتاب باللغة الانجليزية اسمه تمهيد « البكتريولجي العملي » الذي يدرس في كلية الطب المصرية يكاد يذكر انها غير محدودة .

فمعنى الحديث بعد ما تقدم (فليغمسه ثم لينزعه) أو حسب الرواية الاخرى « فليغمسه كله ثم ليطرحه » : ان الحكمة في الغمس لادخال البكتريوناج في الشراب والبكتريوناج يقتل الجراثيم التي تكون منها والمقصود بالغمس : جميع جسم الذبابة ، لأن الحديث لم ينص على غمس الجناحين فقط ، وهذا يدل على ان ذكر الداء والشفاء في الجناحين لفظي لا يفهم منه قصر الضرر والمنفعة عليهما دون باقي

الجسم وبما أن الجناحين جزء من الجسم فان الطب لا ينفي وجود ميكروب الداء وبكتريوناج الشفاء فيهما ، وبذلك تتحقق صحة الحديث ومطابقته للابحاث الفنية .

والسبب في التعبير بالجناحين انهما أهم الاجزاء في الذبابة إذ بدونهما تشل عن الطيران ، ولزيادة التأكيد فى غمس الجسم كله لأن الجناحين أعلى أجزائه ولتقريب المعنى المراد الى افهام العرب خاصة والناس عامة ، ولعل الابحاث الطبية فى المستقبل تكشف عن أسرار اخرى فى الذباب . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .

هذا ما نقله ذلك الفاضل عن تلك المجلات الاوربية ، فليت شعري ماذا عسى أن يقول المتفيهقون وهي معجزة أوضح من الشمس وأظهر من الحس ؟ !

كلمة ختامية لا بد منها

ربما يفهم بعض قاصري النظر مما قدمناه اننا نقول بعدم الاحتياط من الذباب وحاشا أن نقول ذلك في الدفاع عن الحديث ، فان الحديث لا يفيد ذلك ولا يقتضيه وغاية ما يقوله الحديث هو انك إذا فرطت فيما يجب عليك من توقي الذباب بكل ما يمكنك حتى إذا وقع فى طعامك فالخلاص من تلك الميكروبات التي ينقلها الى طعامك يكون بغمسه كله ، لذلك السر الذي شرحناه فيما تقدم وبينه أساطين العلم الطبيعي باوربا . وقد صرح الحديث نفسه بأن فيه داء (والحمية رأس الدواء) ، فهو بمنزلة من يقول لك : إذا وصل السم الى جوفك لسبب من الاسباب فترياقه كذا وكذا . فهل ترى أن من وصف لك دواء السم المهلك فقد أمرك بتعاطيه ؟ والامر أوضح من أن نطيل فيه أو يتشبث به بعض القاصرين أو المتعنتين .

معرفة الانسان نفسه

بسم الله الرحمن الرحيم

« وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون «١» .

هذه الآية تشير الى معرفة النفس الانسانية وشرح ماهيتها وانيتها وكيفية نشوها في الأرض وسر خلافتها ، وذلك لأن معرفة النفس أم الفضائل وأصل المعارف كما جاء فى الوحي الآلهي : « اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك » . وفى كلام النبي «ص» : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه » . وفي كلام بعض الأوائل : « من عرف ذاته ناله » ، وذلك لأنها إذا عرفت كانت مفتاح خزائن المعرفة وباب حكمة رب العالمين وصراط الحق واليقين ، وميزان يوم الحساب ونور المارين الى الجنة ، وإذا جهلت كانت ظلمة القبور وضيقها ، ووحشة الصدور وضنكها ، وعرضة الهلاك والعمى والدثور ، وعذاب الآخرة يوم النشور .

«١» سورة البقرة الآية ٣٠ .

معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرة : أول ما يلزم الانسان معرفته نفسه ، وقالوا مرة : أول مايلزمه معرفة الله تعالى ، وليس بين هذين القولين منافاة ، فانهم عنوا بالأول حيث قالوا معرفة النفس الأول من حيث الترتيب الصناعي ، وعنوا بالأول أيضاً حيث قالوا معرفة الله الأول : من حيث الشرف والفضل ، فان معرفة الله هي أفضل المعارف ، وفى معرفة النفس اطلاع على امور كثيرة .

أحدها أنه بواسطتها يتوصل الانسان الى معرفة غيرها ، ومن جهلها جهل كل ما عداها .

الثاني ان نفس الانسان مجمع الموجودات ، فمن عرفها فقد عرف الموجودات، ولذلك قال الله تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمىً وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » «١» تنبيهاً على انهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها ، وعرفوا بها حقيقة السموات والأرضين ، ولما أنكروا البعث الذي هو لقاء ربهم . قال الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » «٢» . وقال تعالى : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) «٣» .

الثالث إن من عرف نفسه عرف العالم ، ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السموات والأرض ولم يكن كالكفرة الجهلة الذين آنكلهم هذه

«١» سورة الروم الآية ٧ .

«٢» سورة السجدة الآية ٥٢ .

«٣» سورة الذاريات الآية ١٩ .

المنزلة فقال فيهم : « ما اشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » «١» .

الرابع إنه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقائه وبمعرفة جسده العالم الجسداني وفنائه فيعرف خسة الفانيات وشرف الباقيات والصالحات .

الخامس إن من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيها المشار اليها بقوله صلى الله عليه وآله (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) فيستعيذ منها كما قال عليه الصلاة والسلام : (ألهم الهمني رشدي وأعذني من شر نفسي) وقال «ص» : ﴿ لا تكلني الى نفسي طرفة عين فاهلك ﴾ . ومن عرف أعداءه الكامنة ومكامنها وكيفية انبعاثها أحسن أن يحترز منها وأن يجاهدها فيستحق ماوعدالله به المجاهدين في سبيله ، ومن لم يعرفها فجدير أن يتراءى له عدوه الذي هو الهوى بصورة العقل فيتصور له الباطل بصورة الحق ، وقد قال النبي ﴿ص﴾ : ﴿ الهوى شيطان ﴾ ، بل قال : ﴿ هو إله يعبد من دون الله ﴾ ، وقد روي أنه قال ﴿ص﴾ : ﴿ ما عبد في الأرض إله أبغض الى الله من الهوى ﴾ . ثم تلا ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ ٢

السادس إن من عرف نفسه عرف أن يسوسها ، ومن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم ، فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ ، ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾

السابع إن من عرفها لم يجد عيباً في أحد إلا رآه موجوداً في ذاته اماظاهراً منبعثاً أو كامناً فيه كمون النار في الحجر ، فلا يكون همازاً ولمازاً وعياباً ، فان كل عيب تراءى له من غيره وجده في نفسه ، ومن رأى عيب نفسه فجدير أن يكون ممن دعا له النبي ﴿ص﴾ بقوله : ﴿ رحم الله امرءاً شغله عيبه عن عيوب غيره ﴾ . ومعرفة

«١» سورة الكهف الآية ٥٠ .

«٢» سورة الفرقان الآية ٤٣ .

عيب النفس صعب من حيث أن كل إنسان يحب نفسه ، وحبه لها يعميه عن معايبها كما قال «ص» : (حبك الشيء يعمي ويصم) ، والاعمى والاصم عن عيب الشيء قد يعجب به ، ولا ضرر أعظم من اعجاب المرء بنفسه ، وقد قال بعض الحكماء : ﴿ الكاذب في نهاية البعد عن الخلق والمرائي أسوء حالاً من الكاذب ﴾ لان الكاذب يكذب بقوله فقط ، والمرائي يكذب بقوله وفعله ، قال وأسوء حالا منهما المعجب بنفسه لأن الكاذب والمرائي قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لا نفع فيه بوجه ، ولأنهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لعلمهما بنفسهما ، والمعجب بنفسه لجهله يظنك في وعظك إياه ملغياً .

الثامن إن من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى ، فقد روي أنه ما أنزل الله من كتاب إلا وفيه اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ «١» وفي هـذا الخبر ثلاث تأويلات .

أحدها إن بمعرفة النفس يتوصل الى معرفة الله عز وجل ، كقولك اعرف العربية تعرف الفقه ، أي بمعرفة العربية يتوصل الى معرفة الفقه وان كان بينهما وسائط .

الثاني إنه إذا حصل معرفة النفس حصل بحصولها معرفة الله بلا فاصل ، كقولك بطلوع الشمس يحصل الضوء ، فكان الضوء مقترناً بطلوعها غير متأخر عنها بزمان .

الثالث إن معرفة الله تعالى ليست تثبت إلا أن تعرف النفس ، لأنك إذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم ، فاذا عرفت العالم عرفت انه محدث وإن لا بد له من محدث لا يشبه المحدث بوجه ، وذلك هو غاية معرفة الله تعالى . قالوا وعلى هذا

«١» سورة فصلت الآية ٥٣ .

دل معنى قول أمير المؤمنين ﴿ع﴾ : (إن العقل لاقامة رسم العبودية لا لادراك الربوبية) ثم أنشأ يقول :

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم
هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدث النسم

وقال أيضاً

العجز في درك الادراك إدراك والبحث عن سر ذات السر إشراك
وفي سرائر هامات الورى همم عن الذي عجزت جنٌ وأملاك
يهدي اليه الذي منه اليه هدىً مستدركاً وولي الله مـدراك

قال تعالى : ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ «١» . تنبيهاً على انهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله ، فلما جهلوه دل جهلهم إياه على جهلهم إياها .

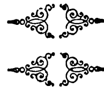
فالله تبارك وتعالى خلق النفس مثالا لذاته وصفاته وأفعاله لتكون معرفتها مرقاة لمعرفته ، كما وقع في الحديث ﴿ من عرف نفسه فقد عرف ربه ﴾ فجعل ذاتها مجردة عن الأكوان والاحياز والجهات ، وصيرها ذات قدرة وعلم وإرادة وحياة وسمع وبصر ، وجعلها ذات مملكة شبيهة بمملكة باريها يخلق ما يشاء ويختار ما يريد في عالمها ، فمن تحريكها للبدن وتدبيرها شؤن عالمها الصغير يستعلم انه لا بد لهذا العالم الكبير من محرك ومدّبر ، ومن تجردها وعدم كونها في موضع من البدن يعلم تجرد الباري وعدم كونه في موضع من العالم وجهة من جهاته ، ومن تصرفها في الجسد يستدل على قدرته ، ومن اطلاعها على ما في البدن يستكشف علمه تعالى وانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، ومن استوائها على الاعضاء وتساوي نسبة الأجزاء صغيرها وكبيرها اليها استواؤه على خلقه وتساوي نسبته اليه ، حيث انه لا يستعظم العظيم لعظمه ولا يستحقر الحقير لحقارته ، بل كل من الذرة الى الدرة رشحة من

«١» سورة الحشر الآية ١٩ .

رشحات فيضه وقطرة من بحار جوده وفضله ، ومن تقدمها عليه وبقائها بعد فناء الجسد يستدل على ازلية خالق الكون وابديته ، ومن عدم العلم بكنهها مع كونها بآثارها من أظهر الاشياء وأبينها يعلم عدم إمكان العلم بكنه ذاته ، ومن عدم إمكان مسها وامتناع أبصارها يعلم امتناع مسه واستحالة رؤيته لا تدركه الأبصار وهو اللطيف الخبير .

قوله تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ، إعلامه إياهم ذلك بأحد وجهين إما باقامة صور الحقائق التي هي من مجردات النشأة الانسانية عليهم ، أو باطلاعهم على شيء من عالم أمره تعالى المشتمل على جميع الأقوال المتعلقة بالأكوان الخلقية .

وقد تحيرت العقول في أن استحقاقية آدم للخلافة الآلهية لما ذا ؟ فقيل لتحمله التكليف ، وقيل لطاعته مع وجود الصوارف البدنية كالشهوة والغضب عنها ، وقيل لجامعيته بين صفات الملائكة وصفات البهائم وأسد الأقوال كونه جامعاً لجميع المظاهر الاسمائية .



خلافة الله في الارض

لما اقتضى حكم السلطنة الواجبة الذات الازلية والصفات العلية بسط مملكة الالوهية ونشر لواء الربوبية باظهار الخلائق وتحقيق الحقائق وتسخير الاشياء وإمضاء الامور وتدبير الممالك وإمداد الدهور وحفظ مراتب الوجود ودفع مناسب الشهود ، وكان مباشرة هـذا الامر من الذات القديمة بغير واسطة بعيداً جداً لبعد المناسبة بين عزة القدم وذلة الحدوث حكم الحكيم سبحانه بتخليف نائب ينوب عنه في التصرف والولاية والحفظ ، وله وجه الى القدم يستمد به من الحق سبحانه ، ووجه الى الحدوث يمد به الخلق . فجعل على صورة خليفة يخلف عنه في التصرف وخلع عليه جميع أسمائه وصفاته ، ومكنه في مسند الخلافة بالقاء مقادير الامور اليه واحالة حكم الجمهور عليه وتنفيذ تصرفاته في خزائن ملكه وملكوته وتسخير الخلائق لحكمه ، وسماه إنساناً لامكان وقوع الانس بينه وبين الخلق برابطة الجنسية وواسطة الانسية ، وجعل له بحكم اسمه الظاهر والباطن حقيقة باطنية وصورة ظاهرة ليتمكن بهما من التصرف في الملك والملكوت . فحقيقته الباطنة هي الروح الاعظم وهو الامر الذي يستحق به الانسان الخلافة والنفس الكلية وزيره وترجمانه ، والطبيعة الكلية عامله ورئيسه والعملة من القوى الطبيعية وكذلك الى آخر الروحيات جنوده وخدمه .

وأما صورته الظاهرة فصورة العالم من العرش الى الفرش وما بينهما من البسائط

والمركبات فهذا هو الانسان الكبير المشير اليه قول المحققين : « إن العالم إنسان كبير » وأما قولهم : ﴿ الانسان عالم كبير ﴾ أرادوا به النوع البشري وهو خليفة الله في أرضه كما اشير اليه في هذه الآية .

وأما خليفة الله في السماء والارض وهو الانسان الكبير ، والانسان البشري نسخة منتخبة من الانسان الكبير الآلهي ، ونسبته اليه نسبة الولد الصغير من الوالد الكبير ، فله أيضاً حقيقة باطنية وصورة ظاهرة .

أما حقيقته الباطنة فالروح الجزئي المنفوخ فيه من الروح الاعظم والعقل الجزئي والنفس والطبيعة الجزئيتان . واما صورته الظاهرة فنسخة منتخبة من صورة العالم فيها من كل جزء من أجزاء العالم لطيفها وكثيفها قسط ونصيب . فسبحانه من صانع جمع الكل في واحد كما قيل :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وصورة كل شخص إنساني نتيجة صورة آدم وحوا عليهما السلام ، ومعناه نتيجة الروح الاعظم والنفس الكلية اللذين هما أيضاً آدم كلي وحوا كلية ومن هذا يصح أن يقال بعض من كمل أولادهما حقيقة .

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلي فيه معنىً شاهد بأبوتي

قوله تعالى : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

إن قولهم هذا يدل على معان مختلفة : منها ان الله تعالى أنطقهم بهذا القول ليتحقق لنا أن هذه الصفات الذميمة فى طينتنا مودعة وفي جبلتنا مركوزة ، فلا نأمن عن مكر أنفسنا الامارة بالسوء ولا نعتمد عليها وما نبرؤها كما قال تعالى عن يوسف «ع» « وما ابرىء نفسي » .

ومنها لنعلم أن كل عمل صالح نعمله ذلك بتوفيق الله تعالى إيانا وفضله ورحمته

وكل فساد وظلم نعمله هو من شؤم طينتنا وخاصية طبيعتنا كما قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) «١» . وكل فساد لا يجري علينا ولا يصدر منا فذلك من حفظ الحق وعصمته ورحمته لقوله تعالى (إلا مارحم ربي)

ومنها انعلم أن الاستعداد أمر عظيم فينا وفينا شأن جسيم ، ليس للملائكة به علم وهو سر الخلافة ، فلا نتغافل عن هذه السعادة ولا نتقاعد عن هذه السيادة ونسعى في طلبها حق السعاية .

ومنها لنعلم أن الله تعالى من فضله وكرمه قد قبلنا بالعبودية والخلافة وقال من حسن عنايته في حقنا مع الملائكة المقربين : « إني أعلم مالا تعلمون » لكيلا نقنط من رحمته وننقطع من خدمته .

ومنها ان الملائكة قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) «٢» لأنهم نظروا الى جسد آدم قبل نفخ الروح فيه فشاهدوا بالنظر الملكي في ملكوت جسده المخلوق من العناصر الأربعة المتضادة صفات غريبة : البهيمية والسبعية التي تتولد من تركيب اضداد العناصر كما شاهدوها في أجساد الحيوانات والسباع الضاريات بل عاينوها ، فانها خلقت قبل خلق آدم فقاسوا عليها أحواله بعد أن شاهدوها وحققوها وهذا لا يكون غيباً في حقهم وإنما يكون غيباً لنا لانا ننظر بالحس ، والملكوت يكون لأهل الحس غيباً ، ومنا من ينظر بالنظر الملكوتي فيشاهد الملائكة والملكوتيات بالنظر الروحاني كما قال تعالى : (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض) «٣» ، وقال : (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض) «٤»

«١» سورة النساء الآية ٧٨ .

«٢» سورة البقرة الآية ٣٠ .

«٣» سورة الانعام الآية ٧٥ .

«٤» سورة الاعراف الآية ٨٥ .

وحينئذ لا يكون غيباً فالغيب ما غاب وما شاهد فيه فهو شهادة ، فالملكوت للملائكة شهادة ، والحضرة الالهية لهم غيب ، وليس لهم الترقي الى تلك الحضرة .

وإن للانسان صورة من عالم الشهادة المحسوسة وروحاً من عالم الغيب الملكوتي وسراً مستعداً لقبول فيض النور الالهي بلا واسطة ، فبالتربية يترقى من عالم الشهادة الى عالم الغيب وهو الملكوت ، وبسر المتابعة وخصوصيتها يترقى من عالم الملكوت الى عالم الجبروت والعظموت وهو غيب الغيوب ، فيشاهد بنور الله المستفاد من سر المتابعة أنوار الجمال والجلال ، فيكون في خلافة الحق عالِم الغيب والشهادة كما أن الله عالِم الغيب والشهادة ، فلا يُظهر على غيبه أحداً أي الغيب المخصوص وهو غيب الغيب أحداً يعني الملائكة إلا من ارتضى من رسول يعني من الانسان . فهذا هو السر المكنون المركوز في استعداد الانسان الذي كان الله يعلمه منه والملائكة لا يعلمون كما قال (إني أعلم ما لا تعلمون) .

ومنها ان الملائكة لما نظروا الى كثرة طاعتهم واستعداد عصمتهم ونظروا الى نتائج الصفات النفسانية استعظموا أنفسهم واستصغروا آدم وذريته فقالوا أتجعل فيها أي في الأرض خليفة ، مع انه يفسد فيها ويسفك الدماء (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) «١». فنحن مع هذه الصفات أحق بالخلافة منه ، كما قال بنوإسرائيل حين بعث الله لهم طالوت ملكاً قالوا : (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يأت سعة من المال) «٢» ، فأجاب الله تعالى بأن استحقاق الملك إنما هو بالاصطفاء والبسطة في العلم والجسم ﴿ قال أن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ «٣» ، فكذلك ههنا أجابهم الله تعالى

«١» سورة البقرة الآية ٣٠ .

«٢» سورة البقرة ٢٤٦ .

«٣» سورة البقرة الآية ٢٤٧ .

بقوله : « إني أعلم مالا تعلمون » إجمالا ثم فصله بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً » وبقوله : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » ليعلموا أن استحقاق تلك الخلافة ليس بكثرة الطاعة ، ولكن مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ، وأما تفاخر الملائكة بطاعتهم ومنّ الله على آدم بعلم الأسماء ليعلموا انهم أهل الطاعة والخدمة وانه أهل الفضل والمنة وأين أهل الخدمة من أهل المنة ، فبتفاخرهم على آدم صاروا ساجدين له ليعلموا انه مستغن عن طاعتهم وبمنته على آدم صار مسجوداً له ليعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ومنها أن قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء استكشاف عما خفي عليهم وجه حكمته كأنهم قالوا إلهنا أنت الحكيم الذي لا يفعل السفه فما وجه الحكمة في جعل جوهر ارضي خليفة فيها وهو مصحوب لقوة شهوية شأنها الشر والافساد ، والقوة غضبية شأنها الاهلاك وسفك الدماء ، فان النفس إذا انقادت لاحديهما سلكت بها مسلك الفساد والجور والظلم .

أو تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها مع وجود من هو بريء من الشرور والمفاسد بالكلية كطبقة الملائكة المعصومين عن المعاصي المسبحين بحمده والمقدسين له ، وليس هذا باعتراض على الله تعالى في فعله أو طعن في بني آدم على وجه الغيبة أو تزكية لأنفسهم على وجه الافتخار والازراء بغيرهم ، حاشا ملائكة الله عن ذلك وقد وصفهم الله تعالى بانهم « عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » «١» .

تعليم الاسماء لآدم «ع»

(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤني بأسماء هؤلاء

«١» سورة الأنبياء الآية ٢٦ - ٢٧ .

إن كنتم صادقين) «١» .

إن الملائكة لما سألوا الله عن وجه الحكمة في جعل الانسان خليفة في الأرض دونهم أجاب بوجه اجمالي أراد أن يزيدهم بياناً وكشفاً أخبر عن وجه الحكمة في ذلك تفصيلا لمياً ، فبين لهم جهة فضيلة الانسان عليهم وذلك بأن علمه معرفة الأسماء والظاهر أن المراد من تعليم الأسماء ليس مجرد تعليم الألفاظ الموضوعة بحسب دلالتها على المعاني كما في التعريفات اللفظية بل افادة العلم بحقائق الأشياء وماهياتها ، وان كان الأول أيضاً مستلزماً للعلم بمدلولاتها بوجه من الوجوه ، وذلك لأن معرفتها من جهة اللغات ليست كمالا يعتد به إنما الكمال الأتم فى الحكمة والمعرفة .

فالمعنى أنه تعالى خلق آدم «ع» من أجزاء مختلفة وقوى متباينة ، مستعداً لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات لاشتماله على جميع النشآت الدنيوية والمثالية والأخروية ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وحقايقها الكلية والجزئية وخواصها وأسماءها ، وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية اتخاذ الآلات حتى صار فى نفسه عالماً تاماً منفرداً منفصلا عن العوالم كلها ، ذا هيئة جمعية ونظام وحداني مضاهياً للعوالم الثلاثة .

* * *

قال لسان التحقيق فى كشف هذا المقصد العميق إن الممكنات في حال عدمها الامكاني سألت الأسماء الالهية سؤآل ذلة وافتقار ، وقالت لها إن العدم قد أعمانا عن ادراك بعضنا بعضاً وعن معرفة ما يجب لكم من الحق علينا ، فلو انكم أظهرتم أعياننا وكسوتمونا حلة الوجود أنعمتم علينا بذلك وقمنا بما ينبغي لكم من الاجلال والتعظيم وأنتم أيضاً كانت السلطنة تصح لكم بظهورنا بالفعل وأنتم اليوم علينا سلاطين بالقوة والصلاحية . فهذا الذي نطلبه هو فى حقكم أكثر مما في حقنا .

«١» سورة البقرة الآية ٣١ .

فقالت الأسماء : إن هذا الذي ذكرته الممكنات صحيح ، فاتفقت بحضرة المسمى و نظرت في حقائقها ومعانيها فطلبت ظهور أحكامها حتى يتميز أعيانها بآثارها فان الخلاّق والمقدّر والعالم والمصوّر والمدّبر والمفضّل والباري والرازق والحي والمميت وجميع الأسماء الالهية نظروا فى ذواتهم ولم يروا مخلوقاً ولا مقدوراً ولا معلوماً ولا مصوّراً ولا مدبراً ولا مفضلا ولا مرزوقاً ، فقالوا : كيف العمل حتى يظهر هذه الاعيان التي تظهر أحكامنا فيها فيظهر سلطاننا ؟ فجاءت الأسماء الالهية بطلبها بعض حقايق العالم بعد ظهور عينه الى الاسم الباري فقالوا له عسى أن توجد أعيان هذه الأحكام لتظهر أحكامنا إذ الحضرة التي نحن فيها لا تقبل تأثيرنا .

فقال الباري : ذلك راجع الى الاسم القادر فاني تحت حيطته ، فلما لجأوا الى القادر قال أنا تحت حيطة المريد فلا أوجد عينا منكم إلا باختصاص ، ولا يمكنّني الممكن من نفسه إلا أن يأتيه أمر الآمر من ربه ، فاذا أمره بالتكوين وقال له كن يمكنني من نفسه وتعلقت بايجاده فكونته من حينه ، فالجأوا الى الاسم المريد عسى أنه يرّجح ويخصص جانب الوجود على جانب العدم فحينئذ نجتمع أنا والآمر والمتكلم ونوجدكم ، فلجأوا الى الاسم المريد فقالوا له إن الاسم القادر سألناه في إيجاد أعياننا واوقف أمر ذلك عليك فما ترسم ؟ .

فقال المريد : صدق القادر ولكن ما عندي خبر بما حكم الاسم العالم فيكم هل سبق علمه بايجادكم فاخصص أو لم يسبق ؟ فأنا تحت حيطة الاسم العالم فسيروا اليه واذكروا قضيتكم ، فصاروا الى الاسم العالم وذكروا له ذلك ، فقال العالم : قد سبق علمي بايجادكم ولكن الأدب أولى فان لنا حضرة مهيمنة علينا وهي الاسم الله فلا بد من حضورنا عنده فانها حضرة الجمع ، فاجتمعت الأسماء كلها في حضرة الاسم الله تعالى فقال ما بالكم ، فذكروا له الخبر ، فقال أنا اسم جامع لحقايقكم واني دليل على مسمى وهو ذات مقدسة له نعوت الكمال والتنزيه فقفوا حتى أدخل على مدلولي

فقال له ما قالته الممكنات وما تحاورت فيه الاسماء وقال اخرج وقل لكل واحد من الاسماء يتعلق بما تقتضيه حقيقته في الممكنات فان الواحد الأحد لنفسي والممكنات إنما تطلب مرتبتي وتطلبها مرتبتي والاسماء الالهية كلها للمرتبة ولا لي إلا الواحد خاصة وهو اسم خصيص لا يشاركني في حقيقته عن كل وجه أحد لا من الاسماء ولا من المراتب ولا من الممكنات . فخرج اسم الله ومعه الاسم المتكلم يترجم عنده للممكنات والاسماء ، فذكر لهم ما ذكره المسمى فتعلق العالم والمريد والقادر فظهر الممكن الأول من الممكنات بتخصيص المريد وحكم العالم ، فلما ظهرت الاعيان والآثار في الأكوان وتسلط بعضها على بعض وقهر بعضها بعضا بحسب ما يستند اليه من الاسماء فأدى الى منازعة وخصام ، فقالوا إنا نخاف علينا أن يفسد علينا نظامنا ونلحق بالعدم الذي كنا فيه أولاً ، فنبهت الممكنات الاسماء بما ألقى اليها الاسم العليم والمدبر وقالوا : أيها الاسماء لو كان معلوم حكمكم على ميزان واحد مرسوم بامام ترجعون اليه يحفظ علينا وجودنا ويحفظ عليكم تأثيراتكم فينا لكان أصلح لنا ولكم فالجأوا الى الله عسى أن يقدّم من يحدد حداً لكم تقفون عنده وإلا هلكنا وتعطلتم فقالوا هذا عين المصلحة وعين الرأي ففعلوا ذلك ، فقالوا إن الاسم المدبر ينهي أمركم فانتهوا الى المدبر فقالوا ما قالته الممكنات ، فقال أنا لها ، فدخل وخرج بأمر الحق الى الاسم الرب وقال له افعل ما تقتضيه المصلحة في بقاء أعيان هذه الممكنات ، فاتخذ وزيرين يعينانه على ما أمر به الوازر الواحد الاسم المدبر والآخر الاسم المفصل قال : (يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) «١» الذي هو الامام

فانظر ما أحكم كلام الله تعالى حيث جاء بلفظ مطابق للحال الذي ينبغي أن يكون الامر عليه ، فجاء الاسم الرب فرتب لهم الحدود ووضع لهم المراسم لاصلاح المملكة وليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وجعل الله ذلك قسمين قسم يسمى سياسة حكمية

«١» سورة الرعد الآية ٢ .

ألقاها في قطر نفوس الأكابر من الناس بحسب ما تدركه عقولهم وآراؤهم فحددوا حدوداً ووضعوا نواميس رسمية بحسب ما يقتضيه صلاح كل اقليم وكل زمان ، وانحفظت بذلك أموال الناس ودماؤهم وأهلوهم وأرحامهم وأنسابهم وسموها نواميس ،

وقسم يسمى شريعة إلهية يجيء بها الوحي الالهي الى من اصطفاه الله وارتضاه من خلقه ، ولم يكن قبل الوحي يعلم أحد بأن الله فرض على عباده اموراً مقربة الى الله يورث جنة وحريرا ، واخرى مبعدة منه تورث ناراً وزمهريرا ولا علموا قبلهم أن ثمة آخرة وبعثاً محسوساً ، وبعد الموت في أجساد طبيعية ودار فيها أكل وشرب ولباس ونكاح ، ودار فيها عذاب أليم .

ثم بعث الله رسولاً بعد رسول ولم يخل الارض عن خليفة هو مظهر اسم الله إذ به تنتظم امور الخلق بما له من الجمعية الالهية والعدالة الحقيقية التي يرجع بها اليه كل الخلائق في حوائجهم وانتظام امورهم ومعايشهم كما في الاسم الله من المقام الجمع الالهي الذي ترجع اليه الاسماء كلها . فهذا سر الخلافة وتعليم الاسماء في الانسان الكامل وعدم استحقاق غيره لها .

معرفة فضل العلم والعلماء

وهذه الآية من أدل الدلائل على فضيلة العلم وعظم شأن حامله ، فانه تعالى ما أظهر كمال حكمته في خلقة آدم وجعله خليفة في الارض أولاً ، ومسجوداً للملائكة في السماء ثانياً إلا بأن أظهر علمه بالاسماء ، فلو كان شيء أشرف من العلم لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم . ولما قال تعالى : (إني جاعل في الأرض خليفة) فلما قالت الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها) قال تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » ، فأجابهم تعالى بكونه لم يجعل ساير الصفات جواباً لهم وموجباً لسكوتهم ، وذلك يدل على أن ساير الصفات كالقدرة وأمثالها وإن كانت بأسرها في نهاية الشرف ، إلا أن صفة العلم أشرف من غيره ، ثم إنه تعالى لما أظهر

علمه جعله مسجوداً للملائكة وخليفة للعالم السفلي وذلك يدل على أن تلك المنقبة إنما استحقها آدم «ع» بالعلم ، ثم إن الملائكة افتخرت بالتسبيح والتقديس ، فأظهر الله تعالى علم آدم بالأسماء في مقابلة تسبيحهم وتقديسهم مع أن التسبيح والتقديس أيضاً من بركات العلم وإلا لكان اما نفاقاً والنفاق من أخس المراتب لقوله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار »«١» ، أو تقليداً وهو مذموم لا يوجب الافتخار ، فثبت أن فضيلة آدم عليهم إنما كان بعلمه بسائر الأشياء الكلية والجزئية التي لم يكن من شأنهم الاحاطة بها جميعاً لانحصارهم في مقام واحد معلوم .

ثم انظر في إبراهيم « ع » كيف اشتغل في أول أمره بطلب العلم ، منتقلا بفكره من ملاحظة أحوال السماويات والانتقال من بعضها الى بعض ، حتى انتقل من الانوار الكوكبية الحسية النفسية القمرية ، ومنها الى الاضواء العقلية الشمسية الى أن وصل بالدليل الباهر والبرهان النير الزاهر الى المقصود الاصلي والدين الحنيفي واعرض عن الشرك لقوله : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) ، ثم إنه بعد الفراغ من معرفة المبدأ اشتغل بمعرفة المعاد كما قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى » ، ولما فرغ من العلم اشتغل بالمحاجة والتعليم ، تارة مع عمه آزر إذ يقول له « لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر » ، وتارة مع قومه (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) ، واخرى مع ملك زمانه : « ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه » الآية وقوله : « افٍ لكم ولما تعبدون » ، وتارة كان مع الله فانياً عما سواه فانهم عدو لي إلا رب العالمين .

ثم انظر الى أحوال موسى «ع» مع فرعون ووجوه دلائله وحججه عليه من طريقة الخليل في المقامات العلمية . وانظر الى عيسى «ع» في قوله : « رب أرني كيف تحي الموتى ؟ » وكان مقصوده العلم بأحوال المعاد بعد أن حصل له العلم بأحوال

«١» سورة النساء الآية ٤٥ .

المبدأ ، ثم انظر الى نبينا «ص» كيف منَّ الله عليه بالعلم مرة بعد أخرى في قوله تعالى : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » وقوله : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » وقوله : « وعلمك ما لم تكن تعلم » وهو صلوات الله عليه وآله كان أبداً يقول : « رب أرني الأشياء كما هي » ، فلو لم يظهر للانسان ـ بهذه الامور التي ذكرناها ـ شرف العلم وفضله لاستحال أن يظهر له شيء لشيء أصلا .

إن رتبة العلم ومنزلة العلماء كانت عظيمة عند الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين أما محمد «ص» فقد قال الله تعالى تأديباً وتعظيما له : ﴿ قل رب زدني علماً ﴾ وفيه أدل دليل على عظيم رتبة العلم ونفاسته وعلو منزلته وكرامته وفرط محبة الله إياه حيث أمر حبيبه «ص» بالازدياد منه خاصة دون غيره . وقال تعالى امتناناً عليه وتكريماً له « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » .

وأما كليم الله فقد قال بعض المفسرين : لو اكتفى أحد من العلم وساغ له القنوع منه لاكتفى موسى «ع» ولم يقل للخضر «ع» هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟ .

وأما داود فلما ذكر من حاله مع أحوال الانبياء قدم العلم أول الاقوال حيث قال : « وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث » الى قوله « وكلا آتينا حكما وعلما » ثم إنه ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالجواب فدل على ان العلم أشرف .

وأما سليمان (ع) فكان له من ملك الدنيا ما كان حتى انه قال : (رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي) فلم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حين قال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء) ، فافتخر بكونه عالماً بمنطق الطير فاذا حسن من سليمان الافتخار بذلك فبان يحسن بالمؤمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين وصفاته وأسمائه وكيفية أسمائه وأفعاله وملكوت سماواته وكتبه ورسله والايمان بيوم القيامة وحشر الخلائق اليه ومعاد الكل ورجوع الجميع اليه كان

أحسن ولانه قدم ذلك على قوله : (واُوتينا من كل شيء) .

وقال بعضهم الهدهد مع انه في نهاية الضعف ومع انه كان في موقف المعاتبة قال : (احطت بما لم تحط به) ، فلولا أن العلم أشرف الأشياء ،وإلا فمن أين لمثله أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هـذا الكلام وما ذاك إلا ببركة العلم ، وأيضاً أن ساير كتب الله المنزلة على الانبياء (ع) ناطقة بفضل العلم .

أما التوراة فقال تعالى لموسى (ع) (عظم الحكمة فاني لا أجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له ، فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة . وأما الزبور فقال تعالى : ﴿ قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء ، فان لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء ، وان لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء ، فان التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ما جعلت واحدة منهن في أحد من خلقي وأنا اريد هلاكه .

قال بعض العلماء : إنما قدم الله التقى على العلم لأن التقى لا يوجد بدون العلم كما بين في المفاتيح الغيبية من أن الخشية لا تحصل إلا مع العلم ، والموصوف بالأمرين أشرف من الموصوف بأحدهما ، ولهذا السر أيضاً قدم العالم على العاقل لأن العالم لا بد وأن يكون عاقلاً دون العكس والعقل كالبذر والعلم كالشجرة والتقى كالثمرة .

وأما الانجيل فقد قال تعالى في السورة السابعة عشر : « ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه كيف يحشر مع الجهال الى النار. اطلبوا العلم وتعلموه فان العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم ، وإن لم يرفعكم لم يضعكم ، وإن لم يغنكم لم يفقركم ، وإن لم ينفعكم لم يضركم ، ولا تقولوا نخاف أن نعلم ولم نعمل ولـكن قولوا نرجوا أن نعلم فنعمل ، فالعلم يشفع لصاحبه ، وحق على الله أن لا يخزيه إن الله تعالى يقول يوم القيامة : (يامعشر العلماء ما ظنكم بربكم فيقولون : ظننا بربنا أن يغفر لنا ويرحمنا ، فيقول : إني قد فعلت ، إني استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم بل لخير أردته بكم فادخلوا في

مصالح عبادي الى جنتي برحمتي .

وقال مقاتل بن سليمان وجـدت في الانجيل أن الله تعالى قال لعيسى «ع» : عظم العلماء واعرف فضلهم فاني فضلتهم على جميع خلقي إلا النبيين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب وفضل الآخرة على الدنيا وفضلي على كل شيء .

قيل إن الله تعالى علم سبعة نفر سبعة أشياء : علم آدم أسماء الاشياء لقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ، وعلم الخضر «ع» علم الفراسة « وعلمناه من لدنا علماً » ، وعلم يوسف علم التعبير : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » ، وعلم داود «ع» صنعة الدروع : (وعلمناه صنعة لبوس لكم) وعلم سليمان (ع) منطق الطير « وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير » ، وعلم عيسى (ع) علم التوراة ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ ، وعلم سيدنا محمداً «ص» الشرع والتوحيد ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ ، ويعلمه الكتاب والحكمة ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ .

فعلم آدم كان سبباً في حصول السجدة والتحية ، وعلم الخضر كان سبباً لان وجد تلميذاً مثل موسى ويوشع ، وعلم يوسف كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة ، وعلم داود كان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة ، وعلم سليمان لوجدان بلقيس وتسخير الجن ، وعلم عيسى ﴿ع﴾ لزوال التهمة عن أُمه ، وعلم محمد صلوات الله عليه كان سبباً لحصول الشفاعة .

قال بعض العلماء : إن آدم من علم أسماء المخلوقات وجد التحية من الملائكة بل تحية الرب ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ . والخضر ﴿ع﴾ وجد بعلم الفراسة صحبة موسى ﴿ع﴾ ، فأُمة الحبيب كيف لا يجدون بعلم الحقيقة صحبة محمد ﴿ص﴾ ، ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ ، ويوسف ﴿ع﴾ بتأويل الرؤيا نجي من حبس الدنيا . فمن كان عالماً بتأويل كتاب الله كيف لا ينجو من حبس

الشبهات ، ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ . وأيضاً فان يوسف ﴿ع﴾ ذكر منة الله على نفسه حيث قال : ﴿ وعلمتني من تأويل الأحاديث ﴾ . فانت يا عالم أما تذكر منته على نفسك حيث علمك تفسير كتابه ، فأي نعمة أجل مما أعطاك الله ، حيث جعلك مفسراً لكلامه المجيد ، وسمياً لنفسه ووارثاً لنبيه ، وداعياً لخلقه وعباده وسراجاً لأهل بلاده ، وقائداً للخلق الى جنته وثوابه ، ورادعاً لهم عن ناره وعقابه كما جاء في الحديث : ﴿ العلماء ورثة الأنبياء ، العلماء سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة ﴾

قال بعض المحققين العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بالله وبأمر الله ، أما الأول فهو عبد استولت المعرفة الالهية على قلبه فصار مستغرقاً بمشاهدة نور الجلال وصفحات الكبرياء . فلا يتفرغ لتعلم علم الاحكام إلا ما لا بد منه ، الثاني هو الذي يكون عالماً بأمر الله وغير عالم بالله وهو الذي عرف الحلال والحرام وحقائق الاحكام لكنه لا يعرف أسرار جلال الله أما العالم بالله وبأحكام الله فهو جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات ، فهو تارة مع الله بالحب له وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة . فاذا رجع من ربه الى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنه لا يعرف الله ، وإذا خلا بربه مشتغلا بذكره وخدمته فكأنه لا يعرف الخلق ، فهذا سبيل المرسلين والصديقين وهذا هو المراد بقوله ﴿ص﴾ : ﴿ سائل العلماء وخالط الحلماء وجالس الكبراء ﴾ فالمراد من قوله سائل العلماء أي العلماء بأمر الله غير العالمين بالله ، فأمر ﴿ص﴾ بمسائلتهم عند الحاجة الى الاستفتاء منهم .

وأما الحلماء فهم العالمون بالله الذين لا يعلمون أوامر الله فأمر بمخالطتهم . وأما الكبراء فهم العالمون بالله وبأحكام الله فأمر بمجالستهم ، لأن فى تلك المجالسة منافع الدنيا والآخرة . ثم قال شقيق البلخي لكل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاث علامات : أما العالم بأمر الله فله ثلاث علامات : أن يكون ذاكراً باللسان دون القلب

وأن يكون خائفاً من الخلق دون الرب ، وأن يستحي من الناس في الظاهر ولا يستحي من الله في السر ، وأما العالم بالله : فانه يكون ذاكراً خائفاً مستحيياً أما الذكر فذكر القلب لا ذكر اللسان ، وأما الخوف فخوف الرياء لا خوف المعصية ، وأما الحياء فحياء ما يخطر على القلب لاحياء الظاهر ، وأما العالم بالله وبأمر الله ، فله ستة أشياء : الثلاثة التي ذكرناها للعالم بالله فقط مع ثلاثة اخرى ، كونه جالساً على الحد المشترك بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وكونه معلماً للقسمين الأولين ، وكونه بحيث يحتاج الفريقان الأولان اليه وهو يستغني عنهما ، ثم قال مثل العالم بالله وبأمر الله كمثل الشمس لا يزيد ولا ينقص ، ومثل العالم بالله فقط كمثل القمر يكمل تارة وينقص تارة اخرى ، ومثل العالم بالله فقط كمثل السراج يحرق نفسه ويضيء لغيره .

قال فتح الموصلي أليس المريض إذا امتنع عنه الطعام والشراب والدواء يموت فكذا القلب إذا امتنع عنه العلم والفكر والحكمة يموت . قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ السيل ههنا : العلم شبهه الله تعالى بالماء لخمس خصال أحدها كما أن المطر ينزل من السماء كذلك العلم ينزل من السماء ، والثاني كما أن اصلاح الارض بالمطر فاصلاح الخلق بالعلم ، الثالث كما أن الزرع والنبات لا يخرج بغير المطر كذلك الاعمال والطاعات لا تخرج بغير العلم ، والرابع كما أن المطر فرع الرعد والبرق ، كذلك العلم فانه فرع الوعد والوعيد ، الخامس كما أن المطر نافع وضار ، كذلك العلم نافع وضار ، نافع لمن عمل به ، ضار لمن لم يعمل به .

الدنيا بستان زينت بخمسة أشياء : علم العلماء ، وعدل الامراء ، وعبادة العباد وأمانة التجار ، ونصيحة المحترفين ، فجاء إبليس بخمسة أعلام فأقامها بجنب هذه الخمسة ، جاء بالحسد فركزه في جنب العلم ، وجاء بالجور فركزه بجنب العدل ، وجاء بالرياء فركزه بجنب العبادة ، وجاء بالخيانة فركزها بجنب الامانة ، وجاء بالغش فركزه بجنب النصيحة .

إذا أردت أن تعلم أن علمك ينفعك أم لا فاطلب من نفسك خمس خصال : حب الفقر لقلة المؤنة ، وحب الطاعة طلباً للثواب ، وحب الزهد في الدنيا طلباً للفراغ ، وحب الحكمة طلباً لصلاح القلب ، وحب الخلوة طلباً لمناجاة الرب . اطلب خمسة في خمسة : الاول اطلب العز فى التواضع لا فى المال والعشيرة ، والثاني : اطلب الغنى في القناعة لا فى الكثرة ، والثالث : اطلب الأمن فى الجنة لا في الدنيا ، والرابع : اطلب الراحة فى القلة لا في الكثرة ، والخامس : اطلب منفعة العلم في العمل لا في كثرة الرواية .

قال ابن المبارك ما جاء فساد هذه الامة إلا من قبل الخواص وهم خمسة : العلماء والغزاة والزهاد والتجار والولاة . أما العلماء فهم ورثة الانبياء ، وأما الزهاد فعماد أهل الارض ، وأما الغزاة فجند الله في الارض ، وأما التجار فامناء الله في أرضه وأما الولاة فهم الرعاة . فاذا كان العالم للدين واضعاً وللمال رافعاً فبمن يقتدي الجاهل ؟ وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً فبمن يقتدي التائب ؟ وإذا كان الغازي طامعاً مرائياً فكيف يظفر بالعدو ، وإذا كان التاجر خائناً فكيف تحصل الامانة ، وإذا كان الراعي ذئباً فكيف تحصل الرعاية ؟ .

قال علي أمير المؤمنين ﴿ع﴾ العلم أفضل من المال بسبعة أوجه ، أولها : العلم ميراث الانبياء ، والمال ميراث الفراعنة ، والثاني : العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص والثالث : يحتاج المال الى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه ، والرابع : اذا مات الرجل يبقى ماله ، والعلم يدخل مع صاحبه قبره ، والخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن ، والسادس : جميع الناس يحتاجون الى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون الى صاحب المال ، السابع : العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط ، والمال يمنعه .

قال الفقيه أبو الليث إن من يجلس عند العالم ولا يقدر أن يحفظ من ذلك

العلم شيئاً فله سبع كرامات ، أولها : ينال فضل المتعلمين ، والثاني : ما دام جالساً عنده كان محبوساً عن الذنوب ، والثالث : إذا خرج من منزله طلباً للعلم نزلت الرحمة عليه والرابع : إذا جلس في حلقة العلم فاذا نزلت الرحمة عليهم حصل له منها نصيب ، والخامس : ما دام يكون في الاستماع تكتب له طاعة ، والسادس : إذا استمع ولم يفهم ضاق قلبه لحرمانه عن ادراك العلم فيصير ذلك الغم وسيلة له الى حضرة الله تعالى لقوله عز وجل : « أنا عند المنكسرة قلوبهم لاجلي » ، والسابع : يرى إعزاز المسلمين للعالم واذلالهم للفساق فيرد قلبه عن الفسق ويميل طبعه الى العلم ، فلهذا أمر صلى الله عليه وآله بمجالسة الصالحين . وقال أيضاً : من جلس مع ثمانية أصناف من الناس زاده الله ثمانية أشياء ، من جلس مع الاغنياء زاده الله حب الدنيا والرغبة فيها ومن جلس مع الفقراء جعل الله له الشكر والرضا بقسمة الله ، ومن جلس مع السلطان زاده الله القسوة والكبر ، ومن جلس مع النساء زاده الله الجهل والشهوة ومن جلس مع الصبيان ازداد من اللهو والمزاح ، ومن جلس مع الفساق ازداد من الجرءة على الذنوب وتسويف التوبة ، ومن جلس مع الصالحين ازداد رغبة في الطاعات ، ومن جلس مع العلماء ازداد العلم والورع .

المؤمن لا يرغب في طلب العلم حتى يرى ست خصال من نفسه ، أحدها أن يقول إن الله أمرني بأداء الفرائض وأنا لا أقدر على أدائها إلا بالعلم ، الثانية أن يقول نهاني عن المعاصي وأنا لا أقدر على اجتنابها إلا بالعلم ، الثالثة : إنه تعالى أوجب علي شكر نعمه ولا أقدر عليها إلا بالعلم ، والرابعة أمرني بانصاف الخلق وأنا لا أقدر أن أنصفهم إلا بالعلم ، والخامسة إن الله أمرني بالصبر على بلائه ولا أقدر عليه إلا بالعلم والسادسة إن الله أمرني بالعداوة مع الشيطان ولا أقدر عليها إلا بالعلم

طريق الجنة في أيدي أربعة : العالم والزاهد والعابد والجاهد فالزاهد إذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الأمن ، والعابد اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله

الخوف ، والمجاهد اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الثناء والحمد ، والعالم اذا كان صادقاً في دعواه يرزقه الله الحكمة .

اطلب أربعة من أربعة : من الموضع السلامة ، ومن الصاحب الكرامة ، ومن المال الفراغة ، ومن العلم المنفعة ، فاذا لم تجد من الموضع السلامة فالسجن خير منه ، واذا لم تجد من صاحبك الكرامة فالكلب خير منه ، واذا لم تجد من مالك الفراغة فالمدر خير منه ، واذا لم تجد من العلم المنفعة فالموت خير منه .

لا تتم أربعة أشياء إلا بأربعة أشياء : لا يتم الدين إلا بالتقوى ، ولا يتم القول إلا بالفعل ، ولا تتم المروءة إلا بالتواضع ، ولا يتم العامل إلا بالعمل فالدين بلا تقوى على الخطر ، والقول بلا فعل كالهذر والمروءة بلا تواضع كشجر بلا ثمر ، والعلم بلا عمل كغيث بلا مطر .

قال علي أمير المؤمنين «ع» لجابر بن عبد الله الانصاري : « قوام الدنيا بأربعة : بعالم يعمل بعلمه ، وجاهل لا يستنكف من تعلمه ، وغني لا يبخل بماله ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه . فاذا لم يعمل العالم بعلمه استنكف الجاهل من تعلمه وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه ، فالويل لهم والثبور سبعين مرة .

أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منها وان كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه وخدمته لضيفه وخدمته للعالم الذي يتعلم منه والسؤآل عما لا يعلم ممن أعلم منه

إذا اشتغل العلماء بجمع الحلال صار العوام آكلين للشبهات ، وإذا صار العالم آكلاً للشبهات صار العامي آكلاً للحرام ، وإذا صار العالم آكلاً للحرام صار العامي كافراً ؟

العلم وتطوراته

بسم الله الرحمن الرحيم

(وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هـدى فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى الخ . «١»

إن القصص في القرآن اُريد بها بعث الهمم وشحذ الأذهان . إن هذه الامم الاسلامية التي نامت في القرون المتأخرة ستستيقظ من رقدتها بمزاولة القرآن واستكناه معانيه ، وما مثل المسلم حين يقرأ علماً أو يستفيد حكمة من أي فرع من فروع العلوم العلوية أو السفلية الحسية والعقلية إلا كمثل رجل رأى قافلة مقبلة وأهله في منزله لا قوت عندهم وقد انتظروا الطعام وأنواع الأمتعة من هذه القافلة ، أو رأى سحائب أقبلت وهو في أشد الجوع والعطش فأقبل اليهم يقول بشراكم ها هي ذه القافلة أقبلت أو ها هي ذه السحائب ستمطركم . وهذه عادة كل امرىء مع من يتصل به فهو اذا رأى مغنماً قد اقترب وهم في انتظاره أسرع اليهم وبشرهم . وهل هذه إلا حال موسى «ع» رأى ناراً وهو متعب في طلب « أمرين » الهداية لله والدفء

«١» سورة طه الآية ٨ - ١٣ .

لأهله التي تضع ولا مغيث لها ولا معين في صحراء (طورسيناء) فأراه الله النار في شجرة العليق فبشر أهله بها . وهل هذه القصة جاءت لمجرد حفظها أو فهمها أو معرفة بلاغتها أو مجرد الايمان بها . كلا . كلا والله فهذه مرتبة العجائز وصغار المتعلمين .

أيها المسلمون لا يغرنكم البلغاء ولا الشعراء ولا صغار العلماء ، أولا يعلم المسلمون في أقطار الارض ان كتب الحكماء ككتاب « كليلة ودمنة » الذي جاء على ألسنة الحيوانات قد قبلته جميع الامم ؟ وهذه الحوادث التي فيه كحادثة ابن الملك والطائر (فنزه) فان هذا الطائر كان له فرخ يلعب به ابن الملك فذرق في حجره فقتله فأقبل الطائر ففقأ عين ابن الملك اقتصاصاً لابنه ، فأراد الملك أن يخدع الطائر ويقول له اقبل ويكون بيننا الصلح فعلم الطائر انه يريد الغدر به فلم يقبل ، وكانت نتيجة ذلك هذه الحكمة (وهي انه لا أمان لعدو قوي له علينا ثأر وإن أظهر لنا تضرعاً وملقا) .

وكحادثة الجرذ والسنور إذ ضرب مثلا ـ لرجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب فأشرف على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ، ثم وفى لمن صالحه منهم ـ ذلك ان الجرذ خرج يوماً فرأى السنور وقع في شبكة الصياد ورأى ابن عرس خلفه يريد أخذه وفي الشجرة بوم يريد اختطافه أيضاً فصالح السنور وهو أحد أعدائه لينجو منه ومن الباقي فقطع حباله إلا واحداً حتى لا يغتاله السنور ، ولما رأى ابن عرس والبوم اقترابه من عدوهما يئسا منه وانصرفا ، فلما أقبل الصياد نحو السنور أقبل الجرذ فقطع الحبل الباقي فنجا السنور بذلك كما نجا الجرذ وانتهى الأمر .

فهاتان الحادثتان يفرح بهما الاطفال والجهال باعتبار ظواهرهما . أما رجال السياسة ورجال الحكمة وهم سادات الامم في الدنيا والدين فانهم يقولون (إن المقصد ان الافراد والامم عليهم انهم إذا وقعوا في ورطة وتألبت عليهم الأعداء أن يصالحوا

بعضهم مع الاحتراس ، وبهـذه المصالحة ينجون من بقية الأعداء ومن نفس ذلك العدو الذي صالحوه) .

وهذه الامم الاسلامية إذا قرأت هذه السورة تفهم فوق ما يفهمه الجهلاء فماذا يقولون ؟ يقولون إن كل عاقل فى الارض ـ لا سيا المسلمين ـ عليه أن يسعى لغرضين : الاول اصلاح حال الامة من حيث الامور المادية ، الثاني : اصلاحها من حيث الهداية العلمية ، وهذان يجمعها القبس والهداية ، فالأول مادي والثاني عقلي . وهذا هو نظام الامم جميعها ، فلا نظام لأمة تخرج عن هذين الأصلين . وإذا كنا نجد مصالحة الجرذ للسنور ونجاته من ابن عرس والبوم جعلت رمزاً لمصالحة بعض الدول المعادية أو الجماعات للنجاة من الجميع وهـذا سر كلام فيلسوف مخلوق ، أفلا يكون كلام الله أولى باستنتاج الحكمة والعلم والعرفان ؟ .

أنزل الله تعالى على نبيه محمد (ص) قصة موسى (ع) ليأتم به فى تحمل اعباء الرسالة ومشاقها فقال تعالى : « وهل أتاك يا محمد حديث موسى إذ رأى ناراً » .

ذلك أنه استأذن شعيباً (ع) في الخروج الى امه وأن يخرج بأهله من مدين الى مصر فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً ، فسار في البرية غير عارف لطرقها فالجأه المسير الى جانب الطور الغربي الأيمن ، وذلك في ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد ، فأخذت امرأته في الطاق فأخذ زنده فجعل يقدحه فلا يوري فأبصر ناراً من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور ، فقال لأهله : امكثوا اني آنست ناراً ـ أي أبصرت ناراً ـ لعلي آتيكم منها بقبس ـ أي شعلة من النار أو جمرة « أو أجد على النار هدى » هادياً يدلني على الطريق أو يدلني على الله تعالى .

وتوجيه المعنى الثاني : إن الأبرار مفطورون على التوجه لمعرفة الله تعالى فهم

ينشدونها في كل زمان ومكان لأدنى مناسبة وقلوبهم أقرب لذكر الله ، إذا رأوا نوراً مشرقاً فهم يذكرونه عندالغروب والشروق ، فكان طلب موسى لمن يهديه لربه حين نظر النور أمراً أوجبته فطرته ، فقال أو أجد فوق المكان القريب من النار هادياً ، فالمستعلي هو الهادي المترقب والمستعلى عليه المكان القريب من النار . (فلما أتاها) ، أي النار ، وجد ناراً بيضاء تتقد من شجرة كأضوأ ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار . وكان موسى كلما دنا نأت عنه الشجرة وإذا نأى دنت منه ، فوقف متحيراً وسمع تسبيح الملائكة والقيت عليه السكينة فهنالك « نودي يا موسى » ، قال من المتكلم ؟ « قال إني أنا ربك » ، فوسوس اليه الشيطان قائلا لعلك تسمع كلام الشيطان ، فقال أنا عرفت انه كلام الله بأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الاعضاء . وهـذا معناه ان المعاني القيت على روحه ثم اشرب بها قلبه اشراباً حتى فاضت على الحس المشترك ، « والحس المشترك هو القوة المودعة في الدماغ التي هي قابلة لما يرد في الحواس من العلوم فتوصله للعقل » .

وهنا عكس الامر فجاء العلم من داخل النفس وانتقش فيه فلهذا رمز بأنه من جميع الجهات أي أنه ليس من جهة خاصة بل من النفس ، والنفس لا جهة لها بل هي أمر فوق الجهات كلها ، كما أنه تعالى ليس في مكان بل كل مكان تحت أمره . ثم أمره تعالى أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال تعالى : « فاخلع نعليك » ، وعلل ذلك بقوله : « إنك بالواد المقدس طوى » .

وفيه « تنبيه » انقابلية العلم لا تكون إلا مع أمرين « طهارة النفس من الخبائث كما خلع موسى نعليه الذين هما من جلد حمار ميت » ، وخلع النفس من التعلق بمتاع الدنيا الذي هو العائق الأكبر عن تحصيل العلم .

الاسلام دين علم وعمل ، ولما ضلت الممالك الاسلامية الكبرى سواء السبيل جهلت العلوم الكونية والعقلية صاروا لم يصلحوا لهداية العالم المتعلم فنبذهم الاسلام فلم

ينصروا على أعدائهم من الاوربيين ، وأصبحوا يلتمسون العلوم من الامم الاوربية ويستضيؤن بأنوارهم ويهتدون بهديهم ويرتوون من مواردهم ويكرعون من مشاربهم، أو ليس ذلك دليلا على أن الامم الاسلامية الكبرى جهلت الحقائق وظنت أن المسلم لا يعنيه العلم بل الجهل يكفيه والقوت يرضيه وهو غافل عما أبدع الله في الارض والسموات وبرأ فيهما من البدائع وأحسن فيهما من صنع وأبدع وأجاد وذرأ من كل زوج بهيج .

لهذا السبب ذهبت الامم الاسلامية فأصبحوا لا تُرى إلا آثار آبائهم لأن الجهل بالعلوم خيّم فيما بينهم وضرب عليهم سرادقاته فضربهم الدهر ضرباته فذل العزيز وعز الذليل وخضع العظيم وعظم الحقير .

فاذا وجدنا أن الذين يتغلبون على كثير من النواحي والامم إنما تغلبوا بتنافسهم في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات وبذل الأموال في صون الاعراض وتعظيم الشريعة واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم . فاذا علمنا ذلك فى المتغلبين علمنا أن هذه أخلاق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم وانه خير ساقه الله تعالى اليهم ، وبالعكس من ذلك إذا أذن الله بانقراض الملك من أُمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعياً عليهم في سلب ما كان الله تعالى قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير

وإنما ذكرت هذه الكلمات مع طولها لأنها هي القاعدة التي سأبني عليها ما سأذكره من أن حب العلم وتعظيم العلماء واكرامهم هو محور الرقي ، وبضدها تتميز الأشياء وانه ما من أُمة أو دولة ناوأت العلم والعلماء إلا ونأت عن العز وجانبت الخير والسعادة وكانت الى الموت أقرب منها الى الحياة .

فهناك العصر العباسي الذي ابتدأ سنة ١٣٢ هـ أي من سقوط الدولة الأموية الى سقوط بغداد على يد « هولاكو » سنة ٦٥٦ هـ ، لقد كان الرشيد والمأمون وقبلهما المنصور والهادي والمهدي كل هؤلاء كانوا يكرمون العلماء ويحرصون على نشر العلم ، وهذا أمر مشتهر عنهم ، لذلك زهت الدولة في عصرهم واتسع نطاقها وارتفع رواقها الى أن جاء المتوكل انحرف كل الانحراف على العلماء ، فقد قتل ابن السكيت الرجل الشهير والعالم النحرير مفخرة العراق وغرة جبهة الدهر ، وغضب على (بختيشوع) الطبيب وقبض ماله ونفاه الى البحرين ، وسخط على عمر بن مصرّح الراجحي وكان من علية الكتاب ، فاضطربت لذلك الاحوال واستفحل شأن الاتراك ونفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب ، فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً .

أفلا ترى عقاب الله للدولة ، أفلا تراه كيف أنزل العقاب صارماً على الامة على ما فعله المتوكل ؟ إذ قتل بعض العلماء ونفى بعضاً وصفع بعضاً ، فقُتل من أجل ذلك هو أولا ثم اختلت المملكة وقويت شوكة العامة على الملوك وهاجر العلم من بغداد فالمتوكل وأمثاله لم يقولوا ربي زدني علماً كما أُمروا ، بل قالوا ربي زدني جهلا وهذا كقوله تعالى في سورة سبأ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم »«١».

إن أهل سبأ لم يطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم ، بل كان فعلهم من التخريب والسلب والنهب أوجب ذلك تخويت البلاد وطالت مسافات السفر فى القفر بعد اتساع نطاق العمارة . هكذا هنا لم يقل المتوكل ربي زدني جهلا وإنما جرى على اسلوب لا يوافق ازدياد العلم كما امر في الآيه فتمت كلمة العذاب عليه فهذا مصداق ماقلته من أن احترام العلم والعلماء علامة الرفعة والعكس بالعكس .

«١» سررة سبأ الآية ١٩ .

عز العلم فى ظل الدولة البويهية

أنصار هذه الدولة الديلم من الجيلان وراء خراسان . وآل بويه يرتفعون في نسبهم الى ملوك الفرس القدماء ، وجد آل بويه اسمه (بويه) ولقبه أبو شجاع له ثلاثة أبناء هم : علي ولقبه عماد الدولة ، وحسن ولقبه ركن الدولة ، وأحمد ولقبه معز الدولة .

كان آل بويه هؤلاء يحبون العلم والادب ، وكان وزراؤهم من العلماء والشعراء والكتاب كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن اردشير المهلبي ، بل نفس ملوك آل بويه اشتهر بعضهم في العلم والأدب مثل عضدالدولة وقد قرب اليه العلماء واستحثهم على تأليف الكتب ، فألف له أبو اسحاق الصابي كتاباً في أخبار آل بويه ، وألف له أبو علي الفارسي كتاب « الايضاح والتكملة » فى النحو ، وقصده الشعراء من كل صوب كالمتنبيء والسلامي وغيرهم . ومن شغفه بالشعر تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الانباري التي مطلعها .

علوٌ في الحياة وفي الممات   لعمرك تلك احدى المعجزات

وقد كانت عظمة دولتهم كلها ترجع لنصرهم العلم وشدة رغبتهم فيه . فانظر كيف كان ركن الدولة ابن بويه في الري وهمدان واصبهان مستوزراً ابن العميد الكاتب الشهير ، وهكذا بهاء الدولة ابن عضد الدولة فى العراق والاهواز استوزر سابور بن اردشير فأنشأ هذا الوزير فى كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على افادة الناس . قال ياقوت : لم يكن فى الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة ، وقد كان الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة ابن ركن الدولة ، ثم وزر لأخيه فخر الدولة وكان له عشرات من أهل العلم والأدب يقيمون عنده وعشرات يفدون عليه .

عز العلم فى ظل الدولة السامانية فى تركستان

رأس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ ، واعقابه هم الذين أنشأوا دولة عظيمة فى خراسان وتركستان ، وزهت في أيامهم بخارى فكانت مجمع الادباء والعلماء والشعراء ، واشتهرت نيسابور وانشئت فيها أقدم المدارس الاسلامية . وملوك هذه الدولة عشرة اشتهر كثير منهم بالعلم والأدب . منهم منصور بن نوح الذي استوزر البلعمي العالم الفارسي فترجم له تاريخ الطبري الى اللغة الفارسية : وخلفه ابنه نوح وهو الذي اقترح نظم الشاهنامة « الياذة الفرس » في الفارسية ، اقترح ذلك على شاعره الدقيق فنظم له بعضها ولما قتل اتمها الفردوسي بعده باشارة السلطان محمود الغزنوي ، ولما سمع نوح بشهرة الصاحب بن عباد وزير البويهيين كتب اليه سراً يستدعيه الى بخارى ليفوض اليه وزارته وتدبير مملكته ، فاعتذر الصاحب اليه بأن كتبه تحتاج في نقلها الى أربعمائة جمل .

واتسع العلم في زمن الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند وكان أعظم ملوك هذه الدولة السلطان محمود من ٣٨٨ الى سنة ٤٦١ هج صاحب الفتوحات العظيمة ، وهو الذي اخترع المدفع وبه فتح بلاد الهند لما تعسر عليه فتحه . كان محمود هذا لا يسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه اليه وكتب الى مأمون بن مأمون أمير خوارزم (علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فارسلهم الي ليتشرف مجلسي بهم ونستفيد من علمهم)

إن إكرام العلماء كان في نظر أهل ذلك العصر من أسباب الابهة وأدلة الحضارة . فهذا وأمثاله من الامم الفارسية أكرموا العلماء وعظموا العلم وتنافسوا فيه لأن لهم سابقة فى ذلك وهم الأكاسرة ـ ملوك الفرس ـ اولئك الذين شادوا للعلم مناراً ورفعوا له قدرا وهؤلاء الملوك على آثارهم يهرعون وبهم يقتدون وعليهم يقومون

فهل يعلم ذلك امراء العرب بالجزيرة اليوم ان لآبائهم دولة كانت شامخة الذرى رفيعة القدر ، فهل يشرّفون آباءهم باحتذائهم حذوهم كما فعل اولئك الفارسيون ؟ .

إن هؤلاء الملوك الفارسيين سواء أكانوا من البويهيين أو السامانيين قد نزعوا في إكرام العلماء الى ما نزع اليه كسرى إذ أرسل برزويه الطبيب الفارسي الى بلاد الهند ليترجم له كتاب كليلة ودمنة ، فتوجه الطبيب المذكور خفية الى الهند وبقي مختفياً فيها مدة من السنين يحاول تدبير الحيلة في الدخول الى المكتبة الى أن أمكنته الفرصة فترجم الكتاب - أي نقله من اللغة الهندية الى اللغة الفارسية - ورجع به وقرأه على الملك ووجوه القوم ، فأكرم مثواه وأنزله المنزلة السامية وخلع عليه وقال له خذ ما تشاء من الأموال فقال كلا ثم كلا ولكني اريد أن يكتب وزيرك تأريخ حياتي في مقدمة الكتاب تشريفاً لي ، ففعل وكتب تاريخ حياته وانه تولّد من أبوين شريفين ، وانه طلب العلم لله والدار الآخرة لا للجاه ولا للمال ، وانه كان يأخذ على التطبيب أجراً عظيما من الأغنياء ويصرفه على الفقراء المرضى ويواسيهم من جيبه الخاص ، وانه كان يعتقد ان من طلب العلم لأجل العلم ولله نال الدنيا مع العلم ، ومن تعلم العلم للدنيا فقط لم ينل حظ الآخرة . فطالب العلم اما أن يكون عمله كالحنطة أو كالكلاء فزرع الحنطة ينفع للانسان والحيوان ، وزرع الكلاء لا يفيد إلا البهائم فمن طلب الأعلى نال معه الأدنى ، ومن طلب الأدنى لم ينل الأعلى .

رقي العلم بالأندلس في عصر الدولة المروانية

كان الناصر وابنه الحكم محبين للعلم معظمين للعلماء وكان الفقهاء والادباء يحضرون مجالسهما ، وكان الناصر مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها ما لم يجمعه أحد قبله وأنشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من أنحاء العالم ، كان يبعث في شرائها رجلا من التجار ومعه الاموال يحرضه على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب ، وكان أبو الفرج الاصبهاني صاحب الأغاني معاصراً له وهو أموي فبذل له ألف دينار ذهب على أن يرسل اليه كتاب الأغاني قبل اخراجه الى بني العباس ، وكانت فهارس الدواوين وحدها « ٤٤ » فهرساً ، في كل فهرس

عشرون ورقة . قال بعضهم فاذا قدّرنا للصفحة « ٢٥ » اسماً فقط كان مجموع عدد الدواوين « ٤٤٠٠٠ » كتاب فكيف بسائر الكتب ، يقول ابن خلدون : إن مجموع ما حوته تلك المكتبة « ٤٤٠٠،٠٠٠ » .

رقي العلم في الدولة الفاطمية بمصر

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٧ هج وقد نبغ في تنشيط العلم منهم اثنان العزيز بالله سنة ٣٦٥ الى سنة ٣٨٦ ، والحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ الى سنة ٤١١ فأنشأ خزائن الكتب فيها مئآت الآلاف من المجلدات في العلوم في مكتبته التي تسمى « دار الحكمة » أو « دار العلم » ، وقد أباح فيها المناظرة للمترددين اليها وسهل لهم المطالعة والنسخ ، وأنشأ المرصد الحاكمي وبناه على جبل المقطم وبقي عمدة الراصدين حتى بنى نصير الدين الطوسي مرصده في مراغة بتركستان سنة ٦٥٧ هج .

لسائل أن يسألني عن هذه الذخائر العلمية والنفائس الغالية ما صنع الدهر بها لعلي أجيب بأن الأيوبيين الذين ورثوا ملك الفاطميين أنزلوا غضبهم ونقمتهم على مكتبات الفاطميين فأبادوها وأحرقوها وقذفوا بها الى تلال المقطم فضاعت هذه الكنوز العلمية الثمينة بسبب التعصب الأعمى وخسرها العالم الاسلامي ، وهذه خيانة وجناية كبرى ويد أثيمة من الأيوبيين على الاسلام والمسلمين والعلم .

ذكر الشيخ الطنطاوي في مجلد ٩ من تفسيره ص ١٧٥ : « ان صلاح الدين الأيوبي انتزع الخلافة من الفاطميين وجعلها لنفسه ، وعدا على الاسرة الفاطمية أولاد علي وفاطمة فأفناها عن آخرها وجعلهم في بيوت خاصة ـ أي سجون ـ وفرّق بين الرجال والنساء حتى لا يتوالدوا كما صنع فرعون موسى في بني إسرائيل ثم عدا على قبورهم فهدمها عن آخرها ، وأمر الناس أن يبنوا عليها بنياناً حتى لا تكون لهم قبور تزار ولا أسماء تذكر ، وكذا ذكر المقريزي في خططه من تاريخ مصر من الفظايع التي عملها معهم مما يقرح قلب كل مسلم عربي غيور .

الى هنا انتهى ما أردت ذكره من تعاون امراء الاسلام وملوكهم على نصر العلم وحب العلماء وان ذلك هو رأس الأمر وملاكه .

فحب العلم وتعظيم العلماء إذا حلَّ بأُمة فتح لها باب الفضائل وسائر أخلاق الكمال ، وذلك إيذان من الله بأنهم يملكون زمام السياسة ، وإذا ادبر عن الامة هذا الحب نفرت منهم سائر الفضائل ويتبعها ذهاب الدولة ، ولقد عجبت لأُمم الاسلام المتأخرة كيف ضلوا وجهلوا ؟ ولله عاقبة الامور .

هذه هي الصورة الواضحة الظاهرة الجميلة من تعاون امراء الاسلام على نصر العلم واحترام العلماء وحبهم ، وكيف رأينا المجد والعز يصاحب العلم ، فلما أن نسوا ذلك وتأخروا عن نصر العلم وتباعدوا عن العلماء وأحرقوا كتبهم انحطت الامم الاسلامية ، ولم يمض أقل من قرن حتى دخل هولاكو بغداد وسلط الله عليهم الحروب الصليبية وهجم المغول والتتار فاكتسحوا ما بالمكاتب من الكتب وأحرقوا منها الوفاً لا تحصى .

فلما كره المسلمون العلم فر منهم الى اوربا وتنافس ملوكها في عصرنا على حب العلماء كما كان في الدول الاسلامية قبل اليوم .

إن العلم لما حماه المسلمون بقي عندهم وأعزدوهم ، ولما أهانوه وأهانوا حامليه وأحرقوا كتبه التجأ الى الامم المسيحية وقرت عينه هناك بهم .

الطب وأثره في الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين «١» .

قال تعالى : (واتل عليهم) يا محمد - أي على مشركي العرب - (نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) أي أي شيء تعبدون ؟ وهذا الاستفهام للاستخفاف بما يعبدون وانه لا يستحق العبادة (قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين) ، أي نقيم على عبادتها ليلاً ونهاراً ، (قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟) أي هل يجيبكم الآلهة إذا دعوتموهم ؟ (أو ينفعوكم) في معايشكم إذا أطعتموهم (أو يضرون) في معايشكم إذا عصيتموهم ؟ « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » يعبدونها فنحن نعبدهم مقتدين بهم ، قال ابراهيم «ع» (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون)

«١» سورة الشعراء الاية ٦٨ - ٨٠ .

« فأنهم عدوٌ لي » أي أعداء لعابديهم لأن عبادتهم أضر على العابدين من الأعداء « إلا رب العالمين » استثناء منقطع أي ولكن رب العالمين ، ثم وصفه بجملة صفات ترجع الى افاضة الخير والنعمة على العبد .

« ١ » خلقه من نطفة ، « ٢ » هداه لثدي اُمه ولما بعده من امور المعاش والعلم واصلاح نفسه ، « ٣ » انعم عليه بالطعام والشراب لبقاء بدنه ،« ٤ » انعم عليه بالشفاء إذا مرض وذلك اما بالعقاقير واما باجابة الدعاء .

يقول جلا وعلا على لسان ابراهيم : « وإذا مرضت فهو يشفين » نسب الشفاء لله ليفتح لنا باب البحث والنظر في أمر الشفاء وعلم الطب ، فان العلماء لما بحثوا في أصل الطب من أين جاء تحيروا ولكن بعد اللتيا والتي وجدوه لا يعدو « ثلاثة أحوال » .

الحالة الاولى : التجربة ، الحالة الثانية الالهام ، الحالة الثالثة : المصادفة والاتفاق . فهذه الأحوال الثلاث هي اصول الطب .

الحال الاولى

« ١ » يقولون إن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بأمراض كثيرة ، منها ضعف المعدة ، ومنها امتلاء الصدر باخلاط رديئة ، ومنها احتباس حيضها ، فاتفق انها أكلت « الراسن » مراراً كثيرة بشهوة ، فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت الى صحتها ، فلما سمع به الناس استعملوه فبرئوا من ذلك المرض

« ٢ » إن رجلاً اشترى كبداً طرية من جزّار ومضى الى بيته ، فاحتاج أن ينصرف في حاجة اخرى فوضع تلك الكبد المشتراة علىأوراق نبات مبسوطة كانت على وجه الارض ثم قضى حاجته وعاد ليأخذ الكبد فوجدها قد ذابت وسالت دماً فأخذ تلك الأوراق وعرف ذلك النبات وصار يبيعه دواء للتلف حتى فطن به وامر

بقتله وأمر أن تشد عيناه في وقت مروره الى القتل حتى لا ينظر الى ذلك النبات أو أن يشير الى أحد نحوه فيتعلم منه .

« ٣ » حدث جمال الدين النقاش السعودي : ان في لحف الجبل الذي بناحية « اسعرد » عشباً كثيراً ، وان رجلاً نام على نبات هناك فلم يزل نائماً حتى رآه الناس والدم يسيح من أنفه ومن مخرجه فتعجبوا ، حتى ظهر لهم أن ذلك من النبات الذي نام عليه ـ والنبات أشبه بالهندبا ـ وهو مر المذاق ، وان كثيراً من الناس يقربونه من انوفهم ويستنشقونه مراراً فيحدث لهم رعاف .

وملخصها ان أمثال هذه الحوادث تنبه الأذكياء الى البحث والتنقيب حتى يركبوا أدوية كثيرة باجتهادهم هذا ملخص أمر التجربة فى الطب .

الحال الثانية

الالهام وذلك بالرؤيا الصادقة

حكى « جالينوس » في كتابه في الفصد إذ فصد العرق الضارب لما أمر به ، قال : إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والابهام من اليد اليمنى ، فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري الى أن انقطع من تلقاء نفسه ، لأني كذلك أمرت في منامي ، فكان ما جرى أقل من رطل فسكن عني ـ بذلك المكان ـ وجع كنت أجده قديماً في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب ، وكنت في وقت ما عرض لي هذا غلاماً .

« ٤ » وقال جالينوس : (رأيت رجلا عظم لسانه وانتفخ حتى لم يسعه الفم فتحايلت في مداواته ، ففي ليلته رأى قائلا يقول له امسك في فمك عصارة الخس، فاستعمل هذه العصارة كما امر في المنام وبرأ برءاً تاماً ، ثم قال جالينوس في شرحه لكتاب « الايمان » لأبقراط ما نصه : وعامة الناس يشهدون أن الله تبارك وتعالى

هو الملهم لهم صناعة الطب من الاحلام والرؤيا التي تنقذهم من الأمراض الصعبة وذلك إنا نجد خلقاً كثيراً ممن لا يحصى عددهم أتاهم الشفاء من عند الله تبارك وتعالى بمثل ذلك .

(٥) قال (أريباسيوس) : إن رجلا عرض له في المثانة حجر عظيم ، قال وقد داويته بكل دواء فلم ينجح ، فلما اشرف على الهلاك رأى فى النوم إنساناً أقبل وفي يده طائر صغير الجثة ، فقال له هذا الطائر يكون بمواضع السباخات والآجام فخذه واحرقه وتناول من رماده حتى تسلم ، فلما انتبه فعل ذلك فخرج الحجر من مثانته مفتتاً كالرماد وبرأ برءاً تاماً .

﴿ ٦ ﴾ قال ابن أبي اصيبعة : ﴿ إن بعض خلفاء المغرب مرض مرضاً طويلا وتداوى كثيراً فلم ينتفع بها ، فرأى في بعض الليالي النبي (ص) في نومه فشكا له مايجده ، فقال ﴿ص﴾ : ﴿ ادهن بلاوكل لا تبرأ ، فلما انتبه من نومه بقي متعجباً من ذلك ولم يفهم ما معناه ، ولم يعرف المعبرون عنه شيئاً إلا علي بن أبي طالب القيرواني فانه قال : يا أمير المؤمنين إن النبي ﴿ص﴾ أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فتبرأ لأن الله يقول : ﴿ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ﴾ ، فلما استعمل ذلك صح وبرأ .

﴿ ٧ ﴾ قال ونقلت من خط علي بن رضوان في شرحه لكتاب جالينوس في فرق الطب ما نصه : ﴿ قد عرض لي منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء في عروق الرأس ففصدت فلم يسكن وأعدت الفصد مراراً وهو باق على حاله ، فرأيت جالينوس في النوم وقد أمرني أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات ، فلما بلغت الى آخر السابعة نسيت ما بي من الصداع وأمرني أن أحجم ﴿ القمحدوة ﴾ من الرأس ، ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان .

﴿ ٨ ﴾ قال عبد الملك بن زهر في كتاب التيسير : ﴿ إنني كنت قد اعتل

بصري من قيء افرط علي فعرض لي انتشار في الحدقتين دفعة ، فشغل بذلك بالي فرأيت فيما يرى النائم من كان في حياته يعني بأعمال الطب ، فأمرني في النوم بالاكتحال بشراب الورد وكنت لم أزل طالباً لم يكن لي حنكة في الصناعة فأخبرت أبي فنظر في الأمر ملياً ثم قال استعمل ما امرت به في نومك فانتفعت به ثم لم أزل استعمله الى وقت وضعي هذا الكتاب فى تقوية الأبصار . ومثل هذا أيضاً كثير مما يحصل بالرؤيا الصادقة ، فانه قد يعرض أحياناً لبعض الناس أن يروا فى منامهم صفات أدوية ممن يوجدهم إياها فيكون بها برؤهم ثم تشتهر بالمداواة بتلك الادوية فيما بعد .

الحال الثالثة

أن يكون قد حصل لهم شيء بالاتفاق والمصادفة مثل ما حصل لاندروماخس وغيره حيث عرف بالاتفاق أن سم الحياة يشفى بلحومها ، وهكذا كل سم لحيوان يمنع ضرره لحم ذلك الحيوان ، وهكذا يشفي كل مرض مزمن قوي بلحوم الحيات كالبرص والجذام . فان ابن أبي اصيبعة ذكر في عيون الأنباء في طبقات الأطباء أن « اندروماخس » الثاني وضع لحوم الأفاعي فى الترياق ، قالو الذي نشطه لذلك وأفرد ذهنه لتأليفه « ثلاثة أسباب » جرت على غير قصد وهذا كلامه . قال التجربة الاولى : إنه كان يعمل عندي في بعض ضياعي فى الموضع المعروف « بيورنوس » حرّاثون يحرثون الأرض للزرع ، وكان بيني وبين الموضع نحو فرسخين وكنت ابكر اليهم لأنظر ما ذا يعملون ؟ وذكر أن غلامه كان يحمل لهم زاداً وشراباً فاحضر لهم يوماً خمراً طيباً في اناء طين لم يفتح فلما فتحوه وجدوا فيه حية قد تهرّأت فقالوا إن ههنا رجلاً مجذوماً يريد أن يموت فاذا سقيناه أرحناه من الحياة ولنا ثواب عند الله فمضوا اليه فأعطوه زاداً وسقوه الخمر موقنين أنه لا يعيش يومه ، فلما قرب الليل انتفخ جسمه نفخاً عظيما ، فلما كانت الغداة سقط جلده الخارجي وظهر الجلد الداخلي الاحمر ولم يزل حتى صلب جلده و برأ وعاش دهراً طويلا من غير أن يشكو علته

حتى مات الموت الطبيعي . قال : فهذا دليل قاطع على أن لحوم الأفاعي ينفع من الأوصاب الشديدة والأمراض العتيقة في الأبدان .

وأما التجربة الثانية : فان « اندروماخس » كان له أخ يسمى (أبولنيوس) مساحاً من قبل الحكومة على الضياع فصادف يوماً في حمارة القيظ انه نام فنهشته أفعى في يده وكان قد ألقى يده على الأرض من شدة تعبه فانتبه بفزع وعلم أن الآفة قد لحقته ولم يكن به على القيام طاقة ليقتل الأفعى ، وأخذه الكرب والغشي فكتب وصية وضمنها اسمه ونسبه وموضع منزله وصفته وعلّق ذلك على الشجرة حتى إذا مات واجتازبه إنسان ورأى الرقعة يأخذها ويقرؤها ويعلم أهله ثم استسلم للموت وكان قد غلبه العطش فشرب من ذلك الماء شرابا كثيراً فلم يلبث الماء في جوفه حتى سكن ألمه وما كان يجده من ضربة الأفعى ثم برأ فبقي متعجباً ولم يعلم ما كان في الماء ، فقطع عوداً من الشجرة وأقبل يفتش به الماء لأنه كره أن يفتشه بيده لئلا يكون فيه أيضاً شيء يؤذيه فوجد فيه أفعيين قد اقتتلا ووقعا جميعاً في الماء وتهرتا ، فأقبل أخي الى منزلنا صحيحاً سالماً وترك ذلك العمل الذي كان فيه واقتصر على ملازمتي وكان هذا دليلا على أن لحوم الأفاعي ينفع من نهش الافاعي والحيات والسباع الضارية . قال وأما

التجربة الثالثة : فانه كان للملك « بيلوس » غلام وكان شريراً غمازاً خماراً فيه كل بلاء وكان كبيراً عند الملك يحبه لذلك ، وكان قد آذى كثيراً من الناس فاجتمع الوزراء والقوّاد على قتله فلم يتهيأ لهم ذلك ، فصمموا أن يضعوا السم فى شرابه حتى إذا مات حملوه الى الملك ليس به جراح ، فلما وضعوه في الشراب لم يلبث إلا قليلا حتى مات فتركوه في بعض البيوت وختموا عليه ووضعوا الحراس عليه وتوجهوا الملك ، فلما ساروا بأجمعهم الى الملك رأى الفعلة أفعى قد دخل الى البيت الذي فيه الغلام فلم يتهيأ لهم أن يدخلوا خلفه ويقتلوه لان الباب كان مختوماً فلم يلبثوا إلا ساعة

وإذا بالغلام يصيح بهم لِمَ أقفلتم علي الباب ؟ أغيثوني قد لسعني أفعى ، ثم كسر الباب وخرج ليس به مرض . قال وكان هذا دليلا على أن لحوم الافاعي تنفع شرب الأدوية القتالة المهلكة .

هذا جملة ما ذكروه من التجربة والأحلام والمصادفات والاتفاق ، وإنما ذكرت ذلك لتفهم قوله تعالى : « وإذا مرضت فهو يشفين » .

إن الشفاء من الله تعالى فانه اما أن يلهم الناس في أحلامهم وهذا منه تعالى ، وإما أن يلهمهم في اليقظة فيتفكرون كما في الحال الاولى وهذه هي التجربة ، وإما أن تقع لهم الاشياء مصادفة فيفكرون فيها فسواء أكان بالاحلام أم بالاعتبار والبصيرة فكل هذا من الله . ولتعلم أن الله عزوجل لا يحب أن تكون جميع علومنا بالاحلام والرؤيا ولا بوحي الانبياء ، لان الاحلام إنما هي موقظات فقط . ثم إن الناس عليهم أن يجدوا بأنفسهم ليرتقوا . اما الانبياء عليهم السلام فان الله جعلهم قليلا في الارض ، هكذا النابغون والحكماء في الامم ، ذلك لان الله يريد أن يجعل هؤلاء الانبياء موقظين فيوحي اليهم قولاً اجمالياً ويطالب من أتباعهم أن يفكروا فيه . فلو أن الناس أتت لهم جميع علومهم بطريق الرؤيا أو كان الانبياء معطين الناس كل علم وكل حكمة بحيث لا يفكرون ولا يدرسون وإنما يعيشون على أحلامهم الصادقة وأنبيائهم الصادقين لكان ذلك وبالاً ، ولذلك تجد الاحلام الصادقة قليلة جداً والانبياء قلائل والعلوم التي أتوا بها تحتاج الى التعقل والتفكر حتى لا تموت عقول الشعوب التابعة لهم بالاتكال على ما سمعوه . وعلى كل فالشفاء من الله أما بالرؤيا وأما بالجد والاجتهاد والتفكر والاول مبادىء وما بعده هو الاغلب الاكثر الاعم .

وهناك « حال رابعة » : وهي ما يشاهده الناس في الحيوان مثل ما ذكره الرازي في كتاب (الخواص) : ان الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان مضى فجاء بحجر اليرقان وهو حجر أبيض صغير يعرفه فجعله في عشه فيبرأ ، وان الانسان إذا

أراد ذلك الحجر طلا فراخه بالزعفران فيظن انه قد أصابهم اليرقان فيمضي فيجيء به فيؤخذ ذلك الحجر ويعلق على من به اليرقان فينتفع به . ﴿ هكذا يقول ابن أبي اصيبعة والله العالم بالحقائق ﴾ .

وكذلك من شأن العقاب الانثى انه إذا تعسر عليها بيضها وصعب خروجه حتى تبلغ الموت ورأى ذكرها ذلك طار وأحضر حجراً يعرف بالقلقل لانه إذا حرك تقلقل في داخله ، فاذا كسر لم يوجد فيه شيء ، وكل قطعة منه إذا حركت تقلقلت ، وأكثر الناس يعرفه بحجر العقاب ويضعه على الانثى فيسهل عليها بيضها ، والناس يستعملونه في عسر الولادة على ما استنبطوه من العقاب . ومثل ذلك أيضاً أن الحيات إذا اظلمت أعينهن لكونهن في الشتاء في ظلمة بطن الارض وخرجن من مكامنهن عند ما يدفأ الوقت طلبن « نبات الرازيانج » وأمررن عيونهن عليه فيصلح ما بها ، فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته اذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه .

وذكر « جالينوس » في كتابه في الحقن عن « ارودوطس » ان طائراً يدعى « ايبس » هو الذي دلّ على علم الحقن وزعم أن هذا الطير كثير الاغتذاء لا يترك شيئاً من اللحوم إلا أكله ، فيحتبس بطنه لاجتماع الاخلاط الرديئة وكثرتها فيه فاذا اشتد ذلك عليه توجه الى البحر فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم ادخله في دبره فيخرج بذلك الماء الاخلاط المحتقنة في بطنه ثم يعود الى طعامه الذي عادته الاغتذاء به

الحال الخامسة

أن يكون حصل شيء منها أيضاً بطريق الالهام كما هو لكثير من الحيوانات فانه يقال إن البازي إذا اشتكى جوفه عمد الى طائر معروف يسميه اليونانيون « ذريفوس » فيصيده ويأكل من كبده فيسكن وجعه على الحال . وكما تشاهد عليه أيضاً السنانير فانها في أوقات الربيع تأكل الحشيش ، فان عدمت الحشيش عدات

الى خوص المكانس فتأكله ، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تغتذي به أولا وإنما دعاها الى ذلك الالهام لفعل ما جعله الله تعالى سبباً لصحة أبدانها فاذا أكلته تقيأت اخلاطاً مختلفة قد اجتمعت فى أبدانها ولا تزال كذلك الى أن تحس بالصحة ـ المأنوس اليها بالطبع ـ فتكف عن أكله . وكذلك أيضاً متى نالها أذى من بعض الحيوانات المؤذية ذوات السموم أو أكلت شيئاً منها فانها تقصد الى الشيرج والى مواضع الزيت فتنال منه وعند ذلك يسكن عنها سورة ما تجده .

وحكى القاضي نجم الدين عمر بن محمد بن الكرندي : ان اللقلق يعشش في أعلى القباب والمواضع المرتفعة ، وان له عدواً من الطيور يتقصده ابداً ويأتي الى عشه ويكسر البيض الذي فيه . قال وان هناك حشيشة من خاصيتها إن عدو اللقلق إذا شم رائحتها يعمى فيأتي بها اللقلق الى عشه ويجعلها تحت بيضه فلا يقدر العدو أن يقرب منه . وحكي أن إنساناً رأى الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم عنها الى بقلة هناك وتتناول منها ثم تعود لقتالها ، وان هذا الانسان عاينها فنهض الى البقلة فقطعها عند اشتغال الحبارى بالقتال ، فعادت الحبارى الى منبتها ففقدتها وطافت عليها فلم تجدها فخرت ميتة ، فقد كانت تتعالج بها . قال وابن عرس يستظهر في قتال الحية بأكل السذاب . والكلاب إذا دودت بطونها أكلت السنبل وتقيأت واستطلقت . وإذا جرح اللقلق داوى جراحه بالزعتر الجبلي . والثور يفرق بين الحشائش المتشابهة في صورها ويعرف ما يوافقه منها فيرعاها ، ومالا يوافقه فيتركه مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه ، ومثل هذا كثير .

فاذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها أُلهمت مصالحها ومنافعها كان الانسان العاقل المميز المكلف الذي هو أفضل الحيوان أولى بذلك . وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب إنما هو إلهام وهداية من الله سبحانه لخلقه . وصفوة القول فانه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة أكثر ما حصلوه من هذه

الصناعة ، ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه وادتهم اليه فطرهم فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التي حصلت لهم بهذه الطرق المتفننة المختلفة أشياء كثيرة ، ثم انهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عللها والمناسباب التي بينها فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادي منها يبتدىء بالتعلم والتعليم والى ما أدركوه منها أولا ينتهى ، فعند الكمال يتدرج في التعليم من الكليات الى الجزئيات ، وعند استنباطها يتدرّج من الجزئيات الى الكليات .

وقوله تعالى : (الذي خلقني فهو يهدين) ، إن الهداية تنحصر في (قسمين) قسم حفظ الصحة ، وقسم مداواة المرض ، فأما قسم حفظ الصحة فهو يختص بالطعام والشراب والهواء والماء ·

« ١ » مثل المحافظة على نظافة الجلد بأن يستحم مرة في الاسبوع شتاءاً ومرتين صيفاً .

« ٢ » أن يغسل الانسان يديه بالصابون قبل الشروع في غسل عينيه ووجهه وقبل تعاطي الغذاء .

« ٣ » أن يغسلها بعد الفراغ من الأكل وبعد لمس أي جسم غير نظيف وبعد الاستيقاظ من النوم وقبل إرادة النوم ،كل ذلك بالماء والصابون فانه يبعث في الجسم نشاطاً وانشراحاً .

« ٤ » غسل القدمين بالماء والصابون صباحاً ومساءاً ، كذلك يخلل ما بين الأصابع ويزيل ما بينها من الأقذار .

« ٥ » إن شعر الرأس يجب غسله كل اسبوع بالماء والصابون .

« ٦ » أن تقلم الأظفار ثم تغسل الأصابع بعد القص بالماء مع الليفة أونحوها لازالة الأقذار التي تحتها .

« ٧ » غسل الأنف وتنظيفه ، وانه لا يجوز نتف الشعر الذي فيه أو قصه

فان الله خلقه لصحة أبداننا فهو يضعف تيار الهواء إذا كان شديداً .

« ٨ » العناية بالاسنان وتنظيفها بحيث تغسل بالماء والصابون قبل الأكل وبعده لئلا تبقى بعض الفضلات فتضر وتعقب أمراضاً لا قبل لنا بها .

ويستحسن التنظيف بنحو السواك (والفرجون) بعد غمسها في بعض العقاقير التي عند الصيادلة ، ويكون ذلك التنظيف بالعقاقير مرتين في اليوم عند الاستيقاظ من النوم وعند الذهاب الى الفراش .

هـذا كلام الأطباء ، وديننا أمر بأكثر من ذلك بحيث يكون السواك عند كل وضوء وعند كل صلاة . قال رسول الله ﴿ص﴾ : ﴿ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء ﴾ ، وقال ﴿ص﴾ : ﴿ لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ﴾ ، وهذه نعمة إسلامية عظيمة . ومن العجب أن عناية ديننا الاسلامي بأمر الصحة أرقى من عناية الأطباء .

من بدائع وعجائب الاسلام فى الطب (السواك)

السواك من أهم ما كشف عن ضرورته العصر الحديث ودلنا على أسرار أحكام شريعة الاسلام التي يعجز عن إدراكها البشر . وأنى لرجل قبل أربعة عشر قرناً وهو ابن الجزيرة العربية القاحلة الجاهلة التي لا علم فيها ولا ملك ولا دين ولا مدنية ولا كتابة ولا قراءة أن يتوصل الى معرفة أسرار تنظيف الأسنان وفائدته لو لم يكن نبياً . ولم تكتشف هذه الاسرار إلا بعد تقدم الطب ـ هذا التقدم الهائل ـ فى هذا العصر .

ومن يدقق الاحاديث الواردة في السواك يعرف كيف تنطبق على آخر ما توصل اليه العلم الحديث في فائدة السواك وفي كيفيته . لقد استفاضت الاحاديث في أن السواك طهور للفم ، ويزيد في الحفظ والعقل والفهم والفصاحة ، ويذهب بالسقم وحفر الأسنان وبالنسيان ووسوسة الصدر ، ويبيض الاسنان وينقيها ويذهب

بأوجاعها ويشد اللثة ، ويطيب الفم ويقلل البلغم أو يقطعه ، ويجلو البصر ويذهب غشاوته ودمعته ، وينبت الشعر ويشهي الطعام ويصلح المعدة الى غير ذلك من الفوائد غير الفوائد الالهية إذ به رضى الرب واصابة السنة وثواب الآخرة . وهذه الفوائد الكثيرة والعظيمة في وقت واحد قد نصت عليها الاحاديث بنفس هذه العبارات . وقد يستكثرها الرجل الابتدائي على السواك ، ولذلك نجد جملة من البلهاء يستهينون باستعماله ولا يعيرون له اهتمامهم فيقعون بكثير من الامراض المزمنة ، ولكن الاكتشافات الحديثة اثبتت هذه الفوائد . والطب اليوم يعلق أهمية كبرى على السواك في حفظ الصحة ، حتى أن أكثر الامراض ينسبها الاطباء الى الاسنان من جرّاء إهمالها .

وقد قال إمامنا أبو جعفر الباقر عليه السلام : « لو يعلم الناس ما فى السواك لأباتوه معهم في لحاف » . وهذا يدل على مبلغ جهل الناس يومئذ بفوائده ، وان علمه يختص بهم (ع) والنبي «ص» كان يقول كما تقدم : « لولا أن أشق على اُمتي لأمرتهم بالسواك عند وضوء كل صلاة » وهو كان يستاك ثلاث مرات في الليل قبل النوم وبعده وقبل خروجه الى صلاة الصبح . وهذا ينطبق تماماً على وصايا الطب الحديث في اختيار وقت السواك قبل النوم وبعده ، كما أن الوارد في وصف السواك أن يلين طرف عود الاراك قبل السواك ، وتليين طرف عود الاراك خاصة يجعله كفرشة الاسنان الغربية الحديثة . ونعرف من هذا سر تفضيل عود الاراك على غيره لأنه ليس كل عود يعطي هذه الصفة إذا لين ، فان عود الاراك الواحد يتألف من مجموعة عيدان دقيقة لا تتحطم عند الاستياك كشعرات الفرشة ، وان كان السواك الشرعي يحصل بكل عود بل حتى بالاصبع ولكن الاراك هو المفضل عند تيسره لتلك الغاية وربما لغايات اخرى نجهلها .

فلذلك يكون الاستياك في الفرشة أيضاً من السواك الشرعي ، ولكن اعتقد

أن عود الاراك أفضل منها للأسنان بالتجربة لا سيما أن المعروف في الفرشة انها مأخوذة من شعر الخنزير الأبيض ، والخنزير في الشرع الاسلامي نجس العين وشعره كذلك لا يطهر بالماء ولا بغيره ، فلا يصح استعمالها والحال هذه . ولنا بالاراك غنى والوارد في كيفية الاستياك شرعاً يوافقه الطب الحديث أيضاً فان الاستياك الشرعي الوارد هو الاستياك عرضاً لا كما يستاك بعض الناس طولا بزعم أنه الاستياك الشرعي والطب الحديث يوصي بالاستياك عرضاً حفظاً للأسنان من جهة ، ومبالغة في تنظيفها وتنظيف اللثة من جهة اخرى ، كما أن الشرع يوصي بالمضمضة بالماء بعد السواك ، والطب أيضاً يوصي بها وكأنها من مكملاته .

ومما يلفت النظر في الأحاديث عن النبي والأئمة عليه وعليهم الصلاة والسلام استعمالهم مختلف الاساليب في حمل الناس على اتخاذ عادة السواك فلم يرخصوا بتركه أكثر من ثلاثة أيام ، وحثوا على استعماله عند كل وضوء وكل صلاة وعند النوم وعند قراءة القرآن . ولو احصينا الاوقات التي ورد فيها الحث عليه في كل يوم لهالنا العدد ولظننا أن ذلك مما ينهك الأسنان ولكن من العجيب أن الطب أثبت ـ ودلت عليه التجربة ـ أنه كلما استاك الانسان قويت لثته واشتدت وصحت أسنانه وإن استعمل القوة في الاستياك على غير المألوف فما أعظم ما جاء به الشرع الاسلامي لو انا اتبعنا سبيله .

عناية الاسلام

بصحة الأبدان

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين «١» .

إن الانسان بتطوراته المتوالية في المدنية وذهابه في الابداع الصناعي كل مذهب وبما استتبع ذلك من اخلاده الى معيشة الترف واغراقه فى تطلب الملاذ البدنية قد أخرج مسألة التغذي عن حقيقتها ، فبعد أن كان يأكل طلبا لاقامة حياته وحماية جثمانه من العطب أصبح يفعله طلباً للذة المعجلة حتى دفعته هذه العاطفة الى تناول الأغذية الضارة المبيدة لجثمانه وهويعلم ذلك ويشعر به ، إلا أنه قدشعر بأن خروجه هذا على القوانين الطبيعية كان له أسوأ تأثير على جسده وعقله معاً ، وان هذا المتاع الحيواني سريع الزوال ثم يعقبه دور من الآلام والأعراض يطول أمده عليه ولا يزال به حتى يصرعه على أبشع الأحوال بعد أن يحرمه من جميع الطيبات الجسدية والعقلية .

عني الاسلام منذ عهده الأول بسن سنن مقررة للتغذي وما زال العلماء والفلاسفة يجعلون هذا الموضوع من أهم مباحثهم حتى يومنا هذا ، بل استحال أمره

«١» سورة الاعراف الآية ٣١ .

في العهد الأخير الى اعتباره أولى بالعناية من الوجهة الصحية والعلاجية من كل المسائل التي لها علاقة بالحياة الجسدية لما ثبت أن الغذاء هو العامل الأكبر في الصحة والمرض وفى طول الحياة وقصرها .

قال العلامة البكتريولوجي « متشنيكوف » مدير معهد « باستور » بباريس (إن الانسان خلق ليعيش ثلاثمائة سنة وإنما هو يقتل نفسه بسوء سيرته في تغذيه) وأقر بهذه الحقيقة جمهور الباحثين والمنقبين . وجاءت العلوم الكيماوية فايدت أقوالهم بالتحليلات إذ بينت ما يحويه كل نوع من أنواع الأغذية من المواد المختلفة وما يحتاج اليه الجسد كل يوم من كل منها ، وحدثت بجانب هذه الفتوحات الكيماوية فتوحات أُخرى طبية اثبتت بالتحليل ان أدواء القلب والسرطان والروماتيزم والبول السكري والزلالي وتصلب الشرايين والشلل والامساك المستعصي الى ما اليها مما يطول عده كلها متولدة من سوء التغذي وعدم تخير صنوف الطعام . فأصبحت هذه المسألة ــ والحالة هذه ــ في عداد المسائل المحسوسة الممكن تجربتها تحليلاً وتركيباً .

عدوك من صديقك مستفاد　　فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه　　يكون من الطعام أو الشراب

متى عرف الانسان أن صحته فوق كل شيء من حيث السعادة والراحة والهناء وأن المال والجاه والسيطرة والنفوذ والشرف والمجد وكل ما يدخل تحت دائرة السعادة وما يعتبر من متاع الحياة الدنيا ونعمة الوجود لا قيمة لها عنده إذا اختلت صحته وضعفت قوته وانحرف مزاجه ، متى عرف ذلك وجب عليه أن يحافظ على صحته بكل الوسائل الممكنة تفادياً من الوقوع فى الأمراض وفقدان الصحة .

قال أحد الحكماء : « الصحة الحسنة كنز لا يعرف قيمته إلا الذي يفقده فلكي تحتفظ بصحتك ، عليك أن تتجنب كل ما يضر بها » . ولقد صدق من قال « الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى والصحة أثمن من الثروة .

قال رسول الله «ص» : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . ويقول الشاعر :

آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولى

كان أبو عثمان الثوري يجلس ابنه معه ويقول : إياك يا بني ونهم الصبيان واخلاق النوائح ونهش الاعراب وكل مما يليك ، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة أو مضغة شهية أو شيء مستظرف فانما ذلك للشيخ المعظم أو للصبي المدلل ولست بواحد منهما ، وقد قالوا : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . أي بني عود نفسك الاثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدمن الأكل ادمان النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، فان الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ، واحذر سرعة الكظة وسرف البطنة ، فقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نهما فعد نفسك من الزمنى ، واعلم ان الشبع داعية الى البشم ، والبشم داعية الى السقم ، والسقم داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقدمات ميتة لئيمة لانه قاتل نفسه وقاتل نفسه الأم من قاتل غيره . أي بني والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو كظة ، ولا خشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، والواجبات عيش الصالحين . أي بني لأمر ماطالت أعمار الهند وصحت أبدان العرب ولله در الحرث بن كلدة إذ زعم أن الدواء هو الازم ، فالداء كله من فضول الطعام فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح الدين والدنيا والقرب من عيش الملائكة . أي بني لِمَ صار الضب أطول عمراً إلا لأنه يبتلع النسيم ، ولِمَ قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الصوم وجاء إلا لأنه جعله حجاباً دون الشهوات » فافهم تأديب الله عزوجل وتأديب رسوله (ص) . أي بني قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن ولا انقشر لي عصب ولا عرفت دنين أنف ولا سيلان عين ولا سلس بول ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد . فان كنت تحب

الحياة فهذه سبيل الحياة ، وان كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك .

وقد حثنا الله تعالى ورسوله على العناية بالامور الصحية ، واليك الآيات الواردة في القرآن الكريم وبعض الاحاديث الشريفة بشأن مراعاة القواعد والتدابير الصحية يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين

المعنى يا بني آدم البسوا أجمل الثياب عند حضوركم أي مسجد للصلاة وكلوا واشربوا بغاية الاعتدال ولا تسرفوا لأن الله تعالى لا يحب المسرفين .

ترشدنا هذه الآية الكريمة الى ما علمنا الله إياه من الطب والقواعد الصحية وهدانا اليه من الحكمة مما تصح به أبداننا وتقوى به أجسامنا وتطيب به معيشتنا وتهنأ به حياتنا من عدم الافراط في الاكل والشرب والاسراف فيها ، لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة وتطفىء حرارتها وتضعف الجسم وتكثر الارياح « الغازات » في البطن ، وتصفرّ اللون وتضيق النفس ، وبذلك يضعف الفكر ويخمد الذهن وينحط الادراك . وأقل ما يترتب عليها أن يكون الانسان نهماً « شرها » وذلك يسوقه الى البطنة « التخمة » المهلكة والاعراض المتلفة . مع أن القصد من الطعام هو تعويض ما يفقده الجسم ، أي تجديد ما تحلل واستهلك من أعضائه بسبب أعماله الحيوية بحيث تكون كمية مكافئة لكميته المفقودة منه .

فلهذه الأسباب نهانا الله عز وجل عن الافراط في الأكل والشرب وأمرنا بالاعتدال فيها . وهذه أعظم قاعدة وضعها الاسلام لحفظ الصحة

ذكر الطبرسي في تفسيره ان الرشيد العباسي كان له طبيب نصراني حاذق فقال ذات يوم من الأيام لعلي بن الحسين بن وافر : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ، فقال : قد جمع الله تعالى الطب كله في نصف آية من كتابه هو قوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » وجمع نبينا صلي الله عليه وآله الطب كله في قوله : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء فاعط

كل بدن ما عودّته » ، فقال الطبيب النصراني : « ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً » .

فالنتيجة أن يأكل الانسان أكلاً معتدلاً لا يُسقم بطنه ولا يُفسد قلبه ، وأن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يشعر بألم الجوع ، يقول رسول الله(ص) « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » وهذه أكبر حكمة في الطب وهـذا أكبر دليل للاعتدال في الأكل ، لان فى تجاوز حد الاعتدال سقم البطن وفساد الجسم والعقل معاً كما قال «ص» : (المعدة بيت الداء والحمية عين الدواء) .

والقاعـدة الصحية هي أن يجعل الانسان ثلث معدته لطعامه وثلثاً لشرابه وثلثاً لتنفسه كما قال (ص) : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » أي يترك الثلث الباقي خالياً حتى يتمكن من التنفس بسهولة ويقل ضغط البطن على الحجاب الحاجز .

هذا وإن أطيب الطعام وألذه وأشهاه وأوفقه للابدان ما مسته النار ولامسته فأثرّت فيه ، قال «ص» : « إن أطيب طعامكم ما مسته النار » وذلك لأن النار مطهرة ، ولأن الطعام بعد تأثير النار فيه وطبخه جيداً يكون أسهل في المضغ وأسرع في الهضم . قال (ص) : (لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فان الله يطعمهم ويسقيهم) ويقول «ص» : « لا تكرهوا المرضى على تناول شيء من الطعام والشراب « إلا الدواء » حناناً ورفقاً بهم ، فان الله تعالى يتولى اطعامهم وسقياهم بمنحهم الصبر على الجوع وصرف ألمه عنهم .

وقد حرّم الاسلام جملة أشياء من المأكولات نظراً لما فيها من الميكروبات المضرة بالصحة والمخلة باعتدال المزاج . أنظر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون ، إنما حرّم عليكم الميتة

والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور حليم ﴾ «١» .

هذه الآية تنص على تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله . ولنفصلّ هذه المحرمات :

١ ـ الميتة :

هوالحيوان غير المذبوح ، أي الذي يموت ميتة طبيعية أو بحادثة من الحوادث ونبدأ بالميتة الطبيعية . « فالحيوان الميت ميتة طبيعية لا يموت إلا لسبب ، فان كان لمرض فما لا شك فيه انه لا يزال في الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان ، حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار . فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة يظل مضراً بالانسان وربما أدى الأكل منه الى الوفاة » . وإذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة الاخرى فتؤدي الى انحلال الكل ، وانحلال أحد الأنسجة لا يأتي إلا لضعف طبيعي فيها ، أو بمرض تدريجي غير منظور يحدث تغييرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يومياً فى البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها ولا تشكل ضرراً ظاهراً .

والجواب على ذلك : ان ضرر التخمر يقلّ كثيراً في الأقاليم الباردة ويزيد في الأقاليم الحارة ، والدين الاسلامي أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التى يحدث فيها التخمر بسرعة مدهشة . إذاً مما لا شك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفى دمه احسن غذاء وليس فيه أقل ضرر بخلاف الحيوان المريض المتخللة لحومه بالدم » .

«١» سورة البقرة الآية ١٧٢ - ١٧٣ .

اما الميتة التي تموت بحادثة من الحوادث فقد حرمها الاسلام أيضاً جاء في القرآن « حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع » «١» .

فالمنخنقة هي الحيوانات التي تموت خنقاً . فالاختناق يجعل لحم الحيوان المخنوق أسرع الى التعفن ، كما أن المنخنقة لا تصلح للأكل طبياً لتغير شكل لحمها وكآبته واسوداده عند قطعه وكريه رائحته ولزوجة ملمسه ، والموقوذة هي المضروبة حتى تشرف على المـوت فتترك حتى تموت ، أو هي ماتت فعلاً من أثر الضرب فوراً ، والمتردية هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت من أثر صدمة الوقوع والنطيحة هي التي ماتت من أثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات وغالباً ما يحدث الموت من أثر النطح ولهذا خصصه النص بالذكر .

فلحوم الموقوذة والمتردية والنطيحة لا تصلح للاكل كما قرر علم فحص اللحوم لاسودادها ولزوجتها وكريه رائحتها . أما إذا وصلت الجراثيم المدّية أو القيحية الى الجروح التي حـدثت في الجثة من الضرب أو السقوط فهذا مما يزيد الطين بلة ، وكذلك إذا اصيبت الجروح بالعطبة « الغنغرينا » .

٢ـ ما أكل السبع

حرَّم الاسلام أكل ما ترك السبع ، والسبع هو الحيوان المفترس الضاري ، وهو كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول منها فريسته ويتبعه الرعاة ـ عادة ـ للحيلولة بينه وبين الفتك بالفريسة ، وقد يدركونه قبل الفتك بها وقد يدركوه بعد خنقها أو بعد قتلها بصورة ما ، وقد يدركـون الفريسة وقد أبقى منها جزءاً قليلا أو كثيراً . وفي جميع الحالات المتقدمة لا يجوز أكل الحيوان الأليف إذا كان ميتاً لأنه إن أُخذ مخنوقاً فقد شابه ما تقدم ، أو مقتولا بجراح فلا يجوز أكله أيضاً ،

«١» سورة المائدة الآية ٢ .

وضرر ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الامراض ، وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع الى الفريسة ، ولهذا السبب حرم الاسلام أكل ما ترك السبع .

وزبدة القول إن الحيوان الذي فارقته الروح قبل أن يذبح تنعدم منه جميع خواصه الطبية للبدن كما ثبت لدى أهل الفن من علماء الطب ، وزالت منه كل مواده الحيوية ، فاذا أكل الانسان منه حدث فيه مغص في المعدة ونزلات حادة في الامعاء هذا إذا أكل عقب موته مباشرة ، أما إذا مضت عليه مدة حتى يتعفن كان سماً زعافا أضر بالبدن ضرراً لا يتدارك ، واحدث فيه أمراضاً لا تعالج كالسكتة القلبية وموت الفجأة ، وقد يؤثر العقم وقطع النسل . جاء في الوسائل عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : « إن أكل الميتة لا يدنو منها أحد إلا ضعف بدنه ونحل جسمه وذهبت قوته وانقطع نسله ولا يموت إلا فجأة » . فكان تحريم الميتة أمراً صحياً حيوياً من الشارع المقدس انعم به علينا حفظاً لصحتنا وإبقاءً على كياننا وسعادة حياتنا

٢ ـ الدم والمراد به الدم المسفوح أي المنصب ، لاما خالط اللحم لأنه غير ناضج ، وهو ما اتفق الأطباء على حصول الضرر منه ، والسر في تحريمه هو ما أثبته الطب الحديث وما أظهره التحليل الكيماوي من أن الدم مرتع لجراثيم الامراض وهو جسم صالح لنموها وتكاثرها . ثم ثبت لديهم أيضاً أن الحيوانات ولا سيما المواشي أكثر ماتصاب به من الامراض هو الطاعون والحميات والتدرن وأشباهها ، وان جراثيم هذه الامراض الخطرة تكون في الدم ، فاذا ما دخل هذا الدم الحامل لتلك الميكروبات الى بدن الانسان دخلت تلك الامراض اليه معه بلا ريب ولا شك وهناك البلية الكبرى . هذا مضافاً الى أن الدم بنفسه وإن كان نقياً فان المعدة لا تقوى على هظمه فيكون كلا عليها ، ومن جهة ثالثة أن الدمين المختلفين كدم الانسان ودم الحيوان إذا اختلطا سببا ارتفاعاً هائلا عالياً في درجة حرارة البدن

مما يخشى عليه منها جاء في الوسائل عن أبي عبد الله الصادق (ع) في تحريم شربه انه يورث الماء الاصفر ويبخر الفم ويُنتن الريح ويسيء الخلق ويورث الكلب والقساوة في القلب وقلة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن منه من القتل لولده ومن يقرب منه ، وقد يورث الجذام والعياذ بالله فسبحانه من مشرع رؤف رحيم .

وقيل لاحتوائه على الفضلات التي يستغني عنها الجسم ولا فائدة من ارجاعها اليه . وقد تكون فيه ميكروبات أمراض عفنة وسمومها ، وهذه الميكروبات لا تموت حتى بالغليان لما تتجمد حولها من المواد الزلالية ، كما أن الحرارة قد لا تؤثر في ذراتها ولا تغير تسممها ، وقيل لتأثيره القيء غالباً ، وقيل لعسر هضمه لانه يحتوي على مادة حديدية كثيرة تتحجر عند انفصالها عن البدن .

وحرم أكل الغدد ، والحكمة في ذلك انها مخازن فطائس الميكروبات البدنية ومقابر المواد الفاسدة التي تتجمع فيها من سائر أنحاء البدن ، وقد قيل عنها انها تورث الجذام كما ورد عن أئمة أهل البيت وعاضده الطب الحديث .

وحرم أكل الطحال والانثيين والقضيب والمثانة ، والحكمة في تحريم أكل الطحال لانها محل فطائس الجراثيم والدم الفاسد وأما الانثيان فلانهما موضع المني والمني سريع الفساد سريع التعفن والتسمم ، وأما القضيب فلانه موضع ممر البول الذي هو مجموعة المواد الفاسدة التي يحملها الماء من الجهاز الهضمي والبولي معاً ، وأما الرحم فلانه عضو الطمث وقذارة الدم ومني الذكر ، وأما المثانة فلانها مجمع البول .

٣ ـ لحم الخنزير لأنه قد ثبت طبياً بواسطة النظارات المعظمة (الميكرسكوب) ان بين أجزاء جسمه ووسطه ألياف وديدان لا حصر لها ، وقد دلت التجربة على انها لا تموت ولو بعد نضجه واستوائه فأكله مع ما فيه من هذه الديدان مما يلحق بالجسم أضراراً بليغة وأمراضاً مؤذية . فقد اكتشف الطب الحديث قبل مائة سنة تقريباً حكمة ما أمر به الدين الاسلامي الحنيف قبل قرون من منع أكل لحم الخنزير

فلقد ظهر أن دودة شريطية تسمى باللغة الأجنبية « تينا السوليم » تعيش في الامعاء الرقاق من الانسان وتمر بويضاتها مع البراز فاذا خرجت كان عدواها للانسان بسرعة ، وهي منتشرة في آكلي لحم الخنزير لانها تربو في عضلات الخنزير وأمعائه وهي دودة يتراوح طولها بين مترين الى ثلاثة أمتار وأكثر وتتركب من حوالي ثلثمائة قطعة وبرأسها ثمان وعشرين خطافا فاذا أكل الانسان لحم الخنزير تطورت هذه الدودة في أعضائه وقد تصل الى المخ والعين أو غيرها من الأعضاء الرئيسية فتؤدي الى خطر العواقب مثل السكتة القلبية أو نزيف المخ وقد لا يتخلص منها أبداً ، إذ لو بقي منها بعد العلاج الكثير العسير شيء أو قطعة عادت الى ما كانت عليه أولاً ، وهذا مرض خطير الى الفناء والموت أقرب منه الى الحياة ، فكان نهي الشارع المقدس عنه وتحريم أكله لطفاً منه ورحمة بالعالمين .

يقول الدكتور أحمد عارف الوريني فى الطب النبوي :

لا تقرب الخنزير إن طعامه　　سمٌ وموت عاجل الافناء
فى لحمه الدود الوحيد تحفه　　عقد ترد الجسم كالاشلاء
طالت مساحتها كطول مصابها　　وجنت على الاجسام شر بلاء
لو قطعت إرباً وخلي رأسها　　عادت بها الافعى الى الأمعاء
لا تأكل الخنزير طوع جهالة　　ولو ابتليت بازمة نكراء
إن المحرم لا يعود بصحة　　يوماً ولا يدعو الى السراء
واسلك تعاليم النبي ونهجه　　إن الهدى في نهجه الوضاء

وحرم من الذبائح ما لم يذكر اسم الله عليه والحكمة في ذلك ان تشريع ذكر اسم الله حال الذبح والنهي عن استعمال ما لم يذكر عليه اسم الله لأسرار وحكم واضحة .

منها أنه يسبب الامتناع عن أكل ذبيحة المشركين التي لم يذكر عليها اسم الله

وهذا مما يوجب عدم اختلاطهم وامتزاجهم بهم وتباعدهم عن الشرك وأهله ، إذ لو تواكلوا تقاربوا وتواصلوا ، ولو تقاربوا وتواصلوا مال بعضهم الى بعض ، وقد نهى الله تعالى عن الامتزاج والركون الى المشركين ، فيكون منع ذلك بمنع أسبابه .

ومنها ان ذبح الحيوان عمل تتوقف منه النفوس الحساسة والقلوب الرقيقة ، لأنه إخراج روح مخلوق له حياته وعيشه في هذه الدنيا ، فذكر اسم الله عليه مطمئن للنفوس بأن هذا العمل هوبارادة الله تعالى وأمره ، وان الاقدام عليه امتثال لتعاليمه وأن لا ظلم فيه ولا تعدي على ازهاق روحه ، إذ لو كان ظلماً وتعدياً لما أمر الله تعالى به وهو الرؤف اللطيف بالعباد وكل خلق من خلقه . فلقد قال عزوجل : (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) «١» .

ولما كان الله لا يريد بالناس العسر بل يريد أن يخفف عليهم أباح لهم لدى الضرورة ما لم يذكر اسم الله عليه فقال تعالى : « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرّم عليكم إلا ما اضطررتم اليه » «٢» ، فسبحانه من خالق حكيم لطيف خبير رؤف رحيم .

٤ ـ وما أُهل به لغير الله : وهو ما يذبح ويقدّم للاصنام أو غيرها مما يعبد والمنع من هذا ديني محض لحماية التوحيد لانه من أعمال الوثنية ، فكل ما أُهل لغير الله على ذبيحة فانه يتقرب الى من أُهل باسمه تقرب عبادة وذلك من الاشراك والاعتماد على غير الله تعالى .

وبعد أن نهى جل شأنه عن هذه المحرمات الاربعة بين أن ذلك مقيد بعدم الضرورة والحاجة بأن خاف الانسان التلف على نفسه والهلاك ولم يجد ما يسد به رمقه غير أحدهذه المحرمات فلا حرج عليه في أكلها ولا إثم عليه . وهذا هوالمراد

«١» سورة الانعام الآية ١١٨ .

«٢» سورة الانعام الآية ١١٩ .

من قوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) «١» أي غير طالب له راغب فيه لذاته وإنما الضرورة ألجأته ، ولا عاد متجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه لان الالقاء بنفسه الى التهلكة ـ بالموت جوعاً ـ أشد ضرراً من أكل الميتة أو الدم أو لحم الخنزير (إن الله غفور رحيم) إذ حرم على عباده الضار وجعل الضرورات بقدرها لينتفي العسر والحرج عنهم .

وكما حرم جل شأنه بعض المأكولات المضرة بالصحة والمخلة باعتدال المزاج كذلك حرم بعض المشروبات المضرة بالصحة أيضاً والمنهكة لقوام الجسم .

انظر قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلواة فهل أنتم منتهون * وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » «٢» .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة تحريم شرب الخمر ولعب القمار وعبادة الأصنام والاعتقاد بها لأنها جميعها رجس : أي قذر يدفعكم اليه ويوقعكم فيه الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفوزون برحمة . فنهانا عن شرب الخمر ، فمن تجرعها كان عرضة لأمراض وبيلة فتاكة لا شفاء منها تنتهي عادة بالموت ـ والعياذ بالله ـ فالحذر الحذر من شربها لأنها مفسدة للصحة مذهبة للعقل مضيعة للمال مخالفة للدين مغضبة لرب العالمين ، قال «ص» : « اجتنبوا الخمر فانها مفتاح لكل شر » .

بين تعالى بهذه الآية علتين لتحريم الخمر والميسر احداهما صحية طبية وهي الخمر فان لها دخل كبير فى فقدان الصحة واختلال المزاج .

«١» سورة البقرة الآية ١٧٣ .

«٢» سورة المائدة الآية ٩٠ ـ ٩٢ .

وثانيهما أخلاقية اجتماعية اقتصادية وهي الميسر - أي القمار - فهو مثار للعداوة والبغضاء ومحق كل شرف وفضيلة ، وفيه الصد عن ذكر الله وعن الصلاة : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلواة فهل أنتم منتهون) .

تبدي هذه الآية سر الحكمة في تحريم القمار الذي هو من أقوى حبائل الشيطان وهو العدو اللدود للانسان في ايقاع العداوة والبغضاء بين نوع البشر وابعادهم عن ذكر الله الذي هو أصل كل خير ومصدر كل فضل ، وصدهم عن الصلاة التي تنهى عن كل فحشاء ومنكر . وكيف لا يكون كذلك ونحن نرى بأعيننا مايحدثه القمار من ضرر الكاسب الخاسر ، أما الخاسر فضرره بديهي مضافاً الى أنه إذا خسر اشتد شغفه باللعب أكثر من ذي قبل طلباً لاسترداد خسارته ، وهذا يستلزم أن يستدين أولا وقد يعسر عليه الدين فيلجأ الى كل وسيلة توجد له مالاً ليلعب به ، علما يرجع خسارته فقد يسرق أو يغار على ما في بيته فيبيعه ، وإذا لم يمكنه استولى على حلي زوجته أو ابنته الى غير ذلك من الوسائل حتى يمسي معدماً ذليلا مهاناً بغيضاً لدى أصدقائه الذين أخذوا ماله ، بغيضاً عند أهله الذين سلبهم حليهم وما عندهم ، بغيضاً عند أولاده المحرومين من عطفه وحنانه ، بغيضاً عند الناس لانه رذيل يرتكب ما لا يرتضيه العقل والوجدان . وأخيراً قد تضطره هذه الحال الى ارتكاب الجرائم لتمشية حياته فيخسر أهله واُسرته ودنياه وآخرته .

وأما الكاسب فانه أولا يفقد كل أعماله اليومية لانه يربح بلا تعب بل بلذة وسرور فتستولي البطالة عليه مع اشتداد الطمع فيه والبخل ، ثم تنزع عنه عاطفة الحب لأهله وولده نظراً لانغماسه في اللعب ورغبته في مجالسة أمثاله من الاراذل والاوباش ، وتفقد منه عزة النفس ويحل محلها حب الذات لانه يصبح وهو لايحب إلا نفع ذاته دون ملاحظة صديقه الخاسر أو أخيه المقامر ، ولم يبق له هم إلا النفع

مهما أدى بأخيه من الخسارة . وبالجملة فان القمار من أكبر أسباب القضاء على الفضيلة والشرف وموت الاعتماد على النفس وفضيلة النشاط والعمل وفقد الثقة لدى الناس من خاص وعام حتى لدى الاهل والولد ، ومن أعظم مولدات البغضاء والعداوة وقصم روابط الود والاخاء وتقويض حركة التحابب والمساعدة الضروريتان للبشر فهو فساد الفرد والمجتمع وأوسع باب من أبواب الفناء وفقد الحياة في الدارين ، فسبحان المشرع الحكيم الرؤف بعباده .

ولما بين جل شأنه علة تحريم الخمر والميسر وحكمته أكده بقوله : « فهل أنتم منتهون » فهذا استفهام يتضمن الأمر بانتهاء وهو من أبلغ ما يُنهى به ، كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون ، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا . وبعد أن أمر تعالى باجتناب هذه الأشياء ذكر فيها نوعين من المفسدة .

فالأول ما يتعلق بالدنيا وهو قوله : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر » «١» . ونحن نشرح وجه العداوة والبغضاء أولاً في الخمر ثم في الميسر .

أما الخمر فالظاهر فيمن يشرب أنه يشربها مع جماعة ويكون غرضه من ذلك الشرب أن يستأنس برفقائه ويفرح بمحادثتهم ومكالمتهم فكان غرضه من ذلك الاجتماع تأكيد الالفة والمحبة ، إلا أن ذلك في الأغلب ينقلب الى الضد لأن الخمر يزيل العقل ، وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب عليه من غير مدافعة العقل وعند استيلائهما تحصل المنازعة بين اولئك الأصحاب ، وتلك المنازعة ربما أدت الى الضرب والقتل والمشافهة بالفحش ، وذلك يورث أشد العداوة والبغضاء . فالشيطان يسول أن الاجتماع على الشرب يوجب تأكيد الالفة والمحبة ، وبالاخرة انقلب

«١» سورة المائدة الآية ٩١ .

الأمر وحصلت نهاية العداوة والبغضاء .

وأما الميسر ففيه بازاء التوسعة على المحتاجين الاجحاف بأرباب الأموال ، لان من صار مغلوباً في القمار مرة دعاه ذلك الى اللجاج فيه عن رجاء أنه ربما صار غالباً فيه وقد يتفق أن لا يحصل له ذلك الى أن لا يبقى له شيء من المال والى أن يقامر على لحيته وأهله وولده ، ولا شك أنه بعد ذلك يبقى فقيراً ويصير من أعدى الأعداء لاولئك الذين كانوا غالبين له .

إذاً الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس ، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي الى احوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن ، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم .

وأما النوع الثاني من المفاسد الموجودة في الخمر والميسر المفاسد المتعلقة بالدين وهو قوله تعالى : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلواة » «١» .

فنقول أما أن شرب الخمر يمنع عن ذكر الله فظاهر لانه يورث الطرب واللذة الجسمانية ، والنفس إذا استغرقت في اللذات الجسمانية غفلت عن ذكر الله تعالى ، وأما عن الصلاة فكذلك . وأما أن الميسر مانع عن الله وعن الصلاة فكذلك لانه إن كان غالباً صار استغراقه في لذة الغلبة مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه ، ولا شك أن هذه الحالة مما تصد عن ذكر الله وعن الصلاة . ثم إن هذه الآية دالة على تحريم الخمر والميسر من وجوه .

أحدها أن الله تعالى صدّر الجملة بانما الدالة على الحصر للمبالغة في ذمهما كأنه قال ليست الخمر وليس الميسر إلا رجساً فلا خير فيهما البتة .

ثانيها أنه تعالى جعل الخمر والميسر رجساً . وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث ، ولذلك أطلقت على الاوثان فهي أسوأ مفهوماً من كلمة الخبث .

«١» سورة المائدة الآية ٩١ .

وقد عُلم من عدة آيات أن الله تعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « الخمر أم الخبائث » ، وقال «ص» : « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر » . ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على امه وخالته وعمته .

ثالثها أنه تعالى قرنها بالانصاب والازلام التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك ، وقد قال النبي «ص» : « شارب الخمر كعابد الوثن » .

رابعها أنه تعالى جعلها من عمل الشيطان لما ينشأ عنها من الشرور والطغيان وهل يكون عمل الشيطان إلا موجباً لسخط الرحمن ؟ .

خامسها أنه تعالى جعل الامر بتركها من مادة الاجتناب وهو أبلغ من الترك لانه يفيد الامر بالترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن المتروك ، ولذلك نرى القرآن لم يعبّر بالاجتناب إلا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والاوثان وسائر مصادر الطغيان وترك الكبائر عامة ، وقول الزور الذي هو من أكبرها قال تعالى : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » «١» ، وقال تعالى : « واجتنبوا الطاغوت » كما قال تعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » «٢» وقال : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم » «٣» .

سادسها أنه تعالى جعل اجتنابها معّداً للفلاح ومرجاة له فدل ذلك على أن ارتكابها من الخسران والخيبة في الدنيا والآخرة .

سابعها وثامنها أنه تعالى جعلها مثاراً للعداوة والبغضاء وهما شر المفاسد الدنيوية المتعدية الى أنواع من المعاصي في الأموال والاعراض والأنفس ، ولذلك سميت الخمرة بأُم الخبائث وأُم الفواحش .

«١» سورة الحج الآية ٣٠ .

«٢» سورة الزمر الآية ١٧ .

«٣» سورة النجم الآية ٣٢ .

تاسعها وعاشرها أنه تعالى جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما روح الدين وعماده وزاد المؤمن وعتاده ، وقد علم مما تقدم أيضاً أن الصد عن ذكر الله غير الصد عن الصلاة .

حادي عشرها الامر بالانتهاء بقوله : « فهل أنتم منتهون » وهو من أبلغ ما ينتهى به ، كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيها من أنواع المفاسد والقبائح فهل أنتم منتهون مع هذه الصوارف أم أنتم على ما كنتم عليه حين لم توعظوا بهذه المواعظ .

ثاني عشرها أنه تعالى قال بعد ذلك : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » أي أطيعوا الله فيما أمركم به من أجتناب الخمر والميسر وغيرهما كما تجتنبون الانصاب والازلام أو أشد اجتناباً وفي كل شيء ، وأطيعوا الرسول فيما يبنه لكم مما نزله الله تعالى عليكم ومنه قوله «ص» : « كل مسكر خمر وكل خمر حرام » .

ثالث عشرها قوله عزوجل : « واحذروا » أي احذروا عصيانهما أو ما يصيبكم إذا خالفتم أمرهما من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، فانه ما حرّم عليكم إلا ما يضركم في دنياكم وآخرتكم قال تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) «١» .

رابع عشرها الانذار والتهديد في قوله تعالى : (فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) «٢» ، أي فان توليتم وأعرضتم عن الطاعة فاعلموا إنما على رسولنا أن يبين لكم ديننا وشرعنا وقد بلغه وأبانه وقرن حكمه بأحكامه وعلينا نحن الحساب والعقاب وسترونه في أبانه .

«١» سورة النور الآية ٦٣ .

«٢» سورة المائدة الآية ٩٢ .

الطب والرسول محمد «ص»

هبط القرآن الكريم على صاحب الرسالة العامة محمد بن عبد الله «ص» بكل ما يصلح هـذه البشرية في كافة نواحيها الحيوية ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يفرط في شيء مما تحتاجه هذه الحياة إلا عالجه ، ولم يهمل جانباً من جوانب اصلاحها إلا أبانه ملائماً لكل ظرف من ظروفها ، موافقاً لكل دور من أدوار حياة الانسان في أجياله المتعاقبة وعصوره المتتالية . فهو قانون عالمي عام ، وناموس اصلاحي شامل ، ومنهاج سماوي حكيم أرسله اللطيف الخبير بواسطة أصدق خلقه لاسعاد هذا الانسان الجاهل ، وتقويم ما اعوج من طباعه وانتشاله من هوة الهمجية الى مرتفع ذروة الراحة والهناء . فكان من الضروري نظراً لهـذه الغاية السامية أن يجيء شاملاً بعنايته الاصلاحية كل ناحية من مناحي الحياة الانسانية ، ليسير كل حي في طريقة المستقيم الى السعادة فيؤدي واجبه من الطاعة والعبادة .

هكذا جاء القرآن الحكيم . فيه تبيان كل شيء وهدى ورحمة للعالمين، حاوياً من الكنوز العلمية والارشادات السماوية ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم ممن منّ الله عليهم بمعرفتها واختارهم للاطلاع عليها وخصهم دون خلقه بها فجعلهم أدلاء على الخير ومصابيح يهتدى بهم نحو سبل الحياة السعيدة ،

ولما كانت التكاليف السماوية لم تشرع إلا لسليم العقل ، ولم يكن العقل السليم إلا في الجسم السليم ، كان من الحكمة واللطف الالهي أن يلحظ القرآن هذه الناحية

المهمة من الانسان ـ اعني صحة الجسم ـ ملاحظة خاصة ، وأن يهتم بها اهتماماً لا يقل عن الاهتمام بالتكاليف الشرعية نفسها لتوقفها عليها . ولأجله فقد ذكر الكتاب المجيد كل اسس الطب ودعائم الصحة في آية واحدة ترجع اليها خلاصة أفكار الفلاسفة والحكماء طيلة قرون ، وتقف عندها تجارب العلماء والأطباء حتى فى هذا العصر عصر العلم والاختراع ، وهي قوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » .

فان كافة الاطباء قد اجمعوا بعد التحقيق العلمي المستمر والتجارب المتعاقبة ان مدار صحة الأجسام ودعامة سلامتها هو الاعتدال في الطعام ، وان هذا الاعتدال إذا ماتعدى الى الافراط والاسراف أصبح وبالاً على البدن وفتح باباً واسعاً للفتك بالأجسام والنفوس . وما هذا النتاج العلمي الذي يفخر به الطب في تقدمه إلا مؤدى هذه الكلمات الثلاث (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) . حيث جمعت في طيها جميع اسس علم حفظ الصحة وخلاصة نواميسه .

ثلاث كلمات جمعت جملة اصول حفظ الصحة ، وأعطتنا خلاصة أسباب الامراض ، وحذرتنا عن أهم علل الاسقام ، ودرستنا فصولاً وأبواباً عما حوته معضلات الكتب الطبية التي استخلصتها أفكار العلماء وتجارب الأطباء طوال قرون وأعوام قضتها فى البحث والتنقيب والاستقراء والتتبع . فكانت هذه الآية الحكيمة قانوناً عاماً يأمر بالأكل المعتدل لأجل استقامة الأبدان واعتدال صحتها في حياتها المادية والنفسية ، وينهى عن الاسراف دفعاً للأضرار التي تتولد فى البدن والروح بسببه .

أجل إن هذا الأمر والنهي في الآية الكريمة هما نهجان بسيطان لو نهجناهما آخذين بهداهما لما اخترمت النفوس قبل أوانها ، ولسار الانسان في طريق الحياة صحيحاً سليماً لم تعبث به الاسقام والأوباء ، ولم تسيطر عليه الامراض الحادثة عن

ذلك الاسراف والخروج عن القانون الالهي الصحي ، ولعلمنا بحق أن الشريعة الاسلامية منبعثة من صميم نواميس الطبيعة التي خلقها الله تعالى وفاقاً لنواميس الحياة البشرية بتقدير دقيق وموازين ثابتة .

أما النبي الكريم صاحب الرسالة ـ اعني به محمد بن عبد الله «ص» ـ فقد وردت عنه من التعاليم والارشادات الصحية ما تنوف حد الحصر ، وكلها اصول ترتكز عليها قواعد هذا العلم وتدعم بها أركانه ، مثل قوله «ص» مشيراً الى أعظم نقطة يتطلبها علماء هذا الفن في ابحاثهم وهي النظافة والرياضة العقلية والبدنية حيث يقول : بئس العبد القاذورة ، إن الله ليبغض الرجل القاذورة ، ازيلو الشعر عن أبدانكم فانه نجس ـ أي قذر ـ . كل لهو باطل إلا ثلاث تأديبه الفرس ورميه عن قوسه وملاعبته امرأته فانه حق . روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، كما كان يقول الحديث المشهور عنه (ص) : (المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء) . إعط كل بدن ما عُود . وكقوله : (لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فان الله يطعمهم ويسقيهم) وقوله فى الحمى : (اطفئوا حماكم بالماء) . وكان (ص) إذا وعك دعا بماء فادخل فيه يده . وعنه (ص) ان قوماً من الأنصار قالوا يا رسول الله : إن لنا جاراً يشتكي بطنه أفتأذن لنا آن نداويه ؟ قال : « بماذا تداوونه ؟ » قالوا : يهودي ههنا يعالج من هذه العلة ، قال (ص) : بماذا ؟ قالوا : يشق بطنه فيستخرج منه شيئاً ، فكره ذلك رسول الله ، فعاودوه مرتين أو ثلاث ، فقال . « افعلوا ما شئتم » . فدعوا اليهودي فشق بطنه ونزع منه رجراجاً كثيراً ثم غسل بطنه وخاطه وداواه حتى صح وبرىء ، واُخبر النبي بذلك ، فقال : « إن الذي خلق الأدواء جعل لها دواء وإن خير الدواء الحجامة والفصاد والحبيبة السوداء .

أقول وهذا الحديث الشريف يعطينا درساً عن قدم فكرة العمل الجراحي في العلاج وانه لاحداثة له ، وانه آخر الدواء كالكي لا يحسن التسرع اليه وأن

لاوازع عنه في الشرع المقدس . وقوله ﴿ص﴾ : ﴿ اجلس على الطعام وانت تشتهيه وقم عنه وأنت تشتهيه ﴾ .

ذكر البيهقي في المحاسن ما يعجبني ذكره في هذا المقام . قال في محاسن اصلاح البدن ما هذا لفظه : ﴿ جمع الرشيد العباسي أربعة من الأطباء عراقياً ورومياً وهندياً وسوادياً ، فقال : ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه ، فقال الرومي : ﴿ الدواء الذي لاداء فيه الرشاد الأبيض ﴾ وقال الهندي : ﴿ الماءالحار ﴾ وقال العراقي : ﴿ الاهليلج الأسود ﴾ . وكان السوادي أبصرهم ، فقال له تكلم ، فقال : ﴿ حب الرشاد يولد الرطوبة والماء الحار يرخي المعدة والاهليلج يرق المعدة ﴾ ، قال : فانت ما تقول ؟ قال : الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه وتقوم عنه وأنت تشتهيه .

أجل إن أقوال الرسول ﴿ص﴾ وتعاليمه التي وضعها قبل أكثر من ألف سنة تتمشى مع أحدث التعاليم والنظم الصحية ، فليخفف الغرب من كبريائه . محمد القائل المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة . هذا كلام جل عن الضعة ، بل هذا هو الكلام الصادق الذي يجري على النفس سهولة ويسراً .

لقدكان حديث الرسول ﴿ص﴾ في المرض سلامة وعافيه لانه سهل في ادراكه وفهمه عظيم في غاياته ومعناه ، ولم يسمع بما هو أهم وأعم منه نفعاً ولا أحسن موقعاً

الطب والامام علي «ع»

وأما صنو النبي(ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﴿ع﴾ فينم عن اعتنائه البالغ بهذا الشأن قوله المشهور : ﴿ العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان ﴾ ، وقوله بلفظ ابن شعبة في تحف العقول : ﴿ العلم ثلاثة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان والنحو للسان ﴾ . وقوله ﴿ع﴾ بلفظ الكراجكي في جواهره ، ﴿ العلوم أربعة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، النحو للسان ، والنجوم لمعرفة الأزمان ﴾ . وله

عليه السلام كلمات قيمة في جوامع علم الابدان كقوله : ﴿ اكسروا حر الحمى بالبنفسج والماء البارد ﴾ ، وقوله : ﴿ لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء ﴾ ، وقوله لابنه الحسن ﴿ع﴾ ﴿ يا بني ألا أُعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب ؟ فقال : بلى ، قال : « لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه ' وجوّد المضغ ' وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء ' فاذا استعملت هذه استغنيت عن الطب . وقوله : من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليؤخر العشاء ويقل غشيان النساء وليخفف الرداء .

كان ابن هبيرة يباكر الغذاء ، فسئل عن ذلك فقال : إن فيه ثلاث خصال أما الواحدة فانه ينشف المرة ، والثانية يطيب النكهة ، والثالثة أنه يعين على المروءة قيل : وكيف يعين على المروءة ؟ قال : إذا خرجت من بيتي وقد تغذيت لم أتطلع الى طعام أحد من الناس .

وقال «ع» : أربع كلمات في الطب أيضاً لو قالها بقراط وجالينوس لقدم أمامها مائة ورقة ثم زينها بهذه الكلمات وهي قوله «ع» : « توقوا البرد في أوله وتلقوه في آخره فانه يفعل في الأبدان كفعله في الاشجار أوله يحرق وآخره يورق » وإن الطف ما رأيت له «ع» من المواقف الطبية الكريمة ما أخرجه رجال الحديث من الفريقين ، وقد ذكره من رجال أهل السنة أسعد بن ابراهيم الارديلي المالكي باسناده عن عمار بن ياسر وزيد بن أرقم قالا : كنا بين يدي أمير المؤمنين في مسجد الكوفة وإذا بزعقة عظيمة وكان علي «ع» على دكة القضاء فقال «ع» : « يا عمار أأنت بمن على الباب ؟ » قال : فخرجت وإذا على الباب امرأة في قبة على جمل وهي تشتكي وتصيح يا غياث المستغيثين اليك توجهت وبوليك توسلت فبيض وجهي وفرج عني كربتي ، قال عمار : وكان حولها ألف فارس بسيوف مسلولة وقوم لها

وقوم عليها ، فقلت أجيبوا أمير المؤمنين فنزلت المرأة ودخل القوم معها المسجد واجتمع أهل الكوفة ، فقام أمير المؤمنين «ع» وقال : سلوني ما بدا لكم يا أهل الشام فنهض من بينهم شيخ وقال : يا مولاي هذه الجارية ابنتي وقد خطبها ملوك العرب وقد نكست رأسي بين عشيرتي لانها عاتق حامل فاكشف هذه الغمة . فقال أمير المؤمنين «ع» : ما تقولين يا جارية ؟ قالت : يا مولاي أما قوله اني عاتق فقد صدق . وأما قوله إني حامل ، فوحقك يا مولاي ما علمت من نفسي خيانة قط ، فصعد (ع) المنبر وقال : علي بداية الكوفة ، فجاءت امرأة تسمى « لبناء » وهي قابلة أهل الكوفة فقال لها اضربي بينك وبين الناس حجاباً وانظري هذه الجارية عاتق حامل أم لا ؟ ففعلت ما أمرها ثم خرجت وقالت نعم يا مولاي هي عاتق حامل فقال (ع) : من منكم يقدر على قطعة ثلج فى هذه الساعة ؟ فقال أبو الجارية : الثلج في بلادنا كثير ولكن لا نقدر عليه ههنا ، قال عمار (ره) : فمد علي يده من أعلا منبره وردها وإذا فيها قطعة من الثلج يقطر الماء منها .

أقول لا غرابة فى مثل هذا بعدما قص علينا القرآن الكريم من قصة آصف ابن برخيا وقوله لسليمان (ع) لما استحضر عرش بلقيس عنده : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، وشتان بين ابن برخيا وبين أمير المؤمنين (ع) فان ذاك عنده علم من الكتاب ، وهذا عنده علم الكتاب كله . ثم قال (ع) : يا داية خذي هذه القطعة من الثلج واخرجي بالجارية من المسجد واتركي تحتها طستاً «١» وضعي هذه القطعة مما يلي الفرج فسترين علقة وزنها سبعمائة وخمسون درهما ففعلت ورجعت بالجارية والعلقة اليه ، وكانت كما قال (ع) فالتفت عليه السلام لأبي الجارية وقال له

«١» والموضع يعرف اليوم بالكوفة بموضع الطست وقد وقفنا عليه ورأيناه وفى سنتنا وهى سنة ١٣٧٣ هـ بذلت الحكومة العراقية ألف دينار عراقي لعمارته وشاهدنا العمارة فى وقت العمل وهى عمارة ضخمة متقنة .

خذ ابنتك فوالله مازنت ولكن دخلت موضعاً فيه ماء فدخلت هذه العلقة في جوفها وهي بنت عشر سنين فما زالت العلقة تكبر في بطنها حتى الآن انتهى «١» .

ومن لطائف ما وجدناه أيضاً لأمير المؤمنين (ع) ما رواه اليافعي في روض الرياحين ص ٤٢ . قال : مر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في بعض شوارع البصرة فاذا هو بحلقة كبيرة والناس حولها يمدون اليها الاعناق ويشخصون اليها بالاحداق فمضى اليهم لينظر ما سبب اجتماعهم فاذا فيهم شاب حسن الشباب نقي الثياب عليه هيبة ووقار وسكينة الاخيار وهو جالس على كرسي والناس يأتونه بقوارير من الماء وهو ينظر في دليل المرضى ويصف لكل واحد منهم ما يوافقه من أنواع الدواء ، فتقدم اليه «ع» وقال : السلام عليك أيها الطبيب ورحمة الله وبركاته ، هل عندك شيء من أدوية الذنوب فقد أعيى الناس دواؤها يرحمك الله ؟ فاطرق الطبيب برأسه الى الارض ولم يتكلم ، فناداه الامام «ع» ثانية فلم يتكلم فناداه ثالثة كذلك فرفع الطبيب رأسه بعد ما رد السلام وقال أو تعرف أنت أدوية الذنوب بارك الله فيك ؟ قال «ع» : نعم ، قال : صف وبالله التوفيق ، فقال «ع» : تعمد الى بستان الايمان فتأخذ منه عروق النية وحب الندامة وورق التدبر وبزر الورع وثمر الفقه وأغصان اليقين ولب الاخلاص وقشور الاجتهاد وعروق التوكل واكمام الاعتبار وسيقان الانابة وترياق التواضع ، تأخذ هذه الأدوية بقلب حاضر وفهم وافر بأنامل التصديق وكف التوفيق ثم تضعها في طبق التحقيق وتغسلها بماء الدموع ، ثم تضعها في قدر الرجاء وتوقد عليها بنار الشوق حتى ترغى زبد الحكمة ثم تفرغها في صحاف الرضا وتروح عليها بمراوح الاستغفار ينعقد لك من ذلك شربة جيدة ، ثم تشربها في مكان لا يراك فيه أحد إلا الله تعالى ، فان ذلك يزيل عنك الذنوب حتى لا يبقى عليك ذنب أبداً فأنشأ الطبيب قائلاً

«١» البحار ج ١٤ ص ٥٢٥ .

يا خاطب الحوراء في خدرها　　شمر فتقوى الله من مهرها
وكن مجداً لا تكن وانياً　　وجاهد النفس على صبرها

ثم شهق شهقة فارق بها الدنيا انتهى . الى غير ذلك مما يدلنا على ما لهذا الدين الحنيف من العناية بالصحة ، وما لدى النبي (ص) وأوصيائه من المعرفة الالهية والكنوز القرآنية التي اختارهم الله تعالى لمعرفتها . فلقد كان النبي (ص) في حياته الشريفة هو الواسطة الكبرى بين الخالق وخلقه ، ولما رفعه الله تعالى اليه أبى لطفه العام وكرمه الشامل أن يترك هذا الخلق ـ بعد نبيه ـ سدى دون أن ينصب لهم ولياً مرشداً يكشف لهم عن تلك الكنوز ويبث فيهم تلك التعاليم الصالحة المصلحة والارشادات الحكيمة فكانت أوصياؤه وأبناؤه هم حملة تلك العلوم وأمناء الله في أرضه على مكنون علمه وغامض سره ، ولا غرابة فقد أخذوا ذلك عن جدهم النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى ، ولقد ظهر في الناس من تعاليمهم وارشاداتهم ما دل على كامل معرفتهم وتمام اطلاعهم على مختلف العلوم لا سيما علم الطب حتى جمع غير واحد من العلماء جملة من أقوالهم فألفها كتباً قيمة باسم طب النبي وطب الأئمة (ع) وطب الرضا الى غيرها مما ملأت الكتب وتواترت بها الاحاديث الصحيحة وفي مقدمتها الرسالة الذهبية التي ألفها الامام علي بن موسى الرضا (ع) بطلب من المأمون الخليفة العباسي ، وقد جمعت فوائد جمة من قواعد الطب واصول الصحة ، وأمر المأمون أن تكتب بالذهب لأهميتها ولذلك سميت بالذهبية ، ولم يكن للخليفة عنها غنى برجال الفن المتصلين به نظير حنا بن ماسويه وجبرئيل بن بختيشوع وصالح بن سلهمة الهندي وغيرهم من أطباء البلاط العباسي ، وقد أصبحت هذه الرسالة فريدة كل دهر وخريدة كل عصر .

الطب والامام الرضا ((ع))

في أوائل القرن الثالث الهجري ـ حيث الخلافة العباسية في عصرها الذهبي خليفتها المأمون من بني العباس وولي عهدها الرضا من آل محمد (ص) ـ انعقدت ندوة من أندية العلم الرفيعة بنيسابور ، مجلس علمي من تلك المجالس التي كان المأمون أعلم الخلفاء العباسيين يكثر عقدها ويجلب لها كبار العلماء من شتى أقطار الأرض ليخوض معهم في بحار العلم يجلو غوامضه ويكشف حقائقه ، يحقق بذلك رغبة العلماء السباقين الى البحث والجدل ابتغاء الوصول الى حقيقة علمية أو بز الأقران في مجلس الخلافة ليسير بذكر فضلهم الركبان .

ولم يكن المأمون قد عقد هذا المجلس كأكثر ما كان يعقد من مجالس العلم حينذاك للمناظرة في المذاهب والمناقشة في الأديان ليجمع في مجلسه عمران الصابي ورأس الجالوت والجاثليق والهربذ الأكبر وأمثالهم ، وإنما عقد مجلسه العلمي من الفلاسفة والمتطببين ليتذاكروا في الأمزجة وطب الأبدان وقد انعقد المجلس من كل من :ـ المأمون الخليفة ، الامام الرضا ولي العهد ، يوحنا بن ماسويه الطبيب ، جبرئيل بن بختيشوع الطبيب النصراني ، صالح بن سلهمة الهندي الفيلسوف وغيرهم من ذوي العلوم والبحث والنظر ، وجرى ذكر الطب ومافيه صلاح الأجسام وقوامها فأغرق المأمون ومن بحضرته في الكلام وأنه كيف ركب الله هذا الجسد وما فيه من الأشياء المتضادة من الطبايع الأربع ومضار الأغذية ومنافعها ، وأبو الحسن

ـ الامام الرضا ـ ساكت لا يتكلم في شيء من ذلك ، فقال له المأمون : ما تقول يا أبا الحسن فى هذا الأمر الذي نحن فيه هذا اليوم ؟ .

فقال أبو الحسن : « عندي من ذلك ما جربته وعرفت صحته بالاختبار ومرور الأيام مع ما وقفني عليه من مضى من السلف مما لا يسع الانسان جهله ولا يعذر في تركه ، فأنا أجمع ذلك مع مايقاربه مما يحتاج الى معرفته ، ثم عاجل المأمون الخروج الى بلخ وتخلف عنه أبو الحسن «ع» فكتب اليه المأمون كتاباً يتنجزه ما كان ذكره في ذلك فكتب اليه الرضا كتاباً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

اعتصمت بالله :

أما بعد فانه وصل الي كتاب أمير المؤمنين فيما أمرني من توقيفه الى ما يحتاج اليه مما جربته وسمعته فى الأطعمة والأشربة وأخذ الأدوية والفصد والحجامة والحمام والنورة والباه وغير ذلك مما يدبر استقامة أمر الجسد وقد فسرّت ما يحتاج اليه وشرحت له ما يعمل عليه ـ في سياسة جسمه وبالله التوفيق . وبعد هذا يفتح الرسالة بقوله : « اعلم يا أمير المؤمنين . . . الخ »

فلما وصلت هذه الرسالة الى المأمون وهو يومئذ ببلخ وقرأها فرح بها فرحاً شديداً ، وأمر فكتبت بالذهب ، وأمر أن تسمى بالمذهبة ، ودفعت إلى أولاده وأولياء دولته وبني عمه ثم أودعها بيت الحكمة من خزانته وكتب معها رسالة بخطه وكان حسن الخط نسختها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد ووليه وله آخره وبدؤه ذي النعم والافضال والاحسان والاجمال أحمده على نعمه المتظاهرة وفواضله وأياديه المتكاثرة المتواترة ، وأشكره على منحه ومواهبه شكراً يوجب زيادته ويقرب زلفى أشهد أن لا إله إلا الله شهادة

مخلص له بالايمان غير جاحد ولا منكر له بربوبيته ووحدانيته ، بل شهادة تصدق نسبته لنفسه ، وأنه كما قال الله عزوجل : « قل هو الله أحـد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وكذلك ربنا عزوجل . وصلى الله على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله خاتم النبيين .

أما بعد فاني نظرت فى رسالة ابن عمي العلوي الأديب والفاضل الحبيب والمنطقي الطبيب في اصلاح الأجسام وتدبير الحمام وتعديل الطعام فرأيتها في أحسن التمام ووجدتها فى أفضل الانعام ، ودرستها متدبراً ورددت نظري فيها متفكراً ، فكلما أعدت قراءتها والنظر فيها ظهرت لي حكمتها ولاحت لي فائدتها وتمكنت من قلبي منفعتها ، فوعيتها حفظاً وتدبرتها فهماً ، إذ رأيتها من أنفس العلائق وأعظم الذخائر وأنفع الفوائد ، فأمرت أن تكتب بالذهب لنفاستها وحسن موقعها وعظم نفعها وكثرة بركتها ، وسميتها المذهبة وخزنتها في خزانة الحكمة ، وذلك بعد أن نسخها آل هاشم فتيان الدولة ، لأن بتدبير الأغذية تصلح الأبدان ، وبصحة الأبدان تدفع الأمراض ، وبدفع الامراض تكون الحياة ، وبالحياة تنال الحكمة ، وبالحكمة تنال الجنة . وكانت أهلاً للصيانة والادخار وموضعاً للتأهيل والاعتبار وحكيماً يعوّل عليه ومشيراً يرجع اليه ، ومن معادن العلم آمراً وناهياً ينقاد له لانها خرجت من بيوت الذين يوردون حكم الرسول المصطفى وبلاغات الأنبياء ودلائل الأوصياء وآداب العلماء وشفاء للصدور والمرض من أهل الجهل والعمى . رضوان الله عليهم ورحمته وبركاته أولهم وآخرهم وصغيرهم وكبيرهم ، فعرضتها على خاصتي وصفوتي من أهل الحكمة والطب وأصحاب التأليف والكتب المعدودين في أهل الدراية والمذكورين بالحكمة ، وكلٌّ مدحها وأعلاها ورفع قدرها وأطراها ، انصافاً لمصنفها وإذعاناً لمؤلفها وتصديقاً له في ما حكاه فيها . فمن وقعت اليه هـذه الرسالة من بعدنا من أبنائنا وأبناء دولتنا ورعايانا وسائر الناس على طبقاتهم فليعرف

قدرها والموهبة له وتمام النعمة عليه وليأخذها بشكر ، فانها أنفس من العقيان وأعظم خطراً من الدر والمرجان ، وليستعمل حفظها وعرضها على همته وفكره ليلاً ونهاراً فانها عائدة اليه بالنفع والسلامة من جميع الامراض والاعراض إن شاء الله تعالى . وصلى الله على رسوله محمد وأولاده الطيبين الطاهرين أجمعين حسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين .

ولقد جاءت رسالة الامام الرضا «ع» البليغة العلمية مختصراً لعدد من العلوم الطبية : كعلم التشريح ، علم الاحياء ، وعلم وظائف أعضاء الجسم « الفسلجة » ، وعلم الامراض « الباثولوجي » ، وعلم حفظ الصحة . ودللت على القسم الاعظم من الطب الوقائي وعلم الأغذية وعلم الكيمياء وقسم كبير من العلوم الاخرى .

ومن الجدير أن نلفت نظر القارىء النبيه هو أن الامام صلوات الله عليه بعث برسالته الذهبية هذه الى الخليفة المأمون حوالي سنة ٢٠١ هجرية في وقت كان الطب علماً بدائياً ودراسته بصورة غير علمية ، مبنية على الممارسة فقط وليست على الاكتشافات العلمية ، وفي وقت لم تكتشف فيه الجراثيم بعد ، ولم يعرف شيء عن جواهر الغذاء المهمة كالفيتامينات ولا الاكتشافات الطبية المهمة الاخرى لمكافحات المكروبات من « البنسلين ، والستربومايسين ، والاوروميسين » وغيرها .

وقد جاءت الرسالة بسيطة بظاهرها لماشاة عقلية ذلك الزمان ، إلا انها عميقة ومعقدة ببواطنها تحتاج الى دراسات علمية وبحوث طويلة لتفسير أسرارها وكشف بواطنها ومقارنتها بالحقائق العلمية الحديثة .

الرسالة

اعلم يا أميرالمؤمنين إن الله تعالى لم يبتل الجسد بداء حتى جعل له دواء يعالج به ، ولكل صنف من الداء صنف من الدواء وتدبير ونعت . وذلك ان الاجسام الانسانية جعلت على مثال الملك ، فملك الجسد هو القلب والعمال العروق والاوصال

والدماغ ، و بيت الملك قلبه وأرضه الجسد ، والأعوان يداه ورجلاه وشفتاه وعيناه ولسانه واذناه ، وخزانته معدته و بطنه ، وحجابه صدره . فاليدان عونان تقربان وتبعدان وتعملان على ما يوحي اليهما الملك ، والرجلان تنقلان الملك حيث يشاء ، والعينان تدلانه على ما يغيب عنه ، لأن الملك من وراء الحجاب لا يوصل اليه شيء إلا بالاذن وهما سراجان أيضاً ، وحصن الجسد وحرزه الاذنان لا يدخلان على الملك إلا ما يوافقه لأنهما لا يقدران أن يدخلا شيئاً حتى يوحي الملك اليهما فاذا أوحى اليهما أطرق الملك منصتاً لهما حتى يسمع منهما ثم يجيب بما يريد فيترجم عنه اللسان بأدوات كثيرة : منها ريح الفؤآد وبخار المعدة ومعونة الشفتين ، وليس للشفتين قوة إلا باللسان أو « الاسنان » وليس يستغني بعضها عن بعض ، والكلام لا يحسن إلا بترجيعه في الأنف لان الانف يزين الكلام كما يزين النافخ في المزمار وكذلك المنخران وهما ثقبتا الانف يدخلان على الملك مما يحب من الرياح الطيبة ، فاذا جاءت ريح تسوء الملك أوحى الى اليدين فحجبا بين الملك وتلك الريح .

وللملك مع هذا ثواب وعقاب . فعذابه أشد من عذاب الملوك الظاهرة القاهرة في الدنيا وثوابه أفضل من ثوابهم ، فأما عذابه فالحزن ، وأما ثوابه فالفرح ، وأصل الحزن في الطحال ، وأصل الفرح في الثرب والكليتين ومنها عرقان موصلان الى الوجه ، فمن هناك يظهر الحزن فترى علامتهما في الوجه . وهذه العروق كلها طرق من العمال الى الملك ومن الملك الى العمال . ومصداق ذلك انك إذا تناولت الدواء أدته العروق الى موضع الداء باعانتها .

الفسلجة والتشريح في رسالة الامام «ع»

كم كنت أود أن أعثر على شرح لهذه الرسالة القيمة يوافق العصر والطب الحديث وإن كان السلف ـ رضون الله عليهم ـ لم يهملوا هذه الناحية فقد وقفنا على عدة شروح لهم معقدة لا تفي بالغرض ـ والطب اليوم غيره بالامس ـ الى أن اتيحت

الفرصة ووفق الجليل جل وعلا أن زرت الامامين الجوادين عليهما السلام ، ومن حسن الصدف أن زرت فى الاثناء الصديق الحفي الدكتور الفاضل السيد صاحب زيني أداءاً للخدمة الانسانية التي يقوم بها .

وما أسعدني عندما أتحفني بكتيب صغير الحجم كبير المعنى ، وما أكثر ابتهاجي حينما وجدته الغاية المتوخاة . الكتاب في شرح رسالة الامام قد ضمن دقيق الطب وجليله جمع فأوعى ، ومن الممكن أن يكون آية عصره . وفق الله الدكتور لأداء الخدمة الطبية وجزاه عما قام به من شرح هذه الرسالة الذهبية .

واني أرى من الخير لقراء « الجواهر الروحية » أن أقتطف لهم من آرائه السديدة بعض المناسبات التي تتعلق بالغرض . قال وفقه الله تعالى :

أول العلوم والذي له الصدارة في مدرسة الطب الحديث هو علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء الذي تدرّس لطلاب الطب كعلوم بدائيه وأولية لما لها من أهمية في تفهم العلوم الطبية الاخرى . فالتشريح هو دراسة مختلف الاجزاء التي تكوّن الجسم البشري على اختلاف أنواعها وتنوّع أنسجتها شاملاً وإياها فرعاً كبيراً هو علم الأجنة « العلم المخصص بدراسة النطفة من تكوّنها في الارحام حتى تولد الجنين كاملاً » . وقد قُسم علم التشريح الى عدة أقسام كبيرة عديدة لسهولة البحث ولتيسير دراسة أهمها : ١ ـ الهيكل العظمي ٢ ـ المجموعة المفصلية ٣ ـ المجموعة العضلية ٤ ـ جهاز الدوران ٥ ـ الجهاز العصبي ٦ ـ الحواس والجلد ٧ ـ جهاز التنفس ٨ ـ جهاز الهضم ٩ ـ جهاز البول والتناسل ١٠ ـ الغدد الصماء . وتتكون هذه الاقسام الكبيرة من أقسام أصغر فتتدرج في صغر التكوين الى أن تصل الى وحدة تكوّن الانسجة وهي الحجيرة التي لا ترى بالعين المجردة وتحتاج الى الدرس بمساعدة المجهر « المكرسكوب » .

إن كل قسم من هذه الاقسام الكبيرة هو موضوع بحث منفصل عن الاقسام

الاخرى ، وتختلف كلٌّ حسب وظيفتها في تركيبها عن الأقسام الباقية إلا أنها جميعاً تشترك وتتعاون فيما بينها لتكوّن الجسم البشري الحي ، ولتحافظ على إدامة الحياة في هذا الجسم الى حدّ ما ، وللمحافظة على روح هذا الجسم . أما ما هي الروح وأين موقعها فى الجسم ؟ فان علم ذلك عند إلهه فقط ، إلا أن الشيء الذي توصل الى معرفته البشر هو أن أدق وأحس أقسام البدن هما القلب والدماغ الذي إذا شبهنا جسم الانسان بمملكة مصغرة فيكونان بمثابة الملك لهذه المملكة . فالقلب هو ذلك العضو الجبار الذي لا يكل ولا يعطل وهو أقوى العضلات التي تبدأ حركتها ودقاتها ببدء الحياة في الجنين ولا تكف حركته إلا عند الموت ، وهو المسؤول عن توزيع الدم النقي ـ الذي يعتبر العنصر المغذي لأنسجة الجسم كافة ـ بواسطة الشرايين وارجاع الدم الفاسد المثقل بالفضلات بواسطة الأوردة ، ومجموعة الأوردة ، والشرايين ومساعداتها الأنابيب اللمفاوية هي ما تسمى بالعروق . فالعروق هي بمثابة الجنود للقلب الذي يعتبر هو قائد هذا القسم التي لا تنتهي مأموريتها بهذا العمل فقط بل هي المسؤولة عن ايصال هذا الدم الفاسد الى الجهاز التنفسي المتكون من الرئتين والقصبات الهوائية ومجاري الهواء العليا لابدال ما أثقله من غازات ومواد سامة بغاز شفاف نقي هو غاز الاوكسجين ، ثم لحمل المواد السامة والفضلات الزائدة الى الجهاز المسؤول عن طرحها الى الخارج وتخليص الجسم منها وهو الجهاز البولي .

أما الأقسام الاخرى فلكل تركيبه الخاص وأعماله الخاصة الملقاة على عاتقه فالهيكل العظمي مثلاً هو رافع كيان البدن وقالبه المقوّم ، والمجموعة العضلية والمفصلية هي قسم الحركة ، وجهاز الهضم بتركيباته المعقدة بادئاً من الفم ومنتهياً الى الشرج هو المسؤول عن اخذ الطعام وسحقه ثم هضمه وامتصاصه ثم تمثيله وطرح فضلاته . وما جهاز التناسل على اختلاف تركيبه فى الذكور والاناث سوى معمل للتكاثر والتوالد هذه المملكة المصغرة وهؤلاء قوادها وجنودها وهذا مليكها وآمرها وناهيها

هو سيد الأعضاء الجهاز العصبي . يختلف الجهاز العصبي عن بقية الأجهزة الاخرى ، فنسيجه هو من أتقى الأنسجة وحجيراته هي من أحلى وأدق الحجيرات ، وتصميم تركيبها وتلاحمها هو من أقوى وأحسن التراكيب والامتزاج ، وأفضل أنواعها وأصفاها هو نسيج الدماغ (المخ والمخيخ والمراكز العصبية العليا) ، وبالدرجة الثانية النخاع المستطيل والنخاع الشوكي ، وبالدرجة الثالثة هو توزيعات الأعصاب على اختلاف أنواعها سواء أكانت حسية أو حركية ، إرادية أو غير أرادية .

لمركز الأعصاب العليا المخ والمخيخ وقنطرة فارول والدماغ الوسطى والقسم المركزي من الجملة العصبية ، النخاع المستطيل والنخاع الشوكي السيطرة الكلية على جميع الأفعال والحركات سواء كانت إرادية أو غير إرادية ، وعلى جميع الحواس بما فيها التفكير والعقل والحواس الخمسة : (النظر والسمع والشم والذوق والحس) وعلى حركات الاحشاء الداخلية . وكل هذه المراكز الخارجية باتصال مع المراكز العليا بأسلاك خاصة ومراكز توزيعية هي أشبه شيء بشبكة خطوط التلفونات .

علم الفسلجة : ـ وهو علم وظائف الأعضاء وبحث جميع فعاليات الجسم الداخلية والخارجية في الحالات الطبيعية الصحية . فما فلسفة سيطرة الجملة العصبية على جميع أجزاء البدن وأهمية الدورة الدموية بادامة الحياة بتغذية جميع الانسجة الحية وتزويدها بحاجياتها ، وما عملية تنقية الدم الفاسد من الشوائب في الرئتين وعملية الهضم المعقدة وعمل الكليتين من تخليص الجسم من المواد السامة والفضلات ، وفائدة الغدد الصماء فى ضبط درجة الفعاليات المختلفة إلا أمثلة ورؤوس مواضيع في هذا العلم الواسع وهو ثاني علوم الطب البدائية بعد التشريح .

لقد استهل إمامنا الرضا (ع) رسالته بتشبيه الجسد بمملكة ، والقلب والدماغ بمثابة الملك ، وبيت الملك وبقية الاعضاء بضمنها عروق الدم والاعصاب بمثابة الرعية والجنود ، الواجب عليهم اطاعة الملك وتنفيذ أوامره ، ثم المحافظة عليه من جميع

الطوارىء والمؤثرات الخارجية . لقد أشار الامام الى تقسيم الحوافز الصادرة من الدماغ والراجعة اليه بواسطة أعصاب خاصة حركية ، وتطرق بالتفصيل الى الحواس الخمسة وخاصة حاسة السمع والبصر والشم وفوائدها وبين أن كل هـذه الحواس لا تتم إلا بفضل حوافز الدماغ . فالانسان يرى ويسمع ويشم ويذوق ويحس بدماغه ، وما آلات الحواس سوى وسائط لايصال الحافز الخاص للدماغ وصدور الشعور لذلك الحس منه ، وان هذه الحواس هي من النوع الارادي ، فالانسان يرى متى ما أراد أن يرى ، ويسمع متى ما أراد أن يسمع ، ويشم ما يريد أن يشمه وما عدى ذلك يمكن تجنبه بمحض إرادته .

ثم عرّج عليه السلام على ناحية اخرى من وظائف الدماغ وهي السيطرة على الاعضاء المكلفة بالحركة كاليدين والرجلين بواسطة الاعصاب الحركية ، وكيف فسرت أحدث نظريات انتقال حوافز الحركة من المراكز العليا الى الاسفل وبالعكس ثم مساعدة اليدين والرجلين في تنفيذ أوامر ملك الجسد في الانتقال وقضاء الحوائج اليومية والدفاع عن النفس ، وفى سياق شرح الحواس الخمسة أبان « ع » ما للأنف من فائدة في تصفية هواء التنفس وما له من فائدة اخرى مشتركاً مع اللسان والاسنان والشفتين في إخراج الكلام الواضح المفهوم المقاطع ، وفسر أحدث النظريات الصوتية في فائدة الجيوب الأنفية الهوائية في تزيين الصوت وتجسيمه واعطائه النبرات الخاصة به . وفي نهاية هذا القسم لمح سيدنا الامام (ع) الى مراكز خاصة لنوع من الأعصاب التي تحكم نفسها بنفسها حكماً ذاتياً والتي لها كل السيطرة على الاحشاء الداخلية كعروق الدم والدورة الدموية بصورة خاصة وبقية الاجهزة بصورة عامة . فبعض المؤثرات الخارجية كالحزن والفرح التي لها بعض المظاهر كحمرة الوجنتين والتعرق سببها تقلصات وتمددات فى عروق الدم الدقيقة المجهرية بحكم هذه الاعصاب الذاتية الموزعة من بعض نقاط التوزيع الواقعة

بعضها خلف الكليتين والاخرى في القسم الامامي من غشاء الأمعاء تحت الثرب مباشرة « وأصل الحزن في الطحال وأصل الفرح في الثرب والكليتين . . . الخ

ونختم بحث الفسلجة بذكر جواب الامام الرضا « ع » لضباع بن نصر الهندي وعمران الصابي بمحضر المأمون حين سأله عمران فقال : ـ « العين نور مركبة أم الروح تبصر الأشياء من منظرها ؟ قال « ع » : العين شحمة وهو البياض والسواد ، والنظر للروح « ولما » قال ضباع فاذا عميت العين كيف صارت الروح قائمة والنظر ذاهب ؟ قال « ع » : ـ كالشمس طالعة يغشاها الظلام . قال : أين تذهب الروح ؟ قال : ـ أين يذهب الضوء الطالع من الكوة في البيت إذا سدت الكوة ؟ قال : ـ أوضح لي ذلك ، قال : ـ الروح مسكنها الدماغ وشعاعها منبعث بالجسد بمنزلة الشمس دارتها في السماء وشعاعها منبسط على الأرض فاذا غابت الدارة فلا شمس وإذا قطع الرأس فلا روح » .

خذ من الطعام ما يوافقك

واعلم يا أمير المؤمنين ان الجسد بمنزلة الأرض الطيبة ، متى تعوهدت بالعمارة والسقي من حيث لا يزداد الماء فتغرق ولا ينقص منه فتعطش دامت عمارتها وكثر ريعها وزكى زرعها ، وإن تغوفل عنها فسدت ولم ينبت فيها العشب . فالجسد بهذه المنزلة ، وبالتدبير في الأغذية والأشربة يصلح ويصح وتزكو العافية فيه . فانظر يا أمير المؤمنين ما يوافقك ويوافق معدتك ويقوى عليه بدنك ويستمريه من الطعام فقدّره لنفسك واجعله غذاءك . واعلم يا أميرالمؤمنين أن كل واحدة منهذه الطبايع تحب ما يشاكلها ، فاغتذ ما يشاكل جسدك ، ومن أخذ من الطعام زيادة لم يغذه ومن أخذه بقدر لا زيادة عليه ولا نقص فى غذائه نفعه ، وكذلك الماء فسبيله أن تأخذ من الطعام كفايتك فى أيامه ، وارفع يديك منه وبك اليه بعض القرم وعندك اليه ميل فانه أصلح لمعدتك ولبدنك وأزكى لعقلك وأخف لجسمك .

حفظ الصحة بمراعاة الجسم

قال الدكتور زيني : بُنيت أكثر القواعد الطبية والارشادات الصحية لاعلى قاعدة معينة يسري مفعولها على جميع الأبدان بل على سريان مفعولها وانطباقها على أكبر عدد من البشر ، لأن كل شخص هو وحدة بدنية وخليقة تختلف نسبياً عن الآخرين . فكل شخص هو مزاج خاص وقابلية خاصة بل هو وحدة حيوية خاصة تختلف عن الوحدات الاخرى ، وقد تنطبق عليها بعض القواعد وقد يضرها البعض الآخر أو قد لا ينفعها بتاتاً . فمثلاً قالت أكثر الكتب ونشرات الارشادات الصحية إن الحمام البارد صباحاً وخاصة في البلاد الحارة وفى الفصول الحارة مفيد للبدن ولكن بعض الأجسام الضعيفة ذات المقاومات القليلة ودقيقة المزاج قد لا تنفعها هذه الحمامات وقد تسبب بعض الأضرار أو الأخطار لتأثيراتها على الشرايين والأوردة فتقلصها فجائياً ، وهذا مما يؤثر تأثيراً خطراً على عضلة القلب ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى هنالك نصائح وأقوال يسري مفعولها على جميع الأجسام على السواء كنصيحة الامام علي «ع» : «كل وأنت جائع وقم وأنت جائع» .

لقد شبه الامام الرضا «ع» الجسد في هذا الموضع بالأرض الخصبة والانسان هو صاحب هذه الأرض الشرعي وفلاحها ، فان اعتنى بها العناية اللازمة باعتدال لا تبذير أو تقتير أثمرت هذه الأرض أطيب الثمرات ، واما إذا أساء التصرف بها أو باغراقها أو تعطيشها فتتلف أو تموت . يا له من تشبيه تنطبق عليه أحدث الاسس الوقائية الصحية وتستنتج أدق النظريات الطبية ، ثم قبل أن يترك هذا القسم من الموضوع يفسر لنا كيف أن الباري عز وجل خلق كل إنسان كوحدة منفردة ومنفصلة عن الآخرين ولكل شخص مزاجه الخاص فيخاطب الخليفة بقوله : « فانظر يا أمير المؤمنين ما يوافقك ويوافق معدتك . . . الخ » واعلم يا أميرالمؤمنين ان كل واحدة من هذه الطبائع تحب ما يشاكلها فاغتذ ما يشاكل جسدك ... الخ

ويرجع فيقول : « وارفع يديك منه وعندك اليه ميل » فهو في هذا الموضع يفسر قول جده الامام علي «ع» : « كل وأنت جائع وقم وأنت جائع » .

الجوع : هو ذلك الشعور الخاص الذي يشعره كل فرد عندما يحتاج جسمه للغذاء ويكون جهازه الهضمي بحالة الراحة التامة وجاهز لتلقي الوجبة الطعامية واستئناف عمله .

الشبع : هو ذلك الشعور الخاص الذي يشعره كل فرد عند ما يصل الحافز الخاص المنبيء باكتفاء الجسم بتلك الكمية من الغذاء التي استوعبتها المعدة . إن الافراط بهذين الشعورين وسوء التصرف تجاه كل منهما وخيم العاقبة بدون أي شك وان الأكل الكثير أكثر من قابلية البدن مولّد للتخمة بديهة لا حاجة لاثباتها كنتيجة مباشرة للافراط . أما النتائج غير المباشرة فكثيرة آتي على أهمها وهو « سوء الهضم المزمن » ذلك المرض المسبب من اجهاد الجهاز الهضمي وخاصة المعدة والكبد بالأكل الكثير وعدم مراعاة الشروط الصحية .

والسمنة : وهي علة العلل إذا كان الجهاز الهضمي صالح الحدّ ما وافرط صاحبه في الأكل فيثقل الدم بالمواد الشحمية التي يضطر الى ترسيبها في محلات غير طبيعية كعضلة القلب والكبد التي تعتبر من أخطر المواضع . ومن نتائج السمنة (عجز القلب) الذي قد يؤدي الى (عجز الكلى) ، ومن النتائج الاخرى (ارتفاع الضغط الدموي) الذي قد يؤدي الى (تصلب الشرايين) وانفجار بعضها في محلات خطرة كالدماغ ومن التأثيرات المرضية الاخرى هي بعض أمراض المفاصل المزمنة « كالنقرس » وغيرها . هذه بعض الأمراض المسببة عن الافراط فى الأكل . أما نتائج هذه فحدث ولا حرج عن خطورتها ، وأما ما هو أصلح طعام لكل فرد فذلك يتعلق بمزاج ذلك الفرد وقابليته .

قال الامام الرضا « ع » : يا أمير المؤمنين كل البارد في الصيف والحار في

الشتاء والمعتدل في الفصلين على قدر قوتك وشهوتك ، وابدأ في أول الطعام بأخف الأغذية التي يغتذي بها بدنك بقدر عادتك وبحسب طاقتك ونشاطك وزمانك ، والذي يجب أن يكون أكلك في كل يوم عندما يمضي من النهار ثمان ساعات أكلة واحدة أو ثلاث أكلات في يومين تغتذي باكراً في أول يوم ثم تتعشى ، فاذا كان في اليوم الثاني فعند مضي ثمان ساعات من النهار أكلت أكلة واحدة ولم تحتج الى العشاء ، وكذا أمر جدي محمد «ص» وعلي (ع) في كل يوم وجبة وفي غد وجبتين وليكن ذلك بقدر لا يزيد ولا ينقص ، وارفع يديك من الطعام وأنت تشتهيه ، وليكن شرابك على أثر طعامك من الشراب الصافي العتيق مما يحل شربه الذي أنا واصفه « أو واضعه » فيما بعد .

قال «ع» ونذكر الآن ما ينبغي ذكره من تدبير فصول السنة وشهورها الرومية الواقعة فيها في كل فصل على حدة وما يستعمل بعد الطعام .

ذكر فصول السنة

أما فصل الربيع فانه روح الزمان ، وأوله آذار وعدد أيامه ثلاثون يوماً ، وفيه يطيب الليل والنهار وتلين الأرض ويذهب سلطان البلغم ويهيج الدم ويستعمل فيه من الغذاء اللطيف واللحوم والبيض النيمرشت ويشرب الشراب بعد تعديله بالماء ويتقى فيه أكل البصل والثوم والحامض ، ويحمد فيه شرب المسهل ويستعمل فيه الفصد والحجامة .

« نيسان » ثلاثون يوماً فيه يطول النهار ويقوى مزاج الفصل ويتحرك الدم وتهب فيه الرياح الشرقية ، ويستعمل فيه من المآكل المشوية وما يعمل بالخل ولحوم الصيد ويعالج الجماع والتمريخ بالدهن في الحمام ، ولا يشرب الماء على الريق ويشم الرياحين والطيب .

« أيار » أحد وثلاثون يوماً ، وتصفو فيه الرياح ، وهو آخر فصل الربيع

وقد نهي فيه عن أكل المولحات واللحوم الغليظة كالرؤوس ولحم البقر واللبن ، وينفع فيه الحمام أول النهار ويكره فيه الرياضة قبل الغذاء .

« حزيران » ثلاثون يوماً ، يذهب فيه سلطان البلغم والدم ، ويقبل فيه زمان المرة الصفراوية ، ونهي فيه عن التعب وأكل اللحم داسماً والاكثار منه ، وشم المسك والعنبر وفيه ينفع أكل البقول الباردة كالهندباء والبقلة الحمقاء وأكل الخضر كالخيار والقثاء والشيرخشت والفاكهة الرطبة واستعمال المحمضات ، ومن اللحوم لحم المعز الثني والجذع ومن الطيور الدجاج والطيهوج والدراج والألبان والسمك الطري .

« تموز » أحد وثلاثون يوماً ، فيه شدة الحرارة وتفور المياه ويُستعمل فيه شرب الماء البارد على الريق ، ويؤكل فيه الأشياء الباردة المرطبة ، ويكسر فيه مزاج الشراب ، ويؤكل فيه الأغذية اللطيفة السريعة الهضم كما ذكر في حزيران ، ويستعمل فيه من النور والرياحين الباردة الرطبة الطيبة الرائحة .

« آب » أحد وثلاثون يوماً ، فيه تشتد السموم ويهيج الزكام بالليل وتهب الشمال ، ويصلح المزاج بالتبريد والترطيب ، وينفع فيه شرب اللبن الرائب ويجتنب فيه الجماع والمسهل ويقل من الرياضة ويشم من الرياحين الباردة .

« أيلول » ثلاثون يوماً ، فيه يطيب الهواء ويقوى سلطان المرة السوداء ويصلح شراب المسهل ، وينفع فيه أكل الحلاوات وأصناف اللحوم المعتدلة كالجداء والحولي من الضان ، ويجتنب فيه لحم البقر والاكثار من الشواء ودخول الحمام ، ويستعمل فيه الطيب المعتدل المزاج ويجتنب فيه أكل البطيخ والقثاء .

« تشرين الاول » أحد وثلاثون يوماً ، فيه تهب الرياح المختلفة ويتنفس فيه ريح الصبا ويجتنب فيه الفصد وشرب الدواء ويُحمد فيه الجماع وينفع فيه أكل اللحوم السمينة والرمان المز والفاكهة بعد الطعام ، ويستعمل فيه أكل اللحوم

بالتوابل ويقلل فيه شرب الماء ويحمد فيه الرياضة .

« تشرين الآخر » ثلاثون يوماً ، فيه يقع المطر الوسمي وينهى فيه عن شرب الماء بالليل ، ويقلل فيه من دخول الحمام والجماع ، ويشرب بكرة كل يوم جرعة ماء حار . ويجتنب أكل البقول كالكرفس والنعناع والجرجير .

« كانون الأول » أحد وثلاثون يوماً ، تقوى فيه العواصف ويشتد فيه البرد ، وينفع فيه كل ما ذكرناه في تشرين الآخر ، ويُحذر فيه من أكل الطعام البارد ويتقى فيه الحجامة والفصد ، ويُستعمل فيه الأغذية الحارة بالقوة والفعل .

« كانون الآخر » أحد وثلاثون يوماً ، يقوى فيه غلبة البلغم ، وينبغي أن يُتجرع فيه الماء الحار على الريق ويحمد فيه الجماع ، وينفع الأحشاء فيه مثل البقول الحارة كالكرفس والجرجير والكراث ، وينفع فيه دخول الحمام أول النهار والتمريخ بدهن الخيري وما ناسبه ، ويحذر فيه الحلق وأكل السمك الطري واللبن .

« شباط » ثمانية وعشرون يوماً ، تختلف فيه الرياح وتكثر الأمطار ويظهر العشب ويجري فيه الماء من العود . وينفع فيه أكل الحلاوة ، ويحمد فيه كثرة الجماع والحركة والرياضة .

قال الدكتور زيني ، لتبدل الفصول الأربعة سنوياً كل فصل بوقته المحدد من الحكم ما لا يمكن شرحه هنا ، والذي اكتفي به هو تأثير هذا التبدل فى حياة الانسان فقط ، وما يجب أن يستعد له كل فرد لمواجهة تأثيرات هذه التغييرات ولاتقاء أضرارها على الجسم والاستفادة من حسناته وتجسيم وتفخيم هذه الحسنات لقد خلق الباري عز وجل الكائنات وجهزها ببعض القوى الخفية التي تحافظ عليها وتقيها شر المؤثرات الخارجيه وهذه الوقاية وتلك المحافظة هي غريزية خلقية خلقت مع هذه الاحياء ، وقد امتاز الانسان على جميع الاحياء بقوى ثانية رفعته عالياً وجعلته واسمه فى قمة جداول أسماء هذه الأحياء ألا وهو العقل . فالبعقل سمي

الانسان سيد المخلوقات وسجل اسمه أول أسماء الحيوانات ورسم خط فاصل بين هذا الاسم واسم أرقى طبقات الحيوانات الاخرى لأفضلية هذا المخلوق على البقية الباقية

لقد تعلم الانسان وذلك بفضل عقله عدداً لا يستهان به من العلوم الطبيعية ، وقد استغل هذه المعلومات في توفير المرفهات ولتيسير الحياة وجعلها سهله . ومن العلوم المستغلة في هـذا المضمار هو ما يخص تقسيمات الفصول الأربعة ، لقد درس فوائد تبدلاتها من قديم الزمان وقد اتقى شر تأثيراتها وخاصة التأثيرات المباشرة على بدنه لتبدلات الفصول الاربعة فوائد لا تعد ولا تحصى على جميع الكائنات لا يسع المجال للتطرق لها هنا ، وإنما اكتفي بشرح فوائدها على جسم الانسان بصورة خاصة وما يجب عمله لمواجهة كل قسم منها على حدة .

بعد أن فرغ الامام عليه السلام من شرح تحديد وجبات الطعام وقد راعى فى شرحها أدق الشروط الصحية بتحديد عددها ومراعاة اعتدالها وفصل باردها في الفصول الحارة والحار منها ـ المولدة للطاقة الحرارية ـ في الفصول الباردة ، رجع فوجه الشرح الوافي للفصول الاربعة معدداً كلا منها وأشهره الثلاثة بعدد أيامها الكاملة . ووصف كل شهر وصفاً موجزاً مبيناً مايجب عمله في كل منها بصورة مختصرة وما يجب أن تأخذ من الطعام والشراب ، ومقسماً بها أوقات النوم والراحة والاستحمام والفعاليات الجسدية الاخرى الواجب منها والمستحب .

ففي فصل الربيع وهو أطيب الفصول ويعتبر رأس كل سنة جديدة وفيه يحدث التغيير والانتقال من الجو البارد القارس الى الاعتدال الذي يعقبه حر الصيف فبعد أن تكون الاجهزة قد اثقلت وتعبت بمآكل الشتاء الثقيلة كالدهنيات والسكريات ، وبعد أن يكون الجسم قد تعود على الركود والخمول وعلى تلك الملابس الثقيلة الواقية من البرد وذلك الجو الخاص الذي يهيئه البشر لنفسه ليتقي غائلة البرد ، بعد كل هذا وبعد حدوث ذلك الاعتدال في المناخ أصبح ضرورياً أن يتغير كل شيء . فالمأكل

يجب أن يتغير من النوع الثقيل ذي الطاقة الحرارية الزائدة « كربوهيدرات سكريات نشويات والشحومات » الى مآكل خفيفة سهلة الهضم والتمثيل كالفواكه والخضروات . وفي هـذا الفصل يتجدد كل شيء سواء كان نباتياً أو حيوانياً ، وينصح أكثر الاطباء بتنظيف جهاز الهضم بالمسهل وخاصة المجاري الصفراوية ، وتفضل المسهلات الملحية وأخـذ الحمامات وخاصة الصباحية منها ، والاكثار من النزهات والفسحات الخلوية . وفي أواخر هذا الفصل وعند ابتداء فصل الصيف يستعد الانسان لوقاية جسمه من الحرارة فيستبدل نوع لباسه و نوع معيشته البيتية ثم تبديل نوع الغذاء بتقليل اللحومات والدهنيات الى غير ذلك مما ذكره فيشرحه لهذا الفصل من رسالة الامام «ع» .

صفة الشراب

قال الامام الرضا «ع» : الشراب الذي يحل شربه واستعماله بعد الطعام وقد تقدم ذكر نفعه في ابتدائنا بالقول على فصول السنة وما يعتمد فيها من حفظ الصحة وصفته هو أن يؤخـذ من الزبيب المنقى عشرة أرطال فيغسل و ينقع في ماء صاف في غمرة وزيادة عليه أربع أصابع ويترك في أنائه ذلك ثلاثة أيام في الشتاء وفي الصيف يوماً و ليلة ثم يجعل في قدر نضيفة وليكن الماء ماء السماء إن قدر عليه وإلا فمن الماء العذب الذي ينبوعه من ناحية المشرق ماءاً براقاً أبيضاً خفيفاً وهو القابل لما يعترضه على سرعـة من السخونة والبرودة وتلك دلالة على خفة الماء ويطبخ حتى ينشف الزبيب وينضج ، ثم يعصرماؤه ويبرد ثم يرد الى القدر ثانياً ويؤخذمقداره بعود و يغلى بنار لينة غلياناً ليناً رقيقاً حتى يمضي ثلثاه ويبقى ثلثه ، ثم يؤخذ من عسل النحل المصفى رطل فيلقى عليه و يؤخذ مقداره مقدار الماء الى أين كان من القدر و يغلى حتى يذهب قدر العسل ويعود على حده ، ويؤخذ خرقة صفيقة فيجعل فيها زنجبيل وزن درهم ومن القرنفل نصف درهم ومن الدارجين نصف درهم ومن

الزعفران درهم ومن سنبل الطيب نصف درهم ومن الهندبا مثله ومن المصطكي نصف درهم بعد أن يسحق الجميع كل واحد على حدة و ينخل ويجعل في الخرقة ويشد بخيط شـــداً جيداً و تلقى فيه وتمرس الخرقة في الشراب بحيث تنزل قوى العقاقير التي فيها ، ولا يزال يعاهد بالتحريك على نار لينة برفق حتى يذهب عنه مقدار العسل ، و يرفع القدر ويبرد ويؤخذ ويترك مدة ثلاثة أشهر حتى يتداخل مزاجه بعضه ببعض وحينئذٍ يستعمل . ومقدار ما يشرب منه أوقية الى أوقيتين من الماء القراح . فاذا أكلت يا أمير المؤمنين مقدار ما وصفت لك من الطعام فاشرب من هذا الشراب مقدار ثلاثة أقداح بعد طعامك ، فاذا فعلت ذلك فقد أمنت باذن الله تعالى يومك وليلتك من الأوجاع الباردة المزمنة كالنقرس والرياح وغير ذلك من أوجاع العصب والدماغ والمعدة وبعض أوجاع الكبد والطحال والمعاء والأحشاء فان صدقت بعد ذلك شهوة الماء فليشرب منه مقدار النصف ممـا كان يشرب قبله ، فانه أصلح لبدن أمير المؤمنين وأكثر لجماعـه وأشد لضبطه وحفظه ، فان صلاح البدن وقوامه يكون بالطعام والشراب وفساده يكون بهما ، فان أصلحتها صلح البدن وإن أفسدتها فسد البدن .

« الشرح » للأغذية ثلاثة مصادر رئيسية : ١ ـ مصدر حيواني : ـ مثال اللحوم والدهون والألبان ومشتقاتها . . . الخ ٢ ـ مصدر نباتي : ـ مثال الفواكه والخضروات على اختلاف أنواعها والزيوت النباتية . ٣ ـ مصدر معدني : ـ ويشمل المواد المعدنية والكيمياوية التي تدخل في تركيب الأغذية كالحديد والفسفور والكالسيوم . . . الخ .

وبالنسبة الى العناصر الرئيسية فالغذاء الكامل يجب أن يحتوي على هذه المواد بنسب خاصة : ١ ـ كاربوهيدرات : أ ـ النشويات . ب ـ السكريات . ٢ ـ الدهنيات ٣ ـ الزلاليات . ٤ المعدنيات والفيتامينات . فالغذاء الكامل هو ذلك الغذاء الحاوي

على جميع هذه العناصر بنسبها الخاصة ، وإذا اختلت هـذه النسب لمدة طويلة فقد تسبب الأمراض والعلل . ولا يوجد نوع من الغذاء يحوي جميع هذه العناصر بل هي موجودة في مختلف الأغذية . والغذاء الجيد ما حوى أكبر عـدد منها بنسب معقولة وما كان سهل الهضم والتمثيل .

إن أكثر الأغذية تفقد مزاياها وعناصرها الجوهرية عند تحضيرها ، فالحرارة الشديدة مثلاً تصلب البيض لدرجة تجعله عسر الهضم والتمثيل وتفقده عدداً من فيتاميناته ، أما إذا حضر على الطريقة الصحية (نيمرشت) فيحتفظ بأكثر عناصره ويكون هضمه أسهل .

في وصف الامام للشراب الحـلال وطريقة تحضيره سنّ لنا شروط صحية أساسية مفيدة جـداً ومتبعة في الوقت الحاضر أما عن انتقاء المواد اللازمة لتحضير هذا الشراب فحدث ولا حرج عن فوائدها الطبية والغذائية . فالزبيب من أحسن مصادر السكريات السهلة الهضم والتمثيل والعسل أيضاً ، أما المواد الاخرى المضافة فهي برغم أن القسم الأعظم منها تحتوي على عناصر غذائية مهمة فهي عقاقير طبية مفيدة مستعملة حتى يومنا هذا في مداواة أكثر الأمراض الهضمية وأمراض الكبد والأمعاء « الزنجبيل ـ القرنفل ـ الدارچين ـ الزعفران ـ سنبل الطيب ـ هندباء ـ مصطـكي . . . الخ » . يعتبر الحليب من عناصر الغذاء المهمة وقبل أن تكتشف طريقة (باستور) المشهورة فى تحضيره كان يشرب إما بدون غلي وفى هـذه الحالة يواجه شاربه خطر انتقال السل البقري أو يشرب بعـــد غليه بصورة غير فنية غلياً شديداً لمـدة طويلة ، وفى هذه الحالة فقد اكثر عناصره المفيدة الى أن اكتشفت طريقة (باستور) التي بواسطتها يسخن الحليب لدرجة معينة ولمدة معينة وبهذه الطريقة يقضى على المكروبات ويحافظ على عناصر تركيب الحليب .

لقد سبق الامام «ع» « باستور » في سنّ هـذه السنة الطبية بوصفه طريقة

تحضير الشراب الحلال حينما قال : ﴿ ويغلى بنار لينة غليانا ليناً رقيقاً حتى يمضي ثلثاه . . . ﴾ . فبطريقته هـــذه قد حافظ على قيم الشراب الغذائية وحافظ على العناصر الطيارة الموجودة ضمن مكونات الشراب واللاتي يتلفها الغليان . لقد ألح عليه السلام فى عدة محلات عند وصفه التحضير مراعاة النظافة في العمل واختيار أنقى المواد وأحسنها (هو أن يؤخذ من الزبيب المنقى عشرة أرطال فيغسل وينقع ...) (وإلا فمن الماء العذب) ثم يتطرق الى وصف الماء العذب فيقول : (ماءاً براقاً أبيضاً خفيفاً وهو القابل لما يعترضه على سرعـة من السخونة والبرودة وتلك دلالة على صفاء المـاء) .

لقد سبق الامام «ع» علماء الفيزياء بتعريف الماء اليسر وميزه تمييزاً علمياً لا جـدال فيه عن الماء العسر ، وقد احتاج البحث العلمي مؤخراً لاثبات ذلك الى مختبرات وآلات معقدة جداً .

خلق الانسان من مرتين ودم وبلغم

قال الامام «ع» : « واعلم يا أمير المؤمنين ان قوة النفوس تابعة لأمزجة الأبدان ، وان الأمزجة تابعة للهواء وتتغير بحسب تغير الهواء في الأمكنة ، فاذا برد الهواء مرة وسخن اخرى تغيرت بسببه أمزجة الابدان وأثر ذلك التغير في الصور فاذا كان الهواء معتدلاً اعتدلت أمزجة الأبدان وصلحت تصرفات الأمزجة في الحركات الطبيعية كالهضم والجماع والنوم والحركة وسائر الحركات ، لأن الله تعالى بنى الأجسام على أربع طبايع : وهي المرتان والدم والبلغم . وبالجملة حاران وباردان قد خولف بينهما ، فجعل الحارين ليناً ويابساً ، وكذلك الباردين رطباً ويابساً ، ثم فرّق ذلك على أربعة أجزاء من الجسد : على الرأس والصدر والشراسيف وأسفل البطن .

واعلم يا أمير المؤمنين ان الرأس والاذنين والعينين والمنخرين والفم والأنف

من الدم ، وأن الصدر من البلغم والريح ، وأن الشراسيف من المرة الصفراء ، وأن أسفل البطن من المرة السوداء .

واعلم يا أمير المؤمنين أن النوم سلطان الدماغ وهو قوام الجسد وقوته ، فاذا أردت النوم فليكن اضطجاعك أولاً على شقك الأيمن ثم انقلب على الأيسر ، وكذلك فقم من مضجعك على شقك الأيمن كما بدأت به عند نومك ، وعوّد نفسك القعود من الليل ساعتين ، وادخل الخلاء لحاجة الانسان والبث فيه بقدر ما تقضي حاجتك ولا تطل فيه فان ذلك يورث داء الفيل .

السواك

واعلم يا أمير المؤمنين أن أجود ما استكت به ليف الأراك فانه يجلو الأسنان ويطيب النكهة ويشد اللثة ويسمنها وهو نافع من الحفر إذا كان باعتدال ، والاكثار منه يرق الأسنان ويزعزعها ويضعف اصولها . فمن أراد حفظ الأسنان فليأخذ قرن الأيل محرقاً وكزمازجاً وسعداً ووردا وسنبل الطيب وحب الأثل أجزاء سواءاً وملحاً اندرانياً ربع جزء فيدق الجميع ناعماً ويستن به فانه يمسك الأسنان ويحفظ اصولها من الآفات العارضة ، ومن أراد أن تبيض أسنانه فليأخذ جزءاً من ملح اندراني ومثله زبد البحر فيسحقهما ناعماً ويستن به .

نصائح طبية متفرقة

« الشرح » جاء هذا القسم من الرسالة كمجموعة نصائح طبية متفرقة ومنوعة في قسمه الأول وكتقسيم « فسلجي ـ تشريحي لأعضاء الجسم المختلفة في قسمه الثاني » . كانت النصيحة الصحية الاولى هي عدم تعريض الجسم الى جو حار وبارد بصورة فجائية لما في ذلك من أخطار الاصابة بأنواع الأمراض الفتاكة وخاصة أمراض جهاز التنفس سواء كانت في المجاري العليا أو الرئتين والقصبات ، فاذا قضى

الانسان وقتاً ما في محل دافيء مزدحم بالسكان ثم تعرض بخروجه الى تيارات هوائية باردة ، فان هـذا التغير المفاجيء قد يسبب اصابة ذلك الشخص بأحد الامراض وأشهرها وأكثرها فتكاً في مثل هـذه الحالات هو الزكام الذي يعتبر أم الأمراض ، والتهاب اللوزتين بأنواعه ثم التهاب البلعوم والتهاب القصبات الحاد وذات الرئة بأنواعها ، ويتبع نوع المرض وشدته نوع المكروب الموجود في ذلك الجو وقابلية الجسم المصاب وقوة مزاجه .

أما النصيحة الثانية فكانت في موضوع النوم وقد تطرقت له في الفصل السابق وبينت حاجة كل إنسان الى النوم وعدد الساعات اللازمة منه ، وقلت إنه يختلف بالنسبة الى الأعمار ونوع العمل والفصول . أما عن الوضعيات الصحية في الاضطجاع فذلك يتبع مزاج الانسان وعادته ، ثم حالة إمتلاء المعدة أو عدم إمتلائها بالأكل فعند ما يكون الانسان ممتلىء المعدة يفضل الاضطجاع على الشق الأيسر لئلا تضغط المعدة المثقلة بالأكل على القلب ، وإذا كانت المعدة فارغة فالخيار للشخص في اضطجاعه سواءاً رغب أن يضطجع على الشق الايسر أو الايمن ولكل جهة فوائد خاصة .

أما النصيحة الثالثة فكانت حول صحة وضعية عملية إخراج الفضلات ، وهذا الباب قلما تطرقت اليه الكتب الطبية على أنه من المواضيع المهمة والمؤثرة في سلامة جسم الانسان . فكثيراً من الناس قد يعتاد التكاسل في إنجاز عملية إخراج الفضلات في وقتها الخاص وعند الشعور بالرغبة بانجازها ، وهذا التكاسل قد يؤدي الى نتائج غير حسنة وأهم نتائجه المباشرة هو الامساك الذي يعتبر علة علل الجهاز الهضمي لما يعقبه من تعقدات كأمراض الكبد والامعاء والمرارة وأمراض الشرج كالبواسير والفطور وركود الدم في الاوردة في محلات خاصة وانسداد مجاري العروق اللمفاوية مما يسبب بعض الامراض كداء الفيل .

وكانت آخر النصائح هي العناية بالاسنان بتنظيفها بصورة مستمرة ـ على ألا تستعمل المواد الصلبة المخرشة ـ والعناية بالسن ومادتها واللثة ونسيجها الحساس ، والعناية بصحة الفم بصورة عامة كالامتناع عن المواد المحرقة المخرشة وعدم أخذ الطعام الحار والاطعمة الحاوية على مواد مضرة بصحة الفم والاسنان ، واستعمال بعض المساحيق المجربة المفيدة في تنظيف وتلميع ميناء الاسنان .

أما التقسيم « الفسلجي ـ التشريحي » فمبني على أساس الطبائع الاربعة : ١ ـ المرة الصفراء : وتشمل الجهاز الهضمي والكبد والمرارة والطحال والبنكرياس وتوابعها ، ٢ ـ المرة السوداء : وتشمل الكلى والمجاري البولية والتناسلية والارحام وتوابعها ، ٣ ـ الدم : ويشمل القلب وعروق الدم والدم واللمف وتوابعها ، ٤ ـ البلغم : ويشمل الجهاز التنفسي بمجاريه والرئتين والقصبات وتوابعها . وقسمها حسب طبيعة خلقها الى حارة وباردة والى رطبة ويابسة حسب كميات النسبة المئوية للماء فيها لأن الماء عنصر أساسي في تكوين جميع أجزاء البدن .

وقد قسم الامام «ع» الجسم الى أربعة تقاسيم كبيرة هي : الرأس والصدر والشراسيف وأسفل البطن ، وقسم الاجهزة حسب التقسيمات الاربعة المذكورة على أن يكون الرأس والاذنان والعينان والمنخران والفم والانف من الدم وهي الاجهزة الغزيرة بالدم والتي لها دورات دموية أكثر من بقية الاعضاء . والصدر من البلغم والريح (وذلك رمز لجهاز التنفس) ، والرئتان والشراسيف من المرة الصفراء « وذلك رمز لجهاز الهضم » ، والكبد والمرارة وأسفل البطن بما يحويه من مثانة ومجاري بولية وتناسلية من المرة السوداء .

الشباب والكهولة والهرم

قال الامام «ع» : « واعلم يا أمير المؤمنين إن أحوال الانسان التي بناه الله تعالى عليها وجعله متصرفاً بها أربعة أحوال : الحالة الاولى لخمس عشرة سنة ،

وفيها شبابه وحسنه و بهاؤه وسلطان الدم في جسمه ، ثم الحالة الثانية من خمس عشرة سنة الى خمس وثلاثين سنة وفيها سلطان المرة الصفراء وقوة غلبتها على الشخص وهي أقوى مايكون ، ولا يزال كذلك حتى يستوفي المدة المذكورة وهي خمس وثلاثون سنة ثم يدخل فى الحالة الثالثة الى أن تتكامل مدة العمر ستين سنة فيكون فى سلطان المرة السوداء وهي سن الحكمة والمعرفة والدراية وانتظام الامور وصحة النظر في العواقب وصدق الرأي وثبات الجأش في التصرفات ، ثم يدخل في الحالة الرابعة وهي سلطان البلغم وهي الحالة التي لا يتحول عنها ما بقي إلا الى الهرم ونكد العيش وذبول ونقص في القوة وفساد في تكونه واستنكر كل شيء كان يعرف من نفسه حتى صار ينام عند القوة ويسهر عند النوم ويتذكر ما تقدم وينسى ما يحدث في الاوقات ويذبل عوده ويتغير معهوده ويجف ماء رونقه وبهائه ويقل نبت شعره وأظفاره ، ولا يزال جسمه في انعكاس وادبار ما عاش لانه فى سلطان البلغم وهو بارد وجامد ، فبجموده وبرده يكون فناء كل جسم تستولي عليه في الاخير القوة البلغمية » .

ومن نعمره ننكسه

« الشرح » من آيات الباري وخوارق قدرته خلق الانسان وتطوره وطريقة تناسله وتكاثره . خلقهم ذكوراً واناثاً وجعل تولد النطفة فى الارحام نتيجة لامتزاج واتحاد بويضة ناضجة وحيوان منوي كامل . عند ما تبلغ المرأة سن الرشد وعند ما تنضج أجهزتها التناسلية وتكمل تنفصل عن المبيض بويضة كاملة صالحة للتخصب ـ وفي الحالات الشاذة أكثر من بويضة ، وفي التوائم ربما وصل العدد الى خمسة ـ وتسبح حرة في جوف البطن الاسفل فتلتقفها أصابع الايادي منتشرة في ذلك الجوف وتدخلها في الانابيب الرحمية ومنها الى داخل الجوف الرحمي حيث تستقر في منطقة ما في الجدار الرحمي وتنتظر أن يؤاتيها الحظ فتلتقي بحيوان كامل ناضج صالح للتلقيح . أما في الرجل البالغ سن الرشد فالخصيتان وبقية الاجهزة

التناسلية تنضج وتصبح الاولى صالحة لافراز المواد المنوية ـ الحيوانات ـ في أوقات مناسبة ثم تسلك طريقاً خاصة ـ الانابيب المنوية ـ مارة بطريق البروستات ـ غدة تناسلية ـ لتسكب عليها افرازها الخاص لادامة حيويتها وازدياد فعاليتها لمواجهة البويضه الناضجة. في كل عملية جماع يفرز الذكر ملايين من الحيوانات المنوية ويواتي الحظ واحداً منها « وفي الحالات الشاذة ١ ـ ٥ » للامتزاج والاتحاد مع البويضة الناضجة ذات الجاذبية الخاصة لسحب هذا الحيوان الحرك الفعال الذي يقصدها من جوف المهبل حتى جدار الرحم ومن اتحادهما وامتزاجهما تتكون البويضة المخصبة (النطفة)

تنمو هذه النطفة وتتكاثر حجيراتها بصورة سريعة جداً وتتعقد تركيباتها بمرور الزمن واستمرارها في النمو ، فمن حجيرة بسيطة الى جنين كامل بعد تسعة شهور. أما البويضة التي لم يؤاتها الحظ فتتلقح وتطرد من الجوف الرحمي بعد مرور مدة معينة ، وبعد أن تصبح كجسم أجنبي غريب فيه وذلك بواسطة دم الحيض ـ العادة الشهرية ـ التي ما هي إلا انسلاخ غشاء الرحم المخاطي للتخلص من محتوياتها غير المرغوب فيه. ينفصل الجنين عن امه وهو كامل التكوين والخلقة إلا أنه عاجز عن إنجاز أبسط مهمات الحياة وهو بحاجة الى عطف أبويه وخاصة امه في تغذيته وتنظيفه والاعتناء به الى أن يبلغ السنة الثانية فينفصل عنها غذائياً بعد أن كبر ونمى وزودته امه بالمناعة ضد الامراض لمدة ما .

فالطفل الصحيح هو جسم حي كامل صالح لدخول معترك الحياة مجهز بقدرة الباري عزوجل بجميع وسائل الدفاع عن النفس لشق طريقه في هذه الحياة القاسية وذو حيوية فائقة ومعنوية كبيرة ، وان هذه القوى تستمر في النمو والتكامل حتى سن البلوغ ـ السنة الخامسة عشر ـ حيث يودع أيام الطفولة والصبا ليستقبل ربيع الحياة دور العمل ودور الفعالية ، دور التكاثر والانتاج ، دور التفكير وتكامل العقل ، دور الجمال والكمال ، فهي أحلى وأطيب وأينع وأزهى أيام الحياة التي تتغنى

بأيامه الشعراء ، وقد عرف حلاوة طعمها من اجتاز هذا الدور الى دور الشيخوخة البغيض . تبدأ أدوار الشباب بعد الخامسة عشر وتستمر حتى الخامسة والثلاثين وهو عصر الحيـاة الذهبي وفيه أطيب الأيام وألذها ، وهو دور العمل الحق وزيادة الفعاليات بصورة عامة .

فالجسم بهـذا الدور يصبح في أوج عظمته من حيوية ونضوج وصلاح الامتزاج والتكاثر وتكامل العقل وزيادة تلافيف الدماغ ونمو التفكير . بهذا الدور يقف نمو الجسم وتتصلب العظام وتأخذ حجمها وشكلها النهائي وقالبها الأخير .

لقد قسم إمامنا «ع» أدوار الحياة الكاملة الى أربعة أقسام وكانت حصة دور الشباب منها عشر سنين حصرها بين ١٥ الى ٢٥ سنة وهي أزهى أدوار الشباب ، وكان من حصة هذا الدور تغلب سلطان الدم على البقية ، ويعني بذلك أن هذا الدور هو دور نمو وفعالية ودور عمل وحركة وشدة حاجـة البدن الى دورة دموية قوية وقلب قوي لادارة هـذه الفعاليات المتناهية . ثم حصر الدور الثاني وهو دور المرة الصفراء بين ٢٥ ـ ٣٥ سنة وهي أواخر أيام الشباب ومقدمة دور الـكهولة الذي تتجه فيه قوى الجسم الى العمل الفكري والى الأشغال الذهنية ، وتقل فيه الحيويات والفعاليات حتى يدخل في الدور الثالث وهو دور الـكهولة الحقة والذي حصره «ع» بين ٣٥ ـ ٦٠ سنة وفيه يسيطر سلطان المرة السوداء وهو سن الحكمة والمعرفة والدراية والكمال وانتظام الامور وصحة النظر في العواقب وصدق الرأي وثبات الجأش والتصرفات الصحيحة .

أما الدور الأخير وهو دور الشيخوخة آخر أدوار الحياة : فيسيطر فيه سلطان البلغم ويهرم فيه الشخص وتقل فعاليات جسمه وجميع حيوياته وتعجز أجهزته الداخلية وتفنى حجيراتها الحية بالتدريج . وأول الأجهزة والأعضاء الذي تظهر عليه علائم العجز هو القلب وملحقاته فاذا عجز القلب عجزت الأعضاء الاخرى وإذا قل

الدم ـ الذي اعتبرناه العنصر المغذي الوحيد لجميع أجزاء البدن ـ قلت الحيويات وظهرت علامات العجز فى العضو الذي يلي القلب ويتبعه بالعجز الرئتان . فاذا قلت فعاليات هذين العضوين المهمين ظهرت أهم علامات الشيخوخة وهى التعب السريع وضيق النفس والسعال المستمر والبلغم ثم تليها العلامات الاخرى ، ولذا جعل إمامنا عليه السلام تسلط سلطان البلغم فى هذا الدور من الحياة على البقية . إذا قلت فعاليات الاعضاء والاحشاء الحيوية في الجسم كالدورة الدموية وجهاز التنفس والهضم وجهاز البول والجملة العصبية ظهرت علامات الكبر والشيخوخة وتليها بالتدريج العلامات المرضية الخاصة بأمراض الشيخوخة ، فتعطي الشخص مظهراً خاصاً وتذهب برونقه ومظاهر حيويته ، فبعد أن كان ذلك الشخص الفعال الممتلىء بالقوى وإذا به أصبح شيخاً مقعداً عاجزاً مضمحلاً .

لقد وصف الامام هـذا الدور وأبدع في وصفه : « فيذبل عوده ويتغير معهوده ويجف ماء رونقه وبهاؤه ويقل نبت شعره وأظفاره ولا يزال جسمه في انعكاس وادبار ما عاش لانه في سلطان البلغم وهو بارد جامد ، فبجموده وبروده يكون فناء كل جسم يستولي عليه في آخر القوة الغضبية » ، ومن نعمره ننكسه .

الحجامة

قال الامام «ع» : « وقد ذكرت لأمير المؤمنين جميع ما يحتاج اليه في سياسة المزاج وأحوال جسمه وعلاجه ، وأنا أذكر ما يحتاج الى تناوله من الاغذية والادوية وما يجب أن يفعله في أوقاته . فاذا أردت الحجامة فليكن في اثنتي عشر ليلة من الهلال الى خمس عشر ، فانه أصلح لبدنك فاذا نقص الشهر فلا تحتجم إلا أن تكون مضطراً الى ذلك ، وهو لان الدم ينقص في نقصان الهلال ويزيد في زيادته ، وليكن الحجامة بقدر ما يمضي من السنين ، فابن عشرين سنة يحتجم في كل عشرين يوماً ، وابن الثلاثين في كل ثلاثين يوماً مرة واحدة ، وكذلك من بلغ

من العمر أربعين سنة يحتجم في كل أربعين يوماً مرة وما زاد فبحسب ذلك .

واعلم يا أمير المؤمنين : ان الحجامة إنما يؤخذ دمها من صغار العروق المبثوثة في اللحم ، ومصداق ذلك ما ذكرته أنها لا تضعف القوة كما يوجد من الضعف عند الفصد ، وحجامة النقرة تنفع من ثقل الرأس ، وحجامة الأخدعين تخفف عن الرأس والوجه والعينين وهي نافعة لوجع الأضراس ، وربما ناب الفصد عن جميع ذلك . وقد يحتجم تحت الذقن لعلاج القلاع في الفم ومن فساد اللثة وغير ذلك من أوجاع الفم ، وكذلك الحجامة بين الكتفين تنفع من الخفقان الذي يكون من الامتلاء والحرارة . والذي يوضع على الساقين قد ينقص من الامتلاء نقصاناً بيناً وينفع من الأوجاع المزمنة في الكلى والمثانة والارحام ويدر الطمث غير أنها تنهك الجسد ، وقد يعرض منها الغشي الشديد ، إلا أنها تنفع ذوي البثور والدماميل . والذي يخفف من ألم الحجامة تخفيف المص عند أول ما يضع المحاجم ثم يدرج المص قليلاً قليلاً والثواني أزيد في المص من الأوايل وكذلك الثوالث فصاعداً ويتوقف عن الشرط حتى يحمر الموضع جيداً بتكرير المحاجم عليه . ويلين المشراط على جلود لينة ويمسح الموضع قبل شرطه بالدهن ، وكذلك الفصد فانه يقلل الألم وكذلك يلين المشرط والمبضع بالدهن عند الحجامة ، وعند الفراغ منها يلين الموضع بالدهن ، وليقطر على العروق إذا فصد شيئاً من الدهن لكيلا يحتجب فيضر ذلك بالمفصود ، وليعمد الفاصد أن يفصد من العروق ما كان في المواضع القليلة اللحم ، لأن في قلة اللحم من فوق العروق قلة الألم ، وأكثر العروق ألماً إذا فصد حبل الذراع والقيفال لاتصالها بالعضل وصلابة الجلد . فأما الباسليق والأكحل فانها في الفصد أقل ألماً إذا لم يكن فوقها لحم ، والواجب تكميد موضع الفصد بالماء الحار ليظهر الدم وخاصة في الشتاء فانه يلين الجلد ويقلل الألم ويسهل الفصد . ويجب في كل ما ذكرناه من إخراج الدم اجتناب النساء قبل ذلك باثنتي عشر ساعة ، ويحتجم في

يوم صاح صاف لا غيم فيه ولا ريح شديدة ويخرج من الدم بقدر ما يرى من تغيره ولا تدخل يومك ذلك الحمام فانه يورث الداء ، وصب على رأسك وجسدك الماء الحار ولا تفعل ذلك من ساعتك .

وإياك والحمام إذا احتجمت فان الحمى الدائمة تكون فيه ، فاذا اغتسلت من الحجامة فخذ خرقة مرغزي فالقها على محاجمك أو ثوباً ليناً من قز أو غيره ، وخذ قدر حمصة من الترياق الأكبر واشربه إن كان شتاءً ، وإن كان صيفاً فاشرب السكنجبين العنصلي وامزجه بالشراب المفرّح المعتدل وتناوله ، أو بشراب الفاكهة وإن تعذر ذلك فشراب الاترج ، فان لم تجد شيئاً فتناوله بعد علكه ناعماً تحت الأسنان واشرب عليه جرع الماء الفاتر ، وإن كان ذلك في زمان الشتاء والبرد فاشرب عليه السكنجبين العسلي ، فانك متى فعلت ذلك أمنت من اللقوة والبرص والبهق والجذام باذن الله تعالى .

وامتص من الرمان المزفانه يقوي النفس ويحيي الدم ، ولا تأكل طعاماً مالحاً بعد ذلك بثلاث ساعات فانه يخاف أن يعرض من ذلك الجرب ، وان شئت فكل من الطباهيج إذا احتجمت واشرب عليه من الشراب المزكي الذي ذكرته أولاً ، وادهن بدهن الخيري أو شيء من المسك وماء الورد وصب منه على هامتك ساعة فراغك من الحجامة .

وأما في الصيف فاذا احتجمت فكل السكباج والهلام والمصوص والحامض وصب على هامتك دهن البنفسج بماء الورد وشيئاً من الكافور ، واشرب من ذلك الشراب الذي وصفته لك بعد طعامك . وإياك وكثرة الحركة والغضب ومجامعة النساء ليومك .

« الشرح »

الحجامة تصح البدن وتشد العقل

على أمير المؤمنين «ع»

يقسم فن التداوي والعلاج الى الأقسام التالية :

١ ـ التدبير العمومي للمريض يجب ملاحظة وضعية المريض العامة وما يؤمن راحته الخاصة ، وذلك بتوفير المحل الصحي المجهز بوسائل الراحة اللازمة لتلك الوضعية من المرض من نوم مريح وتهوية ممتازة واضاءة حسنة وجميع مايقتضي ويلزم من ثياب وفراش ومعدات اخرى .

٢ ـ المداواة الغذائية : لماكان لكل مرض منهج غذائي خاص ودستور متبع ولكل مريض مزاج خاص أيضاً فيجب مراعاة المرض وما يقتضيه ، فالمريض بالبول السكري مثلاً يحرّم عليه الأغذية السكرية والنشوية ، ومريض الكلى يحرّم عليه ملح الطعام ، ومريض الكبد يمنع من أكل اللحومات والدهنيات . . . الخ

٣ ـ المداواة العقارية : وتشمل الأدوية على اختلاف أنواعها ، قال الامام في ابتداء رسالته : « لكل صنف من الداء صنف من الدواء » .

٤ ـ المداواة النوعية : إن بعض الأمراض له دواء سريع المفعول وتأثيره خاص به كالكنين للملاريا ، والزرنيخ للسفلس . . . الخ

٥ ـ العوامل الفيزياوية بالمداواة : كاستعمال الضمادات والحمامات والمداواة الكهربائية والحجامة

٦ ـ المداواة النفسية : وهي التي تستعمل في علاج الأمراض العقلية كالايحاءآت النفسية

٧ ـ المداواة الجراحية : وذلك باستئصال الداء الذي يعجز عن علاجه الطبيب بالطرق السلمية .

لقد ارتقى فن التداوي وتقدم تقدماً محسوساً وخاصة في السنين الأخيرة حتى

انعدمت كثيراً من الأمراض في بعض البلاد الراقية بتأثير الاكتشافات الحديثة . فقد اكتشفت عـدة مواد جديدة واستحضرت ثم استعملت لعلاج ما استعصى من الأمراض في الماضي وأهمها مضادات المكروبات القيحية والتعفنية ، وعلاج السل على أنواعه والمداواة بالطاقة الذرية وعلاج الملاريا الحديث الاكتشاف .

والحجامة فرع مهم من هذه الفروع تذكر تحت عنوان (المداواة الفيزياوية) وقد استعملت في قديم الزمان وأوصى بها أطباء اليونان وأكد عليها الأنبياء وخلفاؤهم ، وقد استعملها الأقدمون كواجب من الواجبات الفصلية كعلاج من العلاجات الناجحة لعدد لا يستهان به من الامراض ، وقد خصه الاقدمون بالذكر فقال جالينوس : (دمك عبدك وربما قتل العبدسيده فاطلقه فان رأيته صالحاً فامسكه) وتحدث عنها الرسول «ص» وأوصى بها كثيراً فقال : (عليكم بالحجامة لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله) ، وقال علي «ع» : « الحجامة تصح البدن وتشد العقل » ، وقال الصادق (ع) : (الحجامة تنفع الدوران وانه إن أخذالرجل الدوران فليحتجم وإن خير ما تداويتم به الحجامة والسعوط وإن الدواء أربعة : — الحجامة والطلي والقيء والحقنة) .

أما الحجامة في الطب الحديث فقد ذكرتها جميع كتب الطب وأوصت باستعمالها في عدد كثير من الحالات كعلاج عاجل اضطراري ، وقد استعملت ونجح استعمالها في حالة مهمة وخطرة جداً حالة (ضغط الدم المفرط) ، وفي حالات انفجار شريان دماغي . وقد أوصى باستعمالها اكثر كتب الطب الحديث في حالات امراض القلب والكلى الاحتقانية ، وفي العلاج الموضعي لكثير من أمراض الأوردة الدموية كركود الدم في منطقة ما في الجسم ، وفى عدد كبير من أمراض العيون . أما ملحقاتها كالفصد واستعمال العلق الطبي فتلك لها أهميتها وفائدتها الخاصة .

لمـا وصفنا الفصول الأربعة وطريقة التغذية فيها ذكرنا أن الدم فى جسم

الانسان عندما يقبل فصل الربيع ويحدث التبدل الفصلي يكون مثقلا بالافرازات والفضلات المتراكمة التي خلفها فصل الشتاء (فصل الركود وقلة الحركة) والفصل الذي يكثر فيه استعمال المآكل الدهنية الثقيلة : صعبة الهضم ، وقد ذكرنا ما لاستعمال المسهلات وخاصة الملحية منها من فائدة عظيمة في تنظيف الجهاز الهضمي والمجاري الصفراوية ، ونذكر هنا أهمية استعمال الحجامة الفنية للتخفيف عن الدورة الدموية وما أثقلها من سموم الفضلات والمتخلفات من الافرازات وما عجزت عن التخلص منه الأجهزة الخاصة بالتنظيفات والتطهيرات . فالحجامة ضرورية في هذا الفصل للاجسام المثقلة بالفضلات .

فالحجامة الفنية تختلف عن الفصد ، فالفصد هو اخراج دم الوريد بينما الحجامة هي إخراج الدم من العروق الدقيقة المكرسكوبية .

لقد فسر الامام (ع) الحجامة تفسيراً علمياً دقيقاً وميزها عن غيرها فقال : (واعلم يا أمير المؤمنين أن الحجامة إنما يؤخذ دمها من صغار العروق المبثوثة في اللحم . . الخ) وبين مواضعها بدقّة ، وشرح محلات أخذ الدم عن كل عضو بمحله المناسب حسب التواصيف التشريحية للبدن وذكر فائدة كل محل وما يجديه من نفع على ذلك العضو ، ثم عدد أمراض كل عضو منفصلا عن الآخر وفوائد الحجامة في كل منها فقال : (وقد يحتجم تحت الذقن لعلاج القلاع في الفم ومن فساد اللثة) .

لقد عدد بوصفه الامراض التي تعالج بالحجامة وأهمها : ـ احتقان الاسنان واللثة ، خفقان القلب ، أمراض الكلى المزمنة والمثانه والرحم ، قلة الحيض ، حالات البثور والدمامل . . الخ

ثم وصف العملية وصفاً دقيقاً مبيناً اختيار منطقة سحب الدم وتنظيفها ثم تحضير المشرط وبقية المعدات ، ومعالجة الجرح بعد اجراء العملية من استعمال الدهونات المعقمة والأدوية المنعشة . أما في الفصد فاختار الامام أحسن الأوردة وأظهرها كحبل

الذراع والقيفال والباسليق والاكحل ، ثم شرح تحضيرات ما قبل العملية وما بعدها والشروط اللازمة لذلك والوقت الصحيح ، ثم منع بعض الاشياء كالحمام ، ونصح بعض الأشياء كشرب بعض الشرابات المنعشة والمفرحة واكل الرمان المز واستعمال الاطعمة الفاخرة المغذية والسهلة الهضم كالسكباج والهلام والمصوص ، وأوصى بعدها بالراحة التامة وعدم ممارسة أي فعالية أو عمل شاق .

فالحجامة الفنية في الوضعيات التي تتطلبها علاج ناجح لا يمكن الاستغناء عنها ولا يمكن اسقاطها من كتب الطب التي تبحث عن موضوع التداوي والعلاج . أما ما ورد وما قيل من ان الحجامة مضرة وتولد فقر الدم فذلك صحيح لحد ما فيما اذا كان المعالج مصابا بدرجة من درجات فقر الدم ، كما ان الامام (ع) قد أشار الى ضرر قسم منها الى جانب نفعه في قوله : (والذي يوضع على الساقين قد ينقص من الامتلاء نقصاً بيناً وينفع من الاوجاع المزمنة في الكلى والمثانة والأرحام ويدر الطمث غير أنها تنهك الجسد وقد يعرض منها الغشي الشديد)

« من المآكل ما يضر الجمع بينها »

قال الامام (ع) : (واحذر يا أمير المؤمنين أن تجمع بين البيض والسمك في المعدة في وقت واحد فانهما متى اجتمعا في جوف الانسان ولدا عليه النقرس والقولنج والبواسير ووجع الأضراس ، واللبن والنبيذ الذي يشربه أهله اذا اجتمعا ولدا النقرس والبرص ، ومداومة أكل البيض يعرض منه الكلف في الوجه ، وأكل الملوحة واللحمان المملوحة وأكل السمك المملوح بعد الفصد والحجامة يعرض منه البهق والجرب ، وأكل كلية الغنم واجواف الغنم يعكر المثانة ، ودخول الحمام على البطنة يولد القولنج ، والاغتسال بالماء البارد بعد أكل السمك يورث الفالج ، وأكل الاترج في الليل يقلب العين ويوجب الحول ، واتيان المرأة الحائض يورث الجذام في الولد ، والجماع من غير اهراق الماء على اثره يوجب الحصاة ، والجماع بعد الجماع

من غير فصل بينها بغسل يورث الولد الجنون ، وكثرة أكل البصل وادمانه يولد الطحال ورياحاً فى رأس المعدة ، والامتلاء من البيض المسلوق يورث الربو والانبهار وأكل اللحم النيء يولد الدود فى البطن ، وأكل التين يقمل منه الجسد إذا أدمن عليه ، وشرب الماء البارد عقيب الشيء الحار والحلاوة يذهب بالأسنان ، والاكثار من أكل لحوم الوحش والبقر يورث تغيير العقل وتحير الفهم وتبلد الذهن وكثرة النسيان .

عدم توافق التركيب

« الشرح » يبحث علم الكيمياء عن تفاعل بعض المواد تفاعلاً كيمياوياً وامتزاجها امتزاجاً كلياً ، ويبرهن على ان نتيجة هذا التفاعل فقدان كل من المادتين الممتزجتين جميع خواصها وأوصافها الفيزياوية والطبيعية وتحولها الى مواد اخرى تختلف كل الاختلاف عن أصل المادتين . فلو أخذنا مثلا حامضاً كيمياوياً ومزجناه مع قاعدة فبعد التفاعل وتطاير بعض الغازات تترسب مادة جديدة ـ الملح ـ تختلف بكل صفاتها عن الحامض وعن القاعدة .

حامض　قاعدة = ملح . أما الغاز الناتج فربما كان غازاً ساماً أوغازاً مخرشاً أو محرقاً . وهنالك سوائل مثلا لو امتزج اثنان منها لترسبت مادة صلبة من جراء هذا الامتزاج ، وتختلف هذه المادة المترسبة تمام الاختلاف عن كل من السائلين ،

وفى مقدمة مفردات الطب ـ العلم الذي يشمل دراسة العقاقير وتركيباتها الطبيعية وصناعتها ـ يدرس موضوع كبير للطبيب والصيدلي فى آن واحد وهو عدم توافق التركيب بين بعض المواد والاخرى ويقسم هـذا التنافر الى عدة فروع : كيميائي ، وفسلجي ، ودوائي . وإن كثيراً من الأدوية غير مرغوب فيها ، أو أن مزجها مع أدوية اخرى محذور فيه لترسب بعض المواد المضرة أو الخطرة التي تؤثر على صحة المريض الذي يستعملها وربما قتلته حالا .

وقد جمع علم مفردات الطب هذه المواد فى جداول ووضع أمام اسم كل مادة المادة التي لا تصلح للامتزاج معها وحذر كلا من الطبيب والصيدلي من ذلك ، حذر الأول بعدم وصفها وحذر الثاني كي ينبه الطبيب فيما إذا وصفها سهواً . وتنطبق هذه القاعدة في الامتزاج على مجموعة من الأغذية لو جمع البعض منها مع الآخر لربما حصلت بعض المواد التي تسبب بعض الأمراض والعاهات وقد يكون البعض منها ساماً قتالا يفتك بآكلها حالا .

والامام «ع» قد أتى على ذكر القسم الاكبر منها و بيّن أن من جرّاء أكل مادتين معينتين يحصل المرض المذكور اسمه أمام أسمائها ، وقد بيّن بهذه الفقرات الموجزة أسباب أمراض لازالت معرفة أسبابها مستعصية ، والتي عللتها كتب الطب الى مختلف التعليلات فان اختلاطات الأمعاء وتعفناتها من أهم الأمراض المسببة عنها ولا نزال نجهل أسباب عدد كبير من الأمراض وعلى رأسها مرض النقرس والبرص والاكزيما الجلدية والحساسيات . . . الخ . والتي تعزى الى تفاعلات معوية مغلوطة والتي تتصل بموضوعنا اتصالا وثيقاً . وفي آخر هذه الفقرات أوصى الامام «ع» وصايا صحية ثمينة وحذّر تحذيرات مهمة يجب اتباعها لاتقاء عدد من الامراض ، كما أوصى اجتناب الامرأة الحائض لما في ذلك من أضرار على الطرفين ـ ولذلك حرمته الأديان السماوية ـ وحذّر من أكل اللحم النيء لاحتواء بعض أنواعه وخاصة البقري منها على أنواع من الديدان واكياسها اللاتي لو أصابت بعض المواضع من البدن كالكبد والدماغ لأصبحت خطرة جداً « أكياس هيداتية دماغية وكبدية » وحذّر وأعاد التحذير بالمحافظة على الاسنان من تعاطي السوائل الحارة والباردة بأوقات متقاربة ، ومنع استعمال المواد السكرية بكثرة ، ثم أشار ولمح لبعض الواجبات الصحية ، ثم بيّن عن أجهزة التناسل ونظافتها ووجوب الاغتسال والتطهير بعد ممارسة كل عملية تناسلية بياناً مفصلا . وفي مراعاتها فوائد صحية كثيرة .

الحمام

قال الامام «ع» : « وإذا أردت دخول الحمام وأن لا تجد في رأسك ما يؤذيك فابدأ قبل دخولك بخمس جرع من ماء فاتر فانك تسلم إن شاء الله تعالى من وجع الرأس والشقيقة » . وقيل : « خمس أكف ماء حار تصبه على رأسك عند دخول الحمام » .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الحمام ركب على تركيب الجسد . للحمام أربعة بيوت مثل أربع طبايع الجسد : البيت الأول بارد يابس ، والثاني بارد رطب ، والثالث حار رطب ، والرابع حار يابس . ومنفعة الحمام عظيمة ، يؤدى الى الاعتدال وينقي الدرن ويلين العصب والعروق ويقوي الأعضاء الكبار ويذيب الفضول ويذهب العفن . فاذا أردت أن لا يظهر في بدنك بثرة ولا غيرها فابدأ عند دخول الحمام بدهن بدنك بدهن البنفسج . وإذا أردت استعمال النورة ولا يصيبك قروح ولا شقاق ولا سواد فاغتسل بالماء البارد قبل أن تتنور ، ومن أراد دخول الحمام للنورة فليجتنب الجماع قبل ذلك باثنتي عشر ساعة وهو تمام يوم ، وليطرح في النورة شيئاً من الصبر والاقاقيا والحضض أو يجمع ذلك ويأخذ منه اليسير إذا كان مجتمعاً أو متفرقاً ، ولا يلقي في النورة شيئاً من ذلك حتى تماث النورة بالماء الحار الذي طبخ فيه بابونج ومرزنجوش أو ورد بنفسج يابس أو جميع ذلك أجزاء يسيرة مجموعة أو متفرقة بقدر ما يشرب الماء رائحته ، وليكن الزرنيخ مثل سدس النورة ، ويدلك الجسد بعد الخروج منها بشيء يقلع رائحتها كورق الخوخ وثجير العصفر والحناء والورد والسنبل مفردة أو مجتمعة ، ومن أراد أن يأمن إحراق النورة فليقلل من تقليبها وليبادر إذا عمل في غسلها ، وأن يمسح البدن بشيء من دهن الورد . فان أحرقت البدن ـ والعياذ بالله ـ يؤخذ عدس مقشر ويسحق ويداف في ماء ورد وخل ويطلى به الموضع الذي أثرت فيه النورة فانه يبرأ باذن الله تعالى

والذي يمنع من آثار النورة في الجسد هو أن يدلك الموضع بخل العنب الثقيف ودهن الورد دلكا جيداً .

صحة الجلد

« الشرح » كما أن في كل جسم بشري أعضاء مسؤولة عن البناء والتعمير كذلك فيه أعضاء للاستهلاك وتوليد الطاقة ، وفيه أعضاء اخرى لتنظيف وازاحة وطرح فضلات هذه الفعاليات وللتخلص من أنواع التسممات المتولدة فى الداخل والخارج .

فالكبد هو العضو الرئيسي المسؤول عن تنقية الدم مما يعلق به من مواد غريبة وسموات داخلية ، والدم يتخلص من هذه المواد الأجنبية بتفاعل حجيراته الخاصة معها وطرحها على شكل افرازات و برازات خارجية ؛ هذا إذا لم تكن المادة الأجنبية العالقة بالدم من المواد المحرقة المخرشة كالكحول ، وإلا فانها تؤثر تأثيراً سيئاً على حجيرات الكبد وتخربها تخريباً دائمياً وتتلفها مما يؤثر على صحة ذلك الفرد عمومياً .

والكليتان هما عضوان مسؤولان بصورة مباشرة عن طرح فضلات الجسم سواء كان الزائد من الافرازات الجسدية طبيعية أو كانت الفضلات والافرازات ناتجة من مختلف فعاليات الجسم . ويوجد في الدم عدد من المواد بصورة طبيعية و بنسب معينة ، فان زادت تلك النسب سببت أمراضاً مختلفة كداء السكر وأمثاله . فالسكر هو أحد مكوّنات الدم الطبيعية وله نسبة خاصة به ، وإن زادت اعتبرت الزيادة حالة مرضية وجب على الكليتين التخلص منها وطرح الزائد منها ، وكذلك الحالة تجاه مادة البول « اليوريا » التي إذا زادت في الدم وعجزت الكليتان عن طرحها حدث التسمم بها وقضي على الشخص حالا .

يساعد الكليتين في أعمالها عضوان آخران هما الرئتان والجلد . فالجسم يتخلص

بعملية التنفس من عدد من المواد وعلى رأسها السموم الطيارة التي تطرح بشكل غازات مع هواء الزفير ، وأما الجلد فهو أوسع هذين العضوين سطحاً وأعقدهما عملا وأجداها نفعاً ، فتركيب الجلد معقد نوعاً ما وله عـدد من الفعاليات تختلف حسب المناطق الجسدية ، فجلد الوجه يختلف عن جلد الرأس والأخير يختلف عن الجلد المغطي للبطن والصدر .

وللجلد أهمية عظمى في التخلص من عدد لا يستهان به من المواد السامة التي يجب أن يتخلص منها الجسم يومياً والتي إذا بقيت فيه مدة قصيرة جداً قتلته حتماً ، ويعتبر الجلد المساعد الأول للكليتين في طرح هـذه المواد السامة ، ويعتبر العرق — افراز الجلد — المساعد الأول للبول — افراز الكلى — في طرح الفضلات خارج الجسم .

ولتعريف الجلد تعريفاً بسيطاً نقول : هو غطاء الجسم الواقي ومصفـاته الخارجية والعامل المنقي الثاني وذلك لسعة سطحه ولـكثرة مساماته المساعدة لخروج افرازاته الى الخارج ، وأهم افرازاته هي : العرق الذي تفرزه غدد خاصة ومواد دهنية تفرزها غـــدد اخرى لترطيب سطح الجلد وادامة طراوته واخرى لادامة طراوة الشعر . فالمسامات هي طرق طرح الافرازات فاذا انسدت بسبب من الأسباب انحصرت هذه المواد الضارة داخل الجسم وحينذاك تسبب ما تسبب من الاعراض التسممية .

وللجلد كما لبقية أعضاء الجسم الفعالة حقوق وواجبات يجب مراعاتها ، وأهم واجبنا نحو هذا العضو الحساس هو النظافة ، فانه لدقة تركيب سطح الجسم ولأهمية المسامات الجلدية أصبحت النظافة هي أوجب الواجبات الصحية وخاصة على الأقسام المكشوفة من الجسم ، وان أهم أسباب انسداد المسامات الجلدية هي تراكم الاوساخ في أفواهها نتيجة للاهمال وعدم مراعاة الطرق الصحية الصحيحة التي توصي بالنظافة

اليومية وازالة ما يعلق بالجسم من أوساخ خارجية وافرازات دهنية سطحية .

لقد اهتم الامام «ع» بصورة خاصة في رسالته هذه ودعا الى استعمال الحمامات اليومية على اختلاف أنواعها من باردة وحارة لأداء مختلف الخدمات الصحية للجسم فالحارة منها للتنظيفات وازالة ما لم تتمكن الباردة من ازالته كمنظفة ومنعشة في نفس الوقت وخاصة في الفصول الحارة فهى خير أداة لانعاش النفس والترويح عنها ، ولقد قسم (ع) الحمامات الى أنواعها وأوفى لكل نوع شرحه وأوضح شروط استعمال كل نوع منها والواجبات الصحية التي يجب اتباعها قبل أخذ الحمام وبعده ذاكراً بعبارات مختصرة نفع استعمالاتها « ومنفعة الحمام عظيمة يؤدي الى الاعتدال وينقي الدرن ويلين الأعصاب والعروق ويقوي الأعضاء الكبار ويذيب الفضول ويذهب العفن » الخ . . .

وما ترك الامام « ع » موضوع الحمام قبل أن يفيه حقه من جميع الوجوه وبذلك شرح ناحية ثانوية من نواحي نظافة البدن وتخليص الجسم من بعض الزوائد بصورة فنية تلائم مقتضيات ذلك العصر ، كما أنه شرح وبين ما تتطلبه هذه العملية من نظافة تامة وتعقيم صحي قبل القيام بها وبعده ، ثم أمر بعدها باستعمال المواد الملطفة والمنعشة وتلافي ما تحدث من جروح دقيقة وخدوش وإن كانت بسيطة فلربما سببت تسمم الدم وما لا يحمد عقباه .

نصائح عامة

قال الامام «ع» : « ومن أراد أن لا يشتكي مثانته فلا يحبس البول ولو على ظهر دابته ، ومن أراد أن لا تؤذيه معدته فلا يشرب بين طعامه ماءً حتى يفرغ ، ومن فعل ذلك رطب بدنه وضعفت معدته ولم تأخذ العروق قوة الطعام فانه يصير في المعدة نجاً إذا صب الماء على الطعام أولا فأولا ، ومن أراد أن لا يجد الحصاة وحصر البول فلا يحبس المني عند نزول الشهوة ولا يطل المكث على النساء ، ومن

أراد أن يأمن من وجع السفل ولا يظهر به وجع البواسير فليأكل كل ليلة سبع تمرات برني بسمن البقر ويدهن بين انثييه بدهن زنبق خالص ، ومن أراد أن يزيد حافظته فليأكل سبع مثاقيل زبيباً على الريق ، ومن أراد أن يقل نسيانه ويكون حافظاً فليأكل كل يوم ثلاث قطع زنجبيل مربى بالعسل ويصطبغ بالخردل مع طعامه في كل يوم ، ومن أراد أن يزيد في عقله يتناول كل يوم ثلاث هليلجات بسكر ابلوج ومن أراد أن لا ينشق ظفره ولا يميل الى الصفرة ولا يفسد حول ظفره فلا يقلم أظفاره إلا يوم الخميس ، ومن أراد أن لا تؤلمه اذنه فليجعل فيها عند النوم قطنة ، ومن أراد ردع الزكام مدة أيام الشتاء فليأكل كل يوم ثلاث لقم من الشهد .

واعلم يا أمير المؤمنين أن للعسل دلايل يعرف بها نافعه من ضاره وذلك أن منه شيئاً إذا أدركه الشم عطس ، ومنه شيء يسكر وله عند الذوق حرقة شديدة فهذه الأنواع من العسل قاتلة ولا يؤخر شم النرجس فانه يمنع الزكام في مدة أيام الشتاء ، وكذلك الحبة السوداء . وإذا خاف الانسان الزكام في أيام الصيف فليأكل كل يوم خيارة ، وليحذر الجلوس في الشمس . ومن خشي العقيقة والشوصة فلا يؤخر أكل السمك الطري صيفاً كان أو شتاء . ومن أراد أن يكون صالحاً خفيف الجسم واللحم فليقلل من عشائه بالليل . ومن أراد أن لا يشتكي سرته فليدهنها متى دهن رأسه . ومن أراد أن لا تتشقق شفتاه ولا يخرج فيها باسور فليدهن حاجبه من دهن رأسه . ومن أراد أن لا تسقط اذناه ولهاتاه فلا يأكل حلواً حتى يتغرغر بعده بخل . ومن أراد أن لا يصيبه اليرقان فلا يدخل بيتاً في الصيف أول ما يفتح بابه ولا يخرج منه أول ما يفتح بابه في الشتاء غدوة . ومن أراد أن لا يصيبه ريح في بدنه فليأكل الثوم كل سبعة أيام مرة . ومن أراد أن لا تفسد أسنانه فلا يأكل حلواً إلا بعد كسر خبز . ومن أراد أن يستمري طعامه فليتكيء بعد الأكل على شقه الأيمن ثم ينقلب بعد ذلك على شقه الأيسر حتى ينام . ومن أراد أن يذهب

البلغم من بدنه وينقصه فليأكل كل يوم بكرة شيئاً من الجوارش الحريف ويكثر دخول الحمام ومضاجعة النساء والجلوس في الشمس ويجتنب كل بارد من الأغذية فانه يذهب البلغم ويحرقه . ومن أراد أن يطفىء لهب الصفراء فليأكل كل يوم شيئاً رطباً بارداً ويروح بدنه ويقل الحركة ويكثر النظر الى من يحب . ومن أراد أن يحرق السوداء فعليه بكثرة القيء وفصد العروق ومداومة النورة . ومن أراد أن يذهب بالريح الباردة فعليه بالحقنة والادهان اللينة على الجسد وعليه بالتكميد بالماء الحار في الأبزن . ومن أراد أن يذهب عنه البلغم فليتناول بكرة كل يوم من الاطريفل الصغير مثقالاً واحداً .

صحة المسافر

واعلم يا أمير المؤمنين أن المسافر ينبغي له أن يتحرز من الحر إذا سافر وهو ممتلىء من الطعام ولا خالي الجوف وليكن على حد الاعتدال ، وليتناول من الأغـذية الباردة مثل الغريض والهلام والخل والزيت وماء الحصرم ونحو ذلك من الأطعمة الباردة .

واعلم يا أمير المؤمنين أن السير الشديد في الحر الشديد ضار بالأبدان المنهوكة إذا كانت خالية من الطعام وهو نافع بالأبدان الخصبة ، وأما صلاح المياه للمسافر ودفع الأذى عنه فهو أن لا يشرب من ماء كل منزل يرده إلا بعد أن يمزجه بماء المنزل الذي قبله أو بشراب واحد غير مختلف يشوبه بالمياه على اختلافها والواجب أن يتزود المسافر من تربة بلده وطينته التي ربي عليها وكل ما ورد الى منزل طرح فى أنائه الذي يشرب منه الماء شيئاً من الطين الذي تزوده من بلده ويشوب الماء بالطين في الآنية بالتحريك ويؤخر قبل شربه حتى يصفو صفاءاً جيداً ، وخير الماء شرباً لمن هو مقيم أو مسافر ما كان ينبوعه من الجهة الشرقية من الخفيف الأبيض ، وأفضل المياه ما كان مخرجها من مشرق الشمس الصيفي وأصحها وأفضلها ما كان

بهذا الوصف الذي نبع منه وكان مجراه فى جبال الطين وذلك لأنها تكون في الشتاء باردة وفي الصيف ملينة للبطن نافعة لأصحاب الحرارات . وأما المالح والمياه الثقيلة فانها تيبس البطن ، ومياه الثلوج والجليد ردية لساير الاجساد وكثيرة الضرر جداً وأما مياه السحب فانها خفيفة عذبة صافية نافعة للاجسام إذا لم يطل خزنها وحبسها في الارض . وأما مياه الجب فانها عذبة صافية نافعة إن دام جريها ولم يدم حبسها في الارض . وأما البطايح والسباخ فانها حارة غليظة في الصيف لركودها ودوام طلوع الشمس عليها وقد يتولد من دوام شربها المرة الصفراوية وتعظم به أطحالهم

(الشرح) الماء : هو ذلك العنصر الفعال الذي يدخل في تراكيب أكثر المواد وهو من أهم مكونات جسم الانسان فانه يدخل فى تركيب كل عضو من أعضائه وكل مادة من مواده ، وبدونه لا يمكن أن تتم أية عملية أو تفاعل سواء أكانت العملية هضمية أو تمثيلية أو امتصاصية أو غيرها . ويحتاج الجسم الى كميات كبيرة منه للقيام بهذه الفعاليات وغيرها ، ويحتاج اليه للاستعمالات الخارجية ، فالماء هو من أحسن المنظفات والمطهرات والمعقمات لجسم الانسان ولحاجيات الانسان الاخرى . والمياه تختلف باختلاف أنواعها واختلاف مصادرها فهنالك مياه الأمطار وهي التي تتجمع من ماء المطر ومياه العيون والأنهار ومياه الآبار . وتقسم المياه الى عسرة ويسرة وقد تعرضنا الى شرحها ووصفها في الفصول السابقة عند تعليقنا على صناعة الشراب الحلال ، وقلنا ان الامام (ع) قد سبق غيره في تعريف الماء فعرّفه أحسن تعريف وأوجز وصفه .

والماء يعتبر من أهم العناصر الحيوية للجسم ويعتبر أيضاً من أهم مصادر العدوى في نقل كثير من مكروبات الامراض والطفيليات ، فاذا تلوث مصدر ماء الشرب بمكروب وبأي ما وقعت الطامة الكبرى وعم البلاء على المنطقة التي تتزود

من ذلك الماء . فتصفية المياه وتعقيمها يعتبران من أهم الواجبات الصحية العمومية وقد اهتمت بذلك الحكومات وخاصة فى السنوات الأخيرة وخصت كل بلدة لجنة مسؤولة عن مشروع إسالة الماء وهي مسؤولة في الدرجة الاولى عن انتقاء مصدر المياه وفي الدرجة الثانية عن تصفية تلك المياه وتعقيمها صحياً حسب اسس صحيحة وجمعها في مخازن كبيرة وتوزيعها على المحلات الخاصة والعامة بواسطة شبكة أنابيب .

وقبل أن نترك بحث الماء يجب أن نذكر بعض الشيء عن مجاري المياه القذرة وما لها من أهمية صحية ، فالامم الحديثة التي تفكر بانشاء المدن العصرية يتبادر الى أذهانها في أول الأمر تصاميم هذه المجاري على الاسس الصحية الهندسية الحديثة قبل أن تضع تصاميم المدينة الاخرى كالبناء والكهرباء لأهمية تلك المجاري وما لها من مساس بالصحة العامة ، فهي الطريق الوحيد للتخلص من الفضلات وزيادات المياه والأوساخ الاخرى التي لو تبقت لأحدثت ما أحدثت من عفونة وتفسخ وسببت انتشار شتى الأنواع من الامراض السارية ، والتي إذا اتصلت بمصادر ماء الشرب ولوثتها لساعدت في اتساع نطاق انتشار ذلك الوباء ولتعسر في بعض الاحيان ضبطه وايقافه .

وتجمع هذه الفضلات وهذه الاوساخ في محل واحد بصورة غير صحية لهو أشد وأخطر وسط منم ومنتج للمكروبات فتصبح معملاً ذا قدرة عظيمة على انتاج ملايين المكروبات يومياً ونشره بمختلف الطرق سواء أكان في الهواء أو الوسائط الاخرى لنقل عدوى الامراض للابدان الصحيحة والامام عليه السلام قبل أن يدخل في بحث المياه أوصى كل مسافر وخاصة للمسافات الطويلة وفي الفصول الحارة ألا يكون ممتلىء المعدة ولا خالي الجوف ، وألا يتناول من الاطعمة إلا أخفها وأبردها وراعى في ذلك المحافظة على سلامة المعدة في الاسفار وعلى مكافحة العطش ، لأن الاكلات الغليظة تسبب تعب المعدة وفسادها وتسبب العطش . وحذر المسافر عن

شرب المياه التي يصادفها بطريقه إلا بعد أن يتأكد من أن ذلك المصدر صالح للشرب ونقي وطاهر ، وأوصى كثيراً بأخذ المياه التي تكون ينابيعها في الجهة الشرقية ويقصد بذلك المعرضة لأشعة الشمس وذلك ما للشمس من تأثير في تعقيم المياه والقضاء على أكثر مكروباتها ، وحذر من شرب المياه العسرة وذلك لتأثيراتها على عرقلة عمليات الهضم والتمثيل ، وكانت أكثر تحذيراته (ع) هي : عدم شرب المياه المخزونة مباشرة من مياه المطر التي لا يعرف تماماً كيفية خزنها .

وبهذه العبارات الموجزة المختصرة أوصى الامام ألا يشرب الماء ما لم يكن مصفى في الدرجة الاولى ومعقماً في الدرجة الثانية وفضل التعقيم الشمسي على بقية الطرق لأنه طبيعي ومفيد أكثر من غيره وفي نفس الوقت هو اقتصادي لا يكلف أية نفقة .

آداب الجماع

قال الامام (ع) : (وقد وصفت لك يا أمير المؤمنين فيما تقدم من كتابي هذا ما فيه كفاية لمن أخذ به ، وإنما أذكر أمر الجماع : فلا تدخل النساء من أول الليل صيفاً ولا شتاءاً وذلك لان المعدة والعروق تكون ممتلية وهو غير محمود ويتولد منه القولنج والفالج واللقوة والنقرس والحصاة والتقطير والفتق وضعف البصر ورقته ، فاذا أردت ذلك فليكن في آخر الليل فانه أصلح للبدن وأرجى للولد وأزكى للعقل في الولد الذي يقضي الله بينهما ، ولا تجامع امرأة حتى تلاعبها وتكثر ملاعبتها وتغمز ثدييها فانك إذا فعلت ذلك غلبت شهوتها واجتمع ماؤها لان ماءها يخرج من ثدييها والشهوة تظهر من وجهها وعينيها واشتهت منك مثل الذي تشتهيه منها ، ولا تجامع النساء إلا وهي طاهرة ، فاذا فعلت ذلك فلا تقم قائماً ولا تجلس جالساً ولكن تميل على يمينك ثم انهض للبول إذا فرغت من ساعتك شيئاً فانك

تأمن الحصاة باذن الله تعالى ، ثم اغتسل واشرب من ساعتك شيئاً من المومياني بشراب العسل أو بعسل منزوع الرغوة فانه يرد من الماء مثل الذي خرج منك)

واعلم يا أمير المؤمنين أن جماعهن والقمر في برج الحمل أو الدلو من البروج أفضل ، وخير من ذلك أن يكون في برج الثور لكونه شرق القمر . ومن عمل فيما وصفت في كتابي هـذا ودبر به جسده أمن باذن الله تعالى من كل داء وصح جسمه بحول الله وقوته . فان الله يعطي العافية لمن يشاء ويمنحها إياه . والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

« الشرح » قال الدكتور « إستاس تشاسر » : « يكاد الناس يتكلمون ويأكلون ويتنفسون ويقومون بأعمال اخرى بمقتضى قواعد تكنيكية وعلمية ، وأما المسائل الجنسية فجهلهم بها كان ولا يزال فاضحاً ، ومرد هذا الجهل الى حضارة مرائية تنكر على الانسان حق إثارة موضوع دقيق كموضوع العلاقات الجنسية مع العلم انها من الوجهة العلمية شغل الناس الشاغل بالرغم من تظاهرهم بالرصانة والترفع عنها

وليس الجهل بهذه المسائل الجنسية مقصوراً على طبقة معينة ففيه يستوي العالم والجاهل والغني والفقير ، وقليل من الرجال يدركون أهمية التوافق والانسجام في العلاقات الجنسية ، وذلك بالنسبة الى الزوجين وأقل منهم هم الذين اكتشفوا أن خمسة وسبعين بالمائة من حوادث الزواج الفاشل ما كانت لتكون لو لا جهل الرجال وأنانيتهم . وكيف يسعد زوجان يستأثر أحدهما ـ وهو الرجل ـ بأطايب توفرها له الحياة الزوجية ، تاركاً للمرأة الفتات وأحياناً لا شيء .

وتأبى التقاليد إلا مسايرة الحضارة المرائية وأنانية الرجل . فالمرأة في تلهفها المشروع الى إحراز نصيبها من المتع لا تجرأ فى الغالب على المطالبة بهـذا النصيب لأنها محرومة عرفاً من هذا الحق ، ومن أجل هذا لا تجني من الاتصال الجنسي

سوى الخيبة والحرمان . وإذا ساءت العلاقات بين الزوجين تظل الأسباب الحقيقية دفينة في صدر المرأة فيخفق المصلحون لعجزهم عن الاهتداء الى موطن الداء .

فالجهل والأنانية والحياء الكاذب والتحفظ المرائي كلها تكمن وراء الزواج الفاشل وحوادث الزنـا والطلاق . ناهيك عن الأمراض التي تذهب ضحايا له في الغالب نساء أثر الحرمان في أعصابهن . من أجل هذا يقوم في العالم المتمدن مفكرون وكتاب مؤهلون بحملات واسعة لمكافحة سياسة الصمت حول المسائل الجنسية ولتحرير الناس من الأوهام والفضيلة الكاذبة التي تجثم على صدورهم ولتسليط أضواء الحقيقة على الفعل الأساسي الذي يشد المرأة بالرجل . ينبغي للرجل أن يستخدم مواهبه واختباراته في اعداد امرأته للفعل الجنسي ، وكل رجل لا يفكر إلا بنفسه ويترك امرأته فريسة الشهوات دون أن يتاح لها بلوغ قمـة اللذة ، فهو أما جاهل يستحق الشفقة أو أناني يستأهل الصفع .

وليس الاعداد للفعل الجنسي - ولنسمه العمل التمهيدي - من مبتكرات اناس مغرقين في الفساد ، كما قد يتبادر إلى الاذهـان . فلقد أجمع الذين عالجوا القضايا الجنسية على أساس علمي أن الاعداد هو ضرورة فسيولوجية كالفعل نفسه .

لاريب فى أن الرجال الذين يمارسون حقوقهم الزوجية دون مقدمات هم قلة في البيئآت الراقية والمتحررة وكثرة في سائر البيئآت حتى الذين يمهدون للخلوة بما يكفل نجاحها لا يتقنون من ضروب الملاعبة والملاطفة إلا أقلها . وليس مرد هذه الظاهرة الى الجهل فحسب ، بل الى الترفع عن ممارسة بعض هذه الضروب بحجة انها غير لائقة ولا تتفق والكرامة الانسانية . انتهى

وقال الدكتور « كورسال » : « يثبت وجود أعضاء الانتصاب عند المرآة واقتران عملها الجنسي باللذة والاندفاع وان كانت لـكل امرأة طبيعتها الجنسية الخاصة فان هذه الطبيعة رغم كونها فى الظاهر عاطفية أكثر منها حيوية ، تخضع لقوانين علم

الحياة ، وتوجه هي الاخرى غاياتها الخفية نحو الخلق والوجود لا يعتريها في هـذا كلل أو نصب — ان المحافظة على النوع هي الغاية — وان الوظيفة الجنسية هي مصدر الغريزة . وعند المرأة كما عند الرجل تحرك الغريزة الجنسية جهاز الانتصاب ولـكنها تخضع في هذه لتأثيرات مختلفة منها الانفعالية والعاطفية والحسية والنفسية وقد اثبتت الاكتشافات العلمية أهمية الدور الذى يلعبه في هذا كله الجهاز العصبي ، والهرمونات والتأثيرات الشخصية ، وان أسباب التهيج المختلفة على تباين أنواعها مختلفة المراكز فمنها مايصدر عن الأعضاء التناسلية نفسها ومنها مايصدر عن مراكز اخرى بعيدة عن أعضاء الجنس كاللسان وغشاء الفم والشفتين والاذن والجفنين والرموش . وللثديين في هذا النظام مكان مختار ، إذ ينجم عن تهيجها في بعض الأحيان تقلص أعضاء الانتصاب عند بعض النساء . انتهى

لقد سبق الامام هذين العالمين النفسانيين في بحثها ، وسبق غيرها من أصحاب النظريات فى معالجة هـــذا الموضوع الدقيق الحساس وأبدى رأيه بصراحة مبيناً باختصار فسلجة هذه العملية وتفسيرها العلمي وشروطها وأهمية اثارة الشهوة في كلا الجنسين . وقبل البدىء بهـذا بينّ أحسن الاوقات وأصلحها بالنسبة للفصول وبالنسبة لليل والنهار للحالة الصحية البدنية ، واشترط ان يكون الشخص مرتاحاً لا تعباً ولا ممتلىء المعدة ، ثم شرح الشروط الصحية ما قبل العملية وما بعـدها والأمراض والعلل التي تتسبب إذا اهملت هذه الشروط الصحية .

وحذّر ﴿ع﴾ من مجامعة النساء وهن في فترة الحيض لما في ذلك من أخطار على الطرفين ، وأوصى بعـدم الاقتراب بهن إلا أن يكن طاهرات وبين آداب التنظيف والاغتسال بعد العملية ملمحاً الى بعض فوائدها الصحية . قال ﴿ع﴾ : ﴿ ولا تجامع امرأة حتى تلاعبها وتكثر ملاعبتها وتغمز ثدييها فانك إذا فعلت ذلك غلبت شهوتها واجتمع ماؤها لأن مائها يخرج من ثدييها والشهوة تظهر من

وجهها وعينيها واشتهت منك مثل الذي تشتهيه منها . . . الخ ﴾

توضح هـذه الفقرة ان غريزة المرأة لا يمكن أن تستكمل أسبابها الأساسية ما لم يقابلها جهاز تشريحي تام التركيب يعتبر المحرك الطبيعي للحياة الجنسية ، ولا بد لوظيفة المرأة الجنسية لكي تأخذ شكلاً طبيعياً من مقومات ضرورية أهمها الجهاز العصبي والهرمونات الغددية والعاطفة والتأثر . وتكون هذه العناصر في عملها الطبيعي سلسلة تتماسك حلقاتها بشكل يصعب معه تفريقها في معظم الأحيان .

الظواهر الطبية

في الأحاديث النبوية

الاسلام يحافظ على بقاء الانسان ويعمل على أن يكون افراده فى أتم صحة وأكمل عافية ، إذ بمجموعهم تزيد شوكته وتقوى ملته ، ولذلك حرم القتل ووأد البنات وحرم أيضاً الانتحار . قال رسول الله (ص) : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

ينهى هذا الحديث الشريف عن الانتحار بأية وسيلة كانت وبين جزاء المنتحر ومآله في الآخرة تخويفاً وتهديداً وزجراً ووعيداً حتى لا يلجأ مؤمن إلى الخلاص من حياته والقضاء على نفسه والسعي الى حتفه بظلفه إن صادف عقبة في دنياه يعجز عن تذليلها أو حلت به مصيبة ينوء كاهله عن حملها .

يجهل ذلك المسكين انه لو صبر قليلا لفرج الله ضيقه ومهد طريقه وأبدله بعد الخوف أمناً وبعد الحزن بشراً وبعد الفشل نصراً « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » ولن يغلب عسر يسرين .

أما ما ورد في القرآن الكريم عن فوائد الصبر وما خص به صاحبه من عظيم الأجر فكثير اكتفي بالاشارة اليه حباً في الايجاز ولكن اسمحوا أن نلقي نظرة على قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا » «١»

لن يتصف امرؤ بصادق التقوى لمولاه فيفوز بما تضمنته هذه الآية الكريمة الا بامتثال أمره واجتناب نهيه وحسن التوكل عليه والتسليم له أولاً وآخراً باطناً وظاهراً والاعتقاد بصحة ما نزل من الآيات ، وهل فى الانتحار أي شيء من ذلك كلا إنما الانتحار أوله اليأس وقطع الرجاء ، ووسطه محاربة الخالق بعدم الرضا ، وآخره الخسران وسوء الجزاء .

وبمناسبة الانتحار وان مآل مقترفه النار أذكر لكم القصة الآتية الواردة في كتب الحديث .

قاتل رجل مع رسول الله «ص» في أحدى الغزوات وأبلى بلاء حسناً فاخبر رسول الله «ص» أصحابه ان ذلك الرجل من أهل النار ، فعجبوا كثيراً وما لبثوا غير قليل حتى جرح الرجل جراحاً بليغة فتسرب اليأس الى قلبه ووسوس اليه الشيطان الاجهاز على نفسه فأطاعه وطعنها طعنة نجلاء كانت القاضية وقد غلب عليه القدر فكان من أهل النار .

ومن الانتحار البطيء المشاهد في هذه الأيام تعاطي المخدرات والأصل في اكتشافها في الطب الحاجة الى خواصها المسكنة الآلام بعض الأمراض ولكن الناس أساؤا استعمالها فانقلبت عليهم خطراً كبيراً وشراً مستطيراً ، وأصبحت معولا لهدم الانسانية وانتزاع المروءة واقتلاع زهرة الشباب ومنجلا لحصد الرؤوس وازهاق النفوس .

«١» سورة الطلاق الآية ٢ - ٣ .

معلوم أن الاسلام نص على تحريم الخمر لتأثيرها السيء والمضار التي تنجم عنها ، وهو أيضاً نص على تحريم المخدرات لانها مغيبة للعقل مثل المسكرات بل ان أضرار المخدرات أدهى وأمر .

وإن كنتم فى ريب من قولي فاطلعوا على تقارير الشرطة ومصلحة السجون لتعلموا عدد من يدخلها ممن وقعوا فريسة المخدرات ، وعدد من يهلك منهم في المستشفيات ثم ولوا وجوهكم شطر بيوتهم الخاوية إلا من فقر مدقع وهمّ دائم تجدوا بها أرامل باكية وأطفالاً ضاوية في أطمار بالية تحتها عظام نخرة وأعصاب منهكة . اما الوجوه فذابلة شاحبة والصحة عنهم مولية ذاهبة .

الاسلام يأمر بالجد والعمل ، والمخدرات تشل الأيدي وتقودها الى البطالة والكسل وتجعل مدمنها كلا على غيره جانياً على نفسه ثم على نسله وعلى وطنه بمساوئه ومفاسده .

فيجدر بالعاقل ألا يصدق ما يزعمه تجار المخدرات من واهي الخزعبلات وافتراء الاغراء ، إذ لا همّ لهم إلا اكتساب الأموال مهما كانت الوسيلة ومهما جرت أيديهم الشريرة من الويل والثبور بقاتل سمومهم وكاذب أباطيلهم وخادع حيلهم « ألا ساء ما يزرون » .

أحاديث بها نصائح طبية

قال رسول الله «ص» : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني . والمارق من دينه التارك للجماعة » .

والمراد من هذا الحديث الشريف تحريم قتل المؤمن فيما عدا الأصناف الثلاثة المذكورة به وهم قاتل النفس والمتزوج الزاني أو المتزوجة الزانية والمرتد عن دين الاسلام المفارق لجماعة المسلمين . فهؤلاء وحدهم يحل قتلهم .

والغرض المنشود من هذا القول الحكيم أولاً التشريع ، ثانياً التخويف حتى ينتهي من سولت له نفسه ارتكاب أحدى هذه المعاصي القبيحة متى علم أن جزاءه سيكون الاعدام .

وهناك مغزاً سامي يفهم من الحديث ، فقد كانت القبائل في الجاهلية إذا قتل أحد رجالها طالبت بثأره ودب الشقاق والنفار والتباغض بينها ونشبت الحروب وسفكت الدماء وضاعت الأرواح ، كما حصل فى حرب البسوس المشهورة عند مقتل كليب .

فمنعاً لتلكم النتائج الوخيمة والخسائر الفادحة أبان الرسول «ص» الأحوال الثلاثة التي يحل فيها القتل ويحرم في سواها .

أما السبب في وجوب قتل المنافق الذي يخرج عن الاسلام فهو لئلا يضل غيره . فما أشبهه بالعضو الفاسد في البدن ، يجمع الأطباء على قطعه حفظاً لنجاة باقي الأعضاء وسلامتها .

وأما الحكمة في تشديد عقاب الزناة كما نص وسط الحديث فلأنهم تركوا ما عندهم من حلال وابتغوا ما وراءه عابثين بالشرف منتهكين الاعراض فاذا نفذ القتل فى هؤلاء ارعوى غيرهم وعمّ العمران وانتشر السلام .

ومن نتائج الزنا الاجتماعية اختلاط الأنساب فضلاً عن أن الدعي يكون بطبعه ميالاً الى الفجور والشرور .

وبهذه المناسبة أحادثكم عن الحكمة فى تحريم الزنا من الناحية الطبية ، فان كثيراً من الزناة الذين يزجون بأنفسهم بين أحضان ساقطات النساء لقضاء الشهوة البهيمية يصابون وسط لذتهم بسهام مسمومة من الأمراض الوبيلة التي تنغص حياتهم بل وحياة غيرهم ، فقد تصاب الزوجة البريئة بالعدوى من زوجها الذي تلوث جسمه وكثيراً ما تنتقل آفات تلك الأمراض الى النساء فيموت الجنين ، ولو تم الحمل

والوضع لرأيت الطفل المولود ضعيفاً به آثار المرض وربما تأخر ظهورها الى وقت آخر . وقد تصل العدوى الى الاحفاد أيضاً . وأشهر الأمراض التي اشير اليها : السيلان . والزهرى . والسل ، التي تقشعر عند ذكرها الأجسام وتحار في هول أخطارها الأفهام .

فاما السيلان : فهو التهاب صديدي في مجرى البول يمكث زمناً طويلا ويزداد خطره إذا أزمن . ومن نتائجه السيئة ومضاعفاته الوخيمة الرمد الصديدي . وكم من ضحايا لا حصر لهم فقدوا بصرهم بسببه ، والتهاب الخصيتين وانسداد القنوات المنوية والروماتيزم السيلاني والتهابات في النخاع الشوكي قد تفضي الى الموت .

وأما الزهري فهو أشد الأمراض التناسلية خطراً وأسوأها عاقبة وأروعها آلماً وأصعبها شفاء ، وتظهر أعراض هذا المرض الخبيث في فترات مختلفة حسب استعداد المريض وسيره في العلاج .

ألا انبئكم بأعراض الزهري في دوره الأخير وأضراره البليغة فما أهولها وما أبشعها ، فكم من عقول اندثرت وكم من انوف انهارت وكم من ألسن قطعت وكم من أذرع شلت وكم من أعصاب انحلت وكم بغير ماسبب سوى الزهري اللعين .

وأما السل فهو ادران في الرئة وجراثيم تفتك بها الى أن تصيرها مجموعة بثور وكهوف فتصبح عاجزة عن أداء وظيفتها الهامة التي هي امداد الجسم بغاز الاوكسجين الضروري للحياة .

واعراضه باختصار . فقد الشهية والسعال والاصفرار والهزل ، وهو نتيجة لازمة للاجتهاد والافراط ، وهو من الأمراض العضالة التي يندر الشفاء منها ، فهل بعد ذلك يرتدع الزناة ويثوبون الى رشدهم ويقلعون عن غيهم .

قال رسول الله «ص» : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن الى آخر الحديث » .

المراد سلب كمال الايمان الرادع له عن اقتراف المعاصي لاسلب أصل الايمان خلافا للمعتزلة القائلين بتكفيره وخلوده في النار . قال تعالى : « ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » «١» ، وقال تعالى أيضاً : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » «٢» .

وحيث أن الزنا من أدهم الأدواء وأخطرها في المجتمع فالواجب يحتم علينا أن نستوفي البحث عنه ونلم به المامة وافية ثم نعود الى أصل المطلب ، وأرى من الضروري فى المقام أن أذكر كلمة عن وظيفة أعضاء التناسل وغايتها التي خلقت من أجلها فأقول :

خلق الله في الانسان جملة أعضاء : أعضاء للحركة ، أعضاء للتغذية والهضم ، أعضاء للتنفس ، أعضاء للحس ، أعضاء للنسل . وجعل لكل عضو منها عملا ووظيفة خاصة به . فلأعضاء التناسل غاية واحدة هي الغاية المطلوبة من سائر الحيوانات وهي النسل والانتاج لضرورة بقاء النوع بدليل قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » «٣» ، وقوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » «٤» وقوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » «٥» .

أشار الله سبحانه وتعالى في الآيتين الاولى والثانية الى الغرض من أعضاء التناسل ووظيفتها وهي الزواج . وأشار في الآية الثالثة الى نعمة الزواج الجليلة وانه داعية المودة والرحمة ومجلبة للالفة والوفاق لا داعية الخلاف والشقاق . كما

«١» سورة الزمر الآية ٥٣ . «٢» سورة النساء الآية ٤٨ .
«٣» سورة الحجرات الآية ١٢ . «٤» سورة النساء الآية ١ .
«٥» سورة الروم الآية ٢٠ .

أشار الى أن المرأة ليست كالمتاع تقصد لمجرّد قضاء الشهوة وتطلب للعبث واللذة إنما جعلت ليسكن اليها الرجل ويستأنس بها ويجد منها مسلياً لكروبه ومفرجاً لهمومه ومعيناً على تدبير شؤونه ، فيقوم لها بما تطلبه المعاشرة وتفرضه الموازرة وتحتمه الصداقة والمودة ثم مع ذلك يستمتع بها ويقضي منها وطره .

وليس القصد من الاستمتاع بالزوجة مجرد قضاء الشهوة البهيمية فان ذلك من مقاصد البهائم العجماوات بل القصد منه ما قصده الشارع الحكيم وهو الولد والنسل ولذا قال الله تعالى : (فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم) «١» أي ابتغوا ما أراده الله لكم وهو النسل وقال رسول الله « ص » تأييداً لقول ربه : « تناكحوا وتناسلوا فأني مباه بكم الامم يوم القيامة » وذلك لحكمة بالغة هي :

أن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا العالم وقدّر بقاءه الى أجل مسمى رأى أن بقاءه يتوقف على بقاء النوع الانساني المتوقف على الازدواج والتناسل ـ فشرع لنا الزواج ـ لأن هذا التناسل لا يتم ولا يفي بالغرض منه إلا بعقد الزواج الشرعي وذلك أمر بديهي الثبوت لا يحتاج الى برهان .

ورب معترض يقول انه لا داعي لعقد الزواج الشرعي لان الزواج يحصل بين الذكور والاناث بمقتضى الجبلة الخلقية والطبيعة البشرية ، إذ كل منهما تدعوه شهوته الى ذلك فيحصل التناسل بدون عقد زواج شرعي . ولكن بالتأمل والروية يعلم جلياً أن التناسل متوقف على عقد الزواج لعدم اختلاط الانساب ، إذ لو ترك الناس عبيد شهواتهم تسوقهم كالحيوانات الى حيث تشاء لكان الغرض قضاءها للرجال والنساء على حد سواء فضلا عن جلب المنافع لهن أيضاً فيعملن كل ما فى وسعهن للحصول على الفائدة التي يقصدونها فيمنعن أنفسهم من الحمل ليرغبن الرجال فيهن ويحصلن على رغباتهن وقضاء شهواتهن ، بخلاف ما إذا حصل الازدواج بعقد

«١» سورة البقرة الآية ١٨٦ .

شرعي وصار كل منهما مرتبطاً بشروط هـذا العقد قاصراً على صاحبه لا يتعداه الى غيره فلا يكون الغرض حينئذ مجرد قضاء الشهوة ، بل النسل الذي يبقى للانسان ذكراً باقياً وأثراً خالداً فى الحياة الدنيا .

ومن ذا الذي يستطيع أن يقدّر الغبطة والسرور عند ما يرزق الانسان بمولود ولو كان مشوه الخلقة ؟ ذلك هو السر ، بل هو السحر الحلال الذي يحوّل أنظار الانسان العاقل الى الزواج ويحبب اليه الحياة الزوجية ، تلك الحياة التي على ما فيها من تعب ونصب ومرارة تضع الرجل موضع الكمال الانساني وتهـديه الى الأخلاق الفاضلة وتأخذ بيد المرأة وتجلسها على عرش الامومة المقدسة يحف بهـا الاجلال والاحترام .

فأي إنسان عاقل لا يرغب في أن يكون له خلف وولد ولذا نرى الرجل الذي لم يرزق ولداً ولا بنتاً يتكدر كثيراً ، كما أن الزوجة العاقر التي لم تلد تتألم لذلك وتسعى جهدها للحمل حتى ترزق ولدا . ولهذا لما قل النسل في بعض الامم المتمدنة بحثوا عن السبب فوجدوه ناشئاً في الغالب من ازدواج الذكور والاناث بلا عقد شرعي ، وهذا ما يعبر عنه بعضهم بالزواج الغير الشرعي ، وهذه العلاقة الغير الشرعية بين الرجل والمرأة تعرف بالفسق ، وهي سيئة كبيرة ضد العقل والفضيلة بل هي جريمة تحط من شأن الانسان وسبب من أسباب الدمار والخراب . نعم ان الفسوق جريمة من أكبر الجرائم التي تقضي على الانسانية والحضارة والعمران .

فيستنتج مما ذكر أن استعمال أعضاء التناسل فيما خلقت لأجله بالطرق المشروعة يفيد المجتمع الانساني لانها تنتج ذرية صالحة سليمة العقل صحيحة الجسم أما استخدامها في غير الطرق الشرعية يجر الويلات على الانسانية ويكون سبباً في شقاء الانسان وخراب العمران .

فليعلم كل إنسـان — شاباً كان أو رجلا — أن أعضاء التناسل لم تخلق

للهو واللذة إنما خلقت لحكمة ماسة سامية وهي الانتاج والنسل والرجل فى قيامه بهذه الواجبات المقدسة إنما يؤدي عملا شريفاً يبرهن به من انه لا يقوم بعمل شهواني محض كالبهائم ، وليعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذا العمل إنما هو لعمارة الكون و بقائه كما يريد المولى جل وعلا لا لفنائه .

قال أحد الشعراء :

لولا الزواج لما كنا ولا كانت هذي البلاد ولا شيدت مبانيها

إن الزواج يصون النفس يعصمها عما يحط بعلياها ويزريها

عرفنا الآن وظيفة أعضاء التناسل وغايتها والحكمة من الزواج . فلنتكلم عن الزنا ومنشئه وأسبابه ومضاره وعلاجه وتحريمه وعقوبته لأن الانسان يجب عليه أن يعرف كل العلل والامراض ليأخذ حذره منها ويقي نفسه من شرها عملا بنصيحة الطبيب « الوقاية خير من العلاج » وأن يعرف الخير والشر لعدم الوقوع في الشر وقد أمرنا الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا ما دفعنا وحفزنا لتدوين هذا البحث قياماً بالواجب الديني وخدمة للانسانية وحباً فى نشر الفضيلة ورفع لواء العفة والشرف ومحاربة للفسق والفاسقين .

الزنا

الزنا — وقانا الله وإياكم شره — يقال له الفحشاء هو مخالطة الجنسين الذكر والانثى ببعضها بدون وجه شرعي . وبعبارة أوضح هو الفعل الفاضح الذي يقع من شاب أو رجل مجرم لفتاة أو امرأة كرهاً أو طوعاً لهتك عرضها وسلب عفافها وضياع شرفها وماها .

أسباب الزنا : إن الأسباب التي تدعو الانسان الى الوقوع في هذا المرض الاجتماعي الخطير كثيرة .

أولها النظر الى النساء فهو بريد الزنا ورائد الفتنة ورسول المنكرات لما فيه

من المضار الدنيوية والدينية ولذا أمر الله بغض البصر فقال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » . . . الخ «١»

والسبب في نزول هذه الآية ما ورد عن علي «ع» قال : (مر رجل على عهد رسول الله (ص) في طريق من طرق المدينة فنظر الى امرأة ونظرت اليه فوسوس لهما الشيطان انه لم ينظر أحدهما للآخر إلا اعجابا ، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر اليها إذا استقبله الحائط فشق أنفه فقال والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله (ص) فأخبره أمري ، فأتاه فقص عليه قصته فقال النبي (ص) « هذا عقوبة ذنبك » .

وأنزل الله تعالى هذه الآية للنصح والتحذير فأمر الرجال بغض الأبصار وبحفظ الفروج وأمر النساء بذلك أيضاً وبشيء آخر أزيد منه وهو ستر الزينة والمحاسن وعدم ابدائها حتى لا يعود أحد يفتتن بهن .

وقال «ص» : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه) ، وقال (ص) : من ملأ عينيه من امرأة حراماً حشاهما الله يوم القيامة بمسمارين من نار وحشاهما ناراً حتى يقضى بين الناس ثم يؤمر به الى النار .

وقال داود (ع) لابنه : « يا بني امش خلف الأسد والاسود ولا تمش خلف المرأة » .

وقالت فاطمة بنت رسول الله «ص» : ﴿ أصلح شيء للمرأة أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل ﴾ .

«١» سورة النور الآية ٢٩ - ٣٠ .

وقال العلاء بن زياد : « لا تتبع بصرك رداء المرأة فان النظر يزرع في القلوب شهوة » .

وقالت ام سلمة : « استأذن ابن ام مكتوم الأعمى على رسول الله «ص» وأنا وميمونة جالستان عنده فقال «ص» : احتجبا ، فقلنا : أو ليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال «ص» : « أفعميا وان انتما ألستما تبصرانه » .

ففي هذا دليل واضح على أن مجالسة الأعمى وتحديق النظر فيه لغير حاجة محرّم

قال الشاعر

كل الحوادث مبداها من النظر   ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها   في أعين الغيد موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ساء مهجته   لا مرحباً بانتفاع جاء بالضرر

ويقول شوقي

نظرة فابتسامة فسلام   فكلام فموعد فلقاء

وقال الآخر

لا تأمنن على النساء ولو أخا   ما في الرجال على النساء أمين
كل الرجال وإن تعفف جهده   لا بد أن بنظرة سيخون

وفضلاً عن ذلك فان من نظر الى امرأة نظر شهوة فكأنما زنى بها ، وهذا يعرف عند العلماء بزنا العين .

ثانياً اختلاط الرجال بالنساء والخلوة بهن فهي الداء العضال لكل مجتمع إنساني والسبب المباشر للزنا وكثرة اللقطاء من أولاد الزنا . فقد جاء في الأثر : ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، وقال «ص» : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » ، وقال أيضاً : « اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء » .

وإني أقول العفة حجاب يمزقه الاختلاط . وفي الآية الشريفة السالفة الذكر في غض البصر دليل كاف على عدم اختلاط الرجال بالنساء وتباعدهن عند الحضور معهم في المجتمعات وغيرها . ولذا حضر الاسلام على المرء أن يخلو بامرأة أجنبية حيث لا محرم لها بدليل قوله (ص) : (لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم) وقال أيضاً : ﴿ لأن يطعن أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل ﴾ .

كانت امرأة عربية من ذوات الخدر الرفيع والحجاب المنيع وقعت في حبائل الزنا فلما سئلت عن السبب في ذلك قالت : « قرب الوساد وكثرة السواد » تريد أن مخالطتها بخادمها وكثرة الكلام معه هما السبب المباشر في وقوعها في حمأة الزنا . وهل يعقل أن يجمع بين جسمين متجاذبين دون أن يلتقيا أو أن نلقي بهما في نار الشهوة دون أن يحترقا ؟ إن ذلك غير معقول .

وناهيك بما حصل بين الخدم وأسيادهن في بعض المنازل مما لا تحمد سيرته وعقباه ، وكثيراً ما نسمع بأن خادمة حملت سفاحاً من سيدها أو ابن سيدها وهذا نتيجة الاختلاط ولا شك .

ثالثاً مخالطة قرناء السوء ومروجي الفسق والفجور بما يفتخرون به أمامهن بما احلوا من أنواع الملذات التي لم يروها إلا في مخيلاتهم .

رابعاً تهتك النساء وتبرجهن وخروجهن يتبخترن في الشوارع والأسواق والمحال العامة سافرات الوجوه عاريات الذراعين والنهدين والساقين متعطرات بحالة تثير العواطف والشهوات وتهيج الشبان وتحرك الجامد وتفتن العابد وتعين على الفساد بين العباد .

قال رسول الله «ص» : « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية » .

وقال (ص) : « يا أيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فان بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبخترن » .

وقال «ص» : (إنما المرأة عورة فاذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها) . وقال «ص» : « ليس للنساء نصيب في الخروج إلا مضطرة » .

وقال علي (ع) على منبر الكوفة : « يا أهل الكوفة بلغني أن نساءكم يخرجن فيزاحمن العلوج في الأسواق أما تستحون أما تغارون » .

على أن الشرع المقدس قد صرح للنساء بالخروج في أحوال مخصوصة عند الضرورة كخروجهن للمسجد والحج وزيارة الوالدين وعيادة المرضى وتعزية الأقارب وغير ذلك بشروط مخصوصة . والمراد أن لا تكون النساء طوافات في الطرق والأسواق وبيوت الناس بدون ضرورة ، وهذا لا ينافي خروجهن لما فيه من مصلحة دينية ، وأن يخرجن لحاجتهن مع التستر وعدم الابتذال برضا أزواجهن .

قالت عائشة : (لو علم النبي (ص) ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج) فاذا كان هذا حال النساء في ذلك الوقت فكيف حالهن اليوم الذي كثرت فيه المفاسد والمخازي بفضل الحرية الواسعة والمدنية الحديثة والابتذال ، ولا رادع من حاكم ولا وازع من دين . اللهم الطف بعبادك فانك على ما تشاء قدير .

خامساً انتشار الخمور بين الجمهور في المقاهي والحانات بل وفي الدور والقصور وهي كما لا يخفى أُم الخبائث والشرور وداعية الفسق والفجور ولها علاقة متينة بالزنا بل هي من أكبر عوامل الزنا .

سادساً انتشار محال الرقص والغناء والتمثيل الهزلي الساقط ومسارح السينما فانها جميعها بؤر فساد تجمع أنواع الموبقات وتحرض على الشهوات وارتكاب المعاصي والمحرمات وانتشار الزنا بين العائلات .

سابعاً تدهور أخلاق الشبان بل والرجال وعدم تعليمهم الدين الصحيح الذي هو أساس الأخلاق بل هو الضابط الوحيد لحفظ الانسان من الشر والعدوان في كل زمان ومكان .

ثامناً مطالعة الكتب الروائية والروايات الغرامية التي وضعها مؤلفوها ليغتنموا من أميال الفتيان والفتيات ما يضمن لهم رواجاً فى سوق الفساد ، فان مطالعتها والوقوف على ما فيها من حوادث العشق والفسق والغرام مما يبعث فى نفوس الشبان والشابات الميل الى ارتكاب الفحشاء ويزين لهم الشيطان من خلالها حب الشهوات وارتكاب المحرمات .

تاسعاً فقد الحياء من النساء والغيرة من الرجال فهما الداعيان المباشران للزنا وبفقدهما ضاعت العفة واختلط الحابل بالنابل .

وقد جاء في الأثر انه : « إذا فقد الحياء من النساء والغيرة من الرجال فقل على الدنيا العفاء » . هذه هي أهم الأسباب الداعية لارتكاب جريمة الزنا .

وما دامت هذه الأسباب قائمة ومادام لا يوجد بين طبقات الامة وازع ديني ولا وازع خلقي ولا وازع قانوني فلا يمكن ـ والحالة هذه ـ منع هذا المرض الاجتماعي الخطير إلا بعد محاربته ومعالجته لان المرض لا يزول إلا بازالة أسبابه وعوامله

مضار الزنا من الوجهة الصحية

لو نظرنا الى هذا الفعل الفاضح من الوجهة الصحية لرأينا أنه يوجد فرق عظيم بين اجتماع الزوجين اجتماعاً طاهراً شريفاً يكون عماده الحب الطاهر المتبادل بينهما وبين اجتماع غير شريف تكون غايته قضاء الشهوة البهيمية فقط .

هذه حقيقة مسلّم بها لدى علماء حفظ الصحة حيث ثبت بالدليل العقلي والدليل العلمي الطبي أن الزوجة ترد لزوجها في مدة الحياة الزوجية بعض القوى التي يصرفها في اجتماعها بخلاف الشبان الذين يترددون على المومسات يخسرون

في كل مرة ما يتجدد فيهم من قوى الحيوية ثم لا يستردون شيئاً منها ولو يسيراً .

إنهم يظنون في تلك الساعة أو تلك الدقائق التي يأتون فيها الفاحشة أن لديهم فضل قوة تتدفق في عروقهم من ماء الحياة فينفقونها بغير حساب زاعمين أن الهياج الذي يدفعهم الى ارتكاب هـذا الاثم العظيم هو دليل على غليان الدم وعلى قوى تجددت فيهم ، ولكنهم لو تدبروا في الأمر لعلموا أن هذه الثورة كالنار المشتعلة في الهشيم لا تلبث أن تطفأ بمجرد صب كمية من الماء ولو قليلة أو بمجرد بصقة تلقى في مرحاض أو مبولة .

فلا يغتر الشبان أو الرجال بقوتهم المزعومة فما من غني مسرف إلا ولحقه الافلاس وخمدت منه الأنفاس وليعلموا أن الافراط في فعل الفاحشة يزداد خطره مع حداثة سن الباغي ، وكفى بسلوكه هذا المسلك مخالفة لسنة الطبيعة ونقضاً لعهد الانسانية وخروجاً عن حدود رب البرية . وأول ما يجني هذا الافراط على الزاني أن يهد أعضاء الشاب مع افتقارها الى قوى يتم بها كيانها ويكمل نماؤها .

إن من يدعي أن الزنا ضروري للشاب لأسباب صحية كتصريف الطبيعة كما يدعون خصوصاً لمن لا يستطيع الزواج فلا يمكنه أن يقيم دليلاً على ذلك . فكم من شاب أصبح أصفر الوجه واهي العزيمة كأنه مصاب بمرض السل وقد قال أحد الاطباء : « على الشاب أن يملك هواه الطبيعي أكثر من سائر الاهواء فانه أصعبها قياداً وأسرعها تقصيراً للأجل وأشدها خطراً على الحياة يقود صاحبه الى العناء والفناء ويبعد عنه الشفاء » .

ولو تدبر الشاب وعلم أن النساء البغايا يسلمن أنفسهن غالباً الى عدة رجال دون اختبار واحد منهم سليماً كان أو مصاباً بقصد الحصول على ماله ، لو تدبر ذلك وعرف نتيجة العلاقة الغير الشرعية بين البغايا وهؤلاء المجرمين لادرك الخطر الذي ينتج من هذا المرض الاجتماعي الوبيل واجتهد في الابتعاد عنه ابتعاد السليم من

الأجرب . هذا ولقد انتشرت الامراض الناجمة من جريمة الزنا انتشاراً مريعاً في جميع أقطار الارض لا سيما بين الشبيبة وهي تنحصر فى السيلان والزهري وملحقاتهما ، ونحن لا نريد أن نشرحها شرحاً طبياً في كتابنا هذا لانها تحتاج إلى كتاب أضخم ومجلد أوسع فضلا عن كونها من اختصاص كتب الطب فمن شاء العلم والاحاطة بها فليطلع عليها في كتب الامراض التناسلية ففيها الشرح الوافي والبيان الكافي . ونكتفي هنا بأن نقول :

إن هذه الامراض قدفشت ليس فقط في العراق بل وفي البلاد الاجنبية أيضاً حتى أنه اقيمت في « بروكسل » عاصمة بلاد البلجيك جمعية دولية لمحاربة هذه الامراض وايقاف سيلها الجارف وقد وافقت باجماع الآراء على ما اقترحه الدكتور (لسار) الالماني وهو أن يطلب الى أولياء الامور أن ينتهزوا الفرص لينبهوا الامة رجالها وشبانها الى الاخطار الداهمة المحدقة بهم من انتشار الزنا وما ينجم عن الامراض الزهرية من العواقب الوخيمة والمتاعب الجسيمة ، وأن الوسيلة الوحيدة لاتقاء العدوى هي عدم التعرض لها بمنع الشبان من ارتكابها .

علاج الزنا

زد على ما تقدم أن الابطاء في الزواج يزيد في كثرة الفتيات العانسات ويفوّت عليهن زمن نضارتهن وجني ثمارهن في إبانه وليس لهن القوة على مدافعة الشهوة كالرجال فتظفر بهن وتجرهن الى سلوك طريق الغواية الشيطانية والفساد ، وهناك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى من انتهاك حرمة الاعراض وتمزيق ثوب العفة والحياء . ويعجبني قول الشاعر في هذا المقام .

البنت إن تك في زمان صباها فسفينة أوقف شراع هواها
فاذا ازدهى فيها الشباب فروضة أحرزتها فاقطف لذيذ جناها
ولدى الكهولة فهي همّ ناصب حملته فاصبر على بلواها

ومثل الرجل المتزوج الصالح الطيب كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، ومثل الزاني الخبيث كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، وقد وصف الرسول (ص) العلاج الكافي الشافي لغير القادر على الزواج ، فقال : (من لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء) والصوم كما هو معلوم يكسر الشهوة ويقتل الميل والرغبة في النساء لانه يضعف البدن وينقص من الدم الذى يبعث الحرارة والقوة فتقتل بذلك دوافع الشهوة وتضمحل شدتها وقال أيضاً (ص) : « من تزوج فقد احرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني » . ولقد فطن بعض الدول الأجنبية الى ضرورة مكافحة الزنا وحمل الشبان على الزواج .

ويعالج الزنا أيضاً بالعفة وهي السلاح الذي به تدافع المرأة عن شرفها وكرامتها وهوعندها بمثابة القوة عند الرجل . والعفة فضيلة أدبية غايتها قمع الاهواء المختلفة التي تثيرها شهوات الجسد ، فاذا كانت المرأة عفيفة بطبعها وإرادتها استطاعت أن تقي نفسها طيش الاهواء وعمى الحب . هـذا وان شرف المرأة كشرف الرجل متعلق ـ كما لا يخفى ـ بطهارة العرض إلا أن شرف المرأة هو الاهم لشدة ارتباطها بالنوع . فشرف الفتاة في العفاف ، وشرف المرأة في وفائها لزوجها وعدم خيانته .

وخير موعظة لهن أن يرفضن بتاتاً كل اتصال غير شرعي بالرجل لحمله على الزواج الذي هو أكبر امتياز لهن بل هو فخرهن . وكل فتاة تشذ عن هذه القاعدة تعتبر خائنة لجميع جنسها ، فتطرد على الفور من البلد التي تقيم فيها وتبتعد كل امرأة عنها كما يبتعد السليم من الاجرب ، كما أنه يجب أن تعامل الزوجة إذا خانت زوجها بأقصى من ذلك لانها تكون قد اخلت بشروط الزوجية وأضرت بجميع النوع وبذلك تصير عظة لـكثير من الرجال وعبرة لمثيلاتها من النساء .

ومما تقدم يتضح أن العفة أمر ضروري للجنسين وبدونها يختل نظام الاسر

وتدنس الاعراض ، وتهاون الشباب في صيانة عفتهم في الصبا يحول دون صيانتها في الكبر كالوعاء إذا انشعب عسر اصلاحه وكالزجاج إذا كسر استحال جبره .

ولنضرب في المقام أمثلة في بيان فضيلة العفة عند الرجل والمرأة من قديم الزمن

عناية الفراعنة بعفاف المرأة

الزنا ــ وقاكم الله شره ــ كان منتشراً عند بعض الطوائف اليهودية الذين كانوا مهداً للجهر بفساد الأخلاق حتى حقت عليهم لعنة الله ولعنات الأنبياء واستوجبوا نقمة الله كما جاءت بذلك نصوص التوراة المتعددة ، ثم انتشر عند اليونان بافراطهم في محبة الجمال وتجاوزهم في ذلك حدود العقل حيث تفننوا في استهواء النساء لشهواتهم واستعانوا في ذلك بأناشيد وأغاني الشعراء التي كانوا يلقنونها للعاهرات تفانياً واسترسالاً في الاغواء . وبتمادي الوقت اقتدى بهم في ذلك فريق من الرومان الأشداء وتوسعوا في الأساليب حتى خصصوا له بعض الأماكن في أقسام معينة من مدائنهم ليكون فريق الملتحقين به آمناً من فريق الناقمين عليه .

وأما الفراعنة الأقدمون في مصر فكانوا بطبيعة الحياء والاحتشام يوجهون عنايتهم ويقظتهم الى المحافظة على الأخلاق القويمة حتى لا يتطرق الفساد الى الشعب إذا تهاونوا في هذه الوجهة . فكانت شعوبهم تدرك منهم اليقظة والغيرة في المحافظة على الآداب وفي اجتناب المعايب الأخلاقية وتدرك منهم العناية التامة بصيانة عفة النساء لأنهن أقرب الى التأثر إن لم تحفظهن عناية الحاكم من أي مساس يؤدي بهن الى السقوط في المهالك .

واشتهر « رعمسيس الثالث » أحد الملوك العظام بأنه كان يعد نفسه كجندي أو محام ويجاهر على الدوام بأنه يخصص كل عنايته ومجهوداته للاحتفاظ بعفة النساء وكرامتهن وغرس الاحتشام في نفوسهن حتى يكون سليقة متينة لا تتجاذبها الرياح بسهولة ، وكثيراً ما كان يصرح لرجاله وقواده في جميع الحفلات بأنه لا يبيح أن

تحس المرأة باضطهاد أو بامتهان وانه يفتخر باطمئنانها الأدبي في عهده فتذهب كيف شاءت وتجتاز الطرق الى المقاصد الشريفة والرغائب التي تستدعيها شؤون الحياة القويمة آمنة من أن تمس بسوء حتى ولو من عيون الطير المحلق في الهواء . فمن ذلك يتضح أن صلاح النساء متوقف على صلاح الرجال وأن فساد النساء يرجع الى فساد الرجال . وهذا هو رأيي ولا زلت أكرر وأقول « إذا عف الرجل لم تجد المرأة من يزني بها » . فانقشوا هذه الجملة الذهبية على صفحات قلوبكم بقلم من نور اليقين والحق لتهديكم الى الصراط المستقيم وتحفظكم من غواية الشياطين الضالين .

كان للمرأة بهذه العناية عز القومية وشمم الاباء ووقار الصيانة ، بينما كانت النساء في الشعوب الاخرى يحجر عليها في الخدور ويستبد بها الآباء والأقارب كما كان يستعبدها الزوج ويقسوا عليها أبناؤها بعد موته كأنها من متاع البيت وأجزاء المواريث أو بعض الدواب المحصورة في محتويات التركة غير متمتعة بشيء من حقوقها الشرعية ، فكان في هذا الافتخار الأتم بتهذيب البنات وتعليمهن علماً نافعاً شاملاً للآداب والعقائد الدينية ، ويهيئها لأن تكون ربة بيت تديره بالخبرة والأمانة والعطف على بيتها وحسن المعاشرة بين اسرتها وإحكام الالفة بينها وبين زوجها ، فتزداد رابطتها متانة وقوة بتقادم العهد لتشبعها منذ صباها بالتعاليم القويمة ووجودها في بيئة صالحة تذكرها دائماً بالاعتدال والتمسك بأهداب العفة والكمال . فلهذا نشأت المرأة على فضيلة العفاف والتقوى والأمانة والميل الى الخيرات والمبادىء الصحيحة يؤلمها أن تقع في عصمة زوج غير عفيف وغير متصل مثلها بهذه الصفات ولا تسمح لها كرامتها بتدنيس جسمها أو تلويث تاريخها بشيء من المحرمات والمنكرات

ومن نظر الى حالتها الآن يأسف ويبكي على ما وصلت اليه من الانحطاط الأدبي والديني . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حديث حرمة وطء الحائض

قال رسول الله ﴿ص﴾ : « الحائض يتجنب منها زوجها مكان الدم وله ما وراءه .

من الاشياء التي حرمها الرسول محمد (ص) - كذلك - للوقاية من الامراض وطء الحائض . وقد اكتشف الطب حديثاً فلسفة تحريم وطء الحائض . ذلك ان افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد الهضم أو التناسل ، أو افرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم ، وهذا النوع ضروري للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب طرده من الجسم الى الخارج وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض . . . الخ .

وهذا الحديث معجزة علمية للاسلام لأنه علّم الانسان قبل أن يعرف شيئاً من أنواع الافرازات ان المحيض أذىً وانه لا يفيد الجسم . وقد منع الطب مخالطة المرأة في زمن الحيض لأنه ضار بالزوج والزوجة كليهما . فهذا الدم الفاسد يحوي ميكروبات عديدة وجراثيم متنوعة لا تلبث أن تصيب الرجل فتحدث له الالتهابات كما أنه في زمن المحيض تحتقن أغشية المرأة الداخلية وفي المخالطة قد يحدث لها التمزيق فتنشر العدوى من المكروبات الموجودة وتنتقل من مكان الرحم الى أمكنة أبعد مما يؤثر في صحة المرأة ويضرها ، كما أن الاختلاط ربما منع نزول الحيض كما يسبب كثيراً من الاضطراب العصبي . فانظر أيها القارىء كيف يسير الطب خلف الدين الاسلامي مهتدياً بهديه .

في الصوم

قال رسول الله (ص) : « الصوم جنة » أي وقاية . كيف لا وهو حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات ، أما من الوجهة الطبية فانه يحفظ أعضاء

الجسم ظاهرها وباطنها من الامراض لأنه يحميها من التخليط الذي يضرها فضلاً عن أن نظام الأكل في وقتي الافطار والسحور لأكبر منشط للمعدة وواق لها من الادواء المختلفة .

واما من الوجهة الرياضية يكاد يكون خاصاً بالجهاز الهضمي وما يتعلق به من غدد وغيرها . وقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة ، فهو العلاج المستعمل للأمراض الآتية :

١ ـ اضطرابات الامعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والاخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي أنجع طريقة لتطهير الامعاء .

٢ ـ زيادة الوزن الناشيء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج ، مع الاعتدال وقت الافطار في الطعام والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ ـ زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ ـ البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الاولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى اقل من الحد الطبيعي فى حالات البول السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات فى اقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور « الانسولين » ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل(الانسولين) غيرالصيام

٥ ـ التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ ـ أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ ـ التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن كما يحصل عند النساء غالباً بعد سن الاربعين ...

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الامراض وخصوصاً الامراض التي مرّ ذكرها ... وهذه الامراض كلها تبتدىء في الانسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض . ومن المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الامراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور اعراض المرض بوضوح ، وقد ظهر باحصاءآت لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكري وزيادة ضغط الدم الذاتي والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

في آداب الأكل

قال رسول الله «ص» : « لا آكل وأنا متكىء » . عند علماء اللغة كل من استوى قاعداً متمكناً . ويكون معنى الحديث أنه «ص» إذا أكل لم يجلس متمكناً كمن يريد الاستكثار من الطعام بل لا يأكل إلا ما يقتات به .

وعامة الناس تعرف المتكىء بمن مال في قعوده على أحد جانبيه ، فيكون المعنى إذا مال الانسان وقت الأكل لا يسهل انحدار الطعام في مجاريه ولا يسيغه هنيئاً .

كان بعض أصحاب رسول الله «ص» لا يأكل حتى يؤتى له بمسكين يأكل معه ، فأُتي يوماً برجل يأكل معه فأكل كثيراً فقال لخادمه لا تدخل هذا علي مرة

اخرى فقد سمعت رسول الله «ص» يقول : « المؤمن يأكل في معيّ واحـد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » .

يشير الى أن المؤمن من شأنه الزهد في الدنيا والاكتفاء بما يسدّ رمقه ويبلغ مقاصد الحياة فكأنه يأكل في معي واحد . أما الكافر فانه لشرهه ونزوعـه الى الاستئثار وحرصه على الاستكثار فكأنه يأكل في سبعة أمعاء . فكمال الايمان حاجز عن مجاراة الكافر في تكالبه على حطام الدنيـا ، فهو بلا ريب وصف يتنزه عنه المؤمنون ويعافه المقربون قال تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . وقال عز وجل « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان ولا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » وهذا لعمري هو المبدأ الأساسي لعلم قانون الصحة .

في النظافة

سأورد هنا بعض الأحاديث الشريفة الحاثة على النظافة شارحاً حكمتها والنظافة ـ كما تعلمون ـ عماد الصحة وعنوان الرقي ، كما أن القذارة مطية الامراض وعلامة الانحطاط . قال رسول الله «ص» : « حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده » . ولا شك أن الاغتسال من ضروريات الحياة لأن الغرض منه إزالة ما يعلق بالجسم من الافرازات الجلدية والمواد الدهنية التي تمتزج بغبار الهواء وتلتصق بالبدن فتمنع التنفس الجلدي ، وإماطة تلك الاوساخ تجعل الانسان بمأمن تام من الامراض الجلدية ، بل وفي حصن منيع من العدوى بأي وباء لأن الادران هي محط رحال الجراثيم سواء كانت بنفسها أم بنقل الذباب لها . ومن فوائد الطهارة أيضاً انها تنعش الجسم فأيكم لا يشعر بالنشاط بعدها .

ولغسل كل عضو فائدة خاصة به وبمجموعها تتم الفائدة للجسم كله ، فمن ذا

الذي ينكر أن نظافة العين أس جمالها وسلامتها من الامراض التي قد تفقدها غالي البصر . أو من ذا الذي يجادل في أن نظافة الانف وقاية ضد أمراضه وأمراض التنفس ؟ كما أن نظافة الفم تساعد على انتظام عملية الهضم وتمنع أمراض المعدة والامعاء . ومن ذلك تظهر الحكمة في النص الاخير للحديث : « يغسل فيه رأسه » وأيضاً السبب في فرض الوضوء عدة مرات يومياً ، والوضوء نظافة لأعضاء الجسم الرئيسية .

لهذا ولان المجتمعات العامة كصلاة الجمعة تقتضي النظافة التامة ، فقد طالب المرشد الحكيم «ص» في هذا الحديث بالاغتسال بنوع من التأكيد .

وقال المولى جل وعلا : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » فقرن سبحانه وتعالى المتطهرين بحبه وخصهم بذلك الفضل الكبير إعلاءاً للنظافة وتعظيماً لشأنها ليقبل الناس عليها .

فعليكم بالنظافة امتثالا لأمر دينكم الحنيف وقياماً بواجب المحافظة على الصحة التي هي أثمن مرتجى .

وقال رسول الله «ص» : « الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم وأن يستن وأن يمس طيباً إن وجد » . أما الغسل فقد سبق الكلام عليه ، وأما مس الطيب فقد قرن بشرط الوجود للتسهيل والتيسير ، وأما الاستنان فهو دلك الأسنان بالسواك وفيه قال رسول الله «ص» : أيضاً « لولا أن أشق على امتي لأمرتهم بالسواك بعد كل صلاة » .

والسواك عود من خشب شجر الاراك له ألياف دقيقة تستعمل لتنظيف الأسنان من فضلات الطعام التي تسبب العفونة والتسويس ، فيتسنى للأسنان على الدوام أداء وظيفتها التي خلقت لها من المضغ واسالة اللعاب فتبتدىء عملية الهضم بانتظام ، ويمنح الفم أيضاً نكهة طيبة . ولو نظرنا اليه من الناحية الطبية لوجدنا هذا

النبات يتكون كيمائياً من ألياف السيليلوز و بعض الزيوت الطيارة ، و به راتنج عطري وأملاح معدنية أهمها « كلوريد الصوديوم » وهو ملح الطعام وكلورين البوتاسيوم و (اكسالات الجير) .

فالسواك فرشات طبيعية زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية تساعـد على تنظيف الاسنان . فنرى النبي (ص) وأصحابه قد استعملوا فرشات الاسنان الطبيعية منذ قرون حينما استعمل الناس الفرشات لتنظيف أسنانهم لأول مرة حوالي سنة « ١٨٠٠ » م . هذا وإن الانسان إذا أهمل تنظيف أسنانه سرى فيها الفساد والتسوس وأفرزت السموم التي يمتصها الجسم وتسبب أمراضاً كثيرة » . ذكرنا هـذه النبذة عن السواك هنا استطراداً لتعلقها بالغرض وإلا فقد أسهبنا البحث عنه في الموضوع المتقدم تحت عنوان (الطب وأثره فى الاسلام) فلاحاجة لاعادة ذكره

قال الدكتور الحاج أحمد عارف الوديني في مدح السواك :

ومن السواك أجل غنم يجتنى — لمن استقر به عضال الداء
تنقى به الاسنان من ادرانها — إن السواك لها أجل نقاء
وبه شذاً يغدو به الفم عاطراً — كالزهر وسط الروضة الغناء
وتزيل عنها مادة حجرية — كانت بها كالصخرة الصماء
لو لا المشقة كان فرضاً لازماً — اكرم بها من شرعة سمحاء

ويذكرني استعمال السواك بما حصل للعرب في فتح مصر كما هو مـدون في التاريخ . لما حاصر المسلمون الاسكندرية مدة طويلة واستعصى عليهم دخولها كتب عمرو بن العاص يستشير عمر بن الخطاب في الامر ، فرد عليه قائلا لعلكم تركتم احـدى السنن فتبصروا في الامر فوجدوا أنهم لا يستاكون فاستاكوا فجاءهم الفتح المبين وألقى الله الرعب والفزع في قلوب أعدائهم فسلموا اليهم صاغرين .

ولننتقل الى قوله «ص» : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الاناء ، وإذا

أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه ولا يتمسح بيمينه » .

النهي عن التنفس فى إناء الشرب للمبالغة في النظافة إذ قد يخرج مع النفس في الزفير ما يخالط الشراب من اللعاب أو من غاز ثاني اكسيد الكربون الذي هو سم مضن للجسم . رربما يغص الشارب عند تنفسه لامتزاج النفس والشراب وعدم وجود الهواء الكافي لعملية التنفس .

وكذلك كانت عادته «ص» في شرب الماء ، فانه كان إذا شرب تنفس ثلاثاً بأن يبين الاناء عن فمه ثم يتنفس خارجه ثم يعود ، فان ذلك أروى وأمرأ وأبرأ . نعم إن ذلك أقمع للعطش وأقوى على الهضم وأجل أثراً في تبريد المعدة وأضعاف الأعصاب .

وأما القسم الثاني من الحديث فيفهم منه وقت قضاء الحاجة اجتناب استعمال اليد اليمنى تشريفاً لها وصوناً عما به أذى ، إذ بها نتناول الطعام ونصافح الأحباب فهي جديرة بالعناية في المحافظة على نظافتها .

* * *

قال رسول الله (ص) : « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله ثلاثاً اولاهن بالتراب » . والمبالغة في الغسل من الوجهة الصحية لأنه ثبت بالفحص أن لعاب الكلب يحتوي على جراثيم ـ ميكروبات ـ لو امتزجت بما في الاناء من شراب أو طعام ووصلت الى باطن الانسان لتولد منها نوع من الديدان أو نجم عنها أحياناً داء الكلب والحكمة في استعمال التراب لأن مواده تحتوي على « النشادر » التي تبيد تلك الجراثيم وتستأصلها .

ألا تعلمون أن « النشادر » إذا دهن بها مكان لدغ العقرب سلم المصاب به من التسمم . ولنفس السبب يستعمل الفلاحون الطين يلطخون به موضع لدغ النحلة وغيرها .

الـكلاب وأخطارها

قليل من الناس الذين يعرفون الأخطار التي تتعرض لها حياة الانسان من مساكنة الحيوانات الأليفة التي اعتادت عليه فأمن لها وأمنت له . والواقع الذي لا شك فيه هو أن ثلاثة أرباع الأمراض الخبيثة التي يصاب بها الانسان تنشأ في جسمه من المكروبات القتالة التي تندس فيه من كلب أو سنور أو غيرهما من الحيوانات التي يقترب منها وتقترب منه .

وقد أدركت الحكومات الراقية ما شرعه الاسلام وأوضحه من أخطارهذه الحيوانات فحذرت الانسان منها وعلمته كيف يتقي أخطارها بقدر الامكان إن لم يستطع الاستغناء عنها تماماً . وقد قرأنا في المجلات والصحف مرات عديدة أن على جدران الدوائر العمومية في اوربا وأميركا صور الحيوانات الأليفة وقد كتب فوقها بخط عريض عبارات التحذير منها والابتعاد عنها ووصفها بكونها ألد أعداء الانسان

وبلغ جهل أخطار هذه الحيوانات في الناس أنهم يسمحون لها — لا سيما للكلاب والقطط — بالنوم في أسرتهم وبجانب أولادهم جاهلين أنهم بهذا العمل يضعون الموت بجانب أولادهم بما تنفثه هذه الحيوانات في وجوههم من المكروبات القتالة ربما يسري الى جسوم الأولاد من جسوم الحيوانات من الاوبئة الجلدية كالجرب وغيره بواسطة الاحتكاك وانتقال جراثيم الامراض السريعة العدوى . وأشد الحيوانات الأليفة خطراً على الانسان هي الكلاب والقطط . وبحثنا هذا بنوع خاص في الكلاب وأخطارها وقد أخذنا هذه المعلومات الصحية عن اختبارات كبار رجال علم الطب في العالم الراقي الاميركي بعد أن ارتشفناها من نور الاسلام ، وهي ولا شك معجزة علمية للاسلام سبق بها الطب الحديث الذي اثبت أن الكلاب تنقل كثيراً من الامراض الى الانسان .

وإذا استصعب الانسان الحياة بدون كلب في بيته مثلاً . فليعلم أن حياته

أثمن وأنفع له ولغيره من حياة كلب . ومن الجهل الفاضح أن يعرض الانسان حياته وحياة عائلته لخطر الموت من أجل سلواه بمعاشرة كلب أو أي حيوان آخر

للكلاب مرض خاص خبيث اسمه مرض الدود ، فان الدود الصغير سريع النمو وكثير العدد في الكلاب ، وينشأ فيها من أكل الهوام والحشرات كالبراغيث والعث والعناكب والذباب . وهذه الهوام كلها سموم وجراثيم ، أوبئة خبيثة محمولة من الاقذار والجيف المنتنة التي تتغذى بها أحياناً كثيرة . وبرغوث واحد يأكله كلب كاف لاملاء جسمه كله بمكروبات هذا المرض الخبيث ولجعل أمعائه وكل أعضائه الداخلية تعج بالدود الصغير الذي قلما يزول إلا بموت الكلب ودفنه في مكان لا تصل اليه بقية الحيوانات .

والكلب المصاب بمرض الجراثيم الدودية يعدي سواه حتى بأنفاسه ، والناس عادة يقبلون الكلب في وجهه وفمه ويسمحون له بتقبيلهم ولحس وجوههم ووجوه صغارهم ، ومنهم من يطعمه بيده ويدخل أصابعه الى فمه ويسمح له بالنوم في فراشه غير عالم بأنه يعرض نفسه للموت السريع بهذا العمل الفظيع القذر .

ولو أن الحكومات تأمر الناس بالابتعاد عن الكلاب وتمنع تربيتها وتقتلها كما تفعل فى أحيان اشتباهها بمرض الكلب فيها لأحسنت صنعاً وتوفر عليها وعلى شعبها أهم أسباب الموت الذي يجهل الناس أسبابه وزادت في رفاهيته وسعادته ، لأن السعادة تنتج أو ينتج أهم أسبابها من حسن الصحة العمومية وبُعد الناس عن الامراض

إن للأمراض الخبيثة في الكلاب اعراضاً لا تخفى على الناظر ، ولكن من الأمراض الخبيثة ما لا إعراض لها في بدايتها ولا يشتبه بها أحد ، فتعدي أسيادها بدون أن يشعروا وقبل ظهور الاعراض عليها . ولهذا سواء ظهرت اعراض المرض في الكلب أو لم تظهر فخير لنا إبعاده عنا إذ لا فائدة لنا منه . والرجل الذي لا يستطيع أن يحرس مواشيه أو بيته بنفسه فماذا تفيده الكلاب ؟ وإذا استغنى

الانسان عن الكلب يتحول قسم كبير من عناية الكلب وانتباهه اليه بدلاً من أن يتكل في كل شأن وعمل على كلبه .

واعراض المرض في الكلب أنه يصاب باسهال دائم وضعف عزيمة وخوار وفقد شهية الأكل وسوء هضم وفقد النعومة في الشعر .

وأجربة الكلاب التي تصاب بهذه الأمراض تصاب باضطرابات وضيق نفس وحك جلدها وتركض من مكان الى آخر باضطراب وتصرخ بدون داع من الألم وأهم نقل هذه الأمراض الى الانسان : أكل اللحوم غير الناضجة على النار لا سيما لحوم الخنازير التي تعيش على الأقذار والاوساخ والحشرات ، وجراثيم الدود تنتقل من الكلب الى الخنزير والانسان بسهولة وسرعة غريبتين ، وتدخل الى الانسان من فمه ومن عينيه بواسطة أنفاس الكلب ، ومتى تكاثرت تتجمع في الامعاء .

وقد صُورت هذه الجراثيم في أمعاء كلب فوجدوها تبيض بيوضاً صغيرة لا تكاد تُرى بالعين المجردة ويبلغ مجموعها أكثر من ٤٠ مليون بيضه كلها تنقف وتتوالد وتكبر وتنمو حتى تقتل الجسم كله .

وللكلاب أيضاً مرض اسمه مرض الجرب وهو مشهور ينتج عن وفرة الاقذار والمكروبات على جسمه ، وتغلغل البراغيث والبق الجربي فيه . وهذا ما يشاهد كثيراً في الكلاب . فاذا أُصيب الكلب بمرض الجرب فقتله يقي العائلة كلها من عدوى هذا المرض وجراثيمه المنقولة عنه بواسطة البراغيث والبق والبرغش والقمل

وللجرب جراثيم تتولد على سطح الجسم فتأكله وتسقط عنه الشعر وتفسده وتدخل الى داخله فتقتله .

أما الادوية المستعملة لشفاء الكلاب من أمراض الدود فكثيرة منها المسهلات القاتلة لجراثيم الدود . وعندنا أن أفضل دواء لشفاء الكلب من أمراضه ومنع سريان المرض الى سائر أفراد العائلة هو قتله أو إبعاده عن البيت الى حيث يموت

وحده وتموت معه كل جراثيم مرضه .

وإننا ندهش من الانسان الذي يعرف شدة أخطار الكلاب والقطط والخنازير عليه وعلى أفراد عائلته كيف يسمح لها أو لنفسه - بعد أن يعرف ذلك - أن تقترب منه أو يقترب منها وهو المعروف بأنه الحيوان الراقي الذي يمتاز عن أخيه الحيوان المنحط بسعة العقل والادراك والانتباه والحذر ، وإن لم يكن كذلك يفقد كل حق يدعيه للتفوق على الحيوان الذي يدب على أربع .

جاء في مجلة « كوسموس » الالمانية تحت عنوان « الاخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها » للدكتور « جرار فنتسمر » قوله : « إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الاخير يضطرنا الى لفت الانظار للاخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها وتركها تلعقها فضلات الطعام من اوانيها » .

« فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب لا يتفق وقوانين الصحة . فان الاخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان به ، فان الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها الى الانسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى العدوان على حياته » . وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجماً لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية .

وأثبت الدكتور (نوللر) من تشريح الجثث بألمانيا أن الاصابات الآدمية بقروح دودة الكلاب قد لا تقل عن واحد فى كل مائة . « وقد رؤي في اقليم « فريزلند » بهولندة حيث تستخدم الكلاب في الجر أن فى كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد في « اسلانده » شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصاً من أهاليها ، وشوهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا إذ ثبت وجود شخص يصاب بها في كل ٣٩ شخصاً من سكانها ، وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشراً لكثير من

الامراض في الاقطار الاخرى » .

« لذلك فيجب العناية بأمر الذبائح المنزلية فقد تكون مصابة بدودة الكلاب ولا يعرفها صاحبها ولا القصاب المكلف بذبحها » . ثم يقول : « ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب وتعويد الاطفال التوقي منها ، فلا تترك تلعق أيديهم ، ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحال نزهة الاطفال وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الاواني المعدة لأكل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة أو المطاعم ، وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ما له صلة بمأكل الانسان ومشربه .

* * *

قال رسول الله (ص) : « الفطرة خمس . الختان . والاستحداد . وقص الشارب . وتقليم الاظفار . ونتف الابط » .

المراد بالفطرة السنة التي اتبعها الانبياء واتفقت عليها الشرايع فكأنهم جبلوا وفطروا عليها . والاستحداد استعمال الحديدة أي الموسي في حلق العانة . وفي التعبير به عن هذا المعنى مثال ناطق عن الادب والحياء وسلامة الذوق . وإذا تصفحنا هذا الحديث الشريف وجدناه جامعاً لكثير من وسائل تنظيف الجسم التي يتطلبها الاسلام من جميع نواحيها خفيها وظاهرها ، ووجدناه هادياً لما فيه منتهى كمال الانسان المميز عن الحيوان بالعقل ، فلو انك فحصت حشفة مختون وقت قطعها لرأيتها ملأى بيابس القاذورات التي لو بقيت وتراكمت لسببت ألماً لصاحبها ، وربما تعوق مجرى البول أو تحدث به جروحاً . وفوائد باقي ما ذكر ظاهرة الحديث الآتي آخر ما أورده لكم في باب النظافة والمحافظة على الصحة والآداب العامة .

قال «ص» : « لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه » . الأصل في مشروعية النظافة إزالة الأقذار من الجسم فهل يليق بالعاقل

أن يستعمل في اغتساله ماء تكدر بامتزاجه بالبول فيضيف النجس الى أرجاسه بدلاً من المتخلى عنها . فضلاً عن أن الاغتسال بالماء المبال فيه الموجود في حوض مثلا ينتج كثيراً من الامراض الجلدية وغيرها ، لأن ذلك الوسط القذر مرتع خصب للجراثيم ومكان صالح لنموها زيادة عما به من كريه الرائحة وما يحصل للمغتسل فيه من الفتور والهبوط .

ألا تعلمون أن الحكة (الجرب) وكذلك البول الدموي (البلهارزيا) المنتشر في بلادنا نتائج ملموسة لاستعمال الماء القذر الملوث . فلو اننا اتبعنا أمر الرسول صلى الله عليه وآله وتباعدنا عما نهانا عنه لتمتعنا بالصحة وسلمنا من غائلة المرض .

* * *

والآن لنتكلم عن قوله (ص) « لا عدوى ولا طيرة . ولا صفر . وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد » .

المراد به نفي ما كانت تعتقده الجاهلية من أن الامراض بطبعها لا بفعل الله تعالى . فنفى في أول الحديث العدوى بطبعها ونبه في آخره الى الاحتياط مما يحصل منه الضرر بفعل الله وإرادته .

والطيرة التشؤم والاستبشار برؤية الشيء والاعتقاد أن لذلك تأثيراً في القضاء والقدر . وكانت العرب في الجاهلية تنفر الطيور فان سارت جهة اليمين تبركوا ومضوا في سفرهم . وإن أخذت ذات الشمال تشاءموا ورجعوا عن قصدهم فكانت تصدهم في كثير من الاوقات عن مصالحهم . وذكرت الطيرة عند رسول الله «ص» فقال : (أحسنها الفأل ولا يرد مسلماً . فاذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت . ولا حول ولا قوة إلا بك .

وقوله «ص» : « ولا هامة » فيه تأويلان أحدهما التشاؤم إذا سقطت البومة على دار أحدهم زاعمين أنها بذلك تنعي موته أو بعض أهله . والتفسير الثاني أن

العرب كانت تعتقد أن عظام الميت أو روحه تنقلب هامة يطير فيفزع القوم لرؤيتها كأنهم يرون شبح ميت .

وأحسن تفسير قرأته لقوله «ص» : « لاصفر » ان الجاهلية كانت تزعم أن في البطن دابة تهيج عند الجوع وربما قتلت صاحبها ، وأنها تنتقل بالعدوى من شخص الى آخر ، وجاء عن جابر وهو راوي الحديث ، وقيل أنه شهر صفر وكانوا يتشأمون بدخوله ولا يحاربون فيه متوهمين أن فيه تكثر الفتن فأبان (ص) خلال الجاهلية وفساد معتقداتها وبطلان عاداتها . الجذام مرض معد ، وتظهر اعراضه غالباً على الجلد وفي الأغشية المخاطية ويوجد ميكروبه في افرازات قروحه .

قال بعض الأطباء ان الجذام ينشأ عن أكل السمك غير الجيد ولا تبدو أعراضه إلا بعد التعرض للعدوى بشهور ، فيصاب المريض بحمى مترددة تظهر بعدها بقع حمراء مرتفعة قليلا ثم يزداد حجمها ، وأكثر ما تحدث هـذه الارتفاعات في الوجه فتشوهـه وتجعله يشابه ملامح الأسد ، ثم يصاب المريض بمضاعفات مختلفة لنتيجة التعفن وتسبب الوفاة وقد يعيش المريض طويلا .

وهناك نوع آخر من الجـذام قد يؤدي الى شلل بعض الأعصاب وتنقيص عضلات اليد وتصير كمخلب الأسد . ومن ذلك يعلم حسن الاختيار للتشبيه في الحديث فكأن المجذوم يشبه الأسد في الخطر وفي الشكل أيضاً . وحمل الأمر باجتناب المجذوم والفرار منه على الاستحباب والاحتياط لا للوجوب . فقد ورد عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله أكل مع المجذوم .

قال رسول الله «ص» : « الطاعون رجز ارسل على طائفة من بني إسرائيل ـ أو كان على من كان قبلكم ـ فاذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

الطاعون ـ نعوذ بالله منه ـ وباء يفسد الهواء فيفني خلق كثير ، وهو ثلاثة

أنواع ، أكثرها شيوعاً المسمى بالدملي . وأعراضه فتور وصداع وألم في الظهر ثم يظهر ورم في الفخذ أو الابط أو العنق ، وقد تظهر قروح في بعض البدن ، ثم تنتشر في سائر أجزائه ، فيتكدر ما حول الورم باحمرار في اللون مائل الى السواد ويحصل معه خفقان القلب والقيء ، وقلما ينجو المصاب به .

ولم ينه «ص» عن الدخول على الطاعون والخروج منه مخافة أن يصيب الشخص غير المقدور ولكن مخافة الفتنة على الناس لئلا يظنوا أن هلاك القادم إنما حصل بقدومه وسلامة الفار إنما كانت بهروبه . فانكل ما يقع لا يكون إلا بقضاء الله وقدره السابق في علمه .

ولو علمت اوربا بهذا القانون الذي وضعه محمد (ص) وعملت به حين اجتاحها الطاعون في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لخفت حينئذ الخسائر التي منيت بها في الأرواح . فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بـ « ٢٥ » مليون نسمة .

وكان سبب انتشار المرض نقل التتار له الى جنوب روسيا سنة (١٣٤٦) م وبدأ ينتشر حتى سنة (١٣٧٠) م ـ سنة (١٣٧٤) م فبينما كان الطاعون يجتاح اوربا نفذّت ميلانو والبندقية بعض قوانين صارمة نقلتها بعد ذلك جمهورية (راجوسا) وهذبتها فأنشأت المآوي بعيداً عن المدينة ليقيم فيها القادمون المشتبه فيهم ، ليبقوا معزولين لمدة ٣٠ يوماً ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت ٤٠ يوماً .

العين والرقية

يعتقد بعض الناس أن مسألة العين وهمٌ بعيد عن الحقيقة وهذا اعتقاد فاسد لأن الأرواح خلقت فيها قوى وطبائع مختلفة وتأثيرها في الأجسام أمر مشاهد . ألست ترى احمرار وجه الرجل إذا صوبت اليه نظرة ممن هو أعلى منه مقاماً ؟ ، واصفراره عند نظر من يخافه ، ومهما تذرع المجرم برباطة الجأش فسرعان ما يظهر

على محياه من علامات الاضطرار ما ينم على فعلته إذا فوجيء بمواجهة غريمه الى غير ذلك من الامثال التي تثبت تأثير الأرواح عند ما تتكيف النفس الرديئة برؤية ما تستحسنه لخبث جوهرها متخذة العين وسيلة لتنفيذ سيء اغراضها .

ولذلك أمر المولى سبحانه وتعالى رسوله الأمين أن يستعيذ به من شر الحاسد وقال «ص» : « العين حق » ، المراد به أن إصابة النفس عن طريق العين أمر قضت به الارادة الالهية بتحقيق لا يليق الظن ببطلانه مع العلم أن كل شيء متوقف في حصوله على مشيئة الله تعالى : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » .

وقال «ص» : حين رأى جارية بوجهها سفعة في بيت ام سلمة : « استرقوا لها فان بها النظرة » .

السفعة صفرة في الوجه مائلة الى الاحمرار ، وقيل مس من الشيطان . ومعنى الحديث اطلبوا لها من يرقيها فان العين أصابتها .

والمطلوب من الرقية ما كانت من كتاب الله تعالى أو أسمائه الحسنى أو صفاته المنزهة ، أو ما ورد على لسان المصطفى أو الأئمة الأطهار سلام الله عليهم أجمعين . كان «ص» إذا اشتكى رقاه جبرئيل فقال : (باسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد وشر كل ذي عين) . وشكى عثمان بن أبي العاص الثقفي وجعاً في جسده الى رسول الله «ص» فقال له «ص» : (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد واحاذر) . وكان «ص» إذا أتى مريضاً قال : « أذهب البأس رب الناس . اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك . شفاء لا يغادر سقما » .

الحث على العلاج

قال «ص» : « ما أنزل الله داءاً إلا أنزل له شفاءاً » حتى لا يتوانى مريض عن مداواة نفسه مهما اشتد به المرض ، وعليه أن يأخذ بالأسباب محسنا الظن بالمسبب

الحقيقي وأن الذي خلقه وسواه القادر على كشف ما به ابتلاه ، ويعزى عدم شفاء بعض المرضى الى واحد أو أكثر من الامور الآتية .

« أ » إزمان المرض باهمال علاجه في بدء ظهوره .

« ب » التهاون في اتباع ارشادات الطبيب خصوصاً في الغذاء ومواعيد الدواء

« ج » خطأ الطبيب في تشخيص الداء أو اختيار الدواء .

« د » قرب انتهاء العمر ودنو الأجل .

يقول ابن الرومي :

والناس يلحون الطبيب وإنما   غلط الطبيب إصابة الأقدار

قال تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . وجاء عن جابر أن رسول الله (ص) قال : (لكل داء دواء فاذا أصاب دواء الداء برأ باذن الله تعالى ـ أصاب أي تحققت معرفته في الكيفية والكمية . ويؤخذ منه أن التداوي لا ينافي التوكل وإنما يعتقد الانسان أن الداء لا يشفي بذاته بل باذن الله تعالى وتقديره .

بعض طرق العلاج

قال «ص» : (الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء) . والاطباء يسلمون بصحة ذلك لأن أغلب أنواع الحميات يداوى صاحبها بسقي الماء البارد لما يحدثه من الانعاش وادرار البول وغسل الانسجة مما يتجمع فيها من الافرازات السامة ، وتغسل أطراف المحموم بالماء وتعمل له المكمات على جبهته أو حمام للجسم كله بالماء البارد

العلاج بالأدوية

كان رسول الله (ص) يداوي نفسه ويأمر بذلك لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه ، وقد كان غالب أدويته مفردة لا مركبة لأنه متى أمكن التداوي بالغذاء

فلا يعدل عنه الى الدواء ، ومتى أمكن بالبسيط فلا يعدل الى المركب ، ولا ينتفع بطب النبوة إلا من تلقاه بقبول حسن واعتقد الشفاء به ، ولكن الناس في هذه الايام أعرضوا عن طب النبوة اعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن وليس ذلك لقصور في الدواء ولكن لخبث الطباع ولهو القلوب عما ينفعها بانشغالها وتعلقها بامور الدنيا

المداواة بالعسل

عن أبي سعيد أن رجلاً أتى النبي «ص» فقال : « ان أخي يشتكي بطنه » فقال «ص» : ﴿ اسقه عسلاً ﴾ ، ثم أتاه الثانية فقال ﴿ص﴾ : ﴿ اسقه عسلا ﴾ ثم أتاه الثالثة فقال ﴿ص﴾ : ﴿ اسقه عسلا ﴾ ، ثم أتاه فقال : فعلت يا رسول الله ، ومازال فقال ﴿ص﴾ : ﴿ صدق الله وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلا ﴾ فسقاه فبرأ

فداوى الاسهال بالمسهل لطرد الاخلاط الفاسدة من المعدة والامعاء حسب اُصول الطب .

أليس الزحار « الدوسنتاريا » يعالج بمزيج كبريتات الصوديوم المسهل . ونلاحظ أنه لما تكرر استعمال الدواء قاوم الداء فأزاله . واعتبار كميات الأدوية وكيفياتها من أكبر قواعد الطب . والعسل المقصود في الحديث هو عسل النحل الذي يجمعه من الازهار ثم يضعه فيالخلايا التي يبنيها . وإذا ضربنا صفحاً عنالمواد المختلطة به كالشمع والمواد التي تكسب الرائحة والمواد الملونة فهو عبارة عن محلول أنواع من السكر أشهرها سكر العنب ﴿ الجلوكوز ﴾ وسكر القصب وسكر المن . والموجود منها بمقدار أكبر في العسل هو سكر العنب الذي يحترق في الدم كباقي أنواع السكر الى حمض « كربونيك وماء » . والكميات الكبيرة منه تزيد ضغط الدم والبول . وفي هذه الحالة ينفصل جزء من ﴿ الجلوكوز ﴾ على حالته بدون تغيير .

أما الآية الكريمة التي يعنيها صدر الحديث بقوله : ﴿ صدق الله ﴾ فهي قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما

يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ «١» .

العسل يقوي البدن ويحفظ الصحة ويسمن ويطرد البلغم لأنه يطهر ما بالرئة من أوساخ ، وإذا اخذ منه مقدار أوقيتين أحدث اسهالاً خفيفاً وغسل البطن فخرج ما في المعدة والامعاء من أذى ، وقيل إنه نافع للفالج وكل الأمراض الحادثة من الرطوبة لأنه يولد في الجسم حرارة . ويستعمل العسل سواغاً في تحضير بعض الأدوية مثل معسل بصل العنصل المفيد للسعال ، وأيضاً لتحلية الطعم وحفظ بعض المحضرات من الفساد كالغراغر ويستعمل من الظاهر مخلوطاً بالدقيق كلصقة الدمامل وأورام الغدد خصوصاً فى احتقان اللوز .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية القرآنية التي قررت أن (فيه شفاء للناس) مع أن كل أنواع الأغذية لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة . والجواب على ذلك : أن أنواع الغذاء الاخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الامراض الناشئة عن نقصها في الغذاء فقط . وهذه الفواكه التي تشبه العسل فى الطعم فان السكر الذي فيها هو سكر القصب أو أنواع اخرى ، ولكن ليس فيها إلا نسبة ضئيلة من « الجلوكوز » الذي هو أهم عناصر العسل . وان القرآن لم يذكره بطريق المصادفة ولكنه معجزة من معجزات القرآن التي قررها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً عند ما كان لا يعرف شيء عن مركبات العسل ولا أن الجلوكوز سيستعمل دواء لكثير من الامراض .

حديث الحجامة والعسل والكي

قال رسول الله «ص» : « إن كان في شيء من أدويتكم خير ففى شرطة محجم أو شربة من عسل أو لذعة بنار . وما أحب أن أكتوي » ، وفى رواية

«١» سورة النحل الآية ٦٨ - ٦٩ .

« أو لذعة بنار توافق الداء » . هذا تابع لاصول الطب لأن الامراض إما أن تكون دموية أو غير دموية . فان كانت من القسم الاول فشفاؤها إخراج الدم بالحجامة من جزء مناسب من الجسم مثل ابتداء الاصابة بالفالج أو ضغط الدم نتيجة امتلاء الشرايين به وما ينتج عنه من الاحتقان في المخ وغيره . وإن كان المرض غير دموي فعلاجه يكون باعطاء مسهل مثل العسل وقد تكلمت عن فوائده في الحديث السابق لأنه لايستعمل إلا عند عدم نفع الادوية المشروبة ونحوها فآخر الطب الكي

وقوله «ص» : « وما أحب أن أكتوي » إشارة الى تأخير العلاج بالكي حتى يضطر اليه لما فيه من استعمال الألم الشديد لطرد ألم قد يكون أقل من ألم الكي

حديث الحجامة والقسط

قال (ص) : ﴿ إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري ﴾ .

أمثل : أي أفضل ، والحجامة أنجع طرق العلاج للعرب وسكان المناطق الحارة لأن إخراج الدم الى ظاهر البدن يفيدهم كثيراً .

لقد استعرضنا حديث الحجامة في رسالة الامام الرضا «ع» فراجعه في مظانه

وأما القُسط

وأما القُسط فقد بحثت عنه في كتاب عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج وغيره من الكتب فعلمت أن للقسط فوائد قيمة ارتبها لكم ملخصة فيما يأتي :

أصل اسم القُسط سرياني نقل الى العربية وتنبت أكثر أنواعه في بلاد الهند وأحسنها المسمى بالعربي أو البحري ، والسبب في تسميته بالعربي . أن العرب هم الذين كانوا مختصين بالتجارة واستحضاره من بلاد الهند الى الاقطار الاخرى فسمي باسمهم . والسبب في تسميته بالبحري انه ينبت أيضاً في بعض جزر الهند التي يحفها البحر من جميع الجهات .

طعم القسط : حريف كالتوابل لاذع قليلا للسان مصحوب بمرارة وتحذير قليلين
الرائحة : عطرية تجمع بين رائحتي الزنجبيل والبنفسج .

استعماله وفوائده : كان القدماء يعتبرونه طارداً لجميع الجراثيم وبالأخص في الحميات ، ولذلك جعلوه في أغلب محضراتهم مثل الترياق وغيره ، ونظراً لرائحته الزكية استعمله الرومان واليونان والهنود فى تبخير معابدهم وهيا كلهم لتجميل رائحة الهواء وأيضاً لمنع عدوى الأمراض والأوبئة بين الجماهير المحتشدة للعبادة فى تلك الأماكن لأن فيه خاصية التطهير . ولكثرة منافعه اقسمها الى ثلاثة أقسام :

أولا : الاستعمال الباطني مقوّ عام وبالأخص للمعدة ، وإذا أغلي بالماء فانه يفيدالسيلان ويدر البول والطمث ، وإذا طبخ بالعسل المصفى « بعد نزع رغوته » فانه يطرد البلغم ويشفي ضيق النفس وأوجاع المعدة والكلى والكبد ، وقيل انه يفتت الحصاة وأيضاً يقوّي الباه .

ثانياً الاستعمال الظاهري : إذا ذر مسحوقه على الجروح جففها مع زيت الزيتون مروخاً ـ دهاناً بالتدليك ـ في أمراض الصدر وأمراض الرحم ومرض الفالج « الشلل » وعرق النساء ، ومعجونه بالخل والعسل والقطران يذهب الكلف والنمش ، وتقطير دهنه في الاذن يسكن ألمها ، ويحدث اجهاضاً للحامل إذا لبسته .

ثالثاً : استنشاق بخوره يقطع الرشح ويشفي الزكام ، ويسكن أوجاع المفاصل وللسبب الأخير تبخر به النفساء عند العرب .

وفي جمعه «ص» بين الحجامة والقسط سر لطيف لأنه إذا طلي به شرط الحجامة لم يتخلف في الجلد أثر لها ، ذلك الأثر الذي تنفر منه الطباع ويظن من رآه أنه بهق .

وقال «ص» : « عليكم بهذا العود الهندي فانه فيه سبعة أشفية . يسعط به من العذرة ، ويلد به من ذات الجنب .

المراد بالعود الهندي . القسط . ويلد : أي يأخذ باللديدين وهما جانبا الفم . أما السبعة الأشفية فقد ذكرت لكم فوائد القسط في الحديث السابق ولم يذكر منها في هذا الحديث سوى اثنتين . ولعل اختصاراً من الراوي أو لوجود هذين المرضين وقتئذ دون غيرها . والسعوط ما يسمى عند العامة « بالنشوق » والعذرة وجع في الحلق تتأذى منه اللوزتان .

ذكر مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله «ص» دخل على عائشة وعندها صبي يسيل أنفه فقال : ما هذا ؟ قالوا : انها العذرة ، فأمر (ص) له بالقسط يحك ويسعط به ففعلوا فشفي .

أما مرض ذات الجنب فهو نوعان حقيقي : وهو ما يسمى بالالتهاب البلوري ، وغير حقيقي : وهو الألم الذي يكون في الجانبين أو أحدهما من الخارج أو مايسميه الأطباء آلاماً روماتيزمية في العضلات .

وفي كتب الطب القديمة : أن العلاج في الحديث الشريف بالقسط إنما هو للنوع الثاني إذا خلط بالزيت ودلك به أو أخذ لعوقاً كان أنفع شيء في ذلك .

حديث الحبة السوداء

قال رسول الله (ص) : (إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام) السام : المرض الذي يكون فيه هلاك الجسم وهو الموت ، كما أن السم إذا احتساه امرؤ هلك . وذكر أغلب المحدثين في تفسير هذا الحديث ان المراد من كل داء بارد فالعموم نوعي . والله ورسوله أعلم .

بقي علي أن أذكر شيئاً عن الحبة السوداء فأقول : اسمها أيضاً شونيز أو حبة البركة ، وهي معروفة ذات رائحة خاصة وطعم حريف عطري ، وتنبت في بلاد فارس والهند وصعيد مصر .

استعمالها : تستعمل في بعض البلاد كأحد التوابل فتوضع بعد دقها في الفطائر

لتصير مقبولة وتكسبها طعماً عطرياً ويسهل هضمها فى الأقاليم الحارة . واستعمال الحبة السوداء معروف قديماً لأنها مذكورة في بعض الكتب المقدسة .

فوائدها الطبية « باطنياً » :

«١» طاردة للبلغم شافية للنزلات الصدرية المزمنة وبالأخص إذا استخرج زيتها بالسحق واخذ منه قدر نصف ملعقة صغيرة على فنجان من القهوة صباحاً ومساءاً ، ولا يؤخذ عقب ذلك طعام أو شراب إلا بعد مضي ساعتين على الأقل .

«٢» تحلل الاخلاط الضارة وتخرجها من الجسم ، ويحسن مزجها بالعسل الأبيض وزيت الزيتون .

«٣» وقيل ان شربت بماء وعسل تفتت الحصاة .

«٤» وإذا عجنت بماء الشيح اخرجت الديدان من البطن .

«٥» وهي أيضاً ترياق لجرائيم كثيرة حتى أن دخانها يطرد الهوام .

«٦» كثرة استعمالها تدر البول والطمث واللبن .

«٧» وإذا شرب زيتها مع الكبد والزنجبيل تعيد الشهوة للكهول .

«٨» ويعمل معجون منها مع نباتات غيرها تستعمله النساء للتقوية وفتح الشهية والسمن وبالأخص أيام النفاس .

وأما فوائدها إذا استعملت من الظاهر فهي كما يأتي :

«١» تستعمل مع غيرها من العقاقير فى بعض الامراض الجلدية ولتحليل الاورام

«٢» وإذا قليت وصرّت فى خرقة وشمت باستمرار شفت الزكام .

«٣» وإذا نقعت في الخل يوماً ثم سحقت واستنشقها المريض سعوطاً أبرأت آلام الرأس المزمنة .

«٤» وإذا أُغليت في الخل مع رؤوس الخشخاش والقرنفل واستعملت غسيلا للأسنان « مضمضة » منعت وجعها الناشيء من البرد .

الحلبة

قال رسول الله «ص» : « استشفوا بالحلبة » ، إذا أغليت الحلبة بالماء تلين البطن وتقوّي الجسم وبالأخص المعدة وتطرد البلغم من الصدر وتسكن السعال ، ومفيدة للكبد والقلب أيضاً وتحلل بعض الأورام ـ وما أحسن قول أحد الأطباء : « لو علم الناس منافع الحلبة لاشتروها بوزنها ذهبا » .

زيت الزيتون

قال رسول الله (ص) : «كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة » .

أجود الزيت ما عصر من الزيتون الناضج ، وكثيراً ما يغش بزيوت اخرى بخسة الثمن كزيت بذر القطن ، ويمكن كشف ذلك بالتحليل الكيماوي ،

منافع زيت الزيتون : ملين لطيف ومطهر للامعاء ومفيد للكبد ويزيل احتقانها ، ويخف الذبحة الصدرية ويغذي الجسم ويسمن ، ويدخل في تحضير أغلب الدهونات الطبية . فمثلاً يمزج بماء الجير لعلاج الحروق ، وإذا اذيب الكافور في زيت الزيتون تكوّن زيت الكافور الذي هو أحسن وأبسط دهان لحالات الرطوبة والرضوض .

ومن الأدوية النبوية التي كان يستعملها عليه الصلاة والسلام .

السنا والحناء

ورق السنا وأفضله المكي : مسهل يطرد ما في المعدة من أوساخ . ويمنع ما ينتج عن الامساك من الأمراض مثل الصداع وفقد الشهية والقيء والطفح الجلدي وأحسن استعمال له أن ينقع ـ بعد إزالة ذنيباته ـ في الماء المغلي ويصفى ثم يمزج بالعسل ويضاف اليه قليل من ماء النعناع لمنع المغص .

الحناء

إذا وضع معجونها بالماء على الرأس أزال الصداع . وأيضاً تقوّي أُصول الشعر . وإذا خضبت بها الرجل سكنت آلامها ، وإذا ذرت على الجروح جففتها لأنها قابضة ، وتلطف الحروق وتحلل بعض الأورام ، وإذا وضعت أزهارها بين طيات ثياب الصوف أكسبتها رائحة زكية وحفظتها من العثة .

هذه مجموعة صادقة وآيات ناطقة وحكم مروية عن خير البرية من بحر لا يسبر غوره . وحسبي أني أديت لكم بعض ما يجب علي نحو ديني وعلمي . فما أهدى امرؤ لأخيه أفضل من حكمة يزيده بها هدى أو يرده بها عن ردى . وأرجو أن تنتفعوا بما سمعتم من القواعد الصحية التي كانت مشكاة للأُمة العربية .



الخمرة ومضارها

وفلسفة تحريمها في شريعة الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون * ﴾ « ١ » .

لفظ الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه ، يقال خمرت الشيء إذا سترته ، وخمرت الجارية ألبستها الخمار وهو النصف الذي تغطي به وجهها وتخمرت هي واختمرت . والوجه في النقل ان هذا الشراب يستر العقل ويغطيه أو هو من خامره بمعنى خالطه ، يقال خامره الداء : أي خالطه ، ومثله خامر الشيء الشيء أو بمعنى التغير يقال خمر الشيء « كعلم » إذا تغير عما كان عليه ، والعصير يتغير فيكون خمراً ، أو بمعنى الادراك من خمر العجين ونحوه فاختمر : أي بلغ وقت ادراكه .

«١» سورة البقرة الآية ٢١٩ .

وقال ابن الأعرابي : إنه يقال سُميت الخمر خمراً لأنها تركت حتى اختمرت واختمارها تغير رائحتها ، وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الأشربة المسكرة كلها . والظاهر أن هذا الاطلاق حقيقي لا وجه للعدول عنه إلا أن يصح أن العرب كانت تسمي نوعاً خاصاً من المسكرات خمراً لا تطلق اللفظ على مسكر سواه ، على أن الخمر ما اعتصر من ماء العنب إذا اشتد ، ويرده أن الصحابة وهم صميم العرب فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غـيره

نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة : العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة ، وكان هذا كل ما كان يعرف ، ولا شك أن غيره مثله ، وكذلك الأحاديث الصحيحة صريحـة في ذلك منها ، قوله « ص» : «كل مسكر حرام » ، وقوله : « وكل خمر حرام » .

يقول المخصصون إن ما ورد في الحديث اصطلاح شرعي لا لغوي ، ونقول إن الذي انزل عليه الذكر ليبين للناس ما نزل عليهم قد بينَّ لهم أن الخمر التي نهى الله عنها في كتابه هي كل مسكر فلا فرق في حكمها بين مسكر آخر ، وهذا البيان قطعي متواتر لأن العمل عليه . وفي الحديث : (ما اسكر كثيره فقليله حرام) .

قدم رسول الله (ص) المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله (ص) عنهما فأنزل الله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية ، فقال الناس : ما حرَّم علينا وإنما قال : إثم كبير ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين امّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله تعالى آية أغلظ منها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان ﴾ «١» . الى قوله فهل أنتم منتهون قالوا : ﴿ انتهينا ربنا ﴾ ، ولما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون حتى نزلت آية المائدة .

«١» سورة المائدة الآية ٩٠ .

قال رسول الله «ص» : أللهم بينّ لنا في الخمر بياناً شافياً فانها تذهب بالمال والعقل فنزلت هذه الآية ، ثم قال (ص) : أللهم بينّ لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي فى سورة النساء : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾(١) فكان ينادي رسول الله (ص) إذا قام الى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران ، ثم قال «ص» : (أللهم بينّ لنا في الخمر بياناً شافياً) فنزلت الآية التي في المائدة فقرأها عليهم فلما بلغ الى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قالوا : انتهينا انتهينا .

ويظهر من مجموع هذه الآيات أن القطع بتحريم الخمر والنهي عنها كان بعد تمهيد بالذم والنهي عنها في حال الصلاة ، وأوقات الصلوات متقاربة فمن ينهى عن قرب الصلاة وهو سكران فلا بدّ أن يتجنب السكر فى أكثر الأوقات لئلا تحضره الصلاة وهو سكران .

وفي هذا من الحكمة في التدريج بالتكليف ما لا يخفى ، والحكمة فى وقوع التحريم على هذا الترتيب ان الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بها كثيراً ، فعلم الله تعالى أنه لو منعهم دفعة واحـدة لشق عليهم فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق .

وقد ذهب بعض العلماء على أن الخمر حرّمت بهذه الآية وأن ما أتى بعدها من قبيل التوكيد ، لأن لفظ الاثم يفيد المحرم قال تعالى : ﴿ قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق ﴾ «٢» . ولـكن ذهب الجمهور الى ان التحريم كان تدريجاً كما تقدم ، ولوفوجئوا بالتحريم مع ولع الـكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لخشي أن يخالفو أو يستثقلوا التكليف فكان من حكم الله تعالى أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده ليأخذوه بقوة وعقل

---

(١) سورة النساء الآية ٤٢ .

«٢» سورة الاعراف الآية ٣٣ .

﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ قرأ حمزه والكسائي ﴿ كثير ﴾ من الكثرة ، وقرأ الباقون ﴿ كبير ﴾ من الكبر . وإنما كان إثم الخمر كبيراً لأن مضرتها كبيرة ولا إثم إلا ما كان ضاراً ، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، ويكون في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض ، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر وأنواع هذا الضرر كثيرة .

فمن مضرات الخمر الصحية إفساد المعدة وفقد شهية الطعام وتغيير الخلق . فالسكارى يسرع اليهم التشوه فتجحظ أعينهم وتمتقع سحنتهم وتعظم بطونهم ، بل قال أحد أطباء الألمان : (إن السكور ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين ويكون كالهرم جسماً وعقلاً . ومرض الكبد والكلى وداء السل الذي يفتك في البلاد الاوربية فتكاً ذريعاً على عناية أهلها بقوانين الصحة ولكن لا وقاية من شرور السكر إلا بتركه ، وقد قيل أن نحو نصف الوفيات في بعض بلاد اوربا بداء السل ، ولم يكن هذا الداء معروفاً أو منتشراً في مثل هذه البلاد - العراق - قبل شيوع السكر فيها فهو من الأدواء التي حملها اليها الاوربيون وقد كثر كثرة فاحشة في العراق على أن جوّها لا يساعد على انتشاره .

ومن مضرات الخمر في العقل فهو مسلمٌ عند الناس وليس ضرره فيه خاصاً بما يكون من فساد التصور والادراك عندالسكر ، بل السكر يضعف القوة العاقلة وكثيراً ما ينتهي بالجنون . وقد قال الأطباء : (ان المسكر لا يتحول الى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه ، فتسرع حركة الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الاعضاء أو تضعف وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل . فمن تأثيره في اللسان إضعاف حاسة الذوق ، وفي الحلق الالتهاب وفي المعدة ترشيح العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها ، وقد يحدث فيها احتقاناً والتهاباً ، وفي الامعاء التقرّح وفي الكبد تمديده وتوليد

الشحم الذي يضعفُ عمله . وكل هذا يتعلق بما يسمونه الجهاز الهضمي .

ومن تأثيره في الدم : انه بممازجته له يعيق دورته وقد يوقفها أحياناً فيموت السكور فجأة ، ويضعف مرونة الشرايين فتتمدد وتغلظ حتى تنسد أحياناً فيفسد الدم ولو في بعض الأعضاء فتكون « الغنغرينا » التي تقضي بقطع العضو الذي تظهر فيه لئلا يسري الفساد الى الجسد كله فيكون هالكاً .

ومن تأثيره فى جهاز التنفس : إضعاف مرونة الحنجرة وتهييج شعب التنفس وأهون ضرر ذلك بحة الصوت والسعال ، وأعظمها تدرن الرئة ـ أي السل ـ الفاتك بالشبان والقاطع لجميع لذات الانسان .

وأما تأثيره فى المجموع العصبي : فهو الذي يولد الجنون ويهلك النسل ، فولد السكور لا يكون نجيباً ، وولد ولده يكون شراً من ولده وأضعف بدناً وعقلاً وقد يؤدي تسلسل هـذا الضعف الى انقطاع النسل بالمرة لا سيما إذا جرى الأبناء على طريق الآباء كما هو الغالب .

ومن مضرات الخمر في التعامل وقوع النزاع في الخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاشرهم ويعاملهم تثير ذلك أدنى بادرة فيوغلون فيه حتى تكون عداوة وبغضاء . وهذه العلة فى التحريم من أكبر العلل في نظر الدين ، ولذلك ورد بها النص في سورة المائدة « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر » .

ومنها إفشاء السر وهو ضرر يتولد منه مضرات كثيرة لا سيما إذا كان السر يتعلق بالحكومة . ومنها الخسة والمهانة في أعين الناس ، فان السكران يكون في هيئته وكلامه وحركاته بحيث يضحك منه ويستخف به كل من يراه حتى الصبيان لأنه يكون أقل منهم عقلاً وأبعد عن التوازن في حركاته وأعماله والضبط في أفكاره وأقواله ، وينقلون عن السكارى من النوادر الغريبة ما يكفي في ردع من له شرف

وعقل عن الخمر فليراجع. ذلك في كتب الأدب والمحاضرة .

ومما ذكر عن المحدثين أن ابن أبي الدنيا مر بسكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضيء ويقول : « الحمد لله الذي جعل الاسلام نوراً والماء طهوراً » .

ومنها أن جريمة السكر يغري بجميع الجرائم التي تعرض للسكران وتجري عليها ، ولذلك سميت الخمر اُم الخبائث كما ورد في الحديث . فهذه إشارة الى مضرتها في النفس من حيث الأخلاق والآداب .

ومن مضراتها المالية : أنها تستهلك المال وتفني الثروة كما قال عنترة : (فاذا شربت فانني مستهلك مالي) البيت . ولم تكن الخمرة مذهبة للثروة في زمن من الأزمنة كزماننا هذا لا سيما في هذا القطر وهو العراق فان أنواع الخمر كثرت فيه ومنها ما هو غالي الثمن جداً ثم ان المتجرين بها كثيراً ما يقرنون بينها وبين القيادة الى الزنا . ومن المؤسف أن تكون في بعض العواصم الاسلامية بيوت للفسق تجمع بين الخمر والنساء الراقصات والمومسات يدخلها الرجال زرافات وأفراداً ويتبادرون ثم في النفقة حتى ليخسر الرجل في ليلته المئين والالوف ، وان الخمار ليفتح في احدى القرى والمزارع حانة صغيرة ، فلا تزال تتسع بما تبتلع من ثروة الأهالي وغلات أرضهم حتى تبتلع القرية كلها فتكون أموالها وغلاتها وتجارتها في يد الخواجة صاحب الحانة ، وقد عم البلاء بالخمر هذا القطر بما لأهله من الاستعداد للتقليد حتى قيل إن ما يصرف في العراق على الخمر يعدل أو يقارب ما يصرف في بعض البلدان الأجنبية .

ومن مضرات الخمر في الدين من حيث روحه ووجهة العبد الى الله تعالى ان السكران لا تتأتى منه عبادة من العبادات لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين ولذلك قال الله تعالى في آية المائدة بعد ما تقدم آنفاً (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة)

فهذا شيء من البيان لكون إثم الخمر كبيراً بمعنى أن كبره بكبر ضرره أو كونه كثيراً لكثرة أنواعه ، وقد يشتبه بعض المبتلين بشرب الخمر فى بعض تلك المضرات الصحية أو يتوهمون أنه يسهل عليهم التوقي منها وهيهات هيهات لما يتوهمون فان المزاج الذي يتحمل سم الخمر ـ الذي يسمى الكحول زمناً طويلاً بحيث يغتر الناس بحسن صحة صاحبه ـ قليل في الناس ولكن هؤلاء المبتلين يقيسون على النادر ويجهلون الأصل الغالب ، وهو انه لا يكاد يسلم مدمن السكر من ضرره فى جسمه أو عقله ومداركه أو ولده وذريته .

وأما المضرات المعنوية فيقل في معتادي السكر من يحفل بها على أن منهم من يرى أنه يسهل عليه تجنبها .

أما المنافع في الخمر فأهمها التجارة ، فقد كانت ولا تزال مورداً كبيراً للثروة ومادة عظيمة للتجارة ، ولو لا ذلك لغلب عقلاء الافرنج على جهلائهم وأبطلوا عمل الخمور وبيعها حتى لا يبقى منها إلا ما يعمل سراً كما هو شأن الناس فى اللذات الممنوعة وقد كانت العرب تسخوا في شراء الخمر مالا تسخوا فى غيرها ، وكانوا يعدون ترك المماكسة فيها مكرمة وفضيلة فيكثر ربح مجتلبها وبائعها . ومنها انها قد تكون علاجاً لبعض الامراض ككثير من السموم والنبات الضار بالمزاج المعتدل ولكن الدواء يؤخذ بمقدار . فالتداوي بالخمر لا يتفق مع شربها للنشوة واللذة .

ومنها أنها تسلي الحزين على أن ما يكون بعدها من رد الفعل يزيد في الحزن والكآبة .

ومنها أنها تسخي البخيل ، ولكن هذا السخاء قد صار ضرراً كله لأنه يذهب بثروة البلاد فيضعها فى أيدي شرار الآجانب وقد كان في الجاهلية نافعاً لأن الرجل كان يبذل ماله في قومه .

ومنها أنها تثير النخوة وتشجع الجبان ، وقد كان هذا أعظم منافعها عند

العرب في الجاهلية ، وهو من أكبر مضراتها في هذا الزمان لا سيما في مثل هـذا القطر لأن هذه الحمية هي السبب فيما يكون بين السكارى من التنازع والتخاصم والاعتداء ، ولا حاجة اليها في الحرب الآن بل هي ضارة فيها لأن الحرب صارت صناعة دقيقة وفناً من العلم لا بدّ فيها من حضور العقل وجودة النظر ، فرب غلطة من قائد تذهب بجيشه وتظفر به عدوه . فالضباط مدبرون والجنود آلات عاقلة في أيديهم لا نجاح لها إلا بالسمع والطاعـة مع الفهم ، والسكر قد يحول دون حسن التدبير من العقلاء وسرعـة الامتثال من الجنود . ويعدون من منافع بعض الخمور القليلة التأثير كالبيرة : التغذية والتحليل ، ويعجبني جواب سؤال في ذلك ذكر في مجلة عربية وهو : ان لقمة من الخبز أكثر تغذية من كوب من البيرة ، وأن كوباً من الماء أشد تحليلاً من كوب منها على أنه ليس في الخبز والماء ضررٌ ما .

ومضرة الخمر لا يجهلها أحـد ولذلك كان في الجاهلية من حرمها على نفسه ومنهم العباس بن مرداس ، قيل له في الجاهلية ألا تشرب الخمر فانها تزيد في حرارتك ؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله جوفي ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وامسي سفيههم .

وأجمل من هذا قول نصيب الشاعر لعبد الملك بن مروان وقد دعاه للشراب معه ، فقال : تؤمنني ؟ ففعل ، فقال : لوني حائل وشعري مفلفل وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أب أو ام أو عشيرة وإنما بلغته بعقلي ولساني فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تحول بيني وبين ما بلغت به هـذه المنزلة منك فأعفاه يالها من كلمة كان قائلها أجدر به أن يكون ملكاً وخليفة على المسلمين لأنه بعقله الرصين أحق برعاية الرعية من عبد الملك حليف الخمور لأن صاحب العقل الحصيف يكون عارفاً بتدبير أمر الامـة وحسن رعايتها والخمار لا يؤمن شره ولا يرجى خيره .

وألطف من هذا أن بعض الامراء دعى مجنوناً أن يشرب معه فامتنع وقال له أنت إذا شربت تصير مثلي مجنوناً وأنا إذا شربت فمثل من أصير ؟ .

وأطباء الافرنج وعلماؤهم مجمعون على أن ضرر الخمر وكذلك الميسر بالاولى أكبر من نفعها ، وقد أُلفت جمعيات في اوربا وأمريكا للسعي في إبطال المسكرات فهم يتعاهدون على عدم الشرب وعلى الدعوة الى ذلك والسعي لدى الحكومات بالتشديد على بائعي الخمور . فالأيام والأجيال كلما تقدمت وارتقت تؤيد قول القرآن بأن إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما . فان أطباء هذا العصر يصفون من مضرات الخمر ما لم يكن معروفاً عند الأطباء المتقدمين وهو ما أطلقه الله تعالى لعباده ليبحثوا فيه ويتبينوا صدقه بأنفسهم لتكون عقولهم مؤيدة لكتابه بوجوب اجتنابه .

ولكن لدينا من أهل الذكاء والفطنة وأدعياء العلم والمدنية من استعبدهم سلطان اللذة فصرفهم عن النظر والبحث في هذه المضرات كما صرفهم عن هداية الدين وصرف آباءهم عن تربيتهم عليه فأسرفوا في معاقرة الخمر حتى غيض معين حياة بعض الشبان وانكسفت شموس عقول آخرين قبل الاكتهال ، فحرموا من سعادة الحياة وحرمت بيوتهم وامتهم مما كانت ترجوه من ذكائهم واستعدادهم . بدت فتنة السكر في طائفة من الكبراء والمتعلمين وسرت عدواها الى غيرهم من المقلدين حتى قلد شيوخ القرى وعُمد البلاد . فكانوا شر قدوة للفلاحين والاجراء ، وعم خطر هذه الآفة التي تتبعها آفة الزنا حيث سارت ، ويتبع الزنا داء الزهري الذي هو من أسباب انقطاع النسل ، فأية منفعة توازي هذه الآفات القاتلة والجوائح المصطلمة

وأما الميسر : فهو القمار ، واشتقاقه من يسر إذا وجب ، أو من اليسر بمعنى السهولة لأنه كسب بلا مشقة ولا كد ، أو من اليسار وهو الغنى لأنه سببه للرابح ، أو من اليسر : بمعنى التجزئة والاقتسام . يقال : يسروا الشيء إذا اقتسموه ، قال الأزهري : الميسر الجزور « الجمل » كانوا يتقامرون عليه سُمي ميسراً لأنه يجزأ

أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته والياسر الجازر أي لأنه يجزيء لحم الجزور ، ثم صار يقال للمقامرين جازرون ؛ لأنهم سبب الجزر والتجزئة هذا هو الأصل .

وأما كيفيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قداح وهي « الازلام والاقلام » وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والمسبل والمعلى والنافس والمنيح والسفيح والوغد ، لكل واحد من السبعة الاولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزؤنها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءاً وليس للثلاثة الاخيرة شيء . .

فللفذ سهم ، وللتوأم سهمان ، وللرقيب ثلاثة ، وللحلس أربعة ، وللنافس خمسة ، وللمسبل ستة ، وللمعلى سبعة وهو أعلاها ، وكانوا يجعلون هذه الازلام في الربابة وهي « الخريطة » ويضعونها على يد عدل يجلجلها ويدخل يده فيخرج منها واحداً باسم رجل ثم واحداً باسم رجل آخر . . . الخ . فمن خرج له قدح من ذوات الانصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح ، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله ، وكانوا يدفعون تلك الانصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها ، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البرم وهو في الاصل ثمرة العضاة لا ينتفع به . وقد نظم بعضهم هذه الاسماء فقال :

كل سهام الياسرين عشرة　　فأودعوها صحفاً منشرة
لها فروض ولها نصيب　　الفذ والتوأم والرقيب
والحلس يتلوهن ثم النافس　　وبعده مسبلهن السادس
ثم المعلى كاسمه المعلى　　صاحبه في الياسرين الاعلى
والوغد والسفيح والمنيح　　غفل فما فيها يرى ربيح

ثم اختلفوا هل الميسر ذلك النوع من القمار بعينه أم يطلق على كل مقامرة ولكن لا خلاف في أن كل قمار محرم قطعاً .

وأما كون إثمه كبيراً أو كثيراً فقد جاء فيه ما جاء في الخمر من كونه يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهذا ظاهر لا مشاحة فيه ، ثم انه طريق لأكل أموال الناس بالباطل : أي بغير عوض حقيقي من عين أومنفعة وهذا محرم بنص القرآن كما تقدم في محله .

ومن مضراته إفساد التربية بتعويد النفس على الكسل وانتظار الرزق من الطرق الوهمية واضعاف القوة العقلية بترك الاعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية وإهمال الياسرين « المقامرين » للزراعة والصناعة والتجارة التي هي أركان العمران ومنها وهو أشهرها : تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى الى الفقر في ساعة واحدة . فكم من عشيرة كبيرة نشأت في الغنى والعز وانحصرت ثروتها في رجل اضاعها عليها في ليلة واحدة فأصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش ما تعودت من السعة .

ومن منافع الميسر مواساة الفقراء كما علمت من عادة العرب التي لا وجود لها الآن . ومنها سرور الرابح وأريحيته . ومنها أن يصير الفقير غنياً من غير تعب ولا نصب . وزعم بعض الناس أن المنافع التي كانت في الخمر والميسر قد سلبها الله تعالى منها بعد التحريم وهو قول غير معقول ولا دليل عليه ، بل الحس ينبذه ولا حاجة اليه في التنفير عن الجريمتين بعد ما بين الله تعالى الاصل في التنفير بقوله : (وإثمها أكبر من نفعها) . وهذا القول إرشاد للمؤمنين الى طريق الاستدلال فكان عليهم أن يهتدوا منه الى القاعدتين اللتين تقررتا بعد في الاسلام ، قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين إذا كان ترك أي منفعة ضرراً ، ولكن لم يهتد الى جميعهم إذ ورد أن بعضهم ترك الخمر بعد نزول الآية : وبعضهم لم يتركه كما تقدم .

وأما كون إثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم في الخمر لا سيما في

هذا العصر الذي كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها ، حتى أن الحكومات الحرة التي تبيح تجارة الخمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها على احترامها للحرية الشخصية في جميع ضروب التصرف التي لا تضر بغير العامل . فمنفعة القمار وهمية ومضراتها حقيقية فان المقامر يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين لأجل ربح موهوم ليس عنده وزن ذرة لترجيحه على خطر الخسران والضياع ، والمسترسل في اضاعة المحقق طلباً للمتوهم يفسد فكره ويضعف عقله ولذلك ينتهي الامر بكثير من المقامرين الى قتل أنفسهم غماً أو الرضى بعيشة الذل والمهانة .

إني أعرف رجلاً من بين هؤلاء الرجال المقامرين كانت له ثروة طائلة فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها ، وعاش بقية حياته فقيراً معدماً حتى مات جائعاً . هكذا شأن أكثر المقامرين يغترون بالربح الذي يكون لهم أو لغيرهم احياناً ، فيسترسلون في المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء .

يحكى ان رجلا عاقلا رأى من ولده ميلا الى المقامرة لمعاشرته بعض أهلها ، فلما حانت وفاته وخاف أن يضيع ولده ما يرثه عنه وعلم أن النهي لا يكون إلا اغراء قال له : يا بني اوصيك إذا شئت أن تقامر بأن تبحث عن أقدم مقامر في البلد وتلعب معه ، فطفق الولد بعده يبحث ويسأل وكلما دل على واحد علم منه أن هناك من هو أقدم منه حتى انتهى به البحث الى شيخ رث الثياب ظاهر الاكتئاب فعلم من حاله ومقاله أن مآل المقامر الى أسوأ مآب ، وأن والده قد اجتهد بنصيحته فأصاب وأنه اوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ورجع الى رشده وأناب فلم يدخل بيت المقامرة من طاق ولا باب .

ويشترك الميسر مع الخمر فى أن متعاطيها قلما يقدر على تركها والسلامة من بلائها لأن للخمر تأثيراً في العصب يدعو الى العود الى شربها والاكثار منها ، فان ما تحدثه من التنبه يعقبه خمود وفتور بمقتضى قاعدة رد الفعل فيشعر السكران

بعد الصحو أنه مضطر الى الاعادة ليزول عنه ما حل به فاذا هو عاد قويت الداعية

وأما الميسر فان صاحبه كلما ربح طمع في الزيادة ، وكلما خسر طمع في تعويض الخسارة ويضعف الادراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمي ، وهذا شر ما في هاتين الجريمتين . وجملة القول ان الله تعالى قدهدانا لان نعلم مضرات الخمر والميسر ببحثنا لنكون على بصيرة من تحريمها علينا ، وإننا نرى الامم التي لا تدين بالاسلام ولم تخاطب من الله تعالى بهذه الهداية قد اهتدت الى ما لم نهتد اليه من تلك المضار وأنشأت تؤلف الجمعيات للسعي في إبطال هاتين الجريمتين ، ونحن الذين منحنا تلك الهداية منذ ثلاثة عشر قرناً أنشأنا نأخذ عن تلك الامم ما أنشأت هي تقاومه وتذمه حتى أن السكر قد غلب في رؤساء دنيانا والميسر قد انتشر في امرائنا وكبرائنا ثم فشا فيمن دونهم تقليداً لهم .

ثم قال تعالى ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ .

إن نفراً من الصحابة حين اُمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي (ص) فقالوا : « يا رسول الله إنا لا ندري ما هذه النفقة التي امرنا بها في أموالنا فما ننفق منها ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . وليس المعنى أن السؤآل الاول عن الخمر والميسر نزل وحده ثم نزل هذا السؤآل بعده ، بل المراد أن هذه الاسئلة كانت مما يقع من الصحابة ، فأنزل الله هذه الآيات بياناً لهذه الاحكام واجابة للسائلين عند ما استعدوا للأخذ بها . وما ورد يدل على أن المراد أي جزء من أموالهم ينفقون وأي جزء منها يمسكون ليكونوا ممتثلين لقوله : (وأنفقوا فى سبيل الله) ومتحققين بقوله : (ومما رزقناهم ينفقون) ، وما فى معنى ذلك من الآيات التي تنطق بأن الانفاق فى سبيل الله من آيات الايمان وشعبه اللازمة له على الاطلاق الذي يشعر بأن على المؤمن أن ينفق كل ما يملك فى سبيل الله ،

وقد قضت الحكمة بهذا الاطلاق في أول الاسلام وبمدح الايثار على النفس لأن المسلمين كانوا فئة قليلة في امم وشعوب وقبائل تناصبهم العداوة وتبذل فى ذلك الاموال والأرواح فاذا لم يتحدوا حتى يكونوا كشخص واحد ويبذل كل واحد ما بيده لمصلحتهم العامة لا تستقيم لهم حال ولا تقوم لهم قائمة . وهذه هي السنة العامة في كل دين عند ابتداء ظهوره وأول نشأته . ثم بعد أن تعتز الملة وتكثر الامة ويصير يكفي لحفظ مصلحتها ما يبذله كل ذي غنىً من بعض ماله ، ويفرغ الجمهور للأعمال الخاصة بحيث يتمكن ذو العمل أن يفيض به على أهله وولده بعد أن كان مستغرقاً في السعي لتعزيز دينه ووقايته من المحو والزوال . بعد هذا كله تختلف الحال فلا يسهل على كل واحد أن يُؤثر كل محتاج على نفسه وأهله وولده ، ولذلك توجهت النفوس بعد استقرار الاسلام الى تقييد تلك الاطلاقات فى الانفاق فسألوا ماذا ينفقون ؟ فاجيبوا بأن ينفقوا العفو وهو الفضل والزيادة عن الحاجة . وقالوا أيضاً ينفقون ماسهل عليهم وتيسر لهم مما يكون فاضلاً عن حاجتهم وحاجة من يعولون

إن القرآن أطلق العفو والحكمة في ذلك ليقدّره كل قوم في كل عصر بحسب ما يليق بحالهم لأنه خطاب عام ليس خاصاً بأهل جزيرة العرب ولا بحال الناس في زمن البعثة . والمراد بهذا الانفاق ما وراء الزكاة المفروضة المحدودة كصدقة التطوع على الافراد وعلى المصالح العامة وإن كان لفظ العفو يصدق على الزكاة لأنها لا تكون إلا من الزائد على الحاجة الذي لا جهد ولا مشقة فيه . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يؤيد هذا قال «ص» : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول » ، وقال (ص) : « خير الصدقة ما أبقت غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول المرأة : انفق علي أو طلقني ويقول مملوكك : انفق علي أو بعني ، ويقول ولدك : الى من تكلني ؟ » .

وهذا الانفاق يرجع الى حفظ مصالح الامة وأعمالها الخيرية لأن الامة المؤلفة

من مليون واحـد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كاعداد القوة وتربية النابتة على ما يؤهلها لاستعمالها ويقرر الفضيلة في أنفسها تكون أعز وأقوى من امة مؤلفة من مئة مليون لا يبذلون شيئاً من فضول أموالهم في مثل ذلك . ذلك بان الواحـد من الامة الاولى يعدّ بأُمة لأن أُمته عون له تعده جزءاً منها ويعدّها كلاً له والامة الثانية كلها لا تعدّ بواحد لأن كل جزء من أجزائها (أي افرادها) يخذل الآخر ويرى أن حياته بموته فيكون كل واحد منها في حكم الميت . وفي الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أُمة ، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وان كان في جانبه أهل الارض فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم ويتعاون الجميع على حفظ الوحدة الجامعة لهم التي تحقق معنى الامة فيهم ، وانه لم تنهض أُمة ولا ملة إلا بمثل هذا التعاون وهو مساعدة الغني للفقير وإعانة القوي للضعيف وبذل المال والعناية فى حفظ المصلحة العامة . بهـذا ظهر القليل على الـكثير وكانت لهم السيادة ، وبترك هذا انحلت الامم الـكبيرة وفقدت الملك والسعادة .

إن النكتة في الجمع بين السؤآل عن الخمر والميسر عن الانفاق في آية واحدة هي المقارنة بين حال فريقين من الناس ، فريق ينفق المـال بغير حساب فى سبيل الاثم ، اما للتفاخر والتباهي فيما لا فخر فيه ولا شرف في الحقيقة ، واما لمجرد اللذة وإن ساءت عواقبها ، وفريق ينفقه في سبيل الله يزيل به ضرورة اخوانه المساكين والضعفاء ويرفع به من شأن امته بما يجعله للمصالح العامة وأعمال الخير ، وأعظم المصالح والاعمال في هذا العصر التعليم والتربية . ولو بذل العراقيون عُشر ما ينفقون في الخمر والميسر على التعليم لتيسر لهم تعميم المـدارس الدينية في بلادهم وتوجيه التعليم فيها الى ما يجدد نوعهم ويعيد اليهم ما فقدوا من كرامتهم .

وقوله تعالى : ﴿كذلك يبينّ الله لـكم الآيات﴾ معناه مثل هذا النحو وعلى هذه الطريقة من البيان قد قضت حكمة الله بأن يبينّ لـكم آياته في الاحكام المتعلقة

بمصالحكم ومنافعكم : وذلك بأن يلفت عقولكم الى ما في الاشياء من المضار والمنافع « لعلكم تتفكرون » ، فيظهر لكم ضرر الضار منها أو الراجح ضرره فتعلموا أنه جدير بالترك فتتركوه على بصيرة واقتناع بأنكم فعلتم ما فيه المصلحة كما يظهر لكم النافع فتطلبوه . فمن رحمته بكم لم يرد أن يعنتكم ويكلفكم ما لا تعقلون له فائدة إرغاماً لاراداتكم وعقالكم ، بل أراد بكم اليسر فعلمكم حكم الاحكام وأسرارها وهداكم الى استعمال عقولكم فيها لترتقوا بهدايته عقولاً وأرواحاً لا لتنفعوه سبحانه أو تدفعوا عنه الضر ، فانه غني عنكم بنفسه حميد بذاته عزيز بقدرته . ثم بيّن جل شأنه أن هذا البيان المعد للتفكر ليس خاصاً بمصالح الدنيا وحدها ولا بطالب الآخرة على انفرادها ، وإنما هو متعلق بهما جميعاً ولذلك قال تعالى : « في الدنيا والآخرة » أي تتفكرون في امورهما معاً فتجتمع لكم مصالح الجسد والروح فتكونون أُمة وسطاً واناسي كاملين لا كالذين حسبوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها ومصالحها بالمرة فخسروها وخسروا الآخرة معها لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا كالذين انصرفوا الى اللذات الجسدية كالبهائم ففسدت أخلاقهم واظلمت أرواحهم وكانوا بلاء على الناس وعلى أنفسهم فخسروا الآخرة والدنيا معها

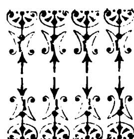
وهذا الارشاد الى التفكر في مصالح الدنيا والآخرة جميعاً هو معنى ما جاء في الدعاء بقوله تعالى : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » . فالله يبين في مثل هذه الآيات أن الاسلام هاد ومرشد الى توسيع دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين ، وقدم الدنيا لانها مقدمة وجوداً وطبعاً ، وكل ما أمرنا الله تعالى به وهدانا اليه فهو من ديننا ، ولذلك قال علماؤنا : إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج اليها الناس في معايشهم من الفروض الدينية إذا أهملت الامة شيئاً منها ولم يقم به من أفرادها من يكفيها ضرر الحاجة كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه إلا من كان عاجزاً عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه فاولئك هم المعذورون

بالتقصير . على هذا قام صرح مجـد الاسلام عدة قرون كان المسلمون كلما عرض لهم شيء بسبب التوسع في العمران يتوقف عليه حفظه وتعميم دعوته النافعة قاموا به حق القيام وعدوا به من الدين ، عملاً بمثل هذه الآية وغيرها من الآيات ، ومضوا على ذلك قروناً الى أن غلا أقوام فى الدين واتبعوا سنن من قبلهم في إهمال مصالح الدنيا زعماً ان ذلك من الزهد المطلوب أو التوكل المحبوب وما هو منهما في شيء . وكان من أثر ذلك أن اهملت الشريعة فلا توجد حكومة اسلامية على وجه الارض تقيمها لأنه لايوجد من أهلها من يصلح لحـكم الناس في هذه العصور التي اتسعت فيها مصالح الامم والحـكومات بالتوسع فى العلوم والصنائع وارتباط العالم بعضه ببعض ، ثم صار علماء المسلمين أنفسهم يعدون الاشتغال بالعلوم والفنون التي تتوقف عليها مصالح الدنيا صادة عن الدين مبعدة عنه ، بل يوجـد فيهم من يقول إنها مفسدة لعقائده مفضية الى الخروج منه . وهذا هو دخول حجر الضب الذي دخله من كان قبلنا ، وهو كما ترى خروج عن هدي القرآن . وقد يقال إذا كان المنقطع لعلوم الدين لا يأمن على عقيدته أن تذهب ودينه أن يفسد إذا هو تفكر في مصالح الدنيا وعرف العلوم التي لا تقوم هـذه المصالح بدونها ، فكيف يكون حال من يدرسون هذه العلوم الدنيوية من المسلمين وليسوا على شيء يعتد به من العلوم الدينية ؟ لاجرم ان هذا قضاء على الاسلام وآفة العمران وعدو العلم والنظام ، وهو قضاء جائر يبطله القرآن وتناقضه سيرة السلف الصالحين الذين سبقونا بالايمان .

ولـكن أين من يتبعها الآن وقد قام فريق من الذين لم ينظروا فى كتاب الله ـ مرة ـ نظرة معتبر ولم يتلوا منه آية تلاوة مفكر متدبر يقسمون المسلمين الى قسمين : قسم لا تجب المبالاة بدينه ولا يهتم به في شكه أو يقينه فله أن يتعلم مايشاء صحت عقيدته أو فسدت صلحت أعماله أو خسرت . وقسم آخـر يجب أن يصان عقله عن كل فكر ويحاط بجميع الوسائل التي تمنعه من النظر فيما عليه الناس من خير

وشر ، وما يعرض في الكون من نفع وضر كيلا يفسد النظر عقيدته ويضل الفكر السليم بصيرته . وهذا القسم هو الذي تفوّض اليه الرئآسة الدينية ويعهد اليه بقيادة الامة في صلاح الاعمال وانتظام الاحوال ، وأعظم قسم في الامة هو القسم الأول بحكم الضرورة بل الامة كلها بالتقريب ، فكيف يتيسر لهذا القسم الثاني وهو خلو من العلم بحالها ودون كل واحـد منها في العقل وفوقه في الغباوة والجهل أن يقود واحداً منها فله قيادتها كلها فهل يتفق مثل هذا الخرف مع شيء من سنة السلف .

ألا عاقل يقول لهؤلاء المشعوذين كيف ساغ في عقولكم أن يسلم الى الجاهل قيادة العاقل وكيف يتيسر حفظ الدين بالعدول عن سنن المرسلين ومخالفة سير السلف الصالحين ؟



مضار الخمرة الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ «١»

اليكم أيها الشباب الانجاب يا نخبة العراق وأساطين العلم والطب ، يا زهرة الشبيبة العراقية أنتم قدوة الامة وعيونها المبصرة وآذانها السامعة ورؤوسها المفكرة أنتم قادتها وسادتها ، أنتم الرأي العام اوجه خطابي هذا راجياً أن تصغوا الي قليلا لأتلو عليكم ما جاش بقلبي وما أملاه علي وجداني ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هذا الموضوع الخطر وهو الخمر .

تعلمون أن الامم اليوم قد تنبهت من غفلتها وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثاً بالامم الى العلا والانسان اليوم غيره بالأمس . هذه حركة فكرية عامة للتطور الاجتماعي الانساني العام ، والعراق الذي شهد له التأريخ بالتقدم على سائر الامم أجدر أن يدلي دلوه في الدلاء وأن يبحث مع ذوي الآراء في الامور الهامة والمسائل العامة ويحذو حذو الامم الرافعة للعلم حتى لا يسلقنا خلفنا بالسنة حداد

«١» سورة المائدة الآية ٩٠ .

ويقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ونام علماؤنا السابقون ، فوجب علينا أن نتقي مجتمعنا من بعض المفاسد والمضار التي أهمها مسألة الخمر .

حرّم القرآن الخمر تحريماً قاطعاً ولم يستثن حالاً من الأحوال ولا أباحه ولا أجازه لهضم الطعام ولا رضيه لتقوية الشهوة ولا لاكثار الدم في الجسم بل عمم التحريم فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ «١»

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فان النار بالعودين تذكو ... وإن الحرب أولها كلام

فان كانت أُمية فى سبات ... فقل قوموا فقد حان القيام

هجمت المدنية فى الشرق وأخذت تسرع فى أسباب الرقي ففشت الخمر وعمت الامصار والقرى وشاعت بين الخاصة والعامة ، ويقول القرآن : ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ .

كان أسلافنا يقيمون الحدود ويجلدون الشارب فكان ذلك مخففاً من سطوة الخمر ومانعاً لطغيانها . فقد حد الخليفة عمر بن الخطاب ولده عبيد الله بعد أن حده عمرو بن العاص بمصر ، فلما قدم على عمر المدينة جلده حداً آخر علانية . وحد أيضاً ولده عبد الرحمن المعروف بأبي شحمة فى الشراب ، وعاصم بن عمر بن الخطاب حده بعض ولاة المدينة ، وحد علي بن أبي طالب أمير المؤمنين «ع» الوليد بن عقبة ابن أبي معيط أخو عثمان بن عفان لامه وهو إذ ذاك والي الكوفة ، شهد أهل الكوفة عليه أنه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ثم التفت اليهم فقال : إن شئتم زدتكم فجلده علي «ع» بين يدي عثمان بعد أن امتنع عثمان من حده وانكر عليه علي ذلك .

«١» سورة المائدة الآية ٩٠ - ٩١ .

كان لرجال الدين سطوة و بأس وكان الملوك والحكام أقوى معاضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ .

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها وشاركتنا في الاولاد والاموال وهجمت علينا ولم تبق للدين سطوته ، فانحسر عن المدن الى القرى ثم انحاز الى أطراف البلاد وهي تطارد الدين .

والمدنية كما تعلمون بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين . فأما الدين كله وأما العلم كله ، ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ومن العلوم قشورها فخسرنا الصفقتين وربحنا الرزيتين وسبقنا المتمدنون وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون . فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم اولئك ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ «١» .

فحق علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثاً علمياً طبياً حتى نكون أتينا البيت من بابه وأرجعنا الامر الى نصابه . فالعلم اليوم هو السلاح الذي به تصول الفضيلة وبه تحارب النقيصة . فبهذا السلاح و بهمتكم اقاتل معكم جيوش الجهل بين أبناء امتي العراقية . فلأقص عليكم أنباء ما عثرت عليه في هذا الموضوع .

الخمر وما أدراك ما الخمر : هو السم الزعاف الذي اعيا نطس الأطباء شفاؤه ، والداء العضال الذي أسقم مدمنه فدام بلاؤه وطال شقاؤه ، وهو السيف المسلول على رقاب متعاطيه ووسيلة من وسائل الخراب لمعاقريه ومحتسيه ، جعله الانسان لأخيه ليخلي من الاموال خزائنه ويذهب من جسمه مواهبه فاذا اقترب منه غني أفقره وإذا نزل بساحته سليم أضعفه ، وإذا أدمن عليه شاب قتله ، وهو المبذر للأموال والمذهب للعقول المزهق للأرواح ، وهو باب القبور ومفتاح الشرور .

«١» سورة الكهف الآية ١٠٤ .

إن الرعش الذي يعتري السكير أول برهان على أن الخمرة أحد تأثيرها السمي المزمن يظهر على الجهاز العصبي ، وفضلاً عن ذلك يؤثر على الكبد ذلك المعمل الكيمياوي ، ودليل ذلك أن الموتى من مدمني الخمر وجدت أكبادهم متفتتة ، وكثيراً ما يصاب السكير بالسكتة القلبية والبول السكري وتسمم الدم السريع والسل الرئوي .

انظروا إننا لو وضعنا دودة من ديدان الأرض أوسمكة في وعاء يحتوي على ماء ممزوج بجزء واحد من الكحول في مائة جزء من الماء لماتت سريعاً ، ولو أخذنا زلال بيضة وصببنا عليه قليلا من « الويسكو » أو أي مشروب روحي قوي فانه يجمدها حالا ويغير لونها كما لو كنا نضعها في ماء مغلي أو فوق حديد محمي ، ولو وضعنا شيئاً من النباتات فيها أماتتها سريعاً ، وإذا غمست العلقة فيها ماتت بعد دقيقتين أو ثلاث ، وكذلك الضفادع والحياة فكيف بدم الانسان وأعصابه ؟ .

ولأحد أطباء ألمانيا كلمة اشتهرت كالأمثال وهي : « اقفلولي نصف الحانات أكفل لكم الاستغناء عن نصف المستشفيات والسجون » .

على أننا لو تتبعنا سلسلة الحوادث الجرمية لألفينا أغلب ينابيع شرها المستطير قد انبعث من الخمرة ام الخبائث ، فلذا أصبح فلاسفة الامم وعقلاء الانام من أهل الفطر السليمة والآراء المستقيمة ينفرون من كل ما يزيل جوهر العقل ونوره . والأمل بالله أنهم سيكثرون بتمادي الزمان فيدور البشر دورته ويرجعون الى دين العقل الى دين الفطرة الى شرع محمد «ص» . فدين الفطرة هو دين المستقبل الذي لا محيص للبشر عنه .

يقول الآلوسي : « رأيت في بعض الصحف العربية المطبوعة في دار السلطنة العثمانية مانصه : قدقرأنا في البشير تحت عنوان (نتائج المشروبات المسكرة) كتب في التقاويم الأخيرة أن المشروبات المسكرة كانت قبل الحرب العالمية تقتل في

ألمانيا في السنة أربعين ألفاً ، وفي روسية عشرة آلاف ، وفي بلجيكا أربعة آلاف وفي فرنسا ألف وخمسمائة ، وأما في امريكا فقد مات ثلثمائة ألف نفس في الولايات المتحدة في مدة ثمان سنوات . فيكون عـدد الذين تقتلهم الخمور في امريكا سنوياً تسعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة نسمة ، وقتلى الخمور في الممالك المـذكورة في كل سنة ثلاثاً وتسعين ألف .

تنبهت الدول الغربية الى هذا الخطر الداهم فأخذت تكافح الخمور بتمام جهدها وشددت النكير على من يتعاطاها . كانت أمريكا قبل ذلك مفرطة في تناول المشروبات الروحية فلما اشتركت في الحرب العالمية أصدرت هي وانكلترا أوامر مشددة تحرم الاتجار بالخمور في جميع الثغور والمعسكرات والجهات المجاورة لها وأندية الضباط والجنود وحرَّمت الخمر بالخصوص على الضباط والجنود في البر والبحر تناول أي نوع منها حتى الانبذة والبيرة ، لأنهم وجـدوا أن المسؤولية التي على عاتق الجندي في ساحة القتال عظيمة جداً ، فان سُمح له مع ذلك بتناول المسكرات صار عاجزاً عن القيام باعباء مهمته الخطيرة كما ينبغي ، لأنه اتضح بالتجارب أن شارب الخمر أقل من غيره اقتداراً وكفاءة على الاستمرار على العمل لما يعتريه من الخمول والانحطاط في القوى والميل الى التشرد ومخالفة الأوامر وعدم الاكتراث لها .

اتخذت الولايات المتحدة وسائل شتى لتخفيف وطأة الخمور من بلادها خوفاً من وقوع الامة في مهاوي الهلاك والفناء . فقد قاومت المشروبات الروحية مقاومة عنيفة واجتازت كل العقبات التي اعترضتها وهي عقبات في غاية القوة والمنعة لسببين عظيمين ، أولاً لأن السواد الأعظم هناك معتاد تناول الكحول من زمن بعيـد ، ثانياً أن أصحاب المعامل والنزل الذين يربحون من الكحول القناطير المقنطرة من الذهب كانوا يتذمرون ويتبرمون ويبدون مقاومة شديدة ضد الحركة ، إلا أن إرادة الامة وتنبه عقلائها حملا الولايات المتحدة على اصدار قانون المنع نهائياً . فيالها من خطوة شريفة هادية الى الأخلاق حافظة للصحة محافظة على المال أن يذهب ضياعاً

أفلا ينظر العقلاء من هذه الامة ويعجبوا كيف كانت امريكا النصرانية أول من نادى بمنع الخمر وتحريمه فنالت بذلك سعة فى الرزق وأمناً فى البلاد وزادت مجالس العلم فيها وكثر الداخلون في المعاهد العلمية وقل القتل والسرقة وازدادت الأموال بنسبة مطردة . هذا هو سر الاسلام وتحريمه للخمور . وأعجب من هذا أن المسلمين الذين يحرّم دينهم الخمر ويقول : ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ يعاقرونها ليلا و نهاراً وتباع في أسواقهم سراً وجهاراً .

وفي عام ١٩١٦ م تألفت جمعية في انكلترا اسمها (قوة الحركة البريطانية) وقدمت عريضة الى الحكومة الانكليزية تطالبها بابطال الخمور بعد أن بيّنت بالتفصيل المضار العظيمة التي تنجم عن إباحة تناول المشروبات الروحية .

تسعى الحكومة الانكليزية سعياً حثيثاً لتحريم المسكرات وقد تكوّنت لجنة لدراسة هذا الموضوع وأصدرت تقريرها وضمنته طائفة من المعلومات الطريفة عن كميات المشروبات الروحية التي تستهلك والمحال التي تستهلك فيها ، ويفهم من هذا التقرير أن الكمية التي يستهلكها الانكليز من المشروبات الروحية قد نقصت كثيراً ولعل السبب في ذلك ارتفاع المستوى الأخلاقي وشعور الشبان بالمسؤوليات وانصرافهم الى الألعاب الرياضية وفداحة أثمان المشروبات . فالأسباب إذن اجتماعية وأخلاقية واقتصادية وصحية .

وفي عام ١٩٢١ م صدر قانون من المجلس الوطني الكبير في أنقرة يقضي بتحريم الخمرة وتحريم صنعها وشربها لأن الاناضول اعتبر نفسه أحق باتباع هذه السنة وهي السنة الاسلامية من حكومات الولايات المتحدة . وتدل الحوادث على أن تنفيذ هذا القانون سائر بهمة زائدة ، وان النجاح ظاهر فيها ظهوراً محسوساً وإن كانت الخمور لم ينقطع دابرها بالكلية لأن مادخل البلاد من بلائها منذ عشرات الأعوام لا يمكن اقتلاعه بسهولة في عشرات الأسابيع . ويقدّر نسبة ما نزل من

عدد الشاربين الى نحو ٥٠ بالمئة رغماً من يقظة الحكومة وتشديدها لا تزال توجد خمور يتاجر بها الخمارون خلسة بأسعار باهضة ، وهي التي كانت العائق الأكبر في إبعاد الناس عن تعاطيها . هذا مثل من مجهود الامم ضد الخمور .

فيا أيها المسلمون الضعفاء أفيقوا من رقدتكم وانتبهوا من سباتكم إن ما فات مضى وانقضى وإن الزمان قد استدار إن لم يكن لكم دين وكنتم لاتخافون المعاد فكونوا أحراراً في بلادكم إن هؤلاء الذين جاؤكم بالخمر لا يريدون اعزازكم بل يريدون ﴿ أن يوقعوا بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر فهل أنتم منتهون ﴾ فان لم ينتهوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وقد بدت بوادرها من طيارات قاذفات في الاجواء ودبابات مهلكات في الصحراء فويل ثم ويل لمن يعيش عيشة هنيئة اجتماعية ثم يموت ميتة جاهلية .

حافظوا على صحتكم المطلوبة التي هي الحياة التامة فان الخمرة لها التأثير الكبير في فقدان الصحة كما سمعتم ، وأزيدكم بياناً في الموضوع عسى أن تستيقضوا من هذه الرقدة وتنشلوا أنفسكم من حضيض هذه الوهدة يا أرباب العزائم والنجدة .

خطب طبيب قد مارس مهنة الطب خمساً وثلاثين سنة فى عدة مستشفيات في موضوع الخمرة وأضرارها وقد شوهد هذا الطبيب قائلا : ﴿ إني لم أر في جميع أدوار حياتي واختباراتي الطبية عاهة أفتك بالانسان من بنت الحان « أي الخمرة » فهي والحق يقال السم الزعاف والبلاء المهلك لكل من يتعاطاها بلا خلاف ، وقد شرَّحت في مدة خدمتي الطبية مئآت من الجثث التي فتك بها هـذا العدو الألد فاسمحوا لي بأن أقص عليكم ما شاهدته بعيني ولمسته بيدي ﴾ .

دخل المستشفى رجل سكير عمره بين ٤٥ و ٥٠ سنة تقريباً وكان يشكو من ألم في ظهره وسعال شديد وبعد مكثه عندنا ٢٤ ساعة وجدناه ميتاً في سريره فى اليوم التاليلدخوله فالتزمنا أن نشرّح جثته لنتأكدسبب الوفاة ، فوجدنا أن الرئتين

قد تهرتا وذابتا وأن شرايين القلب قد ضعفت واضمحلت الى أن صارت أوهى من نسيج العنكبوت ، ووجدنا الكبد قد تخرق كالاسفنجة الذائبة التي لم تعد تصلح للاستعمال أو كخرقة بالية جداً لا يمكننا تمييزه من بيت النحل في خروقه الواضحة الكثيرة ، ووجدنا الامعاء يابسة لخلوها من مادتها المائية . والخلاصة ان جهاز ذلك التعيس كان قد بلي من كثرة الخمور التي امتصها جسمه .

هذا وصف وجيز لحالة السكير المدمن بعد تشريحه وبعد تشريح كثيرين غيره من الذين شرحناهم بعد وفاتهم ووجدوا على هذا النمط وما اختبرته بنفسي وماقرأته من تقارير زملائي الاطباء أن أربعين بالمئة يموتون من شرب الكحول قبل وصولهم الى متوسط الاجل المعتاد .

وأما المعتدلون في الشرب المدعون أنهم محافظون على صحتهم ولا يتعدى الواحد منهم عن رشف كأس أو كأسين في اليوم فدعواهم باطلة وهم في اعتدالهم المزعوم واهمون . فلنفرض أقل اعتدال هو رشف كأس واحدة يومياً فهذه الكمية القليلة في ظاهرها لا بد أن يبقى أثرها الى اليوم الثاني ، وكأس اليوم الثاني يبقى مع أثر الاولى الى اليوم الثالث وهكذا تتجمع الآثار الصغيرة يوماً فيوماً إلى أن تصير في الجسم أثراً كبيراً . مع أن الاثر البسيط الناشيء عن الكأس الواحدة لا يشعر به في بادىء الامر بل بالعكس يشعر صاحبه في الحال بشيء من الحرارة والقابلية للطعام مع التفريج ولكن في الوقت نفسه تبتدىء أجهزته تفقد قوتها شيئاً فشيئاً وتضعف رويداً رويداً عن العمل وعن أداء وظيفتها ، ومتى أصاب هذا الجسم المعتدل أي مرض لا يقوى على احتماله ولا على مكافحته لضعف أجهزته فيستحيل الداء ويندر الدواء فيبيت ـ حضرة المعتدل ـ ويصبح من كأسه الواحدة وهو على حافة القبر يطلب الدواء فلا يناله ويتمنى الحياة فلا يجدها ، فيذهب تاركاً وراءه جيشاً من ذريته في عرى وجوع .

الزكاة والاشتراكية الصحيحة

والتعاون فى الاسلام

لما قضت العناية الأزلية والحكمة البليغة لبقاء هذا النوع (البشر) أن يكونوا مختلفين غيرمتساويين في القوى والملكات والافهام والذكاء ،كاختلافهم في الاخلاق والصفات والخلق والهيئآت ، وكاختلافهم فيالغنى والفقر والسعادة والشقاء ، ولوكانوا جميعاً في رتبة واحدة من الذكاء والفقر والغنى والسعادة والعناء هلكوا جميعاً . وإلى هذا أشار الامام الجواد «ع» في كلمة موجزة من أبلغ الكلمات القصار حيث يقول : ﴿ لو تساويتم هلكتم ﴾ . وهذا جلي واضح لا حاجة الى إيضاحه . ولكن لازم هذا الاختلاف الواسع ، والتباين الشاسع لحفظ بقاء النوع هو التعاون مع رعاية التوازن . والتعاون ضرورة من ضرورات الحياة . وهو فى الجملة غريزة وطبيعة قضت به حاجة بعضهم الى بعض وتبادل المنفعة وتكافىء المصالح ، وبه يتم النظام وتحفظ الهيئة الاجتماعية .

وهذا التعاون التي تدفع اليه وتدعو له الضرورة هو فى غنى عن الحث والبعث اليه . وإنما الذي يحتاج الى التشريع والبعث اليه هو التعاون بلا عوض ، وعمل الخير

والاحسان وصنع المعروف لوجه الله وفي سبيل الله لجميع عباد الله ، للفقير والغني والعاجز والقوي ؛ للمؤمن والكافر .

وهذه الفضيلة هي فضيلة الجود والسخاء التي يقابلها رذيلة الشح والبخل . فالكرم عطاء بلا عوض ، و بذل من دون نظر الى الاستحقاق . والاولى هي بمرتبتها العليا هي صفة الحق جل شأنه والأمثل فالأمثل من الأنبياء والمرسلين والاوصياء والصدّيقين ، ولعلها في بعض البشر من الغريزة . والمواهب لا تحصل بالطلب والكسب كصفاء اللؤلؤة وإشراق الشمس وفيض الينابيع ومثلها رذيلة البخل قد تكون طبيعة في بعض البشر وغريزة .

وهناك أوساط و نفوس ساذجة ليس في جبلتها هذا ولا ذاك فيؤثر فيها المحيط والتربية والاقران فضيلة أو رذيلة .

وما من شريعة من الشرايع ولا دين من الأديان ولا كتاب من الكتب قد حث و بعث وبالغ في الدعوة الى الاحسان والمعروف و بذل المال في سبيل الخير مجاناً ولوجه الله تعالى كشريعة الاسلام وكتابها المجيد ، وقلما تجد سورة من سور القرآن لم يتكرر فيها طلب الانفاق والوعد بالأجر العظيم له .

خذ أول سورة بعد الفاتحة وهي أوسع سورة تضمنت التشريع الاسلامي وعامة فرائضه من الصلاة والصوم ، والزكاة والحج ، والنكاح والرضاع ، والطلاق والمعاملات ، والديون والرهن ، والقصاص والديات ، وغير ذلك .

افتتح الباري جل شأنه هذه السورة بالانفاق وقرنه بالايمان بالله وبأهم دعائم الاسلام وهي الصلاة فقال : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ «١» .

ثم قال جل شأنه فيها بعد جملة آيات : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم

«١» سورة البقرة الآية ٣ .

الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين ﴾ «١» ثم قال بعد فصول طويلة وبيان أحكام كثيرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولاخلة ولا شفاعة ﴾«٢»

ولم يكتف بهذا كله في هذه السورة المباركة حتى أفاض في فضل الانفاق وأجره العظيم ، وانه يعود باضعافه المضاعفة . وجاء بأبلغ الأمثال وأبدع المقال فندب الى البذل والاحسان وحرمة الربا الذي فيه قطع سبيل المعروف وأكل المال بالباطل ، وجعل من يصرّ على استعماله محارباً لله العظيم والله محارب له ، كل ذلك في ضمن أكثر من ثلاثة عشر آية مطولة بدأها عز شأنه بقوله : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ «٣» الى قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ «٤» ثم بعد أربعة عشر آية في فضل الانفاق ألحقها بتحريم الربا وفظاعة شأنه وتهويل جريمته وبيان جملة من أحكامه فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ «٥» .

وهذا تصوير بديع لحال المرابين وعظيم جشعهم وحرصهم على جمع المال وادخاره وتوفيره ، فهو كالذي فيه مس من الجنون يذهب ويجيء ويقوم ويقعد ويأخذ ويعطي ، فهو في حركة دائبة وعمل متواصل لا يقرّ له قرار ولا يستريح من التفكير والتوفير والادخار في ليل ولا نهار ، وإذا اعترضه معترض قال مبرراً عمله إنما البيع مثل الربا والبيع حلال فالربا مثله ، وهو قياس فاسد ويعرف فساده من

«١» سورة البقرة الآية ١٧٧ . «٢» سورة البقرة الآية ٢٥٤ .
«٣» سورة البقرة الآية ٢٦١ . «٤» سورة البقرة الآية ٢٧٤ .
«٥» سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

القاعدة الشرعية المباركة « الغنم بالغرم » . فكل معاملة فيها غنم بلا غرم فهي أكل مال بالباطل . والبيع غنم بغرم ومبادلة مال بمال بخلاف الربا فانه للآخذ غنم بلا غرم وللدافع غرم بلا غنم . فاذا أعطى العشرة باثنتي عشر من جنس واحد فقد أخذ اثنين بلا عوض فهو أكل مال بالباطل ، ولذا اختص الربا بالمتجانسين ـ أي أن يكون العوضان من جنس واحد ويكون من المكيل والموزون إذ المعاملة بالمعدود والمشاهدة نادرة والنادر ملحق بالعدم ، ومدار المعاملات في العالم على الكيل والوزن مضافاً الى جهات اخرى .

وما أبدع وأروع تعقيب آيات الحث على الانفاق احساناً وكرماً بآيات تحريم الربا فان ذلك فضل واحسان ، وهذا جور وعدوان .

وهذه الفصول في آخر هذه السورة التي هي أطول أو أفضل سور القرآن من حيث بيان النواميس الاسلامية محبوكة كالسرد الوضين . فانه عز شأنه ذكر فضل الانفاق في سبيل الله والعطاء المجاني وربط به حرمة الربا وهو الأخذ العدواني ثم اردفه بالدين والرهن وأحكامها والأمر بانظار المعسر : ﴿ وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ﴾ .

انظر واعجب لهذه الرحمة الواسعة وهذا التشريع الرفيع وهل يبقى لك شك في أن هذا القرآن من الوحي المعجز والذكر المبين نزل به الروح الأمين من رب العالمين ! ! ؟ .

وهل تجد شيئاً من هذه الأساليب في شيء من التوراة والانجيل والزبور وغيرها وهي أكبر حجماً وأكثر ألفاظاً ورقماً . أرأيت كيف تنازل العظيم من أوج عظمته الى مخلوقه العاجز الضعيف فصار يستقرضه ويقول : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ «١» . ثم لم يكتف بهذا

«١» سورة الحديد الآية ١١ .

كله فى الدعوة الى التعاون وتعاطف البشر بعضهم على بعض بالاحسان والمعروف .

نعم لم يكتف بما ندب اليه من المعروف على سبيل الندب والاستحباب وإن كان واجباً أخلاقياً .

نعم لم يكتف بذلك العموم والاطلاق والترغيب الى الانفاق والاحسان لكل ذي روح حتى البهائم والهوام بل وحتى للكلب العقور . فاذا رأيت كلباً يلهث من العطش استحب لك فى الشريعة الاسلامية أن تسقيه الماء « فان لكل كبداً حراً أجر » كما في الحديث .

أما الرفق بالحيوان والحولة والدواب فقد عنيت الآداب الاسلامية برعايتها والرحمة لها عناية بالغة . وفي الحديث ما مضمونه : ﴿ إذا وصلت المنزل فابدأ بسقي دابتك وعلفها وراحتها قبل نفسك ، ولا تتخذوا ظهور دوابكم منابر ولا تحملوا عليها فوق طاقتها ولا تجهدوها ولا تضربوا وجوهها ﴾ الى كثير من أمثال ذلك مما لا مجال لاحصائه في هذا البيان .

أما الفقراء والضعفاء والعجزة فلم يكتف لهم الشارع المقدس ورحمته الواسعة بهذه العمومات والمطلقات ، بل جعل لهم مزيد عناية تخصهم وفرض لهم في أموال الأغنياء نصيباً مفروضاً وصيرهم شركاء لهم فيما بأيديهم ولكن من دون اجحاف واعتساف بأموالهم ، بل قال الشارع الاقدس في كتابه المقدس : « يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو » يعني الزائد من المال على حاجته حسب شأنه في سنة أو سنوات وقال المبلغ عنه : « من فضول أموال أغنيائكم ترد على فقرائكم » .

وفي الحديث ما مؤداه : « لما علم الله أن نسبة الفقراء من الاغنياء العشر فرض لهم العشر فى أموالهم وما جاع فقير إلا بما منعه الغني من حقه » .

نعم فرض للفقراء الحق على الاغنياء ولكن جعل السلطة للأغنياء وأعطاهم الحرية الواسعة والاختيار العام فيما يدفعون من نقود أو عروض ، ولأيّ فقير

يدفعون . وبأي وقت يشاؤون . والفقير وإن صار شريكاً ولكن لا سلطة له على الأخذ ، وإنما سلطة الدفع والتعيين لرب المال .

وعدلت الشريعة الاسلامية هذه القضية حذراً من تفشي داء الكسل والاتكال فيالنفوس وترك الناس السعي والعمل وتغلب البطالة والكسالة علىالمجتمع فخص ذلك الحق بالفقير الذي لا يستطيع العمل لعذر من الاعذار ، أو كان عمله لا يفي بمؤنة عياله . ثم حث الناس على الكسب والسعي في توفير المال وأوجبه لتحصيل الرزق له وللعيال ، كما أوجب للعمال دفع حقوقهم موفرة من أرباب الأموال وعدم بخس ما يستحقونه من الأجر ، وأن يدفع للعامل اجرته فوراً قبل أن يجف عرقه وهذه هي الاشتراكية الصحيحة العادلة السمحاء التي وقعت وسطا بين افراط الاشتراكية الحمراء وتفريط الرأسمالية القاسية السوداء ، فلم تسلب الغني حريته فيما بيده وما استحصله بجهده كما تسلبه الشيوعية الظالمة التي تسلب بعسفها وظلمها أفضل نعم الله على العبد وهو الحرية ، ولاسلبت العامل ما يستحقه بعمله من الاجرة ولم تبخس حقه كالرأسمالية « وكذلك جعلناكم امة وسطاً » .

انظر سعة نظر التشريع الاسلامية وعنايته بسد الحاجة وتدارك مواضع الضعف في الامة فيما فرض من الزكاة وتعيين مصرفها ومستحقيها ، فجعل الفقراء والمساكين في الدرجة الاولى . ثم للعاملين في جبايتها ، ثم المدينين الذين لا يستطيعون وفاء دينهم ، ثم الاسراء والعبيد وعتقهم ، ثم أبناء السبيل المنقطعين في الغربة ، والمؤلفة قلوبهم وفيسبيل الله ـ أي المصالح العامة كبناء القناطر والمدارس والمعاهد والمعابد وتعبيد الطرق وأمثال ذلك .

فرض الله للفقراء العاجزين عن تحصيل ما يمونهم وعيالهم لنقص في أبدانهم من مرض ونحوه وعدم مواتاة الحظ لهم « ان صح أن شيئاً يسمىالحظ له شيء من التأثير في المقادير » .

نعم فرض الله الزكاة وقرنها بالصلاة اهتماماً بها في زهاء عشرين آية متفرقة ﴿ أقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ﴾ «١» ، أربع منها في سورة البقرة ، ثم تكررت في عامة سوره الطوال . والمفصل والقصار وآخرها في سورة البينة آخر القرآن ﴿ وما امروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة وذلك دين القيمة ﴾ «٢» ، وفي الجميع قدمت الصلاة على الزكاة إلا في آية واحدة ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ «٣» ، لنكتة معلومة ، ولكن في الحديث ما يشير الى أنه تعالى ربط الزكاة بالصلاة للدلالة على أن من لا زكاة له لا صلاة له . يعني أن من وجبت عليه زكاة في أمواله ولم يدفعها لمستحقها لم تقبل صلاته وإن أتى بها على أصح وجوهها .

ومن سعة رحمته وعنايته بخلقه جعلها في أهم الأشياء وأعمها وألزمها في حياة البشر ومقومات العيش وهي الأجناس التسعة : النقدان ، والغلات الاربع ، والانعام الثلاثة ، وهو عز شأنه وإن فرض فيها النزر اليسير وهو العشر ونصفه أو ربعه ، ولكن الحاصل من مجموعه الشيء الكثير .

وليست فوائد هذا التشريع وهذه الاشتراكية العادلة الحرة مقصورة على الناحية المادية فقط ، بل فيها من الفوائد الاجتماعية والتأليف بين الطبقات وتعاطف الناس بعضهم على بعض وقطع دابر الفساد والشغب فيما بينهم ما هو أوسع وأنفع وأجل وأجمع ، ثم أردف الزكاة بالخمس توفيراً لحق الفقراء وتكريماً للعترة الطاهرة عن تلك الفضول التي هي صدقات ونوع من الاستجداء ، ثم رعاية شبه الجزاء والأجر لجدّهم الاعظم فيما تحمّل من عناء التبليغ واعباء أداء الرسالة ، وبعد ذلك الحث على

«١» سورة البقرة الآية ٤٢ .

«٢» سورة البينه الآية ٤ .

«٣» سورة الأعلى الآية ١٣ - ١٤ .

الانفاق عموماً ، وتشريع الزكاة والخمس خصوصاً . هل قنعت واستكنفت سعة تلك الرحمة وبليغ هاتيك الحكمة ؟ هل اكتفت للفقراء والعناية بهم بكل ذلك ؟ كلا ، بل فتحت في التشريع الاسلامي باب « الكفارات » وهو باب واسع يدخل فى أكثر العبادات وغير العبادات من المحرمات وغير المحرمات . فقد مشت وفشت فريضة هذه الضريبة حتى فى الصلاة وتكثرت فى الصوم والاعتكاف والحج والايلاء والظهار والنذر واليمين وقتل الخطأ بل والعمد ' وغير ذلك مما يجده المتتبع في أكثر أبواب الفقه ، وهو اطعام للفقراء تارة وكسوة اخرى وعتق ثالثة .

جمعت الشريعة الاسلامية بسعة رحمتها وعظيم حكمتها بين رعاية الفضل والعدل ' وأقامت قواعد الانتصار والاعتدال في بذل الاموال ، ولما ندبت وبالغت في الحث على الانفاق في سبيل الله وتدرجت فيه الى أبعد غاية الانفاق من فاضل المال وحواشيه أولاً لامن صلبه ثم المواساة والمشاطرة من صميمه ثانياً : ﴿ والذين في أمـوالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ «١» . ثم الايثار على النفس ثالثاً : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ «٢» .

وهذا أقصى ما يتصور من السخاء والكرم والردع عن رذيلة البخل والشح وحذراً من أن تطغى هذه العاطفة فتجحف بالمال وتضر بالاهل والعيال ويضطرب بها حبل المعيشة والعائلة وتداركت الشريعة ذلك وعدّلت هذا الميل على المال فقالت ﴿ لا صدقة وذو رحم محتاج ﴾ ' فقـد سبق ذلك كتاب الله المجيد ، فانه جلت عظمته لما بالغ في دعوة الناس عموماً والمسلمين خصوصاً الى البذل والاحسان وانفاق المـال على الفقراء والمساكين فيما يزيد على سبعين آية بأساليب مختلفة وتراكيب عجيبة توجه الـكتاب الكريم الى تعديل ذلك فأمر بالاقتصاد والتدبير والاعتدال ومجانبة التبذير فقال جل وعلا : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر

«١» سورة المعارج الآية ٢٤ - ٢٥ . «٢» سورة الحشر الآية ٩ .

تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ «١» بل زاد فقال : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ﴾«٢» أي لا تسرفوا في العطاء ، بل أوضح ذلك في سورة الاسراء وسورة الفرقان فقال في الاولى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » «٣» . وفي الثانية : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »«٤» . الى كثير من أمثالها .

ومن هنا كانت الشريعة الاسلامية شريعة العدل والفضل (وكذلك جعلناكم امة وسطا) «٥» . لا تدعو الى فضيلة إلا وتقرنها بالاعتدال والعقل والتوسط « وخير الامور أوسطها » .

فلله شريعة الاسلام المقدسة ما أوسعها وأجمعها وأمنعها وأنفعها . أفلا قائل يقول لهذا الشباب الطائش المخدوع بتلك الشيوعية الحمراء والبلشفية السوداء . . . أتطلبون اشتراكية أعلى وأصح من هذه الاشتراكية المنظمة العادلة التي توسع على الفقراء والمحاويج ما يرفع حاجتهم ويحفظ لأرباب الاموال والاغنياء مكانتهم وحريتهم ، ولا تضايقهم ولا ترهقهم ولا تحرم العاملين ثمرة أتعابهم ولا تجعلهم كآلة ميكانيكية أو كالبهائم ليس لها إلا علفها ومعلفها ؟

نعم انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء بل الشيطان سول لهم وأملى لهم ، ولعل العناية تدركهم فتردهم الى صوب الصواب والمنهج القويم إن شاء الله تعالى ؟

«١» سورة الاسراء الآية ٢٥ - ٢٦ . «٢» سورة الانعام الآية ١٤٠ .
«٣» سورة الاسراء الآية ٢٨ .
«٤» سورة الفرقان الآية ٦٦ . «٥» سورة البقرة الآية ١٤٢.

المبشرون

يطلق المسيحيون هذا اللفظ على الدعاة الى ملتهم

الدعوة للدين من مبتكرات المسيحيين ولم تعرف قبل تاريخهم ، فلا أثر لها في الاديان القديمة ، وإنا لموجزون تأريخ التبشير لديهم في كلمات فنقول :

يصعد تاريخ التبشير الى حواري عيسى عليه السلام الذين يعبرون عنهم بالرسل فقد انتشروا بعد عيسى «ع» في الارض يدعون الناس الى ملتهم مؤتمرين بقوله الوارد في إنجيل يوحنا ومتى ما ترجمته عن النص الفرنسي : « كما أرسلني أبي أنا أرسلتكم » « اذهبوا فعلموا الامم قاطبة وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس وسأكون معكم مدى الدهر » .

ذهب رسل عيسى وكان مجالهم الذي ظهرت فيه غيرتهم بلاد « يهوذا » فاتحدوا هناك مع المتنبئين الذين كانوا يخبرون بمجيء عيسى فكانت الطرق ممهدة أمامهم لبث دعوتهم .

وقد دلتنا أعمال الرسل من كتابهم المقدس عن النجاح الذي صادفوه في آسيا الصغرى وبلاد الاغريق . ويستدل أيضاً من كتاب « بلين » الروماني الى الامبراطور « تارجان » أن المسيحية انتشرت في تلك الاصقاع في أواخر القرن الاول المسيحي ، على ان بطرس وبولس لم يتجاوزا روما الى جهة الغرب .

أرسل (بطرس) تلميذه « سان مارك » الى مصر ليهدي أهلها الى المسيحية فنجحت دعوته هناك نجاحاً عظيما ، ومن أول القرن الخامس انتشرت المسيحية فى كثيرمن جهات افريقا ، ثم اجتاز المبشرون الاوقيانوس و نزلوا الى اسبانيا فأرسل اليها البابا « غريغوار » السابع سبعة مطارنة .

أما بلاد الغول فقابلت المبشرين مقابلة حسنة فانتشرت فيها دعوتهم ولا سيما جهتها الجنوبية . وفى تلك الأثناء كانت المسيحية تنتشر في اوربا الشرقية بواسطة العلاقات التجارية التي كانت بينها و بين آسيا و بلاد الاغريق .

جاء في القرن الثاني « سان بوتان » مع جمهور من اخوانه فأسسوا على شواطىء نهر « الرون » كنيستي « فينا ، وليون » . وجاء « سان دنيس » في القرن الثالث فأسس كنيسة باريس ومنها انتشر المبشرون في الضواحي ونشروا الاناجيل بين أهلها .

وجاء « سان مرتان » في القرن الخامس فترك المدن لتلاميذه وتجول في القرى والفلوات بنشر الدين فيها إذ كانت بمعزل عنه لبعدها عن العمران .

يرى الرائي مما مر أن جمعيات التبشير اليوم لها تاريخ بعيد يتصل بالقرن الأول من المسيحية . ولقد حفظ التأريخ للمبشرين الأولين من آثار الغيرة على الدين والتفاني في سبيله ما يصح أن يتخذ دليلاً على صدق العزم وجميل الصبر . فقد كانوا يقتلون ويصلبون ويلقون في النار ويمثل بأجسادهم أقبح تمثيل فيحتملون ذلك صابرين ويقبلون التضحية حامدين . وهكذا أوائل عصور الاديان ملأى بمثل هذه الآثار المدهشة .

دام عمل المبشرين عملاً أهلياً حتى دخل امبراطرة الرومان في المسيحية ، فانقلب عملهم رسمياً من ذلك الحين فكان اولئك الامبراطرة يرسلون المبشرين سفراء لدى الملوك المتوحشين ليدعوهم للتنصر باسم الامبراطور الروماني واسم المسيح معاً .

وبهذه الوسيلة توصل الامبراطور « كونستانس » الى تنصير أهل سبأ من بلاد العرب . ونجح الامبراطور بعض النجاح فى ادخال بعض الفرس في المسيحية وكانوا أشد الشعوب استعصاءاً على النصرانية وأكثر اضطهاداً لدعاتها ، لأن المبشرين في أول عهدهم كانوا مبعثرين لا تجمعهم جامعة ، كل طائفة منهم تتبع كنيسة تنتمي اليها ، ولكنهم في القرن العاشر اجتمعوا الى رئيس عام هو بابا الكنيسة الرومانية

والحروب الصليبية التي شنها المسيحيون على المسلمين في القرون الوسطى لم تكن إلا دعوة الى النصرانية بقوة النار والحديد ، وكان الذي انتدب لتنصير المسلمين طائفتان يقال لأحدهما « الدومينيكان » والآخر « الفرنسيسكان » . فانتشر رجالها في آسيا وافريقا ، وتحصل رجال الطائفة الاولى منها على امتياز سدانة بيت المقدس سنة ١٣٣٦ م ، ولكن حدث بين هاتين الطائفتين شقاق أدى لتدخل الكنيسة في شأنه ، فلما لم تفلح الوسائل السلمية عمد البابوات الى القوة فأحدثوا من التعذيب ما لا يبلغه الوصف ، وسافر فى تلك العصور دعاة الى التبت والصين والتتار لتوسيع نطاق المسيحية فوجدوا هنالك من شدة الشكيمة ما اقنعهم بوجوب الاقلاع عن التبشير في تلك الاصقاع . فلما اكتشفت امريكا انفتح للمبشرين مجال جديد فهرعت طوائف الدومنيكان والفرنسيسكان ولاجوستان اليها لبث الدعوة المسيحية هنالك عقب الحروب التي كانت تشنها اسبانيا على شعوبها الوطنية ، وقد عُدي الدعاة للدين هناك بداء الشره والجشع فشابوا دعوتهم بأعمال مادية القصد ، منها الحصول على الثروة واستخدموا أحياناً في سبيل ذلك كل أنواع القسوة .

فقد كتب القس « جيتيه » عنهم يقول كما نقلته دائرة معارف القرن التاسع عشر : « ان حب الاثراء قد استولى على أكثر اولئك القسوس ، فكان أكثر انصرافهم الى نيل المال لا السعي في كسب الأرواح للمسيح . فقد كان مثال الفاتحين الذين مهدوا لهم السبيل مؤثراً عليهم بحيث أن الذين كانوا ذهبوا الى تلك الاصقاع

بأسلحة نقية وانجيلية صاروا رجالاً ظماء للكسب ، تأكل قلوبهم المطامع وقد تغالوا في طريقهم حتى أصبحوا يقرون على تلك المظالم التي كان يصبها الأسبانيون والبرتغاليون على الوطنيين مما لم يسمع به في تاريخ البشر .

نعم إن بعضاً من الرجال المسيحيين قد رفعوا أصواتهم بالاحتجاج ضد هذه الأعمال ، فليس فى الناس من تخفى عليه معارضات « لاس كازاس » . ولكن هؤلاء الرسل كانوا من الندرة بحيث خنقت أصواتهم خنقاً » انتهى .

اتجهت بعثات المبشرين لآسيا ووضعوا نصب أعينهم الهند وفي هذا العهد كانت قد تكونت فرقة « الجيزويت » فسافر اليها المبشر « فرنسو اكسافييه » الذي له أغلاط مشهورة في وظيفة التبشير فلم يحجم عن تأسيس محكمة للتفتيش فى الهند ، وقد نجحت هذه الوسائل القاسية ودخل فى النصرانية عدد لا يحصى من الهنود فانتقلت وظيفة المبشرين من الهند الى اليابان وهنالك وجدت أشد أنواع الاستعصاء فصبر المبشرون هنالك مجاهدين ثلاثين عاماً ثم تركوها لأهلها وقفلوا راجعين . وقدتوصل القس « ركسي » مع بعض رفاقه من الوصول الى « بكين » عاصمة الصين وتحصل على إذن من ابن السماء بتأليف طائفة ، ثم حدث خلاف بين جماعات المبشرين أدى الى تلاشي ما عملوه في الصين .

في أوائل القرن السابع عشر رأت الكنيسة أن تنشط في أمر التبشير لتعوض ما خسرته من النفوذ من جهة « البروتستانتية » . فأعطى البابا خطةمنتظمة وجاء البابا « غريغوار » الخامس عشر فأسس لها مدرسة خاصة يدخلها الشبان من مختلف الامم ليتمرنوا على صناعة الدعوة الى الدين ، وأسس لهم مطبعة تطبع بخمسين لغة وكان ذلك سنة ١٦٢٢ م . ومن ذلك الحين توزع الدعاة على أرجاء الأرض بواسطة أربع طوائف رئيسية وهي : الدومينيكان ، والفرنسيسكان ، والجيزويت ، وآباء البعثات الأجنبية . ثم قسموها الى بعثة الشرق وهي تشمل مصر وجزائر

الارخبيل اليوناني وتركية اوربا وتركية آسيا والفرس ، ثم بعثة الصين وتشمل الكونشنشين ، واليابان والتونكين التي كان فيها قبل الاضطهادات الأخيرة (٨٧) محلاً دينياً ونحو (٧٠٠) كنيسة . ثم يلي هذه بعثة الهند وتشمل جزائر الاقيانوسية الى مانيلا والفلبين الجديدة . وأخيراً بعثات امريكا التي تمتد على الامريكتين الشمالية والجنوبية الى جزائر الانتيل .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر التي نعتمد عليها بنوع أخص في إيراد هذا التاريخ . قالت بعد أن ذكرت عناية المبشرين بنشر دعوتهم وتوزعهم في الآفاق ما ترجمته : ومع هـذا رغماً من المجهودات العظيمة التي بذلها المبشرون فان أعمالهم لعدم ارتكانها على شيء جدي ارتكنت الى ضد ما وضعت له ، فحرمت اليابان الديانة النصرانية على رعاياها سنة « ١٦١٥ » وطردت سيام المبشرين من ممالكها سنة « ١٦٨٨ » ، وزالت المسيحية من الصين عقب المناقشات التي ثار ثائرها بين « الجيزويت والدومينيكان » وطرد المبشرون منها مراراً .

فما هو يا ترى سبب انهيار عمل المبشرين في العالمين ؟ نأخذ الجواب عن مؤرخ ديني ولكنه خال من الغرض فقد قال : « إن المبشرين وخصوصاً الجيزويت يعاملون الوطنيين بخشونة تبعدهم عن الدين الذي يدعونهم اليه . وزيادة عن هـذا فان هذه الجماعات « الجيزويتية » كان أكثرها يشتغل بالتجارة والمضاربات ويجتهد في الحصول على المال ، فكان لجماعتهم مستودع عظيم في جزائر الفلبين خاص بتجارتها مع امريكا والهند ، فكانت تصدر لأسبانيا وروما منها كنوز عظيمة من المال ومع هذا فكانت تنشر نشرات تحت عنوان (خطابات معلمة وعجيبة) بين (كاثوليك) اوربا بقصد امداد البعثات الدينية بشيء من مكارمهم ، وكانوا يحترسون أن يذكروا فيها شيئاً عن تجارتهم ومضارباتهم الصناعية ، وكانت تلك النشرات تصور البعثات الجيزويتية مركبة من رجال الله الذين يلتهبون شوقاً الى نيل درجـة الشهادة

معرضين أنفسهم لجميع الأخطار لكسب الأرواح للانجيل . وكانت تسجل لهم نجاحاً باهراً في أداء مهمتهم فكان يتوهم من يقرأ تلك الخطابات أن المسيحية فى امريكا والشرق أزهر منها في اوربا ذاتها . وكانت البعثات من الطوائف المسيحية الاخرى يشهدون أن الخطابات المعلمة التي ينشرها الجيزويت لا تحكي إلا حكايات مختلفة تؤلف بقصد جر المنفعة المادية من أتقياء الكاثوليك لاغناء شركتهم التجارية وكانوا يشنون على البعثات الاخرى حرباً عواناً ليتخلصوا من شهاداتها على مختلقاتهم فمن المحقق أن النتائج التي يطنطن بها الجيزويت في خطاباتهم لا وجود لها في الواقع وغاية ما في الأمر أن البعثات الدينية توصلت بعد جهد جهيد لاستهواء عدد من رجال تختلف درجاتهم في المدارك ، ولكن ليس بصحيح أن المسيحيين كثر عددهم في البلاد التي أقامت بها تلك البعثات .

ونرى اليوم أن تلك البعثات رغماً من جهادها المتواصل في الجهات الشرقية من امريكا لم تتوصل إلا الى تنصير عدد قليل من أهل امريكا الأصليين .

ولدينا سبب آخر يدلنا على أن الحال يستحيل أن يكون على غير هذا المنوال وذلك أن البعثات الدينية لا تستطيع أن تثبت في جهة من الجهات إلا تحت حماية قوية تحميها من الاضطهادات أن تتسرب اليها على أثر فاتح من الفاتحين . وعليه فقد وجد ضدهم حذر لا يقاوم ويستحيل ملاشاته .

وهذا أمر لا يحتاج لبيان ، ولذلك نعفي أنفسنا من إيراد أرقام الاحصاءآت المختلفة التي تنشرها نشرات بث الدعوة الى الدين وهي تثبت أن هذه الدعوة لم تكن في حين من الأحيان زاهرة كما يدّعون ، ويجب عدم الثقة بهذه الاحصاءآت وعدم النسيان بانها تحرر بكثرة في « باريس وليون » وتنصح بوجوب مقارنتها بالمؤلفات التي تنشر ضدها . نذكر منها مذكرات الأب « نويبرما كابومان » ومؤلفات « الدومنيكال اورفائل » و « نافاريت » وغيرها ، والمذكرات المقدمة لمعهد البابوية

بروما بواسطة قسوس دير البعثات الاجنبية وأخبار السياح المختلفة ؛ وكذلك بالجزء الثاني من تاريخ الجيزويت للقس حيتيه » . انتهى كلام المؤرخ الديني نقلاً عن دائرة معارف القرن التاسع عشر .

أما علاقة المبشرين بالامم التي يدعونها لدينهم مع أن أكثرها على درجة منحطة في العلم والمدارك ففيها عبرة لمن اعتبر .

فقد كتبت « مادموازيل فولان » سنة (١٧٦٥) كما نقله عنها « ديدرو » في دائرة معارفه قالت : « إن للانجليز كلفاً كما لنا بتنصير الناس فقد يتغلغل مبشروهم فى أحشاء الغابات يحملون للمتوحشين العقيدة ، وقد حدث أن أحد رؤساء تلك القبائل قال لأحد اولئك المبشرين : أخي انظر الى رأسي وقد اشتعلت شيبا أترى نشدتك الله انه من المستطاع أن يقنع أحد من كان فى سني هذا باعتقاد كل هذه الحماقات ؟ ولكن لي ثلاثة أبناء فابعد عن أكبرهم فسيضحك مما تقول ، واستول على الأصغر فانك تستطيع أن تقنعه بكل ما تقول .

ولبث مبشر آخر يدعو بعض المتوحشين بواسطة ترجمان فبعد أن سمعوا ساعة ما يقال لهم ، سألوا المبشر وماذا لنا أن اعتقدنا ما تقول ؟ فقال المبشر للترجمان قل لهم انكم تكونون عباد الله ، فأجابه الترجمان كلا انهم لا يريدون أن يكونوا عبيداً لأحد . فقال المبشر : إذا كان الأمر كذلك فقل لهم إنهم يكونون أبناء الله . فأجاب الترجمان هذا حسن ، وسر المتوحشون من هذا الجواب .

قالت دائرة معارف القرن التاسع عشر التي نودر عنها هذه الفكاهات : وإليك حادثة اخرى تريك ماذا يجب أن يفهم عن التنصير « الكانيبالي » أو (الهوروني) المزعوم فقد توهم أحد رجال المبشرين انه أتى عملاً جليلاً في هذا الباب وأراد أن يعرض أحد الذين هداهم على الناس فأتي به الى « لوندرة » فكان المتفرجون يسألون الهوروني الصغير وهو يجيب ويحسن الجواب فقادوه الى الكنيسة وبعد

أداء الصلاة سأله المبشر قائلاً : ألا تحس يا بني انك أكثر شعوراً بحب الله ؟ أما أحسست بأثر الصلاة فيك . أليست روحك قد صارت أكثر حرارة ؟ .

فأجاب الهوروني الصغير : نعم لقد أحدث النبيذ علي أثراً حسناً ، وأظن لو كنت أعطيت من العرق كان التأثير أكثر حسنا .

البعثات البروتستانتية

أول بعثة بروتستانتية أرسلها الى لابونيا جوستاف وارا سنة « ١٥٥٩ » ولم يتأخر عن أن يحذو حذوه الانكليز ، وكانت بعثاتهم أكثر نشاطاً وأكبر غيرة وأجل نتائج وأصبر على الشدائد ، فقد قرر البرلمان الانكليزي سنة ﴿ ١٦٤٧ ﴾ أن تنشأ بعثات دينية وترسل الى الجهات القصية لنشر الدين فتألفت تلك البعثات وانتشرت في الارض .

وكذلك سار الدانياركيون سيرة الانكليز فألفوا كثيراً من البعثات الدينية الى الهند من سنة (١٧٠٤) . ولم تلبث هولاندا جامدة بأزاء هذه الحركات ، فقد تألف فيها بعثات بروتستانتية كثيرة وجهت الى أقصى الجهات .

واليوم نشطت الولايات المتحدة لهذا العمل فترى بعثاتها تناظر البعثات الانكليزية في كل مكان .

يكتفي المبشرون البروتستانت بتوزيع الكتاب المقدس وكثيراً ما يخلطون الأعمال التجارية بوظيفتهم الدينية كما كان يفعل الجيزويت . انتهى . ملخصاً من دائرة القرن التاسع عشر .

المبشرون والاسلام

أشد ما يلاقيه المبشرون في طريقهم من الخصوم دين الاسلام ، فان هذا الدين السمح ينتشر بلا دعوة بل محمولا على السنة التجار الى اقصى بلاد العالم حتى شهد (الكاردينال لافيجري) الفرنسي الذي كان يقول (لأن يكون الانسان بلا دين خير

من أن يكون مسلماً بأنه قد اعتنق الاسلام فى افريقا نحو الستين مليوناً من النفوس وكما ينتشر الاسلام في افريقا فهو ينتشر فى الهند والصين ، فقد حُسب أن مسلمي الصين قد بلغوا ثمانين مليوناً ، ومسلمي الهند خمسة وسبعين مليوناً) .

جاء فى « مجلة المبشرين » التي تطبع في (نيويورك) بعددها الصادر في شهر اكتوبر تحت عنوان (انتشار الاسلام) ما ترجمته بالحرف الواحد (إن القس (اوتارانيان) الذي كان من سلالة النبي الكاذب وكان مولوياً ثم اهتدى وتعمد سنة (١٨٨٥) وصار مديراً للمدرسة الألمانية في (بوتسدام) التي ينشأ منها المبشرون المسيحيون ويرسلون الى البلاد الاسلامية . هذا القس لفت نظر الرؤساء الانجيليين الى تعدي الاسلام ، واظهر الخطر المحدق من انتشاره ، وتكلم عن الصحف الاسلامية . وقال إن الانتشار السريع الذي يلاقيه الاسلام فى افريقا وآسيا يجعل هذه الصحف تتخيل وتكتب عن مستقبل الاسلام وتعلق الآمال بانه سيصير يوماً ما الدين الحاكم في كل العالم) .

وقالت أيضاً تحت عنوان (الحركة العدائية على المسيحيين في افريقية) (إن أكبر مناظر للمسيح فى افريقية هو محمد وليس المسلمون فقط هم الذين يقاومون المسيحية هناك ، بل الدول الاوربية أيضاً مثل انكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول المستعمرة كما يقول الدكتور (زويمر) : تعمل على ذلك . ففي (كلية غردون) في الخرطوم مثلاً يدرس القرآن ولا يدرس الانجيل ، وتفتح المدرسة يوم الأحد وتعطل يوم الجمعة ، ويلاحظ الكثير من الموظفين الاوربيين الاعياد والمواسم الاسلامية ويحترمون العوائد الدينية ، حتى أن حاكم (تيازا) السابق منع قرس الجرس في احدى الكنائس لأن المسلمين اعترضوا على ذلك ، ووزع موظف انكليزي نسخاً من القرآن ، وأصبحت قبيلة (ياوا) الآن تابعة للاسلام) .

وقالت أيضاً تحت عنوان « الاسلام في اوربا وامريكا » : « إن دليل تقدم

الاسلام ونجاحه في « لفربول » هو المسجد الجميل الذي اقيم منذ مدة قريبة ويؤمه الكثيرون من الانكليز المسلمين حتى جعلوه مجتمعاً لهم ، ويتعبد فيه المسلمون الموجودون في تلك المدينة . ويلاحظ أن هؤلاء الانكليز يحافظون على أوامر دينهم الجديد إلا في تعدد الزوجات ، لأن قانون انكلترا لا يسمح به ، ويسمون أبناءهم بأسماء عربية وتركية وفارسية ، ويقدّر عددهم بنحو ألف نسمة في تلك المدينة . أما المسجد فجعل البناء والى جانبه مدرسة للبنين والبنات ومكتبة ومتحف ومستشفى ومخزن للكتب ومنتدى للخطابة في اللغات الشرقية ومواضيع اخرى » .

المبشرون في مصر والهند والعراق

كثر المبشرون في الهند ومصر والعراق عقب الفتح والاحتلال الانكليزي . ولسنا نقول إنهم أخطأوا في السعي وراء بث دعوتهم ، بل نمدحهم على غيرتهم ونتمنى أن لو استطعنا أن نجاريهم في هذا المضمار ، ولكننا نلاحظ عليهم أموراً لا ندرك كيف لم يحترزوا من الوقوع فيها . ولا كيف اعتبروها وسائل منتجة في الهند ومصر والعراق ! ! ؟ .

« الأمر الأول » محاولتهم الحط من كرامة الدين الاسلامي في نظر أهله لا بدليل ناهض وحجة دامغة ، بل باختلاق الأباطيل وابتكار الأحابيل مما يدرك بطلانه أقل المسلمين علما .

« الأمر الثاني » محاولتهم إثبات تحريف القرآن بالزيادة والنقص مع تحققهم وتحقق كل متأمل في كيفية حفظه أنه لو كان كتاب في الدنيا حفظ من تبديل وتحريف في أصغر نقطة فيه فلا يكون غير القرآن .

« الأمر الثالث » غلوّهم في الطعن على أخلاق رسول الله محمد (ص) وسيرته مع تضامن المصادر التاريخية كلها على أنه كان مثالاً في الكمال الانساني . لم تحفظ عليه خطيئة ولم توصم حياته بنقيصة . كل هذا في حين أن كتبهم لم تدع نبياً كريماً

ولا رسولا عظيما جاء قبل عيسى عليه الصلاة والسلام إلا ألصقت به من الكبائر ما يتنزه عنه أقل فاضل من عامة الناس . فنسبت لبعضهم الزنا بينتيه ، ولبعضهم السكر ولبعضهم عبادة الاصنام . . . الخ

« الأمر الرابع » ترامیهم على الناس في الطرق والمتنزهات وتهجمهم على السابلة بأساليب يأباها العرف .

« الأمر الخامس » تحايلهم على ادخال الاطفال في مدارسهم وتغفلهم بعض الآباء في إبعاد أبنائهم عنهم وتنصيرهم .

لا جرم أن كل أمر من هـذه الامور قد أنتج نتائج لا تتفق مع مصلحتهم ولا تلائم محاولاتهم .

فأنتج الامر الاول شعور المسلمين بأن القوم مثير شغب لا دعاة حق . فان من يخلق الاباطيل لترويج بضاعته وخصوصاً فيما هو من عـداد البديهيات يحط من قيمة دعوته ، ويدعو الى الشك في حقيقته . فهبّ المسلمون لا لمقارعة حجة بحجة ولا تفضيل دين على دين ، بل لدفع فريات وتكذيب مختلفات . وكفى بهذا سقوطاً لهم في نظر من يدعونهم الى ملتهم .

وأنتج الامر الثاني خفوف المسلمين لتأييـد برهان القرآن وإثبات تحريف كتب خصومهم ، وقد هداهم البحث للوقوف على أدلة ذلك التحريف من نفس كتبهم وعن السنة كتابهم ، فكان مصابهم بهذا الامر مزدوجاً .

وأنتج الامر الثالث زيادة تعلق المسلمين برسولهم ، فان اهتمام مؤلفيهم إيراد شهادات علماء الافرنج على كمال أخلاقه «ص» أوجـــد في المسلمين مادة جديدة للتعلق بحب رسولهم .

وأنتج الامر الرابع اعتقاد المسلمين بثقل وطأتهم ، ونشأت لهم من تهافت خصومهم عليهم بتلك الاساليب عاطفة استخذاف بهم ، فان كل معروض مهان .

فما بالك إذا كان الغرض بتلك الدرجة من التهافت .

وأنتج الامر الخامس عقيدة راسخة في أفئدة عامة المسلمين وخاصتهم بأن القوم ليسوا على شيء ، وغاية مايتذرعون به لنشر دعوتهم الاعتماد على هذه الصغريات

كل هذه النتائج تألبت على اسقاط حجة المبشرين في الهند ومصر والعراق فهان أمرهم على العامة والخاصة ، وجنوا من مجموع محاولتهم الفشل التام . ولا غرو فان أمثال هذه الامور كافية لاسقاط أكبر حجة في العالم .

يظهر لي أن السبب في حدوث هذه الصغريات من دعاة النصرانية هو إسناد أمر الدعوة لشبان يلتقطونهم من هنا وهناك . فمن مبلغ عني قادة المبشرين أن قوة الدين الذاتية تكفل انتشاره بقليل من المجهودات ، بل وبدون مجهودات ؟ .

ألا يرون أنه مع ضعف المسلمين وانصرافهم عن التفكر في أقدس واجباتهم يدخل في دينهم من أهل المذاهب الاخرى في كل بلد وبتمام الحرية مالو أحصي لخرج عن الحصر سنوياً حتى يكاد لا يمرّ في أكثر الممالك يوم لا نسمع فيه باسلام رجل أو امرأة بلا دعوة .

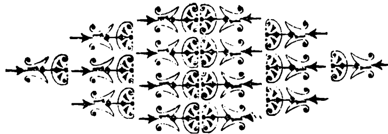
لسنا بصدد إظهار قوة الاسلام وضعف النصرانية في هذه المقالة . وإنما الذي نريد أن نقوله ان المبشرين قد أضروا بدينهم من حيث يريدون له الانتشار بما استخدموه من الاساليب التي لا تتفق مع دعوة جدية . لا أريد بقولي هذا انه من الممكن أن يتنصر بعض المسلمين لو اتبع المبشرون خطة مثلى في بث دعوتهم ، فان المسلمين أبعد الامم عن تغيير دينهم بعد ما شهد الوجود بسلامة اصوله من المغامز ، وإنما أريد – منه – أن ابين لهم أن طريقتهم التي يتبعونها ليست عقيمة فقط . بل هي تضر بدعوتهم ضرراً لا حدّ له .

يشكو المبشرون من سرعة انتشار الاسلام وقوة تأثيره على النفوس ، ومن أنه سيلتهم افريقا وآسيا بأجمعها ، فتراهم بدلا من أن يدرسوا مصدر هذه القوة

وذلك التأثير ليعطوا الحقيقة قسطها من الاحترام يتألبون على اطفاء نورها بنشر المطاعن فيها وبث المغامز عليها بمقالات لو انبرى لها أقل المسلمين علماً لما أبقى لها عيناً ولا أثراً . ولا ندري من أين أخذوا هذا الاسلوب لوقف تيار المبادىء القوية وصد تأثيرها الغالب ؟ .

إن لكل مبدأ من المبادىء قوة ذاتية معينة ومجال تأثير محدود ونفوس متهيئة لقبوله ، فلا المطاعن تضعف من قوته ولا الشتائم تضيق من مجاله ، بل الذي يؤثر فيه أن يسلط عليه مبدأ أرقى منه ينازعه السلطة على النفوس ، وأصل أعرق منه يجاذبه السطوة بمكانات الاذعان من القلوب ، فان فقد خصومه هذا السلاح كانوا بتخبطهم في دفعه من أقوى عوامل انتشاره وأكبر مهيئات سلطانه :

هذا هو الأثر الذي نجم من مجهودات المبشرين بمصر والهند والعراق . بل وافريقا وآسيا معاً . قابلوا الاسلام بهذه الأسلحة المغلولة فزاد عدد اشياعه وقويت شدة تياره ، فجرف أمامه كل ما سواه فلم يبق ولم يذر م؟



الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه « اللورد كرومر » عن الاسلام . كانما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الاسلام ويضن به ضنه بنفسه وماله أن يؤمن بالواحدانية ويصدّق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلا .

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي مستمسك بيسوعيته أن الاسلام دين موضوع ابتدعه رجل عربي بدوي اميّ ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرايع والعمران .

هـذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخطئه فيما وضعه للناس من الشرايع والاحكام ! ! وكيف يسمح لنفسه أن ينظر اليه بالعين التي ينظر بها المسلم اليه من حيث كونه نبياً مرسلاً موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الاسلام وإطراء أحكامه وآياته فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم

ولا ريب في أن « اللورد كرومر » ليس واحداً منهم ، فان من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خُيلّ اليه أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلقَّ صليبه في زنّاره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يندهش أو يذهب به العجب كل مذهب إذا رأى في كتاب « اللورد كرومر » ما يراه كل يوم فى كتب المبشرين الانجيليين وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن على الاسلام وعقائده وشرايعه ! ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين ان حكموا بوجود اللحن فى القرآن بعد اعترافهم بانه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب

وليست مسألة الاعراب واللحن مسألة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وإنما الاعراب ما نطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلا لكان رفع الأول ونصب الثاني لحناً ، ولكن المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات واستدلوا على وجود اللحن فى القرآن بقواعد النحو التي ما دونها مدونوها إلا بعد أن نظروا فى كلام العرب وتتبعوا تراكيبه وأساليبه . وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد .

فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فاذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بأنهم مقصرّون فى التتبع والاستقراء ، على انهم ما قصرّوا في شيء من ذلك وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً إلا دوّنوه في كتبهم ، فلا القرآن ملحون ولا النحاة مقصرّون ولكن المبشرين جاهلون . فاذا كان التعصب الديني أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الاسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع « اللورد كرومر » ولا أمثاله من الطاعنين على الاسلام

في معتقدهم ، ولكننا نحب منهم ألا ينازعون فى معتقدنا وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول « اللورد كرومر » : « إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الانسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي » . ويستدل على الاسلام بالمسلمين وعلى المسيحية بالمسيحيين .

فنقول له : في أي عصر من عصور التاريخ كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحروب الدموية بين الارثوركس والكاثوليك تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت اخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس الانسانية وبكت الارض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل ، فلا يعلم إلا ما يُعلمه إياه ولا يفهم إلا مايلقيه اليه ، فما كان يترك له الحرية حتى فى الحكم على نفسه بكفر أو إيمان وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل فى نفسه أن له ذنباً متحركا وخيشوماً طويلاً ، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن أنت كاب أو قال له : انك لست بانسان ! ! ؟ .

أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سُم الخياط أقرب من دخول الغني فى ملكوت السماوات ؟ .

أم في العصر الذي كان يحرّم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس ، وأن يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة !!؟ .

أم فى العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذُعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها فى الجو فولت الأدبار ! ! ؟ .

أم في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان

فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فرَّ من وجهها ظناً منه أنها تشتمل على الجن والشياطين ! ! ؟ .

أم في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلباً ! ! ؟ .

أم فى العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاتاً حسناء بعد ما كشط لحمها وحرق عظمها لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة ! ! ؟ .

هذا الذي نعرفه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة ؟ .

وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقف على حقيقتها كما فعلت أنت في استدلالك بالمسلمين على الاسلام وإن لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل .

فان المدنية الحديثة ما دخلت اوربا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منه الهواء لأنه لا يتسع لهما ، فان كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة فى اوربا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين يجب إجلاله وإعظامه ، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها أو باعتبار أنه أثر من آثارها و نتيجة من نتائجها . ولوكان بينه و بينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها اوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ولا أغنى عنها (كهنوتها)

أما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع

واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من أمرها ولا تُنكر من أمره شيئاً .

فالمتعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيمائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي أمام اسطرلابه ، والكاتب بين محابره وأوراقه . اخوة متصافون وأصدقاء متحابون ، لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي أحد منهم على أحد .

أيها الفيلسوف التاريخي إن كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الاسلام بالأمس ، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى واليك البيان :

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفرداً وما ينفعه مجتمعاً . هذّب عقيدته بعد ما أفسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل والأوثان واحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان ، وأرشده الى الايمان بإلوهية إله واحد لا يشرك به شيئاً . ثم أرشده الى تسريح عقله ونظره في ملكوت السماوات والارض ليقف على حقائق الكون وطبايعه وليزداد إيماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكون آلة صماء في يد الاهواء تفعل به ما تشاء . ثم ارشده الى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت اليه سبيلا وهي مواقف العبادات ، ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعد ما كان يجهلها ، وعلمه الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وان الملك والسوقة والشريف الهاشمي والعبد الزنجي أمام الله والحق سواء

وإن الأمر والنهي والتحليل والتحريم والنفع والضر والثواب والعقاب والرحمة والغفران بيد الله وحده ، لا ينازعه فيها منازع ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين . ثم نظر في أخلاقه فأرشده الى محاسنها ونفّره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والكلام والتحية والسلام . ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يُبر الابن أباه ، ويرحم الوالد ولده ، ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم . ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت فى مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير ، وندبه الى الصدقة ومساعدة الأقوياء للضعفاء وعطف الأغنياء على الفقراء . ثم شرع له شرايع المعاملة الدنيوية ، ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة ، والقرض والتجارة ، والاجارة والمزارعة ، والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه فلا يغبن أحد أحداً . ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتم أو سب ، أو قتل أو سرقة ، أو انتهاك حرمة ، أو مجاهرة بمعصية ، أو شروع فى فتنة ، أو خروج على أمير أو سلطان . ثم نظر فى شؤونه السياسية ، فقرر الخلافة وشروطها ، والقضاء وصفاته ، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين اليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول إن الدين الاسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وماترك الانسان يمشي فى ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده إلا مد يده اليه ، وأنار له مواقع أقدامه وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء الغرب فملأت الكون نوراً وإشراقاً ، واختلف الناس فى شأنها ما بين معترف بها ومنكر لوجودها ، ولكنهم كانوا جميعاً

سواء في الانتفاع بنورها والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع . طلعت هذه الشمس المشرقة فتمشت أشعتها البيضاء الى اوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال الدين الاسلامي وشرايع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا أيمكن أن يعيش الانسان حراً على هذه المسكونة لا يستعبده ملك ولا يسترقه كاهن أيمكن أن يبيت المرء ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده لا يروعه دولاب العذاب ولا سيف الجلاد ؟ أيمكن أن تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ، أيمكن أن يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت أبصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضا ؟ ؟ .

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرايعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضاراتهم ومدنيتهم ثم أخذوا يعلمونها الناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ويلقون في سبيل نشرها عناءاً شديداً .

واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي انك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه كما تعلم أن المدنية الاسلامية إذا وسعت غيرها فأحرى بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه فما كفاك إذ أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله في نفسه .

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الاسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، أو أصف لك مدنها الزاهرة وأمصارها الزاخرة وسعادتها وهناءها وعزتها وسطوتها فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول . غير اني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب في ذلك الاسلام كما تتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء وامرائه الجهلاء ، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان .

أيها الفيلسوف التاريخي لا تقل إننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد أسأت الينا والى ديننا . فلم نر بدأ من الذب عنا وعنه بما نعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما نقول ، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

البحث عن الآخرة

« الآخرة » هي الحياة التي وعد الله عباده بها في كتبه المنزلة على رسله . وقد انقسم الناس قديماً وحديثاً بأزاء هذه العقيدة الى ثلاث رتب :

أولها رتبة أهل الله وخاصته ، وهؤلاء قد انفتق لهم حجاب المادة فرأوا ما وراءها رأي العين فآمنوا بالمشاهدة والعيان . ومن هؤلاء النبيون والصديقون . وقد تنال هذه الدرجة هبة من الله كما في النبوة ، أو بالكسب كما يحصل لأهل الرياضات ورجال المجاهدات .

ثانيها رتبة أهل البصائر الثابتة والفطر السليمة ، وهؤلاء يكفيهم مجرد النظر في ملكوت الله وما أودع فيه من أعلام بينة وأدلة قاطعة .

ثالثها رتبة الحسيين وهم الذين لا يرضيهم من العقائد إلا ما يؤثر فى حسهم ويدهش مشاعرهم . وهم غالب أهل هذا العصر ، فان العلوم الطبيعية وتشدّد أهلها في رد العقائد الى النواميس المعروفة قد أحاط الأديان ومقرراتها بشبه كثيرة جعلت الايمان بعوالم الغيب فوق مقدور الآخذين بها والمتابعين لهم .

فاما الرتبتان الأوليان فقد هداهما الله بنوره ودلّهم على الطريق بتوفيقه . وأما الرتبة الثالثة وهي الطالبة للبراهين المحسوسة ، فقد كشف الله لها عالم الروح ما ينقع غلتها ويشفي علتها . ومن يتأمل في ابحاث العلماء في التنويم المغناطيسي

واستحضار الأرواح تأخذه الدهشة فيتحقق أن الخالق الحكيم ما خلق في النفوس الحسية هذه النزعة إلا وقد كشف لها بازائها ما يبلغ حاجاتها . وقد حدث فى عالم العلم الاوربي والامريكي انقلاب مدهش من هذه الجهة لا يزال أكثر كتاب الشرق في غفلة عنه ، ولا يزال بعض المؤلفين فيهم يترسمون طريق فلاسفة القرن التاسع عشر في الالحاد ونكران عوالم الغيب ، فان الفتهم الى ذلك الحادث الجلل قالوا هذه تدليسات بعض الدجالين مع أن مقرريها أئمة النهضة العلمية في اوربا وامريكا فتراهم يلقون هذا القول على عواهنه غير حاسبين للمسؤلية حسابا . والله يعلم أن إثمهم من تسميم عقول الناس لعظيم .

العقيدة بالآخرة قديمة كقدم الدين نفسه وللامم فى تصورها عقائد لا بد من الألمام بها هنا قبل الدخول في الأدلة المقررة على حقيقتها ، فنقول :

قال العلامة « هربرت سبنسر » فى المجلد الأول من كتابه على « اصول علم الاجتماع » : « لما كان الانسان فى عهده الأول غير قادر على التفكر وغير حاصل على لغة تسمح له بانعام النظر فقد أدرك عالم الآخرة على قدر استطاعته . ومن هنا نشأت هذه الفوضى في عقائده فيما يتعلق بحالة الأشخاص بعد موتهم » .

وانا لنصادف لدى القبائل التي تعتقد بان الموت هو الفناء المطلق عقائد اخرى لا تتفق مع مذهبها ، كاعتقاد بعض شعوب افريقية التي زارها (شوتفورث) فى وجود أرواح مؤذية في بعض المغارات هي أرواح الهاربين الذين ماتوا فيها فتراهم يتجنبون المرور بها .

ويعتقد بعض الشعوب المتوحشة أن الحياة فى دار بعد هذه الدار تتبع المعاملة التي كابدها الجسد . فان فني وتلاشى فنيت شخصيته معه ، وإن سلم من هذا التلاشي وسكنت روحه فى عالم الآخرة فقد تفنى على أقسى الحالات إذا اتفق أن قرين الميت مات فى احدى الحروب موتة ثانية أو هلك في الطريق الموصل الى أرض

الأموات أو أكلته الآلهة . ويعتقد أهالي جزائر (تونجا) بأن لا خلود إلا للرؤساء وهنالك امم اخرى تعتقد أن لا خلود إلا للشجعان ، فهو مكافأة للشجاعة .

وروى (برنتون) أن في جو اتمالا من امريكا قبيلة هادئة مطمئنة تعتقد بأن لا حياة اخرى إلا لمن يموت موتاً طبيعياً . أما من عداهم فلا أمل فى بقائهم فى عالم بعد هذا العالم . وعليه فهم يدعون أجساد الذين يقتلون للحيوانات تنهشهم نهشا

والآريون الاقدمون كانوا يعتقدون أن الحياة الدنيا منحة من آلهتهم يهبونها لمن شاؤا ويمنعونها من شاؤا ، ولذلك يجب على من يريدها أن يضحي لها الأضاحي ويقرب لها القرابين . وتعتقد أقوام اخر أن فى الحياة الاخرى موتة اخرى وهي القاضية الى الأبد .

ومن القبائل من تعتقد أن الموتى الذين يظهرون لبعض الناس فى موتهم هم الأحياء في الآخرة دون سواهم من لا يظهرون لأحد . قال العلامة هربرت سبنسر : إن الامم المتوحشة قد ترقت من إدراك عالم اخروي غير متناه .

وأما الحال الذي يكون عليه الميت فى عالم الآخرة فهو لا يفترق في نظر المتوحشين عن حاله في هذا العالم ، فأعماله وميوله تلازمه هنالك ، فيعتقد (الشيتوكيون) أنه متى جن الليل استيقظت أرواح الموتى وهبت تبحث عن الغذاء . ويعتقد سكان جزائر (فيجي) أن الموتى يزرعون ويحصدون ويعيشون فى اسرة ، ويتقاتلون ويعملون ما يعمله الأحياء .

ومن هنا يعتقد (الابونيون) أن الموتى يعملون ولائم من لحوم الابل . ويعتقد (الكريكيون) أن موتاهم يتنقلون الى بقاع يكثر فيها الصيد ويرخص فيها ثمن الحبوب ، وتدوم فيها طول السنة ، وتنبع فيها عيون لا تنضب أبداً .

ويؤمل (البتاجونيون) أن يتمتعوا بعد موتهم بسكر دائم . ويعتقد أهل (ابريد الجديدة) فى الاوقيانوسية أنهم بعد موتهم يذهبون الى حيث يجدون

جوز الكوكو وثمر شجر الخبز على أجود ما يكون وبكثرة ليس معها قلة . ويعتقد (التوديو) أن ابقارهم تتبعهم بعد موتهم لاعطائهم لبنا .

ويعتقد سكان (بشمانيا) من جزر الاوقيانوسية أنهم بعد موتهم يتمتعون بقوة في الصيد لا تكل وبنجاح لا يخيب .

ويعتقد « الداكوتاهيون » أنهم بعد موتهم لا يكلون من ذبح الفرائس ومن محاربة أعدائهم الاقدمين .

ولما كانت هذه عقائد الكثيرين من المتوحشين فقد اعتادوا أن يضعوا مع الميت أسلحته حتى يستخدمها لاغراضه الجديدة ، ومنهم من يضع مع النساء ادواتهن المنزلية ومع الاطفال ألاعيبهم .

ومن القبائل وهم (الاليبوليون) من يعلق ملابس الميت على شجرة بجانبه ليلبسها إن أراد الخروج من القبر . ويضع الساموبديون ، والاستراليون الغربيون ، والداماريون ، وغيرهم من شعوب استراليا مع الميت كل ما يمتلكه لينتفع به بعد موته ولما دفن أهل جزيرة مدغشقر آخر ملكاتهم لفوها في خمسمائة رداء من الحرير ووضعوا في ثناياها عشرين ساعة ومائة سلسلة من الذهب وخواتم وحلي وأساور وجواهر اخرى ، ووضعوا معها بعد كل هذا خمسمائة قطعة من الذهب .

ويدفن (الدياكيون) مع موتاهم غير أموالهم الخاصة أموالاً اخرى ، حتى ان الاب الذي يبتلي بموت عدة من أولاده يقع في الفاقة والمتربة من بعدهم .

اعتاد (الكرجيزيون) أن يدفنوا مع رئيسهم خيوله التي كان يحبها . وهذه عادة الكثيرين من المتوحشين ، وقد تغالى التوديون في هذه العادة ، حتى أنهم يدفنون مع الميت كل ما يملكه من الحيوانات . ويدفن متوحشو بيرو من امريكا مع موتاهم كيساً من الكوكو والذرة . . . الخ ليستخدمها في زراعة غيطة في الآخرة

ومن المتوحشين من غلو غلواً كبيراً في هذه العقائد حتى أنهم ليضحون مع

الميت نساءه وعبيده وبعض خاصة أصحابه ليأنس بهم في الآخرة . وهـذه العادة توجد أيضاً عند الشعوب التي بلغت شيئاً من الحضارة ، فتصادف في بولينيزيا وأهل خالدونيا الجـديدة ، وعند الفيجيين . والتونجانيين . والشينوكيين . والـكرايبيين . والداكوتاهيين . وعند شعوب الـكونغو وسود أواسط افريقية وسواحلها ، وهي فى غاية الانتشار بالداهومي . وفي مكسيكا من امريكا كانوا يذبحون مع كبيرهم كاهناً ليقوم له بالخدمة الدينية فى العالم الآخر . وهنود فيرابار متى أشرف السيد لديهم على الموت يعمدون الى قتل جميع عبيده ليهيئوا له محلاً في عالم الآخرة حتى إذا انتهى اليه وجده معداً له .

وكان أهل مكسيكا يقتلون مع ملـكهم بعض الذين كانوا يتلهى بهم الملك من المضحكين ليتلهى بهم فى عالم الآخرة . وكان عدد الضحايا عند المـكسيكيين يجب أن يناسب قدر الميت . وقد روى المؤرخون أن من الموتى هنالك من يبلغ ضحاياهم المائتين . وروي أنه متى مات ملك البيروكانوا يضحون له خدمه وسراريه المحظيات ممن يبلغ عددهم أحياناً ألف نسمة .

روى العلامة « جارسيلازو » أنه متى مات ملك البيروكان نساؤه يتدافعن للحاق به ، وكان يزيد عددهن لدرجة أن رجال الحـكومة يتدخلون فى الامر ويقررون بأن من ذهب معه منهن يكفيه . وروى (سيزا) أن من النساء هنالك من يتسابقن لقتل أنفسهن علامة على اخلاصهن للميت .

ولدى اليوروبانيين في افريقية : يعمد أصحاب الميت لتعاطي السم ليلحقوا به هذا عدا نسائه وجواريه اللاتي قتلن من أجله .

وفي الـكونغو كان إذا مات الملك تصعد على قبره اثنتا عشر شابة لتدفن معه أحياء ، وقد كن يتزاحمن لنيل هذه الحظوة ، حتى أن بعضهن كان يقتل بعضاً من شدة المزاحمة .

ومن عادة الداهوميين انه متى مات الملك ابتدأ نساؤه بكسر جميع ما في بيته ثم يعمدون الى إتلاف أمتعتهن ، ثم يتولى بعضهن قتل بعض . وقد حدث مرة أن مائتين وخمسين امرأة قتل بعضهن بعضاً لهذه الغاية قبل أن يتوصل الملك الجديد لمنعهن . وروي (كان) أنه إذا مات ولد عزيز لأحد الناس في (انيتون) ذبحت له امه أو عمته أو جدته لتصحبه في العالم الآخر .

إثبات الآخرة

إثبات الدار الآخرة من أهم أغراض الفلسفة القديمة والحديثة . وإنا هنا موردون طرفاً من كلتا الفلسفتين وأحسن مصدر ننقل عنه أدلة الفلسفة القديمة : هي كتب العرب الذين أجادوا النقل عن الحكمة اليونانية وزادوا عليها ما أثمره لهم نظرهم في الكون وتأملهم في كائناته .

قال العلامة نظام الدين الحسن النيسابوري في تفسيره : اعلم أن للعلماء في إثبات المعاد طريقين : **الاولى** طريقة القائلين بالحسن والقبح العقليين ، والثانية طريقة من يقول لا يجب على الله شيء أصلاً ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

أما الفريق الأول فلهم على وجوب المعاد حجج عقلية ، منها أنه تعالى خالق الخلق وأعطاهم عقولاً وقدراً ، فيجب في حكمته أن يرغبهم في الخيرات ويزجرهم عن السيئات . وهذا الترغيب والزجر لا يمكن إلا بربط الثواب على الفعل والعقاب المرهب غير حاصل في الدنيا ، فلا بد من دار اخرى هي دار الآخرة ليحصل فيها ذلك وإلا لزم أن يكون الله تعالى كاذباً في قوله : ليجزي . . . الخ

فان قيل لِمَ لا يكفي في الترغيب والردع ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات فلا يحتاج الى الوعد والوعيد ؟ ولئن سلمّ فلِمَ لا يجوز أن يكون الغرض من الترغيب والترهيب نظام العالم لأنه يفعل ذلك ولا يلزم منه الكذب على الله . سلمنا أنه يفعل ، لكن لِمَ لا يجوز أن يكون الثواب والعقاب

هو ما يصل الى الانسان في دار الدنيا من الراحات والآلام .

فالجواب : إن العقل وإن كان يدعوالى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوان الى الانهماك في الشهوات الجسمانية ، وإذا حصل هـذا التعارض فلا بد من مرجح وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد على الأعمال ، وتجويز الخلف في ذلك مناف للغرض . وأخذ الاجرة إنما يكون بعد الفراغ من العمل ، والعبد ما دام في الدنيا فهو فى العمل . وقد نرى أزهـد الناس وأعلمهم مبتلى بالآفات والبليات ، وأفسقهم وأجهلهم في أتم اللذات والمسرات .

ومنها أن صريح العقل يوجب في الحكيم أن يفرق بين المحسن والمسيء والمظلوم والظالم ، وأن لا يجعل من كفر به وعصاه كمن آمن به وأطاعه ، وليس هذه التفرقة في الدنيا . كما قيل :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه　　　وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

فلا بد من دار اخرى يظهر فيها التفاوت .

ومنها أنه كلف عبيده بأن يعبدوه ، والحكيم إذا أمر عبده بشيء فلا بد أن يجعله فارغ البال منتظم الأحوال ، حتى يمكنه الاشتغال بأداء تكليفه ، والناس جبلوا على طلب اللذات والتبادر الى تحصيل أسباب الراحات ، فلو لم يكن زاجر من خوف المعاد لوقع الهرج والمرج والفتن وحينئذ لا يتفرغ المكلف لأداء ما أمر به . فان قيل لم لا يكفي في نظام العالم مهابة الملوك وسياستهم .

(قلنا) إن لم يكن السلطان قادراً قاهراً على الرعية فلا فائدة فيه وإن كان قاهراً غالباً ولا خوف له من المعاد فحينئذ يقدم على أنواع الظلم والايذاء لان الداعية النفسانية قائمة ولا وازع له في الدنيا ولا في الآخرة .

ومنها أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق فيه الناس ، والعبث لا يليق بالحكيم الرحيم . فوجب أن يقال أنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير ، وليس ذلك في الدنيا

لأن لذات هذا العالم جثمانية لا حقيقة لها إلا إزالة الالم ، وإزالة الالم أمر عدمي ، وكان هذا حاصلاً قبل الوجود ، فلا يبقى للتخليق فائدة . وأيضاً ان لذات الدنيا مشوبة بالآلام بل اللذة فى الدنيا كالقطرة من البحر . فعلمنا أن للراحة داراً اخرى فان قيل أليس أنه يعذب أهل النار لا لمصلحة ولا فائدة لهم .

(قلنا) الفرق ان ذلك الالم استحقوه على أعمالهم ، وهذا الالم الحاصل فى الدنيا غيرمستحق . فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة . وإلا فينافي أنه أرحم الراحمين

ومنها أنه لو لم يحصل للانسان معاد لكان أخس من جميع الحيوانات لأنها لا تشاركه فى اللذات الحسية ، لان الروث في مذاق الجعل كاللوز في فم الانسان ، والانسان يزيد عليها بعقل وهو سبب تألمه وتأذيه في أغلب الاحوال يتفكر في الأحوال الماضية فيتأسف ويتأمل في الأحوال الآتية فيخاف ، فلو لم يكن للانسان معاد به يكمل حاله وتظهر سعادته كان عقله سبباً لشقائه وخسته دون شرفه ومزيته

ومنها أن ايصال النعم اما أن يكون مشوباً بالآفات أو خالصاً عنها . فلما أنعم الله علينا في الدنيا بالمرتبة الاولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار اخرى إظهاراً لكمال القدرة والرأفة والحكمة . فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين ويزيل الغموم والهموم والآفات والمخافات .

ومما يقوي هذا الكلام أن الانسان دائماً في الترقي من حين كونه جنيناً في بطن امه الى أن يخلص من ذلك السجن ، ويخرج الى فضاء الدنيا ، والى أن ينتقل من تناول اللبن والشد الوثيق في المهد الى تناول الأطعمة اللذيذة والمشي والعدو الى أن يصير أميراً نافذ الحكم على الخلق ، أو عالماً مشرفاً على حقائق الأشياء فوجب بحكم هذا الاستقراء أن يكون حاله بعد الموت أشرف وأبهى من اللذات العاجلة المشوبة بالآلام .

ومنها طريقة الاحتياط ، فاذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له فان كان هذا المذهب حقاً

فقد نجونا وهلك المنكر ، وان كان باطلاً لم يضرنا هذا الاعتقاد . غاية ذلك فوات بعض اللذات الزائلة المشوبة بالمنغصات .

ومنها أن أحوال الانسان من صباه الى هرمه تضاهي حال الأرض من الربيع الى الشتاء . ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود الى تلك الحالة . فلم لا يعقل مثل ذلك في الانسان ؟ .

ومنها أن الانسان إنما يتولد من نطفة تولدت من الأغذية الكامنة في الاجزاء العنصرية المتفرقة في مشارق الارض ومغاربها فاذا مات وتفرقت تلك الاجزاء فكيف يمتنع أن تجتمع مرة اخرى على مثال الاجتماع الاول .

ومنها أن النظر في تغيرات العالم أدى الى إثبات صانع حكيم قادر قاهر ، والعقل يحكم بأن هذا الحكيم لا يليق به أن يترك عبيده هملا يكذبون عليه ويجورون فلا بد من أن يكون له أمر و نهي ووعد ووعيد من غير تجويز خلف فيها كما مر ، ولا يتحقق جميع ذلك إلا في دار الجزاء .

وأما الفريق الآخر الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح فانهم يقولون المعاد أمر جائز الوجود ، لان تعلق النفس بالبدن لما كان في المرة الاولى جائزاً فالمرة الثانية أيضاً جائز .

ثم إن إله العالم قادر مختار عالم بجميع المعلومات الكليات والجزئيات فلا يعجزه تمييز جزء بدن زيد وان اختلط بأجزاء التراب والبخار عن أجزاء بدن عمرو .

وإذا ثبت هذا الامكان وقد دل الدليل على صدق الانبياء عليهم السلام وعلى أن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم إنهم قطعوا بوقوع هذا الممكن والقرآن مشحون بآيات البعث والجزاء فوجب علينا القطع بالمعاد الجسماني .

شبهة المنكرين الأقدمين

اما شبهة المنكرين فمن ذلك أنهم قالوا الدار الآخرة إن كانت شراً من هذه فالتبديل سفه ، وإن كانت مثلها عبث ، وإن كانت خيراً منها فاما أن يقال إله قادر على خلق ذلك الوجود أولاً ثم تركه وفعل الارذل فذلك سفه ، أو يقال أنه ما كان قادراً ثم حدثت له القدرة فذلك انتقال من العجز الى القدرة ومن الجهل الى الحكمة فهو محال على القديم .

والجواب : أن كلاً من الدارين خير في وقتها فالأولى لتحصيل الكمالات النفسانية الممكنة للنوع الانساني من قبيل العلم والعمل ، والاخرى للرحمة والجزاء .

ومن ذلك أنهم قالوا حركات الافلاك مستديرة والمستدير لا ضد له ، وما لا ضد له لا يقبل الفساد .

والجواب : أن كل جسم مركب ، وكل مركب ينحل لا محالة ، ولئن سلمنا انها ازلية فحركاتها غير ازلية ، لأن الحركة عباره عن الانتقال من حال الى حال . وهذه الهيئة تقتضي المسبوقية بالغير ، فكان الجمع بين الازل والحركة محالاً . ولئن سلم أن الحركة ازلية فلمَ لا يجوز أن يكون بعض أوضاع الافلاك مقتضياً لاعادة المعدومات من الاشخاص الانسانية ومن ذلك (أي من شبههم) انهم قالوا « إن الانسان عبارة عن هـذا البدن ذي الاجزاء لا كيف كانت بل بشرط وقوعها على تأليف مخصوص . لأن أجزاء البدن كانت موجودة قبل هذا الانسان ، والموجود مغاير للمعدوم . فاذا مات الانسان وتفرقت أجزاؤه فقد عـدمت تلك الصورة والاعراض ، وعود المعدوم محال .

وأجيب بأن الانسان ليس عبارة عن هذا الجسد ، وإنما هو النفس سواء كانت جوهراً مجرداً مفارقاً أو جسماً مخصوصاً لطيفاً باقياً في جميع أحوال البـدن من الصبا الى الهرم مصوناً عن التحلل والتبدل ، وهو الذي يسميه المتكلمون

الاجزاء الاصلية ومن ذلك أنهم قالوا : إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر لزم بقاء تلك الاجزاء في بدن واحد من الشخصين وذلك محال .

وأجيب بعين ما مرّ : وهي أن الاجزاء الاصلية لا تصير جزءاً من إنسان آخر . انتهى ما نقلناه عن النيسابوري .

ويرى القارىء مما مرّ أنه خلاصة ما استطاع أهل التعبير الوصول اليه في الدلالة على الآخرة وهو مقنع لطائفة معينة من الناس ، ولكنه بالنسبة لطائفة اخرى مما لا يبل غلة ولا يشفي علة لانها لتأثرها بفلسفة العصر الحاضر تتطلب دليلا محسوساً وشاهداً عياناً .

شبهة العصريين على الآخرة

كان القرن التاسع عشرعصر شكوك وإلحاد في الدين والروح والآخرة لانه كان بمثابة رد فعل ضدعصرسبقه كان الناس فيه يعتقدون الاباطيل ويجسمون الخيالات

صاحت الفلسفة الحسية لا فرق بين الانسان والحيوان فكلاهما فرعا شجرة واحدة . وعليه فلا حياة له بعد هذه الحياة ، وكيف يعقل أن تكون حياة اخرى بعد أن ينحل الجسد ويزول تركيبه وتتلاشى صورته ! ! ؟ .

نعم إنكم معشر الاعتقاديين تزعمون أن للانسان روحاً خالدة لا تزول بزوال الجسد ، فهل رأيتم تلك الروح ؟ هل تحققتم من وجودها بالتجربة ؟ أمانحن فقد شرّحنا الاجساد فلم نعثر على شيء من ذلك ، وما كان لنا أن نثبت شيئاً لم نره ولم يقم لنا دليل محسوس على وجوده .

نعم إن الحيوان ليس كالجماد ، فانه يحس ويتحرك ويعقل ويريد ، ولكن ذلك كله مقتضى تركيبه العضوي والانسان في هذا وسائر الحيوانات سواء . فمتى انحل هذا التركيب بطلت الحياة وتلاشى وجود الشخص ومحي من لوح العالم الحيواني . فادعاؤكم معشر الاعتقاديين وجود الروح في الجسد ما هو إلا علالة

تتعللون بها لتبرّروا سلوككم جادة البطالة ولتتعززوا بهذا الخيال في هذا العالم الفاني فاعتقدوا بها أولا تعتقدوا سواء عليكم لقد آن للعالم الانساني أن يطلق هذه الخيالات الطفلية ويدرك حقيقة الوجود على ماهو ، ليعمل مدفوعاً بارادته واختياره لا بخوف عقاب أو رجاء ثواب . فان فاته بفوات هذه العقيدة الامل في الخلود ، فانه يستعيض عنه بما يحصله له اعتقاد الحقائق من قوة الارادة وثبات العزيمة والخضوع للنواميس بنفس مطمئنة .

هذه شبهة العصريين وهي أقوى شبهة يمكن أن تقوم على عقيدة إذ هي تطالب بالحس ، ومجال الحس كما لا يخفى أضيق المجالات بالنسبة للاستدلال على المعقولات . غير أن الخالق الحكيم الذي قال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ . قد حقق وعده فأرسل للناس من طريق الحس آيتين ظلت أعناقهم لها خاضعين وهما : النوم المغناطيسي ، واستحضار الأرواح .

الشرقيون معذورون إذا تعجبوا من قولنا انهما آيتان من آيات الله في هذا العصر ، ويزيدهم عجباً أن في بلادهم كتاّباً شرقيين تصدروا لتعليم الناس إذا سئلوا عن هاتين الآيتين سخروا من السائلين وعدّوهم من الهاذين . والله يشهد انهم لجاهلون .

إن مدهشات النوم المغناطيسي أصبحت اليوم من مقررات العلوم الرسمية ، ومذهب مناجاة الأرواح صار له من الاتباع ما لا يقل عن الاربعين مليوناً وجلهم من العلماء والحكماء ورجال الفضل . وسنريك ذلك تفصيلا في محله من هذا الكتاب

النوم المغناطيسي عبارة عن نوم صناعي يحدثه إنسان على آخر بواسطة اشارات محدودة ووسائل مقررة ، فاذا نام الشخص صار إنساناً جديداً يعلم ما يجول في نفسك وما يخطر في ذهنك وما يحويه جيبك من كتب وخطابات فيقرؤها ولم يرها .

هذه أول درجة . وهناك درجة ثانية يظهر المنوّم فيها أرقى حالا وأكبر

مواهب . فان قلت له لتذهب روحك الى بيت فلان ولتظهر لهم عياناً فعل ، فظهرت روحه لأهل الدار فذعروا منها وظنوها عفريتاً . وكل هذه حقائق ثابتة قررها العلماء في كتبهم .

ومن مدهشات النوم المغناطيسي وهو من أقوى الأدلة على أن الانسان لا ينظر ولا يعقل بجسده بل بروحه . انك لو أنمت جاهلا بحتاً ثم ألقيت عليه أعوص مسائل الفلسفة والرياضيات أجابك عنها بما يجيبك بها أدق عالم فيها .

وقد ذكروا أن جمهوراً من العلماء أناموا فلاحاً عمره ثمانية عشر عاماً فالقوا عليه أعوص مسائل الفزيولوجيا والبكتريولوجيا فأجاب عنها بما لا يحسنه واحد منهم والأغرب من ذلك أنهم ألقوا اليه مسائل رياضية لا يحلها فى العالم إلا أربعة من كبار العلماء أو خمسة ، طلبوا اليه حلها على طريقة « نيوتن » فأجابهم عن الحل فى الحال ولم يعتمد على قلم ولا قرطاس بل ولا جدول « اللوغاريتمات » الضروري في هذه الحال .

لهذا قال العلامة الكبير الاستاذ (شاركو) أكبر أعلام الطب العصبي فى فرنسا : « إن النوم المغناطيسي عالم مدهش ، تجد فيه بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التي تنطبق على علم الفزيولوجيا أشياء اخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد أن يفسرها للآن ولا تنطبق على أي قانون تشريحي) .

وقال عنها العلامة « بيو » في كتابه المذاكرات على المغناطيسي الحيوي : « النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة باخرى لم تزل مكتسية بها » .

وكتب عنها الكاتب الطائر الصيت « جول بوا » فى جريدة الطان الشهيرة في ٣١ يونيو من سنة ١٩٠٥ م يقول : « إن ما حدث من أنواع الشفاء بواسطة التنويم المغناطيسي مما يكاد يعد معجزة ، وما حصل من الفوائد من فن التلقين

بالاستهواء وما يشاهد من مزايا الاعتقاد وثبات الارادة والمحاورات المدهشة بواسطة (التلباتيا) ومسائل الأخبار بالمستقبل وقراءة الافكار وظهور شبح الانسان في مكان بينما يكون هو فى محله لم يتحرك واستخراج القوة الحيوية من الجسد (وقد توصلوا الى رسمها وقياسها) . وما يراه الانسان من الغيوب في النوم والانباء بالامور المستقبلة ، والخوارق الحاصلة من الوسطاء والفقراء الهنود التي هي في أكثر الأحوال صحيحة صادقة . كل هذا يتكوّن منه مجموع عظيم من حوادث ومشاهدات يستحيل على الانسان أن يزدريها أو أن يعبأ بها انتهى .

هذا قليل من كثير من أقاويل العلماء في أمر النوم المغناطيسي والعلوم الانسانية الحديثة ومبلغ دلالتها بالحس على وجود الروح الانسانية . ولكن بعض كتاب الشرق لا يجدون في أنفسهم حرجاً من الازدراء بهذه المسائل ، والسخرية منها وتسميم فطر الناس بتعاليم إلحادية حيوانية فى قوالب فلسفية جامدة .

اما مبلغ تأثير فن مناجاة الأرواح على علماء اوربا من جهة التصديق بالروح والدار الآخرة فما لا تستقل به هذه المادة . والمتتبع يجد في محله من كتب علماء الفن ما ينقع غلته ، ولكنا نجتزىء هنا بالشيء اليسير إدلالاً على مبلغ ذلك التأثير العظيم .

قال العلامة الكبير « وليم كروكس » أحد رؤساء الجمعية العلمية الملكية بـ (لوندرة) في كتاب نشره في إثبات صحة مناجاة الأرواح قال : « وبما أني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الأدبي أن أرفض شهادتي لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علقوه من الأوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » .

وقال العلامة الألماني (كارل دو برل) في مجلة (ذوكنفت) وقد تكلم فى

إثبات مذهب مناجاة الأرواح قال : « إن العلوم الطبيعية قد تجارت على نكران خلود النفس فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع » .

وقال الكاتب الكبير (جبريل دولان) فى كتابه (الظاهرة الروحية) في طبعته الخامسة : « إننا إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة فبنفس اسلوبهم نعلن على رؤوس الاشهاد خلود الروح بعد الموت » .

وكل النظريات المادية تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لاثبات مادية الانسان وعدم روحانيته قد كذبوا أشد التكذيب وظهر ضلالهم بالمشاهدات الحسية الروحية ... الى أن قال : « إن قوة مذهب مناجاة الأرواح وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية البحث لذويه ، فأن كل اصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ولكنها ما وضعت للامتحان إلا خرجت أقوى مما كانت قبلاً » انتهى .

هذا نزر يسير من أمر هذه الآية المدهشة التي أرسلها الله الى اوربا في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولا تزال الى اليوم تفتح الاعين العمي وتكشف القلوب الغلف وتسمع الآذان الصم .

فأين هؤلاء الكتاب الذين يتعاظمون على الرأي العام الشرقي بكلمات نقلوها عن العلم المادي ولم يكملوا معارفهم بما فتحه الله على الناس من هـذه الوجهة المحيية للنفوس المطهرة للقلوب ؟ .

إننا لا نتعرض فى هـذا الفصل لمناقشة هؤلاء العلماء الاوربيين فى أن الذين يناجونهم هم الارواح حقيقة أم أنهم من الجن . ذلك بحث ندعه لفصل الروح . ولكننا نكتفي بأن نقول للقارىء أنه سواء كانت هـذه الارواح أرواح الموتى أو من عالم الجن فقد حصل ما نرجوه من الدليل على وجود عالم وراء هـذا العالم ، وأن المادة ليست شرطاً في قيام الحياة .

ولم يبق علينا بعد هذا كله إلا أن نثبت للقراء أن الذين يبحثون في هذه الخوارق هم رجال النهضة الاوربية وأراكين العلم فيها ، لا كما يدعيه ملحدوا الكتاب الشرقيين أنهم من المخرقين .

فقد روت مجلة المجلات الفرنسية الصادرة في سنة ١٨٩٥ م نقلا عن كتاب الاستاذ (روسل ولاس) : « إن عدد اشياع هذا المذهب بلغ عشرين مليوناً . ثم أضافت المجلة الى ذلك قولها : ولنصف الى هذا صفة اشياع هذا المذهب فهم إما علماء أو أساتذة فى الصناعة أو أطباء أو مهندسون . ثم قالت : ولا يصح أن نفرض أن هؤلاء الرجال يستعملون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي أثرت كثيراً على كرامة المباحث الروحية ، كما انه من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر ». انتهى كلام المجلة الفرنسوية

ولقد ذكرنا الاستاذ (روسل ولاس) في هذا الفصل فوجب أن نعرّفه للقراء بأنه أكبر علماء (الفزيولوجيا) فى انكلترا ، وقد اكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي الذي هو أحد أركان مذهب (داروين) ، وقد بحث في مذهب مناجاة الأرواح بروح علمية دقيقة سنين عديدة ، ثم ألف كتاباً أودعه مشاهداته العلمية أسماه (معجزات العصر الحاضر) قال في مقدمته : « لقد كنت مادياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقناع ولم يكن فى ذهني أدنى محل للتصديق بحياة روحية ، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رأيت أن المشاهدات الحسية لا تغالب ، فانها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها اشياء مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها الى الأرواح بمدة طويلة . ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بوسيلة اخرى : (أي بغير نسبتها الى أرواح الموتى) . انتهى كلامه .

نقول إذا تقرر هذا فقد قام الدليل الحسي فى هذا العهد على وجود الروح وعلى الحياة الآخرة ، وكان هذا الحال مصداقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » «١» .

علم استحضار أرواح الموتى

يقول اشياعه إن الحدالفاصل بين الأحياء والأموات ليس على ما يظنه الناس من الخطورة . فان الموت ليس فى ذاته إلا انتقالا من حال مادي جسدي الى حال مادي آخر ولكن أرق منه وألطف بكثير . فانهم يعتقدون ان للروح جسماً مادياً شفافاً لطيفاً ألطف من هذه المادة كثيراً ولذلك لا تسري عليه قوانينها .

ويقولون : إن الموتى بعدالموت مباشرة يكونون في عالمنا هذا بين أيدينا وعن إيماننا وشمائلنا ولا يزالون كذلك مدة تختلف باختلاف درجاتهم الروحية ، ثم ينتقلون الى حال أرقى من هذا وإن كانوا لا يبرحون العالم ، فان العوالم في نظرهم اختلاف حالات ومقامات لا اختلاف جهات ومكانات .

ويقولون : إن الروح وهي فى حالها الأول بعد خروجها من الجسد يمكن مكالمتها بل ورؤيتها مجسمة بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لأن يقع فى خدر عام عند إرادته تحضير الروح فتستفيد الروح من استعداده فيكلم الناس بفمه بلغات يجهلها كل الجهل ، وتنبيء عن امور للحاضرين من أقاربها وخاصتها لا يدري الواسطة منها شيئاً بل وتكشف من أسرار العلم والفلسفة والرياضيات العويصة ما يجهله الواسطة والسامع ولا يدركه من الناس إلا نفر يسير . وقد تستولي على يده فتكتب وعينه مغمضة صحفاً ورسائل . وقد تظهر بجسم مادي محسوس بينما يكون الواسطة ملقى أمام المجربين مكتوفاً على كرسيه .

«١» سورة فصلت الآية ٥٣ .

وسبب ربطه هكذا إن الذين يبحثون في هـذه الامور المدهشة من العلماء ملحدون ماديون لا يعتقدون بشيء لأجل أن يثقوا من صدق مشاهداتهم التي تهدم لهم كل مقررات فلسفتهم لا يرضون في حالة تجسدّ الروح إلا أن تكون الغرفة مغلقة والفرش مفتشة والواسطة موثقاً على كرسيه بأربطة متينة مسمرة أطرافها بالأرض ، ولا يكتفون بذلك أيضاً بل منهم من وضعه فى قفص حديدي ووضع كرسيه على سطح مائي وأوصل بيده سلكاً كهربائياً متصلا (بجلوانومتر) ليسجل عليه كل حركة وكل نفس ، ولم يكتف بذلك بل أرصد له من يراقبه من اخوانه العلماء ، ورغماً عن ذلك كله تظهر الروح مجسمة تبتدىء أولا بشكل سحابة منيرة ثم تأخذ فى التشكل شيئاً فشيئاً حتى تصيرعلى شكل إنسان منير . ثم تتكاثف حتى تصير دماً ولحماً وعظماً أمام أعينهم فتقف أمامهم وتطوف حولهم عالية بقدميها عن الارض قليلا لابسة هيئة عربية بدوية متمثلة بشراً سويا . ولكن شوهد أن جسمها يكون ليناً لدرجة أن الانسان لو ضغط يدها بين أصبعيه تنبعج بينهما حتى يتلاقيا كانها عجين ذو قوام متماسك ، لكن شوهد أن لها نبضاً وقلباً وتنفساً وكل ما للجسم الحي .

فلما نسأل أنى لها هـذا الجسد ؟ تقول إنها استعارته من الواسطة ، وفي الواقع إذا وزنت الواسطة وجـد أن جسمها قد نقص نصف وزنه وقد شوهد أن الجزء الأسفل من الواسطة تلاشى بالمرة وصار لا وجود له فلما ذهبت الروح عاداليها

هذه الامور جربت في كل عاصمة وتولى شأنها العلماء الأعلام من كل قبيل فلم تزدد على مرّ الأيام إلا انتشاراً وثبوتاً . وقد بلغ عـدد اشياعها كما روته مجلة المجلات الفرنسية نقلاً عن الاستاذ (روسل ولاس) أكبر (الفزيولوجيين) الانكليز الى عشرين مليوناً قالت المجلة : « ولنضف الى هذا صفة اشياع هذا المذهب فهم إما علماء أو أساتذة فنيون أو أطباء أو مهندسون » . ثم قالت : « لا يصح أن نفرض أن هؤلاء الرجال يتذرعون بالغش والتدليس لانجاح الخرافات التي أثرت

كثيراً على سمعة المباحث الروحية ، كما أن من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم فى التجارب العلمية أشهر من أن تذكر » . انتهى .

لما انتشر هذا المذهب بين علماء اوربا تألفت سنة ١٨٦٩ م جمعية من أكابر علماء (لوندرة) لفحص هذه الخوارق فحصاً دقيقاً علمياً ، وكانت هذه الجمعية مؤلفة من العلامة (جون لبوك) وهواللورد افبري رئيساً لها ، ومن « كروكس » أكبر علماء انكلترا الطبيعيين و « لويس » الفزيولوجي الشهير وكيلين لها ، ومن الفريد « روسل ولاس » الفزيولوجي الكبير ومكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وهو ندّ « داروين » ومن « دومرجان » رئيس الجمعية الرياضية ، و « فارلي » رئيس مهندسي قومبانيات التلغراف ، و(جان كوكس) الاصولي الفيلسوف ، و(اكسون) استاذ فى كلية اكسفورد . . . الخ

فلما تكونت هذه الجمعية أشرأب الناس من سائر أقطار الأرض لسماع حكمها الفصل الذي لا يقبل استئنافاً ، فاستمرت في البحث المتواصل ثمانية عشر شهراً وكانت النتيجة تأكيدها صحة تلك المشاهدات الخارقة للعادة وكتبت بذلك تقريراً مطولا منه هذه الجملة .

« إن الجمعية اقتصرت فى تقريرها على المشاهدات التي رآها كل الأعضاء ابتدأوا البحث وهم في أشد درجات الجحد لهذه الأشياء ومعتقدون قلباً وقالباً انها ليست إلا نتيجة الغش أو الوهم أو بالأقل نتيجة عمل اضطراري للأعصاب ، ولكن بعد أن وضحت لهم هذه الحوادث وضوحاً تاماً في شروط نفت كل تلك الفروض وبعد تجارب دقيقة جداً تكررت مراراً لم ير هؤلاء الأعضاء المنكرون بداً من اعتقاد هذه الخوارق حقيقية رغم أنوفهم » . انتهى .

هنا يحسن بنا أن نعطي جدولاً من أسماء مشاهير رجال العلم الذين يعتقدون بهذه الخوارق ممن لا يستطيع أحد جحود فضلهم وإنا نستخرج هذا الجدول كما يجيء لا باستقصاء فان الاستقصاء يوصلنا الى ذكر الالوف فاليك :

من علماء انكلترا

١ ـ دومرجان
٢ ـ وليم كروكس
٣ ـ لودج
٤ ـ ميرس
٥ ـ فارلي
٦ ـ اكسن
٧ ـ تشامبرس
٨ ـ هودسن
٩ ـ موزس
١٠ ـ بلغور
١١ ـ روسل ولاس
١٢ ـ باريت
١٣ ـ جون لبوك
١٤ ـ لويس
١٥ ـ جون كوكس
١٦ ـ جوسكستون
١٧ ـ جوجللي
١٨ ـ باركس . . . الخ

من علماء فرنسا

١٩ ـ دكتور دوزار
٢٠ ـ موتنييه

٢١ ـ كاميل فلا مريون

٢٢ ـ اولفييه

٢٣ ـ ساردو

٢٤ ـ جول بواه

٢٥ ـ اوجين تو

٢٦ ـ دوروشاس

٢٧ ـ داريبكس

٢٨ ـ ريشيه

٢٩ ـ شارل فوفتى

٣٠ ـ جان فينو

٣١ ـ فيكتوهوجو

٣٢ ـ جريمار . . . الخ

من علماء امريكا

٣٣ ـ مايس

٣٤ ـ هارس

٣٥ ـ اليوت

٣٦ ـ ادمون

٣٧ ـ هيزلوب . . . الخ

من علماء ألمانيا

٣٨ ـ زولز

٣٩ ـ فيشنز

٤٠ ـ اولتريسي

٤١ ـ ونير
٤٢ ـ سبنسر
٤٣ ـ وندت . . . الخ

من علماء إيطاليا

٤٤ ـ لومبروزو
٤٥ ـ كيايا
٤٦ ـ مورسلي
٤٧ ـ كيابارلي . . . الخ

ابتداء اكتشاف هذا العلم كان سنة ١٨٤٦ م وذلك أنه كان رجل اسمه « فيكمان » ساكناً في قرية « هيدسفيل » من مقاطعة نيويورك بامريكا فسمع ذات ليلة طرقات متعددة على أرض بيته فذهب ليكتشف الفاعل فأعيته الحيلة فصبر على مضض . ولكنه قام ذات ليلة مذعوراً من صراخ ابنة صغيرة له فسألها عما نابها فزعمت بانها أحست بيد مرت على جسدها وهي في سريرها ، فلم ير الرجل بداً من هجر منزله فخلفه فيه رجل متنور يقال له « جون فوكس » فحصل لأسرته ما حصل لسابقتها من الأصوات التي لا تجعل للنوم مساغاً الى الجفون . فكانت مدام فوكس تنادي جيرانها وتستعين بهم في البحث عن الفاعل فلم يهتدوا اليه فتجاسرت هذه المرأة ليلة وقالت لذلك الطارق : أحدث عشر طرقات ، ففعل ، فقالت له : كم عمر ابنتي « كاترينه ؟ » فطرق طرقات على قدر عدد سني عمرها ، ثم قالت له : إن كنت روحاً فاحدث طرقتين ففعل ، ثم قالت : إن كنت اوذيت من شيء فاحدث طرقتين أيضاً فاحدثهما . ولم تزل به هذه المرأة حتى علمت بواسطة الطرق انها روح رجل كان ساكناً في ذلك البيت فقتله جاره ليسرق ماله ودفنه فيه .

فلم يسع « مدام فوكس » إلا استحضار الجيران واستجواب الروح أمامهم فأجابت بما جعلهم دهشين مقتنعين في آن واحد . فكان الحال كما اخبرت الروح

وضبطت الحكومة الواقعة وأجرتها مجراها القانوني ، فشاع أمر هذه الحادثة في كل اصقاع امريكا وكثر ظهور مثلها فى كل جهة ، لأن أمثالها كان يظهر في كل حين فلا يلتفت له أحد ، فكلف الخاصة بالتدقيق فيها علمياً وعملياً . بحثها القانوني الشهير (ادموندس) الذي كان رئيس مجلس الأعيان فى الولايات المتحدة فاعتقد صحتها وألف فيها كتاباً ضخماً سنة ١٨٦٥ م وتبعه الاستاذ (مابس) استاذ الكيمياء فى المجمع العلمي الامريكي فنسب حصولها لأرواح الموتى ، ولكن الأمر الذي أحدث الدوي الكبير هو اعتقاد الاستاذ الشهير (روبيرهار) بهذا المذهب وتأليفه فيه كتاباً سماه (الابحاث التجريبية على الظواهر الروحية) .

نشب القتال من ذلك اليوم بين المصدقين والمكذبين ولم يبق عالم ولا كاتب ولا كاهن إلا وألقى بنفسه في تلك المعمعة العلمية . فانتقل المذهب من امريكا الى انكلترا وصادف فيها نصراء من الطبقة العليا ولكن بعد قتال عنيف ولم يمتنع أكابر العلماء من الدخول فيه مقتدين بالاستاذ الطائر الصيت أحـــد رؤساء الجمعية الملكية الانجليزية (كروكس) حيث يقول فى كتابه (الابحاث على الحوادث النفسية) .

« وبما أني متحقق من صحة هـذه الحوادث فمن الجبن الأدبي أن أرفض شهادتي لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علقوه من الأوهام أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » . انتهى .

أخذ هذا المذهب من ذلك الحين فى الانتشار حتى وصل الى ما هو عليه الآن له ملايين من المعضدين وأكثر من ٢٠٠ مجلة تدافع عنه وتنشره ، وقد طعن مذهب الماديين طعنة لا برء له منها الى يوم الدين .

كان علماء المادة يصيحون في وجوه المتدينين انكم ضالون مفتونون تعتقدون الأوهام والظنون وتتعبدون أنفسكم لما وضعه الأقدمون وسطره منهم المخرقون

ما الروح ما الخلود ما الملائكة .ما الجن ما الحساب ما العقاب . كل هذه توليدات الخيال وتزيينات الاماني .

والحقيقة ألاّ وجود لغير المادة ولا بقاء للانسان إلا فى هذا العالم ولا روح له إلا مثل ما للحيوان ، ولا حساب عليه إلا مثل ما يؤاخذه به القانون والرأي العام ، ولا مكافاة إلا ما يناله من حسن سيرته بين اخوانه الارضيين . وإلا فهل لديكم دليل محسوس على وجود الروح وهل رأيتم عالم ما وراء الطبيعة ؟ .

كان علماء المادة في اوربا يصيحون صيحات مزعجة بأمثال هذه الجمل وكتبهم شاهدة بما نقول فلم يكادوا يرددونها قليلاً ويفرحون بما هم فيه من السلطة المادية حتى غشيهم من قبل حسهم ماغشيهم فظهرت هذه الآيات تثبت لهم بالحس أن لهم روحا وأن هنالك عالماً آخر ، وأن المادة ومظاهرها ليست إلا غلافاً غليظاً لعالم نوراني بديع باهر ، فكان الحال كما يقول العلامة الألماني الشهير (كارل دوبرل) فى مجلة (ذو كنفت) قال : « ان العلوم الطبيعية قد تجرّأت على نكران خلود النفس فعاقبها الله بان حكم عليها بأن تكون هي نفسها التي تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع ».

هذا المذهب آخذ على عهدته إثبات وجود الروح بالبرهان المحسوس في عصر لا يصدق بنوه إلا ما يرونه بأعينهم ، فما عذر الكافر فيه الذي يكذب ويشدّد النكير على المعتقدين ؟ إلا أن يكون من الجمود وخمود الحرارة الانسانية بالدرك الاسفل

أما الذين يودون الجمود مع نظريات الملحدين البائدين بعد ما ظهر في عالم العلم ما يؤيد الحق وينصره بالاسلوب العصري البالغ حد الدقة والمهارة فهم في غي ليس بعده غي نعوذ بالله من فتنة الطين الاصم .

إليك في هذا الشأن ما كتبه الكاتب « ج دولن » في كتابه « الحادثة الروحية » في طبعته الخامسة . وفيها من كسر أسلحة الماديين وإحالتهم للتسليم مافيها قال في صفحة ٢٨٣ منه : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا

براهين الفلاسفة الملبين قائلين لهم إنها ليست على اسلوب يوصل الى حقيقة ولكن باتباع اسلوب الروحيين لا يخشى من الماديين العود الى مثل هذا الرفض . فانا لا نقول للناس يجب عليكم أن تعتقدوا ما افيض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرأوا وجربوا وابحثوا كلما يؤكد لكم صحة الحوادث التي ظهر نورها للناس أجمعين وكونوا بحاثين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة إلا إذا استطعتم أن تكرروها بأنفسكم كثيراً وفي شروط مختلفة .

وبالاختصار نقول لكم : تقدموا والحذر ملاء أفئدتكم في سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لان الذي يجشم نفسه بناء اصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال متى درست حادثة من تلك الحوادث تجدها تحدثك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار خطورتها .

أليست هذه الطريقة هي اسلوب الفلسفة العلمية عينها ؟ بماذا يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال « روبيرهارس » والاستاذ « مابس » والمستر « اكسون » ؟ .

إننا إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لارغامهم على الهزيمة ، فبنفس اسلوبهم نعلن على رؤوس الاشهاد خلود الروح بعد الموت .

« كل النظريات المادية تزعم أن الانسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لاثبات مادية الانسان وعدم روحانيته قد كذبوا أشد التكذيب وبان ضلالهم بالمشاهدات الحسية الروحية . . . الخ الى أن قال : إن قوة علم استحضار أرواح الموتى وسيطرته على العقول آتية اليه من تركه حرية البحث لذويه ، فان اصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ولكنها ماوضعت للامتحان مرة إلا خرجت أقوى مما كانت قبلا » . انتهى .

نقول : جمهور العلماء المشتغلين بهذه المباحث مجمعون على صحة الحوادث الروحية ومعتقدون انها آتية على موجب نواميس أرقى من عالم المادة وان منتجها عقل اسمى من عقل الانسان ولكنهم مختلفون فى جنس تلك العوامل العاقلة فمال الأكثرون الى تصديقها في التأكيد انها أرواح الموتى بعد ما رأوا من الأدلة على ذلك ما يعد بالالوف وهم بعد أن رأوا ظهور الروح مجسدة بشكل الميت وهيئته وصورته وكيفية تحيته واسلوبه فى كلامه وعلمه تمام العلم بحالة اسرته وجزئياتها بل وتذكيره لأهله أشياء كانت غائبة عن ذاكرتهم . بعد أن رأوا هذا سلموا بأن تلك الأرواح التي تجسدت هي أرواح الموتى حقيقة .

وأما القسم الثاني فقد اعتقد كما قلنا ظهور تلك الأجساد حقيقة ولكن علق حكمه عليها من حيث انها أرواح الموتى أو أشخاص عالم آخر . وما يعلم جنود ربك إلا هو . ونحن مع هذا القسم نعلق حكمنا عليها حتى نزداد بها علماً . والله يهدينا الى سواء السبيل .

إنما الأمر الذي لا مرية فيه هو أن هذه المباحث قد أقامت أقوى الأدلة المحسوسة على بطلان قول الماديين ومن بقي منهم بعد الآن فسلاحه مغلول وعلمه مدخول ولا يعبأ بقوله إلا ضعفاء العقول ؟



وليكن هذا آخر الجزء الاول . ويتلوه الثاني
إنشاء الله تعالى ونسأل الله التوفيق
الى الهدى والسداد والصلاح
لنا ولجميع البشر . والحمد لله
أولاً وآخراً وله
المجد والعظمة

محتويات الكتاب

الاستهلال

الاهداء . كلمة المؤلف

تقديم الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع　　الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصحيفة